السلسلة التربوية المعاصرة

الذات والآخر فى الشرق والغرب

صور ودلالات وإشكاليات

تأليف
د. حسن شحاتة

دار العالم العربي
DAR AL-AALM AL-ARABI

الذات والآخر فى الشرق والغرب

صور ودلالات وإشكاليات

© دار العالم العربي
19 شارع امتداد رمسيس - القاهرة
تليفاكس: 22616130
e-mail :af_madkour@yahoo.com
تجهيزات فنية: الإســراء - تليفون: 33143632
رقم الإيداع: 23641 / 2007

الطبعة الأولى: المحرم 1429 هـ - يناير 2008 م .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾

[سورة الحجرات: 13]

هدايات

- الجواهر الكريمة لا يصنعها أحد، بل يبحث عنها الجميع.. غير أن هناك أشياء لا تشترى.
- أى شخصين يمكنهما النظر إلى شيء واحد، لكن كل منهما يرى فى الشيء ما يعجبه، والناس كلهم أذكياء ومحترمون.
- العمر لا يحسب بعدد السنين ولكن يحسب بعدد التجارب وعدد الدروس التى نتعلمها.
- الدافع إلى الصداقة الرغبة فى تحقيق سمو الذات وكمالها من خلال الآخر، وصداقة الفضيلة لا تمنع تحقيق المنفعة والمتعة.
- إننى مسئول أمام الله ثم ضميرى عن كل تصرفاتى وأفعالى وأقوالي، ومن حقى أن أغضب ولكن ليس من حقى أن أجرح الآخرين، فالمواطنون لو تعلقوا برباط الصداقة لما احتاجوا إلى العدالة.
- إن لدى دائمًا شيئًا أعطيه للآخرين، فإن جاء إلىّ صديق محتاج سوف أجد القوة كى أساعده.
- إننى لو فكرت فى أننى راسب ومهزوم، فأنا راسب ومهزوم.. ولو فكرت أننى ناجح وفائز، فأنا ناجح وفائز، لقد خلقت لتصغر فى عينى العظائم.
- عرفت حروف الهجاء من الألف إلى الياء لكن علىّ أن أعرف ماذا بعد الياء ؟

المؤلف

تقديم

أ.د. حسن شحاته
أستاذ المناهج بكلية التربية جامعة عين شمس
وعضو المجالس القومية المتخصصة
ومدير مركز تطوير التعليم الجامعى الأسبق

ليس لصاحب وطن من الأوطان، أو صاحب دين من الأديان، أن يقول لغيره ممن يسكن وطنا غير وطنه، أو يدين بدين غير دينه، أنا غيرك، فيجب أن أكون عدوك، وأن الإنسانية وحدة لا تكثر فيها ولا غيرية، ولأن هذه الفروق التى توجد بين الناس فى آرائهم ومذاهبهم ومواطن إقامتهم، وألوان أجسادهم، وأطوالهم وأعراضهم إنما هى اعتبارات ومصطلحات، أو مصادفات واتفاقات، تعرض لجوهر الإنسانية بعد تكوينه، واستتمام خلقه، وتتوارد عليه توارد الأعراض على الأجسام، ففى كل بلد، وفى كل عصر، يستعجم العربى، ويستعرب الأعجمى، ويلحد المؤمن، ويؤمن الجاحد، ويستشرق المغربى، ويستغرب المشرقى. ولو شئت أن أقول لقلت إنه لا يوجد فوق رقعة الأرض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلة ينتهى طرفها الآخر بوطن غير وطنه، ودين غير دينه، وأمة غير أمته.

إذا جاز لكل إقليم أن يتنكر لغيره من الأقاليم، جاز لكل بلد أن يتنكر لغيره من البلاد، بل جاز لكل بيت أن ينظر تلك النظرة الشزراء إلى بيت يجاوره، بل جاز

للأب أن يقول لولده، وللوالد أن يقول لأبيه: إليك عنى، ولا تمد عينيك إلى شيء مما فى يدى، ولا تطمع أن أؤثرك على نفسى بشيء مما اختصصتها به. لأننى غيرك، فيجب أن أكون عدوك المحارب لك، وهنالك تنحل كل عقدة وتنفصم كل عروة، ويحمل كل إنسان لأخيه بين أضلاعه من لواعج البغض والمقت ما يرنق عيشه، ويطيل سهده، ويقلق مضجعه، ويحبب إليه صورة الموت، ويبغض إليه وجه الحياة.

الجامعة الإنسانية أقرب الجامعات إلى قلب الإنسان، وأعلقها بفؤاده، وألصقها بنفسه لأنه يبكى لمصاب من لا يعرف، ولأنه لا يرى غريقًا يتخبط فى الماء، أو حريقًا يتلظى فى النار حتى تحدثه نفسه بالمخاطرة فى سبيله، فيقف وقفة الحزين المتلهف إن كان ضعيفًا، ويندفع اندفاع الشجاع المستقبل إن كان قويًا، ويسمع وهو بالمشرق حديث النكبات بالمغرب فيخفق قلبه، وتطير نفسه لأنه يعلم أن أولئك المنكوبين إخوانه فى الإنسانية، وإن لم يكن بينه وبينهم صلة فى أمر سواها، ولولا أن ستارًا من الجهل والعصبية يسلبه كل يوم غلاة الوطنية والدين أو تجارهما على قلوب الضعفاء السذج لما عاش منكوب فى هذه الحياة بلا مزاحم، ولا عاش ضعيف على الأرض بلا معين.

وهذا الكتاب صورة صادقة أمينة ومخلصة للأخوة الإنسانية فى عصر توحش العولمة والتقنيات الفتاكة، يقع فى فصول ستة، بدأت بمقدمات ومفاهيم أساسية تتحدث عن الآخر ـ الأخ ـ الخلفيات والتداعيات، ونظريات الذات، والصورة النمطية المغلوطة عن الآخر، والإسلاموفوبيا والتشويه المنهجى للإسلام. وانتقل الكتاب إلى الفصل الثانى ليعرض فكرًا جديدًا حول تعميق الذات الثقافية فى إطار كلنا أخوة فى الإنسانية، وأن المختلفين معنا فى الدين مواطنون لا أقليات، وأن ميراثنا وثقافتنا تشكل هويتنا، وأن السلام قوامه العدل والحرية. ورسم الفصل الثالث الطريق إلى قبول الآخر، وتحدث عن: مَنْ يرسم صورة للآخر؟ والثقافة طريق السلام، واعرف نفسك، وبناء الإنسان لثقافة السلام. وأوضح الفصل الرابع

أن تقدم الإنسانية للعيش معًا، فأبان أن الإسلام دين تعايش، وأن التفاهم أساس السلام، وأن الفجوة والجفوة لا تصنع السلام. وأكد الفصل الخامس على أن الإنسانية تتطلب حوارًا لا مواجهة، وشرح أصول ثقافة الحوار مع الآخر، وأن ما يتبقى هو الانتقال من حوار النخب إلى حوارات الشعوب، وأن مستقبل الحوار مرهون بمستقبلنا، وأن الحوار حوار مع الأخ لا مع الآخر. وانتهى الكتاب بفصل أساسى فى التربية والتعليم وهو أن التربية المدنية مطلب حضارى، وأوضح أن التربية المدنية هى الحل، وأن المدرسة معنية بثقافة حقوق الإنسان، وأن مسئوليتنا الحضارية تتحدد فى بناء عالم جديد. إنه جهد ونضال مستمر من أجل أنسنة الإنسان، ونشر ثقافة السلام بين الإنسان وأخيه الإنسان من أجل أمة إنسانية واحدة.

وبالله التوفيق

المؤلف

محتويات الكتاب

الفصل الأول

مقدمات ومفاهيم أساسية

أولاً :الآخر: الخلفيات والتداعيات.

ثانيًا: نظريات الذات، مناقشات وتفسيرات.

ثالثًا: الصورة النمطية بين الشرق والغرب.

رابعًا: الإسلاموفوبيا والتشويه المنهجى للإسلام.

مقدمات ومفاهيم أساسية

أولاً- الآخر: الخلفيات والتداعيات:

يتخذ مفهوم الغير فى التمثل الشائع معنى تنحصر دلالته فى الآخر المتميز عن الأنا الفردية أو الجماعية. وتكون أسباب هذا التميز إما مادية جسمية، وإما عرقية أو حضارية أو فروقًا اجتماعية أو طبقية. ومن هذا المنطلق، ندرك أن مفهوم الغير فى الاصطلاح الشائع يتحدد بالسلب، لأنه يشير إلى ذلك الغير الذى يختلف عن الذات ويتميز عنها، ومن ثمة يمكن أن تتخذ منه الذات مواقف، بعضها إيجابى كالتآخى، والصداقة، وأخرى سلبية كاللامبالاة، والعداء، وهكذا يتضح أن معنى الغير والآخر واحد فى التمثل الشائع. وهذا ما يتيح فرصة استباق هذا المفهوم فى دلالته المعجمية. ففى الدلالة المعجمية العربية، يظهر أن مفهوم الغير مشتق من كلمة غير التى تستعمل عادة للاستثناء بمعنى سوى، ومن ثَمَّ يتخذ مفهوم الغير معنى التميز والاختلاف، كما يلاحظ ترادف بين معنيى الغير والآخر. أما فى الدلالة المعجمية الفرنسية، يلاحظ بعض التمييز بين مصطلحى الغير Autrui والآخر L'autre ، حيث يتخذ مفهوم الآخر معنى أوسع يفيد كل ما يختلف عن الموضوع والذات، فيشمل الاختلاف كذلك مستوى الأشياء .. أما مفهوم الغير، فهو تضييق لمعنى الآخر، حيث يحصره فى مجال الإنسان فقط، ويقصد به الناس الآخرين. أما على مستوى الدلالة الفلسفية، فنجد التنوع والاختلاف فى تحديد مفهوم الغير. فإذا حددنا الأنا فلسفيًا باعتبارها ذاتا مفكرة أو أخلاقية، فإن مفهوم الغير يكتسى أبعادًا

متنوعة يمكن حصرها فى المماثلة أو الاختلاف. فقد نجد كانط يماثل بين الأنا والغير، باعتبار الوجود الإنسانى وجودًا يتسم بالحرية والإرادة. أو يمكن أن يكون الغير أنا أخرى ليست أناى الفردية، كما يرى سارتر، أو يمكن أن يكون الغير مقابلًا للهوهو كما هو الأمر عند أرسطو خصوصًا واليونان على وجه التعميم.

إن هذا التنوع الدلالى هو الذى يفتح أمامنا فرصة بناء الإشكالية العامة، والتى يمكن ترجمتها من خلال التساؤلات التالية: كيف يتحدد وجود الغير بالنسبة للأنا؟، وكيف تمكن معرفة الغير؟، وما طبيعة العلاقة التى يمكن أن تجمع الأنا بالغير؟.

ويرجع تأسيس مفهوم الغير، فى صورته الأولية، إلى الفلسفة اليونانية التى كانت فلسفة يغلب عليها الطابع الأنطولوجى فى تحديد مفهوم الغير .. فكان مفهوم الهوهو هو المعيار المسيطر على الفكر اليونانى فى تحديد كل كينونة أو تميزها عن غيرها، وسيصوغ أرسطو هذا المفهوم صياغة منطقية فى شكل مبدأ الهوية (أو الذاتية). ومعنى ذلك: إما أن يكون الشىء هو هو، وإما أن يكون مخالفًا لذلك. فهو بالنسبة إلى كينونته هو هو، وبالقياس إلى الغير مخالف له .. وهذا يفسر قيام الفلسفة اليونانية على كثير من التقابلات. ولما كان الفكر الفلسفى اليونانى يقوم على نوع من النزعة القومية (اليونان فى مقابل الشعوب الأخرى)؛ فإن إشكالية الغير كأنا متميزة عن الأنا الفردية لم تظهر إلا مع الفلسفة الحديثة. فكان ديكارت أول فيلسوف حاول إقامة مفارقة بين الأنا الفردية الواعية وبين الغير؛ حيث أراد ديكارت لنفسه أن يعيش عزلة رافضًا كل استعانة بالغير فى أثناء عملية الشك. فرفض الموروث من المعارف، واعتمد على إمكاناته الذاتية، لأنه يريد أن يصل إلى ذلك اليقين العقلى الذى يتصف بالبداهة والوضوح والتميز .. فوجود الغير فى إدراك الحقيقة ليس وجودًا ضروريًا، ومن ثمة يمكن أن نقول: إن تجربة الشك التى عاشها ديكارت تمت من خلال إقصاء الغير .. والاعتراف بالغير لا يأتى إلا من خلال قوة الحكم العقلى حيث يكون وجود الغير وجودًا استدلاليًا .. وهذا ما يجعل البعض يعتقد أن

التصور الديكارتى يقترب من مذهب الأنا. وقد تجاوز هيجل هذا الشعور السلبى بوجود الغير، لأنه رأى أن الذات حينما تنغمس فى الحياة لا يكون وعيها وعيًا للذات، وإنما نظر إلى الذات باعتبارها عضوية. فوعى الذات لنفسها – فى اعتقاد هيجل – يكون من خلال اعتراف الغير بها. وهذه عملية مزدوجة، وتستمر العلاقة بينهما فى إطار جدلية العبد والسيد. هكذا يكون وجود الغير بالنسبة إلى الذات وجودًا ضروريًا. إن ما سبق يظهر التناقض الحاصل بين التمثيلين الديكارتى والهيجلى، ففى الوقت الذى يقصى فيه ديكارت وجود الغير، يعتبره هيجل وجودًا ضروريًا. وهذا يتولد عنه السؤال التالي: هل معرفة الغير ممكنة؟ وكيف تتم معرفته؟

إن المعرفة تشكل علاقة بين طرفين، أحدهما يمثل الذات العارفة والآخر يمثل موضوع المعرفة. إن هذا ما يدفعنا إلى طرح التساؤل التالي: هل نعرف الغير بوصفه ذاتًا أم موضوعًا؟ الغير فى اعتقاد سارتر "هو ذلك الذى ليس هو أنا، ولست أنا هو". وفى حالة وجود علاقة عدمية بين الأنا والغير، فإنه لا يمكنه "أن يؤثر فى كينونتى بكينونته"، وفى هذه الحالة ستكون معرفة الغير غير ممكنة. لكن بمجرد الدخول فى علاقة معرفية مع الغير معناه تحويله إلى موضوع. أى أننا ننظر إليه كشيء خارج عن ذواتنا ونسلب منه جميع معانى الوعى والحرية والإرادة والمسؤولية. وهذه العلاقة متبادلة بين الأنا والغير: فحين أدخل فى مجال إدراك الآخر، فإن نظرته إلىّ تقيدنى وتحد من حريتى وتلقائيتى، لأننى أنظر إلى نفسى نظرة الآخر إلى.. إن نظرة الغير إلى تشيننى، كما تشينه نظرتى إليه. هكذا تبدو كينونة الغير متعالية عن مجال إدراكنا ما دامت معرفتنا للغير معرفة انطباعية حسية.

إن هذه أطروحة لا يتفق معها آخرون حيث "إن نظرة الغير لا تحولنى إلى موضوع، كما لا تحوله نظرتى إلى موضوع"، إلا فى حالة واحدة وهى أن ينغلق كل واحد على ذاته وتأملاته الفردية. مع العلم أن هذا الحاجز يمكن تكسيره بالتواصل، فبمجرد أن تدخل الذات فى التواصل مع الغير حتى تكف ذات الغير عن التعالى

عن الأنا، ويزول بذلك العائق الذى يعطى للغير صورة عالم يستعصى بلوغه. إلا أن هذا ليس هو تمثل المدرسة الشعورية التى تعتقد أن الغير يظل حياة نفسية باطنية يستعصى بلوغها دون منهج الاستبطان. إن المشاركة الوجدانية للغير والحزن لحزنه أو الفرح لفرحه لا تكفى وحدها للشعور بما يشعر به ... فبدون إرادة من الغير للإفصاح عن ذاته بكل صدق وأمانة تكون معرفته غير ممكنة. أما المدرسة اللاشعورية فترى أن هذه الرغبة الصادقة وحدها لا تكفى، لأن الأنا تجهل جانبًا مهمًا من حياتها النفسية (أى خبايا اللاشعور)، والوصول إلى مكامن النفس الخفية هذه يكون مستحيلاً دون اللجوء إلى التحليل النفسى (الحاجة إلى الغير).

إن هذين التصورين لا يحظيان بالإجماع، لأن هناك من يرى أن معرفة الغير ممكنة عن طريق البرهان بالمماثلة، أى أن الغير ليس بأنا غريب ومتعال: إنه صورة من أناى. ومن ثم، حين أعرف ذاتى أستطيع أن أسقطها على الغير. لكن ألا يمكن اعتبار الإسقاط جهلاً بالذات، ما دامت المدرسة اللاشعورية تعتبره نوعًا من الميكانزمات الدفاعية؟ إن الاختلاف الحاصل حول معرفة الغير يمكن أن يتجاوز، فى الاعتقاد أن الغير لا يتشكل من ثنائية، جزء منها خفى وآخر ظاهر؛ أو شطرين "أحدهما مخصص للإدراك الداخلى والآخر للإدراك الخارجي"، لأنهما فى العمق مترابطين، فالغير كلية تتمثل من خلال مظاهره الخارجية، ونستطيع معرفته معرفة كلية، فالغير "ليس بأنا غريب".

وهناك من يرى أن الغير ليس هو ذلك الموضوع المرئى، وليس ذلك الشخص الآخر. إن الغير بنية الحقل الإدراكى، كما أنه نظام من التفاعلات بين الأفراد كأغيار. فحين تدرك الذات شيئًا ما، فإنها لا تستطيع أن تحيط به فى كليته إلا من خلال الآخرين.. فالغير هو الذى يتمم إدراكى للأشياء، وهو الذى "يجسد إمكانية عالم مفزع عندما لا أكون بعد مفزوعًا، وعلى العكس إمكانية عالم مطمئن عندما

أكون قد أفزعت حقيقة". إن الغير إذن بنية مطلقة تتجلى فى الممكن الإدراكى وهى تعبير عن عالم ممكن، ومعرفة الغير يجب أن تكون معرفة بنيوية.

لا يمكن اختزال العلاقة مع الغير فى علاقة معرفية من أى نوع. إن العلاقة مع الغير يمكن أن تكون علاقة قيمية تحكمها ضوابط أخلاقية كالأنانية، والغيرية، والظلم، والتسامح ... إلخ. وهذا ما يضطرنا إلى الوقوف عند نموذجين للعلاقة مع الغير هما: الصداقة والغرابة.

(أ) الغير كصديق:

يمكن اعتبار الصداقة من العلاقات الإيجابية التى تربطنا بالغير، حيث يمكن أن تسمو بالأفراد إلى علاقات من الود تصل إلى التآخى والتضحية والإيثار ... فما هو الدافع إلى الصداقة؟ هل هو دافع المنفعة ؟ أم دافع الفضيلة؟ يرى أفلاطون أن الصداقة علاقة من المحبة والمودة، لا يمكنها أن توجد بين الشبيه وشبيهه، ولا بين الضد وضده. فالطيب لا يكون صديقًا للطيب، ولا يكون الخبيث صديقًا للطيب. فلكى تكون هناك صداقة بين الأنا والغير، لابد أن تكون الذات فى حالة من النقص النسبى الذى يجعلها تسعى إلى تحقيق الكمال مع من هو أفضل. ولو هيمن الشر على الذات. فإنها ستكون فى حالة نقص مطلق لا تستطيع معه أن تسمو إلى الخير. ولو كانت الذات فى حالة خير مطلق لعاشت نوعًا من الاكتفاء الذاتى. فالدافع إلى الصداقة هو الرغبة فى تحقيق سمو الذات وكمالها من خلال الغير.

أما أرسطو فهو أكثر واقعية من أفلاطون، حيث يرى أن الدوافع إلى الصداقة ثلاثة هي: المنفعة، والمتعة، والفضيلة. لكن الصداقة الحقيقية هى صداقة الفضيلة لما تتسم به من نبل أخلاقى، وخصوصًا لأنها تحقق التلاحم الاجتماعى بين أفراد المجتمع، باعتبار الإنسان "حيوانًا مدنيًا"؛ لذا يقول أرسطو: "إن المواطنين لو تعلق بعضهم ببعض برباط الصداقة لما احتاجوا إلى العدالة". إن صداقة الفضيلة هى

ذلك الوسط الذهبى الذى لا يمنع تحقق المنفعة والمتعة، فى حين أن الصداقة القائمة على المنفعة أو على المتعة صداقة زائلة بزوال نوعية الرغبة فى الغير. إن قيام هذا النوع من الصداقة التى يدعو إليها أرسطو، قد يكون سهل التحقق فى مجتمعات صغيرة، ويصعب تحققه فى المجتمعات المعاصرة حيث تكثر الكثافة السكانية، ويسود فيها الشعور بالغرابة.. فمن هو الغريب؟

(ب) الغير كغريب:

نحدد الغريب فى مفهومين أساسيين، أحدهما ذلك الذى يفيد الافتقار إلى حق المواطنة، وهذه دلالة حقوقية تحاول بها الجماعة أن تمنع انحشار الغير الغريب فى شؤونها الداخلية. وهذا فى اعتقادها تعريف سطحى للغريب، لأنه هو تلك القوة الخفية التى تسكننا جميعًا والتى تعبر عن التناقضات والاختلافات الداخلية التى غالبًا ما يتم السكوت عنها، لأن هذا الغريب (يجعل الـ "نحن" إشكاليًا وربما مستحيلاً). إن الغريب إذن يوجد فينا، "إن الغريب يسكننا على نحو غريب". ومن هذا المنطلق تكون الغرابة شعورًا قد يدفع الأنا (الفردية والجماعية) إلى إقصاء الغير أو تدميره أو الشعور بالعدوانية تجاهه أو على الأقل مقابلته باللامبالاة والتهميش .. إن الدوافع نحو الغريب هى فى الغالب دوافع سلبية، إنها تلك المواجهة الدائمة التى تؤدى إلى إذابة الاختلاف لصالح الذات، وقد كان آخر ما التجأت إليه المجتمعات الغربية فى إقصاء الغير هو الاستعمار والاستيعاب الثقافى. هكذا أصبحت "عملة الغيرية" عملة مفقودة. وهذا وضع لابد من القضاء عليه. حيث لابد أن يعيش كل "كائن مبدأ نقص وعدم كفاية"، لأن الشعور بالنقص يولد بالضرورة "الغيرية الجذرية". فالاحتفاظ بهوية الغير ينعش وعى الذات لنفسها. وهذا يستدعى احتفاظ الكل بهويته الثقافية، ويجب القضاء على أسطورة التفوق القومى القائمة على اعتبارات إثنية، فالتراكم الثقافى ليس ملكًا خاصًا لبعض الثقافات، فليس هناك ثقافة معزولة، ومن ثمة لابد أن تنشأ بين الأنا والغير علاقة

من الاحترام المتبادل وبالتالى الاعتراف للغير بخصوصيته الثقافية ونوعيتها وتميزها، أى لابد من الاعتراف بشرعية الاختلاف حتى فى الحالة التى لا ندرك فيها طبيعة ذلك الاختلاف.

كتخريج عام نقول: إن الغير مفهوم فلسفى مجرد وإشكالية فلسفية حديثة، حاول التفكير الفلسفى فى إطارها أن يتعامل مع مفهوم الغير كوجود عقلى يتم بناؤه من خلال فردية الأنا أو الدخول معه فى صراع من أجل الوعى بالذات، بل الدخول معه فى علاقة إبستيمية تتنوع بين تشييئه واعتباره موضوعًا، أو باعتباره ذاتًا، أو كلية، أو بنية .. إن تحديد طبيعة العلاقة مع الغير تدعو إلى الانفتاح على علاقات أخرى، أهمها: علاقتا الصداقة والغرابة.

ثانيًا- نظرية الذات.. مناقشات وتفسيرات:

تقوم فلسفة نظرية الذات على الإيمان بأهمية الفرد مهما كانت مشكلاته، فلديه عناصر طيبة تساعده على حل مشكلاته، وتقرير مصيره بنفسه. فإن الفلسفة الأساسية هنا للمرشد هى احترام الفرد وأهليته والعمل على توجه الذات توجيهًا صحيحًا ليكون جديرًا بالاحترام. إن مؤسس نظرية الذات السيكولوجى المعاصر كارل روجرز، حيث اعتبرت نظريته هذه من النظريات المهمة فى الإرشاد والعلاج النفسى، وقد اعتبرت من النَظريات المتمركزة حول المسترشد. وقد سميت هذه النظرية بأسماء عديدة، مثل: النظرية اللامباشرة، النظرية الشخصية، والذى جعل روجرز يتوجه إلى هذه النظرية هو عدم اقتناعه بعلم الطب النفسى لعدم اعتبار ما يجول فى نفس المسترشد من أفكار وشعور. وتستند نظرية روجرز فى الشخصية إلى المفاهيم الأساسية التالية:

1- **الإنسان**: كل منظم يتصرف بشكل كلى فى المجال الظاهرى بدافع تحقيق الذات والسلوك الهادف لتحقيق النمو والتحرر من مقومات تطوره، وإن الإنسان خير فى جوهره ولا حاجة للسيطرة عليه والتحكم به.

2- **الذات**: مدركات وقيم تنشأ من تفاعل الفرد مع البيئة، والذات تحافظ على سلوك المسترشد، والذات فى حالة نمو وتغير نتيجة التفاعل المستمر مع المجال الظاهرى والفرد لديه أكثر من ذات: الواقعية، والمثالية.

3- **المجال الظاهري**: الواقع المحيط بالفرد والذى يدرك أهميته؛ لأن الفرد يختار استجابته على أساس ما يدركه، لا على أساس الواقع.

وقد عُرفت هذه النظرية بالنظرية المتمركزة حول الشخص. ولذا وضعت مبادئ أساسية تستند عليها النظرية فى الشخصية: يعيش الفرد فى عالم متغير من الخبرات، فلكل فرد حقائقه الخاصة التى قد تختلف عن حقائق غيره، وما يمتلكه الفرد من حقائق، يمثل العالم المدرك بالنسبة إليه، وأفضل طريقة لفهم الفرد هى الوصول إلى طريقته فى إدراك العالم، أو ما يسمي بالإطار المرجعى الداخلى للفرد. وينمو فهم الذات نتيجة لتفاعل الفرد مع البيئة وخاصة فى تعامله مع الآخرين. والذات هى كل منظم يعبر عنه الشخص باستخدام ضمائر المتكلم، وما يمر به الفرد من خبرات يمكن أن يعامل كما يلي: ترمز الخبرات وتدرك وتنظم فى علاقة مع الذات، ويتم تجاهلها باعتبار أن لا علاقة مدركة بينها وبين الذات، وتشوه أو ترمز على نحو خاطئ؛ لأنها تتعارض مع مفهوم الذات. ويؤدى إنكار الخبرات، أو تشويهها، إلى عدم التكيف، وغياب التهديد للذات، فإن الخبرات غير المتفقة مع مفهوم الذات يمكن أن تدرك، وتفحص، ويتم ترميزها، وكلما أدرك الفرد، وتقبل فى بناء الذات لديه خبرات أكثر ازداد مفهوم الذات لديه غنى وأصبح أقدر على إدراك الخبرات بدون تشويه.

إن المبادئ الأساسية لهذه النظرية هي: إن الإنسان فى حالة خبرة وتفكير مستمرين، وإن حياة الإنسان متمثلة فى الحاضر وليس فى الماضى، وإن العلاقة مع الآخرين من الأساسيات، وإن الإنسان يسعى للتطور والنمو.

إن تعريف الذات يتحدد فى أنه: تكوين معرفى منظم ومتعلم للمدركات الشعورية والتصورات والتقييمات الخاصة بالذات، يبلوره الفرد، ويعتبره تعريفًا نفسيًا لذاته، ويتكون مفهوم الذات من أفكار الفرد الذاتية المنسقة المحددة الأبعاد عن العناصر المختلفة لكينونته الداخلية أو الخارجية.

وتشمل هذه العناصر المدركات والتصورات التى تحدد خصائص الذات، كما تنعكس إجرائيًا فى وصف الفرد لذاته كما يتصورها هو مفهوم الذات المدرك، والمدركات والتصورات التى تحدد الصورة التى يعتقد أن الآخرين فى المجتمع يتصورونها والتى يتمثلها الفرد من خلال التفاعل الاجتماعى مع الآخرين "مفهوم الذات الاجتماعي"، والمدركات والتصورات التى تحدد الصورة المثالية للشخص الذى يود أن يكون مفهوم الذات المثالى.

كما عرفها آخر على أنها الصورة التى يعرف الإنسان نفسه بها. وهى الإطار الذى يستطيع الإنسان أن يضع نفسه فيه بحيث يكون ملمًا بها فى نفسه، وهذه المعلومات التى يتوصل إليها الإنسان عن نفسه، تعتبر أشياء تعلمها عن نفسه، لهذا السبب استطاع أن يصور نفسه بأسلوب يستطيع من خلاله معرفة الكثير عن حقيقته. ولكلمة الذات، كما تستعمل فى علم النفس، معنيان متمايزان: فهى تعرف من ناحية باتجاهات الشخص ومشاعره عن نفسه، ومن ناحية أخرى تعتبر مجموعة من العمليات النفسية التى تحكم السلوك والتوافق. ويمكن أن نطلق على المعنى الأول، الذات كموضوع Self-as-Object حيث إنه يعين اتجاهات الشخص ومشاعره ومدركاته وتقييمه لنفسه كموضوع. وبهذا المعنى تكون الذات فكرة الشخص عن نفسه. ويمكن أن نطلق على المعنى الثانى، الذات كعملية Self-as-process ، فالذات هى فاعل بمعنى أنها تتكون من مجموعة نشيطة من العمليات كالتفكير والتذكر والإدراك.

ووظيفة مفهوم الذات وظيفة دافعية وتكامل وتنظيم وبلورة عالم الخبرة المتغير الذى يوجد الفرد فى وسطه، ولذا فإنه ينظم ويحدد السلوك، وينمو تكوينيًا كنتاج للتفاعل الاجتماعى جنبًا إلى جنب مع الدافع الداخلى لتأكيد الذات. وبرغم أنه ثابت تقريبًا، إلا أنه يمكن تعديله تحت ظروف معينة. وهناك ملاحظات هامة على الذات هي: إن مفهوم الذات أهم من الذات الحقيقية فى تقرير السلوك، وإن كل جشطالت يتأثر بالوراثة والبيئة الجغرافية والمادية والاجتماعية والسلوكية، ويتأثر بالآخرين المهمين فى حياة الفرد، ويتأثر بالنضج والتعلم، ويتأثر بالحاجات، ويتأثر بالموجهات، وإن الفرد يسعى دائمًا لتأكيد وتحقيق وتعزيز ذاته وهو محتاج إلى مفهوم موجب للذات، وإن مفهوم الذات مفهوم شعورى يعيه الفرد، بينما قد تشتمل الذات على عناصر لا شعورية لا يعيها الفرد.

ثالثًا- الصورة النمطية بين الشرق والغرب:

ظهر الاستشراق كفعالية من فعاليات التمركز الغربى على الذات. وقد شكل الشرق فى إطاره موضوعًا لتفكير نتجت عنه دراسات وأبحاث وأقوال مختلفة، بدا فيها الشرقى نمطًا ملتبسًا ومفعمًا بالأساطير والتصورات المغلوطة، وظهر فيه الشرق مغايرًا ومفارقًا لواقع الشرق ذاته، مع أن الشرق ليس كيانًا واحدًا، لكن الأبحاث والدراسات الاستشراقية صورته بناءً على مسبقات وأحكام التمركز الغربى.

بدايةً، لا يمكن الحديث عن الغرب بوصفه كيانًا واحدًا موحدًا، إذ هو لم يكن كذلك فى يوم من الأيام. كذلك فإن الشرق لم يكن موحدًا فى يوم ما، لكن مفهومى الغرب والشرق استخدما ووظفا فى سياقات غامضة، وساهم هذا الاستخدام فى إنتاج صور Stereotypes نمطية ملتبسة عن الغرب وعن الشرق. فقد تحول كل من الغرب والشرق إلى مفهوم متمثل أو تمثيلى، بناءً على ميتافيزيقا تنهض على تمركز

ذاتى محاط بتمركزات عديدة داعمة له، فابتعد الوجود المتعين لواقع كل منهما، وغاب بذلك المعطى الواقعى للمفهوم، حيث نسجت مكوناته ومركباته وفق أشكال متخيلة ونمطية تستلهم كل إمكانيات التهميش والإلغاء، ليفقد المفهوم أى إمكان للجدل والرأى والتواصل. وجهدنا هنا يرتكز على الكشف عن بعض آليات اشتغال الخطاب الميتافيزيقى فى عملية تمثله للآخر بصفة عامة، والعمل على إبراز الأبعاد المتخيلة فى هذا التمثيل، من حيث هى صور نمطية وأحكام ومواقف، بقدر ما تنهل من خزان رمزى يكثف الوجدانى والعقلى والحدسى، فإنها تتبلور فى شكل تدخلات وإجراءات ومعارك. وهذا يقتضى الوقوف عند ما أنتجه الخطاب من طرق لإدراك وتمثل الآخر، والتساؤل عما يعبّر عنه من إرادة للمعرفة بالآخر، فى مختلف التمثيلات، الأمر الذى يطرح أسئلة محرجة أمام الفكر المنتج له، ولنمطه المهيمن، خصوصًا فى هذه المرحلة التى تختلط فيها الرؤى والتصورات بالمصالح والرغبة فى السيطرة على العالم.

1- صورة الآخر فى الخطاب العربى:

نهضت الميتافيزيقا الغربية على تقسيمات تدغدغ الذات وتروى عطشها المزعوم فى التفوق، وتؤكد أفضليتها على الآخر، لذا مدّت هذه الذات بجسور مصطنعة تربطها بالإغريق، انطلاقًا من حمّى البحث عن ماض عريق وأصول ذهبية. وقد تمّت، بناءً على ذلك، عملية إعادة كتابة تاريخ اليونان القديمة بشكل يتماشى وأسطورة الغرب المدنى والحضارى. ودعم ذلك النظرية التطورية، التى صنفت الشعوب والأمم إلى أصناف متمايزة ومتعارضة، مثل "متوحشون"، و "برابرة"، و"متمدنون"، وعليها نسج التمركز الغربى، الذى يجد أصله النظرى فى التقسيم الأسطورى للعالم القديم إلى إغريق وبرابرة، أو إلى أحرار بالطبيعة وعبيد بالطبيعة. ثم استعاضت المسيحية فى العصور الوسطى معيار الفصل التقابلى فى ثنائية: إغريق/ برابرة بمعيار فصل ميتافيزيقى آخر يقوم على ثنائية: مؤمنون/ كافرون،

وهو فصل يعتمد على معيار الإيمان بالمسيحية دون سواها من الأديان، ويتماشى مع الطبيعة التبشيرية للمسيحية، التى شنت الحروب الصليبية على خلفية الصور الميتافيزيقية التى بنتها متخيلات التمركز اللاهوتى وتعاليمه الكنسيّة. ومع النهضة الأوروبية دُعم التمركز العرقى، وبرز إلى الواجهة معيار "التقدم" أو "المدنية" لفصل جديد بين الشعوب، حيث بدا الغربى صورة للتفوق والصفاء والقوة. ثم بدأت، فى العصر الحديث، حركة الأوربة التى تجلت بإخضاع مجتمعات وشعوب العالم للنموذج الأوروبى، عبر مختلف أشكال الانتداب والاستعمار والسيطرة، ورأت القوى المسيطرة فى الغرب الحديث ضرورة إخضاع الشعوب للنموذج الغربى بوصفه النموذج الأمثل والأصلح لمختلف الشعوب، واحتل الغربى (الرجل الأبيض) فيه القطب الأول فى ثنائية: المتقدم/ المتخلف التى شكلت جوهر التفكير الميتافيزيقى الفلسفى الغربى الحديث.

2- ميتافيزيقا الاستشراق:

ظهر الاستشراق كفعالية من فعاليات التمركز الغربى على الذات، وقد شكل الشرق فى إطاره موضوعًا لتفكير نتجت عنه دراسات وأبحاث وأقوال مختلفة، بدا فيها الشرقى نمطًا ملتبسًا ومفعمًا بالأساطير والتصورات المغلوطة، وظهر فيه الشرق مغايرًا ومفارقًا لواقع الشرق ذاته، مع أن الشرق ليس كيانًا واحدًا، لكن الأبحاث والدراسات الاستشراقية صورته بناء على مسبقات وأحكام التمركز الغربى. فالفصل الميتافيزيقى بين "الغرب" و "الشرق" لم يأخذ باصطلاحه المكانى والجغرافى، بل فى تأكيد التباين الثقافى والسياسى والأيدلوجى بينهما فى انفصامهما، لذلك فإن الاستشراق ليس ظاهرة خلقتها ظروف تاريخية محددة. كما أنه لم يشكل، عبر تاريخه، إفرازًا لحاجات ومصالح الغرب الحيوية المتصاعدة، بقدر ما كان إفرازًا، قد لا نغالى إذا قلنا "طبيعيًا" لعقل ميتافيزيقى متمركز على ذاته، همّه الأساسى إنتاج الآخر (أى آخر) وفق صور متخيلة، تعتريها تشوهات الإحالة والفصل والمعايير

الميتافيزيقية التى وسمت مجمل تاريخ الفلسفة الميتافيزيقية الغربية، وهكذا، تظهر ميتافيزيقا الاستشراق الذات الغربية فى زهوة تفوقها وقوتها وسطوتها، بينما تزيِّف ثقافة الآخر الشرقى (خصوصًا الإسلامى) وتحتقر ثقافته ولغته وديانته ووجوده، وتضعه خارج التاريخ، وخارج الفضاء الكونى المشترك الذى يناضل من أجله الجميع، مجردة إياه من القيم الإنسانية المشتركة، قد لا ينطبق هذا التوصيف على توجهات وجهود بعض كبار المستشرقين، إنما على مجمل حركية وفعالية الاستشراق، خصوصًا خلال مراحل اقترانها بالمدّ الاستعمارى.

كان الاستشراق مجالاً لتطبيق ونشر العلم الحديث فى الشرق، لكنه جعل من الشرق ميدانًا أنثروبولوجيا وإثنولوجيا مجردًا من قيمه وتاريخه، وظهر وفق توصيفاته، الشرقي: العربى والتركى والفارسى، صورة للشهوانى الفارسى، أو صورة البربرى الفظ، خاصة الشمال أفريقى. يجمع بين هذه الصور دين بسيط وبدائى ومتعصب وعدوانى هو الإسلام، وكانت مسيحية القرون الوسطى قد بنت هذه الصور، ونسجتها مخيلة تمركزها اللاهوتى الذى دفع إلى حدوث أكبر مواجهة دينية بين الإسلام والمسيحية خلال الحروب الصليبية.

ورغم أن الأنثروبولوجيا نمت وتطورت مع تطور العلوم الحديثة، غير أنها شهدت تغيرات كثيرة وواسعة، تغيرت معها النظرة إلى الآخر، الشرقى وغيره، وشهد معها الاستشراق تغيرًا واضحًا، من عالم مثبت يقوم على ماهوية ثقافية ويشده الماضى وصراعاته ونظرته الإقصائية، إلى عالم ينتقد المركز ويسعى نحو عالمية تفترض "وجود طبيعة إنسانية مشتركة، تنادى بتساوى الطاقات الكامنة للثقافات من أجل تحقيق ما هو إنساني". ومع ذلك لم تفلت الأنثروبولوجيا الاستشراقية من عقلية النموذج الأوروبى الأصلح والأفضل، خصوصًا حين يتعلق الأمر بالدراسات الإسلامية. فقد خضع الإسلام إلى تاريخ شرقنة أوربية بدءًا من القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين، حيث وضع فى قفص الاتهام، وتعرض

لمختلف أنواع الرفض خصوصًا شخصية النبى، وشكك فى أسس المجتمع الذى انبنى على دعواه، وعممت الدراسات الأنثروبولوجية والإثنولوجية على المجتمعات الإسلامية، مثل التى قام بها "وسترومارك" و "ج. تيلون" وغيرهما على قطاعات وبنى بسيطة شملت بعض القبائل فى الجزيرة العربية واليمن، وبعض قبائل البربر. إن ثقافة وتقاليد هذه المجموعات لا تنطبق على القطاعات الغالبة فى المجتمعات الإسلامية، كما أن مثل هذه الدراسات تنم عن ممارسة إثنولوجية غير علمية وغير دقيقة ويحكمها منطق استعمارى فى أغلب الأحيان.

3- صورة الآخر فى المخيال الإسلامي:

يمكن القول إن التمركزيات تصاغ استنادًا إلى نوع من التمثيل الذى تقدمه وتغذيه المرويات، الثقافية والتاريخية والجغرافية والفلسفية والأدبية، للذات المتوهمة بأوهام التفوق والنقاء والصفاء، والآخر الموسوم بالدنس والدونية والاختلاط، وعليه يغدو التمركز نوعًا من التعلق بتصور مضاعف عن الذات والآخر وهو تصور ميتافيزيقى ينهض على الثنائيات الميتافيزيقية التى تقوم على التمايز والتراتب والتعالى، وتأتى المرويات عبر الزمن لتراكم الصور النمطية المتخيلة الناتجة عنه. والحديث عن الصورة التى ارتسمت للآخر فى المخيال الإسلامى يقودنا إلى العصر الوسيط، وبالتحديد إلى مفهوم "دار الإسلام" بوصفه مجالاً ثقافيًا مشبعًا بمنظومة عقائدية متجانسة، تختلف عن المنظومة الخاصة بالآخر. لكن مع التقدم فى الزمن، تراجع مصطلح "دار الإسلام" وأخذ مصطلح "العالم الإسلامي" يحل محله.

وقد كانت التمركزية الإسلامية، ممثلة بدار الإسلام، ونظامها القيمى المعيارى، هى الموجه الأكثر فعالية فى صوغ ملامح الصورة النمطية للآخر، وهى فى عمومها صور رغبوية تستقى مكوناتها من رغبة فى تفخيم الأنا بمختلف أبعادها. وعليه يجب أن نستقصى تفاعلاتها المعاصرة، إذ إنه مع العصر الحديث لم تفلح المجتمعات الإسلامية فى التخلص من مؤثرات الماضى، بل إن الحداثة والعولمة بذرت خلافًا

جديدًا تمثله مفاهيم التمركز والتفوق ومحاولة سيطرة نموذج ثقافى على حساب آخر، فصارت تنبعث اليوم المفاهيم التناقضية — السجالية بصورة إشكاليات الهوية والخصوصية والأصالة. فيما تعيش المجتمعات الإسلامية زمنين متناقضين فى القيم والثقافة، حيث لم تستطع شعوبها أن تنجز فهمًا تاريخيًا متدرجًا ومطورًا للقيم النصية الدينية، بمعنى أنها لم تتمكن من إعادة إنتاج ماضيها بما يوافق حاضرها، ولم تتكيف مع سؤال الحداثة، فطرحت قضية الهوية، كقضية إشكالية متعددة الأوجه. وبالتالى فإن طرح صورة الآخر فى المخيال الإسلامى، خلال القرون الوسطى، يعدّ قضية تتصل بالحاضر بدرجة لا تقل أهمية عن اتصالها بالماضى.

لقد ارتبط مفهوم دار الإسلام حسب التقسيم الإسلامى للعالم بالمجتمعات والأقاليم التى رضخت للسيادة الإسلامية، فيما ارتبط مفهوم "دار الحرب" بكل ما يقع خارج ذلك، وقد نُظر إلى الشعوب الأخرى القاطنة خارج دار الإسلام بوصفها شعوبًا ضالة، ينبغى أن تمتثل للشريعة الإسلامية، لذلك فهى فى حالة حرب معلنة أو مضمرة مع دار الإسلام، وعليه قامت النظرة للآخر على أسس دينية وقيمية، وهذا ما يسم التفكير والمفاهيم فى العالم القديم بمجمله، حيث تفرض المفاهيم صورًا إكراهية للآخر، توجهها منظومات قيمية مختلفة، بوصف الآخر هو المختلف قيميًا. ويستمد هذا التصور فى أذهان المسلمين حمولاته من التمركزية الدينية، باعتبارها البؤرة التى تنبثق منها قيم الحق المستمدة من الله. وما دام الحق ينبثق من دار الإسلام فهى المركز بكل المعانى الدينية والثقافية والجغرافية والأخلاقية، ووجدت هذه التمركزية الإسلامية تعبيراتها فى التواريخ والآداب والفلسفات. وكانت الجغرافيا الوسيلة الأكثر فاعلية فى تحديد أطرها الرمزية، حيث انطلق الجغرافيون من التسليم بها كحقيقة، حيث جعلوها موجهًا لتصوراتهم وفرضياتهم، وهذا ما ذهب إليه "ابن حوقل" حين جعل ديار العرب قلب الكرة الأرضية، كونها تضم الكعبة ومكة أم القرى، فيما جعل ممالك الكفار ضيقة وليس فيها أية قيمة مميزة، وكذلك فعل ابن خرداذبه وأبو الفداء.

ومع العصر العباسى نشأت مركزية العراق، حيث نظر إليه كأفضل الأقاليم، واعتبرت بغداد المركز الذى يستقطب الجميع، فالمسعودى قدم فى كتبه براهين على هذه التمركزية التى شكلت الصور الإكراهية للآخر، ولعبت فكرة العلاقة بين الأقاليم والطبائع التى ورثها المسلمون عن اليونان دورًا فى الحكم القيمى بحق الآخر، من هنا يجيء تقسيم المسعودى للأجناس البشرية: بين شرقى مذكر. وغربى مؤنث، وشمالى غبى، وجنوبى متوحش. هذا التنميط حسب الأقاليم يقوم على تقسيم جنسى وأخلاقى وعقلى وشكلى، يهدف إلى ربط الأجناس بسمات وطبائع ثابتة، تحمل سمات دونية للآخر المختلف.

ويمكن العثور على صورة أهل الشمال عند الحدود التى رسمها الرحالة من أمثال: الطرطوشى، وابن فضلان، وسلام الترجمان، وابن بطوطة، وأبى حامد الغرناطى، وأبى دلف الخزرجى، حيث ارتسم الشمال فى أذهان القدماء باعتباره "بلاد الظلام" بناء على حكم اختزالى، وتكونت صورته بشكل متدرج، وهى تعنى بالجوانب البشرية أكثر من غيرها.

لا شك أن الصورة المشوشة عن أهل الشمال تشكلت فى ظروف متوترة من الصراعات والنزاعات العسكرية والعقائدية والسياسية. أما صورة الشرق فى أعين المسلمين فهى مختلفة، حيث يظهر فيها الشرق جذابًا ومتنوعًا وغير مشكّل بأحكام مسبقة، غير أنه متمثل للمفاضلة بين دار الإسلام ودار الحرب. ويظهر الشرق فى صورة شاملة لكل جوانب الحياة، من خلال الوصف المفصل لمظاهر الحياة والملك الذى قدمه الرحالة والجغرافيون، وخلا هذا الوصف من الأحكام الانتقاصية، وهذا يفسره التواصل المستمر للشرق بعالم المسلمين بواسطة التجارة المزدهرة وقتئذ. أما صورة الأفارقة، فقد تلونت فى أعين الرحالة المسلمين بصور تحكمت فيها الموجهات والمؤثرات الدينية والثقافية. فظهرت صورة الأفريقى معتمة كلون بشرته، كونها اقترنت بجملة من النواقص الدينية والعقلية والأخلاقية واللونية.

هذه الصورة الانتقاصية للأفارقة تصلبت، وتشابكت مع الموجه اليونانى فأنتجت تنميطًا ثابتًا ليس فى أعين المسلمين فقط، بل فى أعين شعوب العالم كلها، وهى لا تزال تفعل فعلها إلى أيامنا هذه وإن كان بدرجات مختلفة.

رابعًا- الإسلاموفوبيا والتشوية المنهجى للإسلام:

كثرت فى السنوات القليلة الماضية حملات التفتيش والاعتقالات والمضايقات على العرب والمسلمين الزائرين والمقيمين فى العديد من الدول الغربية من قبل الأجهزة الأمنية المختلفة بسبب وبدون سبب. فمنذ أحداث 11 سبتمبر 2001 أصبحت العمليات الإرهابية والجرائم مقترنة بالعرب والمسلمين، وانتشرت بذلك ثقافة الخوف من الإسلام. هذا الدين الذى تم تصويره وتقديمه للرأى العام من قبل الصناعات الإعلامية والثقافية على أنه دين القتل والعنف والإقصاء وعلى أنه دين غير متسامح. كما استهدفت حملات إعلامية ودعائية مغرضة ومضللة عديدة الدين الإسلامى من خلال التخويف من الإسلام والمسلمين والتحريض ضدهم ومطالبة أجهزة الأمن من تكثيف حملات الاعتقالات والتدخل فى تفاصيل الحياة الشخصية للمسلمين المقيمين فى الدول الغربية ومراقبة تنقلاتهم ونشاطهم وحتى تصرفاتهم اليومية.

وهكذا انتشرت صناعة الخوف وتفننت فيها بعض الدول والجهات التى تستهدف كل ما هو عربى ومسلم. لقد اهتزت صورة الإسلام والعرب فى السنوات الأخيرة فى الرأى العام الدولى بصورة خطرة جدًا ساهمت فى العديد من المرات فى اتخاذ مواقف معادية وسلبية ضد الشعوب العربية والإسلامية. وكنتيجة لهذه الحملات المنهجية والتشويه والتضليل المنظم أصبح الرأى العام فى الدول الغربية معاديًا ومتخوفًا من الإسلام والمسلمين العرب وأصبح، ووفق الصور النمطية التى قدمت له، يؤمن بصراع الحضارات وصدامها. والأخطر من هذا فإن

قادة الرأى وصناع القرار والساسة وحتى نسبة كبيرة من المثقفين انضموا إلى قافلة التهجم على الإسلام واستهدافه وتشويهه. وأصبح العديد ينظر ويفسر فى شؤون الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية عن جهل وبثقافة الحقد والكراهية والانتقام. وفى السنوات الأخيرة وخاصة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 تعانى الجالية المسلمة المقيمة فى الولايات المتحدة الأمريكية، على سبيل المثال، معاناة شديدة من الممارسات والمضايقات العديدة التى تقوم بها أجهزة أمنية عديدة ومختلفة. فهناك درجة كبيرة من الإهانة والتعدى على الحريات الفردية وعلى حقوق الإنسان. والنتيجة الحتمية لكل هذا هو انتشار الحقد والعنصرية والكراهية ضد الإسلام والمسلمين. والمشكل هنا يُطرح على مستويين: المستوى الأول وهو الصورة المشوهة والمضللة للإسلام والتى تفننت فى صناعتها جهات عديدة من خلال وسائل الإعلام والصناعات الثقافية المختلفة، أما المستوى الثانى فهو الضعف الكبير والغياب شبه التام للمخرجات الإعلامية والصناعات الثقافية العربية والإسلامية التى تقدم الإسلام للآخر، وتسوّق صورة الحضارة الإسلامية والمسلمين على حقيقتها. من جهة أخرى فشلت وسائل الإعلام العربية وقادة الرأى فى احتواء الصور النمطية والآراء المشوهة والمضللة للإسلام والمسلمين وتفنيدها بالأدلة والحجج والبراهين والمنطق.

إن الإشكال المطروح هو: هل استطاع المسلمون تقديم الإسلام إلى الآخر بشكل علمى منهجى مدروس وفعال ؟ ماذا قدم الإعلام العربى والإسلامى؟ وأين هى الصناعات الإعلامية والثقافية العربية من رسالة تقديم الدين الحنيف والحضارة الإسلامية للآخر؟.

يرى إدوارد سعيد أن التشويه والتضليل والانحياز فى تغطية العرب من قبل وسائل الإعلام الغربية يعود بالدرجة الأولى إلى الصراع الحضارى والثقافى بين الغرب والإسلام. وقد ظهر هذا الصراع جليًا بعد انهيار الاتحاد السوفييتى وانهيار

القطبية الثنائية حيث ظهر النظام الدولى الجديد وتحديد للثقافات المختلفة فى العالم وخاصة الإسلام. وجاء مصطلح "الإسلاموفوبيا" للتعبير عن الهستيريا التى أصيب بها الغرب ضد الإسلام بعد انهيار الشيوعية. حيث أصبح هذا الأخير يتصدر قائمة أعداء أوروبا وأمريكا، وأكدت دراسات تحليل المضمون أن كتب التاريخ المدرسية وكتب الاجتماعيات فى المدارس الأمريكية أسهمت هى بدورها فى إيجاد فكر باطنى معادٍ لكل ما هو إسلام وعربى، وكانت النتيجة أن الأمريكى يتعرض منذ نعومة أظافره إلى جملة من الصور النمطية ومن الأفكار المضللة والمزيفة والتشويه والتضليل المنهجى ضد العرب والمسلمين.

فى ظل هذا التزييف والتشويه والتغطية السلبية للعرب من قبل الإعلام الغربى نلاحظ أزمة فى الإعلام العربى فى عملية تسويق صورة إيجابية تصحح هذا الخلل. فالإعلام العربى لم يحدد استراتيجية يستطيع من خلالها تقويم هذا الخطأ وتقديم البديل أو البدائل للرأى العام الغربى والدولى. فالصناعات الثقافية العربية ما زالت ضعيفة جدًا لم ترق إلى العالمية ولم تعرف كيف توظّف اللغات العالمية للوصول إلى الآخرين. والإعلام العربى، كما لا يخفى على أحد، تخبط فى دوامة من المشاكل والضغوط قد لا تؤهله للقيام بدور فعّال على الصعيد الدولى.

أضف إلى ذلك أن السلطة العربية ركزت جهودها فى استخدام الإعلام كوسيلة للسلطة وتثبيت الشرعية والتحكم والمراقبة، ولم تول أى اهتمام للبعد الخارجى أو الدولى الذى من المفروض أن يكون من المهام الاستراتيجية للنظام الإعلامى فى كل دولة عربية.

من خلال ما تقدم نخلص إلى القول أنه حان الأوان بالنسبة للمسلمين وللعرب أن يستثمروا وأن يخصصوا ميزانيات معتبرة للصناعات الإعلامية والثقافية. فالصورة النمطية والمشوّهة والمضللة لا تصحح إلا من خلال تقديم البديل وتقديم المعطيات والبراهين والأدلة المقنعة.

أضف إلى ذلك أن السفارات العربية فى الغرب والمراكز الثقافية والبعثات المختلفة بإمكانها أن تساهم إلى حد كبير فى تسويق صورة إيجابية حقيقية وواقعية عن الإسلام والمسلمين والعرب وحضارتهم من شأنها أن تصحح الأفكار المسبقة والصور المزيفة والتشويه المنهجى للإسلام.

فالمعركة إذن هى معركة صور وأفكار ورأى عام، وعلى المسلمين والعرب أن يفندوا الأكاذيب والأساطير والحملات الدعائية ويخوضوا معركة الرأى العام والصور والأفكار بكل اقتدار ومنهجية وفاعلية.

الفصل الثانى

نحو تعميق الذات الثقافية

أولًا: كلنا أخوة فى الإنسانية.

ثانيًا: مواطنون لا أقليات.

ثالثًا: ميراثنا وثقافتنا تشكل هويتنا.

رابعًا: السلام قوامه العدل والحرية.

نحو تعميق الذات الثقافية

أولاً: كلنا أخوة فى الإنسانية:

على المرء أن يفهم كل حضارة من داخلها، ولا يجوز له أن يعد مجتمعه، الذى ينظر إليه نظرة مثالية، على أنه هدف التطور وغايته. إن التصوير المشوه للحضارات الأخرى يجعل من المستحيل الحصول على صورة حقيقية لها، ويؤدى بالتالى إلى استحالة الوصول إلى حل حقيقى للمشكلات القائمة، بل يضيف إليها مشكلات جديدة، وهكذا فإنه إذا كان خوف الغرب من الأصولية الإسلامية لا أساس له من الصحة، فإنه ليس هناك أيضًا مسوغ لما ينتشر فى العالم الإسلامى من أحكام تعميمية عن عداوة الغرب للإسلام. إن هناك فى الغرب جهوداً جادة كثيرة تسعى للحصول على فهم حقيقى للعالم الإسلامى.

إن الحضارة التى نشأت فى ظل الإسلام تعدّ واحدة من الأعمال الإبداعية الجبارة فى تاريخ الإنسانية، وقد استفادت أوروبا فى العصر الوسيط كثيراً من هذه الحضارة غير أنها لم تعترف للحضارة الإسلامية بهذا الجميل. ولكن النقد لا يوجه بطبيعة الحال إلى جانب واحد، فهناك اتهامات متبادلة، وأهمها الهجوم على الحضارة الغربية الذى يأتى من جانب تيارات معينة فى العالم الإسلامى.

كما أن هناك تصنيفًا للعرب والمسلمين بطريقة عنصرية لا تمت إلى المسيحية بصلة

على أنهم بشر من الدرجة الثانية لأنهم ينحدرون من أم كانت جارية لإبراهيم عليه السلام وهى هاجر، فى حين أن الأوروبيين ينحدرون من أم كانت سيدة من الحرائر وهى سارة زوجة إبراهيم.

إن الصورة الغربية للعدو المتمثل فى الإسلام تقوم على أساس تعميمات خاطئة، فكذلك نجد الصورة المشوهة التى يرسمها المؤلفون المسلمون عن الغرب تقوم فى الغالب على تعميمات خاطئة أيضًا، فالمسئولية عن الأخطاء وسوء الفهم مسئولية مشتركة يتحملها الجانبان. إنه قد نشأت فى القرنين الأولين من تاريخ الإسلام حضارة إسلامية متميزة. وقد استفادت هذه الحضارة من الحضارات اليونانية والرومانية والفارسية، ثم استقلت بنفسها وأصبحت لها شخصيتها المتميزة. وقد بدأ الغرب فى ترجمة المؤلفات العربية، وبذلك حصل على علم المسلمين وأصبح وارثًا للعلم الطبيعى العربى، وفى ذات الوقت خاضت أوروبا المسيحية حربًا دينية مريرة مع المسلمين الذين وصفتهم بأنهم وثنيون. وبعد أن تمت ترجمة مئات الكتب العربية فى الرياضيات والفلسفة والفلك والطبيعيات والطب إلى اللاتينية اتضح مدى التفوق الضخم الذى وصل إليه المسلمون فى مجال العلوم الطبيعية والعقلية، وكان ذلك بمثابة صدمة للعقول الرائدة فى الغرب، حيث ذكر بعضهم أنه قد نسى المسيحيون حكمة القدماء وقد منحها الله لهم مرة أخرى عن طريق العرب. كما ذكر بعضهم أيضًا أنهم قد أخذوا من العرب الحافز على التقدم العلمى دون أدنى اهتمام بجيرانهم المسلمين، اللهم إلا أن يكون هذا الاهتمام عن طريق السيف. لقد بدا واضحًا مدى ضخامة الميراث الثقافى الذى خلفه العلم العربى الإسلامى للغرب، ولكن الحروب الدينية قد غطت فى نهاية الأمر على خمسة قرون من الاستفادة الغربية من إنجازات العرب فى مجال العلوم الطبيعية. لقد استمر هذا الفصل المظلم من التاريخ العقلى لأوروبا فترة طويلة، وقد آن الأوان لبدء فصل جديد دونما أحكام مسبقة وبالاعتراف للعرب بما لهم من إسهامات علمية حصل عليها الغرب وعدها ثقافة غربية.

إن الصفوة المثقفة من أهل الغرب قد أتيحت لهم فرصة الاهتمام العلمى بالإسلام والتعرف عن قرب على العالم الإسلامى من واقع خبراتهم، وهذا بدوره أدى إلى تطور موقف إيجابى إزاء الإسلام. وعلى العكس من ذلك فإن الطبقات غير المثقفة ترى فى الإسلام صورة العدو، ولم يطرأ على التصورات الشعبية للإسلام تغيير يذكر. وقد وجدت الحروب الصليبية مسوغًا لها فى المجتمع المسيحى من خلال هذه الصورة السائدة، وبذلك جعلت من عداوتها للمسلمين دفاعًا له ما يسوغه. إن ما ينشر عن الإسلام والمسلمين من معلومات خاطئة تفتقد الأساس العلمى قد أحدث تطورات وخيمة العواقب فى التاريخ الحديث، والبديل لذلك كله هو العلم الذى يعد الطريق الوحيد للفهم الحقيقى للحضارة الإسلامية.

إن مفهوم الجهاد قد تم ربطه فى الغرب ربطًا ظالمًا بعجز المسلمين المزعوم عن السلام، وبما يأمر به الإسلام من نشر دعوته بقوة السيف، الأمر الذى يجعل من الجهاد خطرًا لا يستهان به على كل غير المسلمين. وتكمن جذور هذه الآراء المغلوطة عن الجهاد فى تفسير وقائع تاريخية تفسيراً غير سليم، بالإضافة إلى أنه كان الجدل الكنسي ضد ما يسمى بدين الحرب، وهو الإسلام، مسئولًا عن الترويج لهذا الفهم الخاطئ، وتتم الدعاية لهذا الفهم الخاطئ لمفهوم الجهاد بالاستشهاد بما يصدر عن أصحاب الإسلام السياسى من المعاصر من أقوال وأفعال، وهم الذين لا ينتمون إلى العقول المميزة لحضارة المسلمين.

إن الجهاد لا يعبر ابتداًء وفى الأساس عما يسمى بالحرب المقدسة وإنما يعنى (بذل كل ما فى الوسع فى سبيل الله بالنفس والمال). فالجهاد أمر يتعلق بالمسلم بوصفه فردًا وليس متعلقا بالضرورة بمؤسسة كالدولة مثلاً. ويمكن أن يكون جهاد المسلم فى سبيل الله مرتبطًا بالحرب، ولكنه فى كل الأوقات يمكن أن يفهم أيضًا خارج هذا الإطار. إن الهدف الوحيد لجهاد المسلمين لا يمكن، كما أنه لا يجوز، أن يكون متمثلاً فى إجبار العدو على الدخول فى الإسلام ولا تدمير غير المسلمين، وإنما يتمثل

بالأحرى فى الحفاظ على المجتمع الإسلامى وتقويته. إن الأقليات غير المسلمة فى المحيط الإسلامى كانت ولا تزال على مرّ القرون مصونة الحقوق، ولم يكن ذلك يعنى مجرد ضمان حق البقاء لها فحسب، بل إن لها مطلق الحرية فى ممارسة شعائر دينها.

إن جوهر الإسلام يصف الأصولية بأنها شعار أجوف، وأن الخوف المزعوم مما يدعى بأنه الإسلام الزاحف بالقوة على الغرب يعد أيضا لغوا فارغًا لا معنى له وأمراً مخالفًا للواقع. وما يروج من تصورات حول زحف وشيك للإسلام على الغرب هو من قبيل الأساطير التى لا أساس لها، فهم يعتمدون فى مزاعمهم على الخوف من الأصولية المزعومة، وما يتصورونه من قوة الإسلام التعبوية المرتبطة بالعنف، وقد وصل الأمر ببعض وسائل الإعلام فى الغرب إلى أن أصبحت شارة الأصولية تلصق بكل من يقول (الله أكبر). وهكذا وصف المجاهدون الأفغان بأنهم أصوليون على الرغم من أنهم فى السابق وقبل نهاية الحرب الباردة كانوا يستخدمون لخدمة أهداف الغرب فى محاربة الشيوعية ويوصفون بأنهم (مناضلون فى سبيل الحرية). وقد أضحى مفهوم الأصولية أو الإسلام من الكليشيهات المستخدمة فى وسائل الإعلام الغربية لتفسير كل ما يدور فى الشرق، ولكن الأصولية لا يمكن أن تفسر كل ما يحدث من تطورات فى العالم الإسلامى. فهناك أسباب كثيرة تتصل بالأوضاع العامة على مستوى السياسة العالمية والاقتصاد العالمى تعدّ قاسمًا مشتركًا بين العالمين الإسلامى والأوروبى تؤدى إلى ما يحدث فيهما من أحداث تاريخية، فالإسلام وحده لا يمكن أن يفسر كل ما يحدث فى العالم الإسلامى.

إنه لا بد من قيام أهل الغرب بمحاولات علمية جادة يقصد من ورائها إعادة النظر فى كثير من الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة المنتشرة فى الغرب عن الإسلام وعن المسلمين وعن العالم الإسلامى، كما أنه فى الوقت ذاته لا بد أن تحظى محاولات المفكرين والعلماء المنصفين العقلاء من أهل ديار المسلمين بما تستحق من اهتمام

وتقدير فى العالم الغربى حتى ينتصر الفهم السديد للإسلام فى الغرب على النظرة المغلوطة، وتتغلب الموضوعية فى البحث على الأفكار والأساطير الإعلامية المغلوطة التى لا همّ لها من وراء التشويه المتعمد أو غير المتعمد للإسلام الحنيف إلا ترسيخ أسباب ودواعى الكراهية والعداء المستمر بين الإسلام ودول الغرب. إننا نعيش فى عالم ينظر إليه على أنه قرية كونية صغيرة مسامية الجدران يعتمد كل منا فيه على الآخر بصورة من الصور، وهو أمر يتطلب تعميق الإيجابيات فى العلاقات الدولية وتفادى السلبيات وهذا أمر يتطلب المصارحة والمكاشفة والنقد البناء دونما إخفاء للحقائق حتى يمكن تغيير الطريق لتحقيق المزيد من التعاون المشترك على أسس صحيحة من أجل خير هذا العالم الذى هو عالمنا أجمعين.

إن الهوية العربية تقوم على الأصل والانتماء العربى، ومنهما تكتسب الأمة العربية قيمها وثقافتها ولغتها الواحدة وهى لغة الدين الإسلامى وتاريخها ومصيرها الواحد، وهو ما يشكل كيان الأمة العربية والدول العربية ويحدد هويتها. إن عامل وحدة الأصل يجعل أفراد الأمة يتحدون ويتعاونون فى السراء والضراء، وتلك رابطة طبيعية لازمت المجتمعات الإنسانية. إن وحدة الأصل عامل إيجابى فى تنظيم حياة الجماعة من صلة قرابة والتحام ووحدة المصير، وفيها تبرز الخصوصية والهوية، وهى متأثرة بالبيئة والحياة الاجتماعية والظروف المحيطة، وكلها يؤثر فى الشخصية والطبع والمزاج، وكلها جاء من مبادئ الدين الإسلامى الذى يقوم على المساواة والعدل وإلغاء الفروق والطبيعة العنصرية والفرق بين الأفراد فى الإيمان والتقوى والعمل الصالح، كما أن العروبة ليست بالأصل والدم فقط ولكن بالانتماء من المحيط إلى الخليج.

إن الفرد بطبعه يرغب فى الانتماء إلى جماعة قوية يتقمص منها شخصية قوية ويجد نفسه فيها. فهناك نوعان من الانتماء بالنسبة للفرد وهما الانتماء المنطقى والوجود الاجتماعى، فالأول علاقة عادية أى بين الفرد والأفراد المحيطين به، أما الثانى فإنه

يتمثل فى علاقة تحديد الهوية والمصير بين الفرد وجماعة محددة أى بين الأنا والآخر وما يتصل به من حضارات وثقافات، فى الفكر العربى القديم كان الانتماء يتمثل فى علاقة القرابة وساد ذلك بسبب الدور الذى لعبته القبيلة والعصبية وما يتفرع منه فى تحديد الهوية الاجتماعية ويتنوع الانتماء بتنوع الجماعات. هكذا نجد الانتماء القبلى والطائفى والقومى، كما نجد الانتماء الإقليمى والقارى والحضارى. وعلى ذلك فإن النقطة الفاصلة فى الانتماء هى الهوية الجماعية العليا التى يدرك الفرد ذاته فيها وفى تفاعله معها، وعليه أيضا فإن الانتماء أحد أسس إبراز الشخصية وهو المجتمع، وحيث يعّد الانتماء محوراً يكشف الكثير عن الآلية النفسية التى تتحكم فى علائقية المجتمع بأفراده، ولا يزال الكثيرون ينظرون إلى الانتماء على أنه يتحدد فى كافة الجوانب الاقتصادية والثقافية والاجتماعية. الانتماء طاقة تتجاوز مستوى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقيدة، والانتماء يحدد أهمية الأفكار والقيم والأعراف والتقاليد التى تكون مستمدة من نفسية وشخصية الفرد، وهو يشكل حدود الهوية الاجتماعية وبروزها وتميزها عن غيرها.

وهو شعور يحسه الفرد ويربطه بالمجتمع الذى ولد ونشأ فيه. وعليه فالولاء هو حالة دمج بين الذات الفردية وأسرة أو جماعة أو أمة أو الإنسانية جمعاء، والولاء حالة موضوعية يعترضها الواقع الذى يعيش فيه الفرد مثل انتماء فرد إلى قومية عربية فهو يتكلم العربية ويعيش على أرض عربية ويتمسك بقيمها ولا يمكنه الخروج من دائرة هذه الهوية العربية، فهو قد اندمج فى جماعة وهو ملتزم بقيمها وعاداتها.

وعليه فإن الأصل والانتماء أساسان لتحديد الهوية لأية أمة وهما مبرزان لخصوصيتها، والعاملان الأساسان المحركان للتاريخ الإنسانى. والمجتمعات العربية لها أصولها التاريخية المشرفة ولها انتماؤها القوى بعضها ببعض، والمتمثلة فى تمسكها بقيمها ودينها وتقاليدها التى تميزها عن المجتمعات الأخرى. وترى العولمة

ذلك عقبة من العقبات التى تواجهها من قبل المجتمعات العربية، فهى تعتبر الدين أحد عوائق تحققها، وتسعى إلى أن تعمم قيمها وأفكارها وثقافتها، ولكن التقوقع داخل حدود الهوية لا يحقق التفاعل مع المتغيرات الجديدة، وهو أمر يدعونا إلى أن نفكر عالميًا ونطبق عربيًا ولنجعل كل ما هو كوكبى لخدمة كل ما هو عربى، وعلنيا أن نجعل العولمة قضية مشتركة للجميع، وهو أمر يتطلب استيعاب كل أنا للآخر كما هو وليس كما يجب أن يكون عليه.

إن الدين الإسلامى أحد الديانات السماوية المعروفة بالديانات الإبراهيمية: اليهودية والمسيحية والإسلام، وهى ثانى أكثر الديانات أتباعًا فى العالم. والمعنى العام للدين الإسلامى هو الانقياد التام للخالق بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك، فهو تسليم كامل من الإنسان لله تعالى فى كل شؤون الحياة.

ويؤمن المسلمون بجميع رسل الله السابقين وبالكتب السابقة واليوم الآخر والملائكة والقضاء والقدر. وهو ليس حصريًا على شعب دون شعب، أو قوم دون قوم، بل دعوة شاملة للبشرية كافة بغية تحقيق العدل والمساواة للبشر كافة، فهو يقوم على أسس الفطرة الإنسانية والمساواة بين مختلف أفراد المجتمع الإسلامى الكبير، فلا يفرق بين الضعيف والقوى، والغنى والفقير، والوضيع والشريف، ولا يفرق الإسلام بين الأمم والشعوب المختلفة إلا من باب طاعة الله والالتزام بالتقوى. يقول الله تعالى فى سورة الحجرات الأية (13) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾. والإسلام يتكون من العقيدة والشريعة، فالعقيدة هى مجموعة المبادئ التى على المسلم أن يؤمن بها وهى ثابتة لا تختلف باختلاف الأنبياء، والشريعة هى اسم للأحكام العملية التى تختلف باختلاف الرسل ونسخ اللاحق منها السابق. وجاء الإسلام للناس كافة دون تمييز ودون إكراه أو تعصب، فالدين الإسلامى دين سمح ينادى بالحرية والعدل والمساواة، ولكل فرد الحق فى تحقيق ذاته واحترام ذوات الآخرين.

وثقافة الذات تشير إلى أن علاقة الإسلام بالأمة العربية علاقة تاريخية قوية، وقد ميّز الله تعالى العرب بنزول الدين الإسلامى عليهم. وعليه فإن العروبة تعنى الإسلام، وإن الابتعاد عن الإسلام معناه انفصال البناء عن أساسه، وقد ثبت تاريخيًا أن قوة العرب تعنى قوة الإسلام، حيث إنه عن طريق الإسلام اجتمع العرب على كلمة واحدة بلغة عربية واحدة محددة لهويتهم، ومبرزة لخصوصيتهم المتميزة عن الآخر. ومن ناحية أخرى فإن الدين الإسلامى دين عالمى جاء للناس كافة دون تخصيص، كذلك عن طريقه تتحدد هوية المجتمعات العربية بنزوله بلغتهم، وتبرز خصوصيتهم التى تميزهم عن هويات الآخرين. فالمسلم له هوية اجتماعية ودينية جعلته مميزًا فى ذاته وشخصيته وسلوكه، أى متميزًا، بما يعتقد ويعبد، ومتميزًا أيضًا بمظهره الثقافى والحضارى.

إن علاقة الإنسان العربى بدينه الإسلامى علاقة روحية وجدانية تخاطب الضمير، وتمس العقل أكثر مما تمس الحواس الأخرى، فهو يحقق إشباعًا، ولكن ليس ماديًا بل روحيًا حيث إنه يقرب المسافات ما بين الخالق والمخلوق، لذلك فإنه يشكل الوحدة المرجعية لجميع الأفراد والجماعات والمجتمعات. فالدين الإسلامى عامل قوة يقوى الروابط بين أفراد الأمة العربية فهو يشكل قناعات لكل من يؤمنون به، ويعتبر من الثوابت الحضارية التى لها دور فى تحصين الذات، وهو حاجة مستمرة وجدت مع الإنسان وستبقى حاجة قاهرة وقائمة ما دام الإنسان يحسب المصير ويقف عاجزًا أمام المجهول، إنه يمثل العلاقة بين الخالق والمخلوق، ويمثل أيضًا أحد العناصر التركيبية للوعى الاجتماعى، ويلعب دورًا رياديًا فى تماسك المجتمع لأنه يشكل أحد أهم المحددات التى تنتظم سلوك الفرد والجماعة.

إن الثوابت الحضارية هى تلك الجواهر الخالدة فى الإسلام من جانبه الروحى والقيمى، التى ساهمت مع العوامل الاقتصادية والعملية فى تكوين الحضارة العربية الإسلامية، ومن ثمّ تتحدد من خلالها الهوية العربية، كما أن هذه الثوابت الحضارية

التى لها دور فى إبراز الخصوصية تعنى جملة المعتقدات الدينية والمفاهيم الثقافية والعقلية والنفسية المستندة أساسًا إلى المعتقدات باعتبارها أداة ضبط وترشيد للسلوك الفردى وللحياة الاجتماعية من خلال تغليب روح الحق والجماعة على روح القوة والانتصار للعدل والمساواة بديلاً عن الظلم والجور والارتفاع بالإنسان من مستوى الغريزة والأنانية والجشع إلى عالم الوعى بمسئوليته تجاه أمته وتجاه الإنسانية.

إن الدين والقومية المكونان الأساسيان للهوية العربية كما أن للوعى دورًا مهما ويعدّ من الثوابت الرئيسة للحضارة العربية وأساس حماية الذات وتحصينها. ونتيجة الارتباط القومية بالإسلام تشكلت الهوية الذاتية والخصوصية الثقافية للمجتمع العربى، وأصبحت الهوية العربية لا تتأثر بسهولة ولا تتلاش لأنها محصنة من الانغلاق على ذاتها ولا تذوب فى الآخر، بل متطلعة إلى كل ما هو جديد مع حفاظها عل قيمها، فهى ليست حاجزًا أمام التجديد والتحديث، وإنما هى الخصوصية التى تسعى إلى التمايز دونما تكبر وللانفتاح برؤى متميزة وواضحة.

والحوار الإسلامى المسيحى يمثل لقاءً من أجل إعلاء شأن القيم السامية فى عصر نواجه فيه تداعيات خطيرة تنذر بأفدح الأخطار للسلم والأمن والاستقرار. إنه لا بد من سبيل للتعاون والتفاعل الحضارى بين أتباع الديانتين السماويتين، إن هناك من الثوابت الأساسية ما يتوجب أن ننطلق منها فى حواراتنا، ذلك أن الديانتين الإسلامية والمسيحية تلتقيان فى الإيمان بالله الواحد، وإن دين الله حق، قد جاء لخدمة الإنسان فى حقه فى الحياة الأفضل، وإشاعة السلام والمحبة والوئام وإعمار الأرض، وأن هناك جملة من القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية التى يجب أن يتحلى بها الإنسان، وتلك قواسم مشتركة بين الإسلام والمسيحية.

القرآن الكريم يؤكد أن دين الله واحد، وأن جميع الأنبياء كانوا يبشرون به، بعد أن جعل الله لكل واحد منهم شريعة ومنهاجًا. إن تعددية الشرائع والمناهج الإلهية

مبدأ قرآنى. كما أن القرآن ينقل عقائد وأحكامًا وقصصًا تربوية عن الرسالات السماوية السابقة. وإذا كان تعدد الأديان هو استباق فى الخيرات، فإن ذلك ينبغى أن يكون مجالًا للتعارف. إن الحوار هبة وهبها الله للإنسان، وهو انفتاح على الآخر، وبهذا المعنى هو تعبير عن المحبة بين الخالق والمخلوق، وبين البشر فيما بينهم فالإيمان بالله يوحد البشر، والكتب السماوية كلها تؤكد هذه الحقيقة. ومن هنا تكون نقاط الالتقاء والتواصل عديدة وعميقة ويمكن للحوار بين الأديان أن يبرز هذه النقاط ويعمقها، أما الحروب والمجابهات على خلفية الاعتقاد الدينى، والتى كانت سببًا فى الكثير من الدمار الذى لحق بالإنسانية فإنها لا يمكن أن تكون تقربًا من الله لأنه يدعو إلى المحبة والسلام وليس للكرة والضغينة والتقاتل .

الحوار ينبغى أن يقوم على أساس الاحترام المتبادل، وطالما أن الديانات السماوية فى جوهر واحد، وتجسد مكونًا أساسيًا لشخصية الشعوب والأفراد فإنه يمكن للحوار أن يشكل إطارًا واسعًا يساعد المتحاورين جميعًا على فهم تقاليد بعضهم البعض ودراسة ما يلتقون حوله، وما يختلفون فيه، من أجل تعميق نقاط الاتفاق وتفهم نقاط الخلاف والقبول بها على قاعدة احترام الآخر. الحوار بين الأديان مطلوب لأنه وسيلة للمعرفة، والمعرفة هى السبيل الأمثل للتواصل ونبذ جميع أشكال التزمت والتعصب. ومن المهم فى تقصى المعرفة القراءات الصحيحة للدين على خلفية الثوابت.

عالمنا اليوم قرية كونية صغيرة مسامية الجدران مما يجعل التواصل بين البشر أمرًا محتومًا. وإذا كانت الحقبة التاريخية قد شهدت مجابهات على خلفية اختلاف العقائد الدينية، فإن الوقت قد حان كى يتعاون جميع أبناء الأديان معًا من أجل مواجهة المصير الإنسانى المشترك. إن القرآن الكريم يدعو إلى فتح الحوار مع البشر عامة، فنحن مأمورون بألا ندعو إلى سوء السبيل إلا بالحكمة والموعظة الحسنة، وألا نجادل أصحاب الديانات السماوية إلا بالتى هى أحسن. إن التاريخ يشهد أن

العلاقات بين الإسلام والمسيحية كان لها طابع إيجابى منذ بداية الدعوة الإسلامية، وقد ساهم فى تحسين العلاقة وتطويرها الاحترام الكبير والثقة التى أولاها الرسول محمد ﷺ للمسيحيين، يدل على ذلك دعوته لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة المسيحية، وعقده مع أهل نجران. وآيات القرآن الكريم تؤكد ذلك فى الحديث عن السيد المسيح وأمه العذراء المكرمة، ومودة النصارى للمؤمنين، وأقوال الرسول ﷺ فى عدم إيذاء أهل الذمة، وشواهد التاريخ كثيرة حول التعامل الإيجابى لخلفاء الرسول ﷺ مع المسيحيين، وهو المنهج الذى سار عليه الخلفاء الراشدون.

إن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين رغم ما شابها من مواجهات تسير عمومًا فى هذا المسار، وعليه يتوجب العمل بصورة مشتركة لإزالة ما شاب هذا المسار من تشويش خلال الشروح وتصويب المعلومات المغلوطة التى تروجها بعض وسائل الإعلام حيث لا تتحرى الدقة والموضوعية.

إنه يتوجب تعميق الإدراك بوحدة الإسلام والمسيحية فى جوهر الرسالة، وما تدعو إليه من مبادئ وقيم إنسانية كى يتعمق التفاهم ويزداد التقارب بين أتباع الديانتين ولعله من المفيد أن يوسع الحوار ليكون حوارًا إسلاميًا مسيحيًا يهوديًا من خلال مشاركة ممثلين عن تلك الديانات السماوية التى تلتقى جميعًا فى الإيمان بالله الواحد. إنه السبيل الأيسر لبناء الحياة الإنسانية الكريمة التى تسود فيها مبادئ المحبة والتسامح والمساواة لخير الجميع.

إن لقاء المسلمين والمسيحيين فى حوار لقاء هو فى حدّ ذاته شاهد على الإخاء، وصوت توحش العولمة والدمار والتقتيل فى فلسطين والعراق وأفغانستان لن يعوقنا عن تحمل مسئوليتنا كمؤمنين، ولن يمنعنا من التوجه برسالة الصداقة لمن يرغبون فيها.

نحن جميعًا نقرّ ونعترف بأننا عباد لرب واحد ويمكننا أن نقبل اختلافاتنا، كما

أننا جميعًا كرسنا أنفسنا لخدمة المجتمع الإنسانى واضعين فى الاعتبار قيم العدالة والمبادئ والأخلاق والسلام.

إنه تقع على المؤمنين مهمة خاصة تجاه المجتمع لأنهم يعتقدون أن الله قد خصهم لخدمة الآخرين، لذلك فهم يبحثون عما يجمع البشر سويًا ويعزز الأمانة والتكامل فى العلاقات الإنسانية. ونحن نعتقد أن الله هو الخالق المبدع وعليه نعمل سويًا من أجل حماية جمال الطبيعة ونوعية الحياة. إن الحوار بين المؤمنين فى ديانات سماوية مختلفة من الأهمية بمكان أن يظل كل شخص مخلصًا لإيمانه، ذلك أننا مسلمون ومسيحيون ويهود تجمعنا قواسم مشتركة كموحدين وأيضًا كبشر، نحن نؤمن بنفس الإله الواحد الحى الذى خلق الكون، وجعل مخلوقاته فى أحسن صورة، نحن سفن الله فى أرضه، والباحثون عنه، ونعترف بثراء تقاليد وتعاليم كل الديانات السماوية، ونحن نعترف ونحترم اختلافاتنا، ويحترم كل منا الآخر، ونشجع بعضنا بعضًا فى الأعمال الخيرة على طريق الله. إن حرية الاعتقاد الدينى أمر مهم وضرورى لأنها تعكس أعماق روح الإنسان، وهى سبب وجوهر كل الحريات الباقية، إن كل شخص يتوقع أن يُحترم اعتقاده الدينى، إن حرية الديانة تحترم فى ذات الوقت كل من الله والإنسان ، فهى مطلقة وتبادلية وتتجاوز الفرد إلى المجتمع، ولها بُعد مدنى وآخر مجتمعى. إن حرية الديانة تعد عاملاً قويًا لبناء السلام، لأن وعى الموحدين بكونهم أعضاء فى عائلة إنسانية واحدة يؤدى بهم إلى أن يعتبروا أنفسهم أخوة للجميع، وهم يشاركون بمحض إرادتهم فى المنظمات التى تشجع العدالة الاجتماعية انطلاقًا من إيمانهم وثقافتهم ومسئوليتهم المدنية، ويعملون من أجل السلام والتماسك داخل المجتمعات وبين الناس، وكمؤمنين بأن الله هو الذى يهب الحياة فإنهم يتمتعون بحس تسمو فيه قيمة الإنسان، ويعملون من أجل الدفاع عن الضعفاء فى المجتمع. إنهم من يطلق عليهم صنّاع السلام، لأنهم يفضلون الوسائل الأمنية التى تعزز الفهم والتسامح بدلاً من اللجوء إلى الوسائل العنيفة وهم يدافعون عن أهمية احترام القانون الدولى.

إن الإيمان الدينى الحق يجمع البشر سويًا مع بعضهم البعض ويوحدهم، ويجعلهم يرون الآخرين كأخوة وأخوات، ويجعلهم أكثر مسئولية وكرمًا وأكثر تمسكًا بالنفع العام. إن القادة السياسيين ليس لديهم ما يخشونه من الموحدين الحقيقيين. وعلى النقيض، فإن الموحدين المعروفين والذين ينالون الاحترام لما هم عليه سوف يكونون أكثر ميلاً للعمل سويًا من أجل مجتمعاتهم. إن الموحدين الحقيقيين هم أفضل ترياق ضد كل أنواع التعصب لأنهم يعرفون أن منع إخوانهم من ممارسة ديانتهم والتمييز ضد أنواع الديانات الأخرى، أو الأسوأ من ذلك وهو القتل وسفك الدماء التى حرمها الله إلا بالحق باسم الله هى فظائع وانحرافات يمقتها الله، ولا يوجد سبب أو سلطة سياسية أو دينية تستطيع تبريرها، لذلك فإن كل مجتمع فى حاجة إلى انطلاق مبادرة للثقة بين السلطات المدنية والدينية، وبهذا تكون حقوق والتزامات الموحدين ومجتمعاتهم قد حازت الأسس السليمة والضمانات اللازمة لها، مع الاحترام التام لمبدأ التبادلية أى المعاملة بالمثل لكل أبناء العالم، وإمكانية أن يحيوا إيمانهم بحرية واحترام متبادل، إن أحدًا لا يستطيع الادعاء أو الحصول على الحقوق الشرعية والحريات على حساب سحق حقوق وحريات الآخرين.

إن هناك زخمًا تكنه الديانات السماوية بعضها للبعض الآخر، وهناك تصميم على العمل سويًا مع كل من يحبون السلام، إننا كمؤمنين نعلم أننا مهيئون لهذا السلام الذى بنيناه ودافعنا عنه فى كل مرة نقبل فيه على الله بقلوب مخلصة، ونبحث ونتطلع إلى تحقيق إرادته فى حياتنا اليومية.

ثانيًا- مواطنون لا أقليات:

فى عالم واحد تعيش فيه الشعوب مع بعضها البعض بثقافاتها وأديانها، وتتحول فيه الأسواق إلى سوق عالمى واحدة، حيث وسائل الاتصالات والمعلومات تتلاقى بأشكالها المتباينة، فإن تربية البشر على الالتقاء الحضارى والدينى لها أهمية خاصة. إن

الكثير من النزعات الاجتماعية والسياسية الحديثة فى الشرق والغرب تنتهى بمواجهات دينية حضارية، وتلك النزعات تشتد وتصل إلى استقطابات معقدة للغاية من خلال إعادة إحياء صور العداء الدينى ذات التاريخ القديم.

إن الاعتداءات الإرهابية على مركز التجارة العالمية وعلى البنتاجون فى 11 سبتمبر 2001م وما تبعها من توحش أمريكا وإضعاف حكم طالبان واحتلال أفغانستان، واحتلال العراق، والقتل والفوضى فى لبنان وجنوب السودان تشكل كلها تطورات سياسية حاضرة صعّدت بشدة التوترات والنزاعات مرة أخرى بين الإسلام والمسيحية أو بين الشرق والغرب. إن حديث قادة أمريكا عن الصليبية ضد الإرهاب الإسلامى أثار بعمق غضب دفين وتحيزات فى العالم الإسلامى ضد الغرب المسيحى، ونشّطت صور العداء القديم التاريخى والدينى.

وفى هذا الإطار ولدت مفاهيم مظلومة عن الشرق والغرب معًا تعوق الحوار، وفى هذا الإطار أيضًا تم السعى وبإصرار شديد نحو الحوار بين الحضارات والديانات من قبل مفكرين عقلاء من هنا وهناك: فالكنائس اجتهدت للدخول فى حوار مع المسلمين فى أوروبا، والسياسيون حاولوا أن يحسنوا العلاقات على المستوى الاقتصادى والسياسى والثقافى، ويساهموا فى تيسير اندماج المسلمين فى المجتمع الأوروبى. حيث ظهر منذ عام 1990 مشروع الأخلاق العالمية على أساس أن قضية السلام العالمى تتحقق فقط من خلال السلام بين الديانات، ومن ثمّ فإن كل ممثلى الأديان مطالبون بأن يظهروا القدرة على الميل نحو السلام ويقرروا معًا الإرشادات الأخلاقية المعترف بها من الجميع، وفى عام 1999م- بدأت ألمانيا السعى نحو مبادرة حوار الغرب- الإسلام، كذلك قامت جامعة الأزهر فى مصر بإنشاء قسم للحوار مع أديان التوحيد حوار ورسمى مع الكنيسة، وأعلنت الأمم المتحدة أن عام 2001م هو عام الحوار بين الحضارات بتوصيات من جمهورية إيران الإسلامية والتركيز على التربية التى تراعى الأديان الأخرى، وقدمت صيغًا عالمية

تعالج الموضوعات الخاصة بتعدد الأديان وتعدد الحضارات على كافة المستويات التعليمية. وقد نصت مجلة تبادل الثقافات فى مقدمتها على ضرورة حوار الحضارات، ذلك أن حوار الحضارات منذ 11 سبتمبر لا يكون فقط عملاً أكاديميًا للأدباء أو عبر الندوات والدراسات، ولكنه أحد النواحى المحورية للعلاقات العالمية. وأن الاهتمام الواعى بالعالم العربى والإسلام له مكان الصدارة فى كل أنحاء العالم. إن النزاعات والاستقطابات توضح أن التربية على الالتقاء والتفاهم مع الآخر هى مهمة كبرى، وأن التحيزات التقليدية ومواقف الصدام يجب أن تهدم من الأساس على الأمد الطويل لصالح تفاهم أفضل. المدارس والبيوتات ووسائل الإعلام ودور العبادة والنوادى هى الأماكن التى تصاغ فيها مفاهيم التفاهم والالتقاء مع الآخر. كما أشارت الدراسات العالمية للكتب الدراسية إلى أن تلك الكتب هى إحدى الآليات التعليمية الأكثر أهمية حيث تعكس الأفكار الأساسية عن الحضارات والنقط المضيئة للاعتماد المتبادل بين الأمم والشعوب، والقيم ومساحات التلاقى بين الديانات والحضارات، كذلك تثبيت المعايير السياسية والاجتماعية للمجتمعات والتعايش مع الآخر.

وفى ألمانيا معهد جورج إيكرت لفحص الكتب المدرسية على مستوى العالم أشار إلى أنه يمكن إعطاء إشارات إيجابية للتعايش السلمى بين الشعوب، كذلك أشار إلى حوار العلماء المتخصصين فى التربية حول الموضوعات المثيرة للجدل فى كتب التاريخ والدين والحضارة بحيث تحقق أهمية التبادل الحضارى، وأن تكون المفاهيم التى فى معرض النقاش محققة للقاء الشعوب وتعاونها من أجل الخير والسلام للجميع، والفهم السليم للديانات السماوية وعرض مفاهيم وأفكار صحيحة عن الإسلام والمسيحية.

إنه لابد من إجراء الدراسات العلمية لإيضاح أسلوب وطرائق عرض المسيحية أو الإسلام فى الكتب المدرسية لفهمها وتحليلها كيفيًا وكميًا، وأن تصاغ

استفسارات نقدية لتقديم ملاحظات للنقاش العلمى المتخصص، ومعرفة وجهات النظر المختلفة وما يمكن أن يبقى منها فى عقول المتعلمين، ومعرفة مساحات التلاقى بين الديانات والحوار بين الشرق والغرب. وقد أشارت بعض المقارنات بين الكتب المدرسية المصرية والغربية فى تناول الديانات إلى أن الكتب المدرسية المصرية تعلم التلاميذ احترام جميع الناس والأديان، وتؤكد على ما يشجع على التسامح والاحترام بين جميع المصريين مسيحيين ومسلمين.

إن المؤتمرات الدولية نظمت لمدارسة فكر جديد مؤداه: نتعلم كيف نتعايش معًا، وقد أدى النقاش والمداولات التى تمت إلى تحقيق الأهداف المنشودة مثل تعزيز التحاور بين المشاركين لزيادة نشر الوعى والمعلومات الموثقة عن صورة الثقافة العربية الإسلامية التى تؤمن بمقولة تعلم كيفية العيش معًا، وتعزيز الحوار بين الثقافات، وتأكيد ثقافة السلام والعمل سويًا على تحقيق الأهداف الثابتة والآليات المناسبة لتحقيقها والسعى دومًا من أجل معرفة الأخ وليس الآخر.

وقد انتهت توصيات المؤتمر الدولى للحوار الأوروبى العربى الإسلامى المسيحى المنعقد فى القاهرة فى ديسمبر 2004م إلى أنه بناء على مبادرة اليونسكو تدعو جامعة الدول العربية، والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الأليكسو) والاتحاد الأوروبى وكل الجهات المعنية على العمل فى مراجعة الكتب المدرسية سواء فى المدارس الحكومية أو الخاصة بغرض التغلب على الأخطاء السائدة، والانطباعات السلبية، والتخلص من الأحكام المسبقة التى قد تقلل من فهم مكونات الحضارات والثقافات والتقاليد والمعارف والديانات الأخرى، وكذلك الاهتمام بدرجة أفضل بالتنوع الثقافى بناء على الإعلان العالمى للتنوع الثقافى 2001م من خلال التنسيق مع المجلس الأوروبى لإعطاء الأولوية للحوار بين الحضارات والديانات. كما يدعو المؤتمر المؤسسات المعنية لتشكيل مجموعة عمل من الخبراء المفوضين لتحديد وإيجاد الخطوات العملية المناسبة لمراجعة وتطوير الكتب المدرسية فى المنطقتين الأوروبية

والعربية، وكذلك الاستفادة من مصادر وخبرات المنظمات غير الحكومية مثل معهد جورج ايكرت العالمى للكتب المدرسية والمعهد السويدى فى هذا المجال، وبحيث تركز أنشطة مجموعات العمل على تحقيق أهداف قصيرة ومتوسطة المدى. إن القيام بتنظيم لقاءات الخبراء كل ستة أشهر يجمع فيها مؤلفو الكتب المدرسية مع المعلمين للمناقشة، والقيام بأنشطة ومبادرات تساهم فى تصحيح الأخطاء المتعلقة بالحقائق والمعلومات المذكورة فى الكتب المدرسية على أن تكون موثقة، والعمل على أن يتم مناقشة مبادئ التدريس لمواد التاريخ والعلوم الاجتماعية والديانات بحيث نتخلى عن الذكريات المؤلمة ونسعى لعقلنة أحداث التاريخ فى إطار العيش معًا، ومناقشة طرائق مناسبة لتقديم القضايا العامة والحساسة المرتبطة بالإسلام والمسيحية فى الكتب المدرسية، وتشجيع تبادل البعثات الطلابية وإنشاء مدارس مشتركة وإقامة حلقات تدريب للمدرسين، ولمؤلفى الكتب المدرسية لتعزيز ثقافة السلام، والعيش معًا، واحترام الآخر، والاعتماد المتبادل، وتفعيل نقاش من شأنه أن يؤدى إلى إقصاء المشاكل وإزالة سوء الفهم إضافة إلى تطوير العلاقات الأوروبية العربية وتحسينها.
إن وصف المسلمين والناس فى الغرب بطريقة مهينة، وتصويرهم على أنهم أشرار يعوق الحوار البنّاء الذى نحتاج إليه لتطوير علاقاتنا داخليًا وخارجيًا، ولابد لهذه العلاقة أن تكون مطورة دائمًا ومثمرة دائمًا. وهو ما يتطلب معرفة الذات والآخر وزيادة التفاهم وبناء الجسور بين الثقافات والديانات بالحوار الثقافى الدينى النقى.
إن صك الإرهاب ساهم فى تعزيز الشعور بالعداء وعليه لابد أن تكون وسائل الإعلام أداة فعالة فى تحديد مفهوم الإرهاب وإقصاء الصورة النمطية المغلوطة والمواقف المتحاملة. إن حرية الرأى أمر مركزى فى الديمقراطية وهى تشمل حق المناقشة والانتقاد دونما انتهاك أو إهانة أتباع الديانات الأخرى. إن الاحترام المتبادل والتسامح هما من القيم العامة التى ينبغى علينا جميعًا أن نسعى للمحافظة عليها. إن رُهاب الإسلام (إسلاموفوبيا) مشكلة اجتماعية دولية خطيرة يتوجب مكافحتها بقوة على غرار العنصرية ومعاداة السامية.

والحرية الدينية أصل من أصول الشريعة الإسلامية، ذلك أن كل قول أو فعل يأتى عن طريق الإكراه أو الإجبار دونها إذعان قلبى وتصديق نفسى لا طائل من ورائه، فإذا أكره إنسان على الدخول فى عقيدة معينة أو دين معين ازداد كرهه لها وازداد نفورًا منها. فالإكراه والاعتقاد نقيضان لا يجتمعان، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرةً للآخر. ذلك أن الدين هو تصديق بالقلب وإذعان فى النفس ليس فيه إكراه أو إجبار، وإنما الذى فيه هو الاختيار المطلق والرضا التام بها يستقر إليه قلب الإنسان. إن العقل أساس التكليف وكذا الاختيار، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن من المعقول أن يلجأ الإسلام فى دعوته إلى ما يتنافى مع النظر والاختيار من فكر، وإلجاء، واستعمال وسائل الضغط والشدة، فذلك كله يتنافى مع النظر الصحيح ومع الاختيار المطلق وهما أساس التكليف، وأساس صحة الإيمان. ولقد أهدر الإسلام إيمان الإلجاء وكفر الإلجاء كذلك، ولم يرتب عليهما شيئًا من الأحكام. ثم إن الإكراه وهو منهى عنه من ناحية المبدأ هو عديم الجدوى من ناحية الاعتقاد، ومن ناحية العمل، وذلك لأن الإكراه هو أن تلجئ غيرك إلى الأخذ بها تراه ولكنه من العسير إن لم يكن من المستحيل أن تجعله يعتقد رغم أنفه.

إن الإكراه على العقائد لا يأتى بمؤمنين صادقين، وإنما يأتى بمنافقين كذابين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم. والدين الإسلامى لا يعترف بمثل هذه المظاهر، ولا يقبل إلا الإيمان الذى انبعث عن طمأنينة قلبية وعن حرية نفسية، وعن مشاعر نقية، تقبل ما تقبل وتكره ما تكره عن اختيار لا عن إجبار.

إن الرسل عليهم السلام جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وهى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ووجوب التحلى بمكارم الأخلاق، وقد أدوا رسالتهم عن طريق التبشير والإنذار، تبشير كل من أخلص العبادة لله بحسن العاقبة، وإنذار من أشرك مع الله عز وجل فى العبادة آلهة أخرى بالخسران. وقد سار النبى محمد ﷺ على النهج الذى سار عليه الرسل السابقون، فكانت دعوته تقوم على التبشير والإنذار، ولم تقم

فى يوم من الأيام على القهر والإجبار، وسار على هذا النهج بأمر ربه.. والدين فطرة لا تحرسها القوانين، ولا اللوائح وإنما يحرسها اقتناع الإنسان بها وإذعانه لها. ومتى اقتنع الإنسان بعقيدته وأذعن لها شعر معها بالحرية التى لا يقيدها شىء سوى ما حرم الله. وهذه الفطرة متى استقرت فى النفس عاش الإنسان لأجلها وكره لأجلها، وحارب من أجلها، وسالم من أجلها، وضحى بحياته من أجلها.

إن فى الطبع الإنسانى جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام، فكما أن المعدة تحتاج إلى الطعام فإن الروح أيضًا تحتاج إلى الاعتقاد. إن الروح تجوع كما يجوع الجسد، وإن طلب الروح لطعامها كطلب الجسد لطعامه حق لا يقبل الجدل. إن الحاسة الدينية فطرة بعيدة الغور فى طبيعة الإنسان وحق لا يقبل المراء. إن الإنسان يجب أن يؤمن، وهو لا يستقر فى وسط هذه العوالم بدون إيمان.

إن الحرية الدينية تعنى أن كل إنسان له عقيدته التى آمن بها. هذه الحرية لا تمنع من التعاون بين الناس جميعًا على اختلاف بمذاهبهم وعقائدهم. التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان. التعاون بمعنى الوقوف إلى جانب المظلوم حتى ينتصر، والوقوف فى وجه الباغى الظالم حتى يندحر وينكسر. التعاون على نشر السلام والأمان والرخاء فى المجتمعات الإنسانية، التعاون من أجل تعمير هذا الكون بكل ألوان التعمير التى أحلها الله . إن الذى يحاسب على العقائد هو الله عز وجل، وهو الذى سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون. إن شريعة الإسلام قد أمرت أتباعها أن يمدوا يد السلام إلى كل من يمد يده إليهم بالسلام.

إن الحوار بين المسلمين والمسيحيين تجمعنا فيه قومية واحدة هى القومية العربية، ولغة واحدة، وإيمان واحد. وتجمعنا فى هذا الحوار أيضًا مصالح مشتركة، ومصير واحد، وقيم وأخلاقيات. إن دورنا كمثقفين ومؤمنين أن ننشر الخير على الأرض، وأن نوجه التدين إلى تحقيق الصالح العام، وإلى حل المشكلات الاجتماعية والبيئية والتنموية، وإلى نشر السلام والخير بين الناس، فلنقترب من بعضنا البعض،

ولنتذكر فى كل هذا أن الله تعالى قال فى سورة الحجرات الآية (13) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾. إن التعارف هو فضيلة كبرى أن يعرف كل منا الآخر. وإذا تعارفنا مع بعضنا البعض سوف نتقارب ونتفاهم ويطمئن كل منا إلى أخيه، وتكون النتيجة أن نتعاون جميعًا. بالحوار تلتقى العقول والأفكار، ويمكن تصحيح أية صورة مغلوطة أو خاطئة. والحوار فى التعليم الإسلامى ليس صراعًا بين الأديان والحضارات وإنما هو تعاون بين الكل. ليس هو مناظرات عقائدية إنما هو التفاف نحو القيم الروحية المشتركة. كلنا متدينون المسلم والمسيحى واليهودى، وكلنا نعبد الله، وكلنا نحب الفضيلة والخير وما يبقى هو أن نعمل بها معًا. بالحوار يمكن لكل منا أن يفهم الآخر، وأن يكتشف الخير الذى فيه ويحب الخير الذى فيه. وبالحوار يمكن التعرف على نقاط التواصل ونقاط التلاقى. على أن المبدأ الأساس فى الحوار أن تحاور الإنسان لكى تريحه لا لكى تهزمه. ولذلك فإن من تعاليم المسيحية قوله كنت مع اليهودى كيهودى لكى أريح اليهودى، ومع اليونانى كيونانى لكى أريح اليونانى ومع الذين بلا ناموس أى بلا شريعة كى أريح الذين بلا ناموس. كنت مع الكل كل شىء لكى أريح على كل حال قومًا. فالحوار، هو مفتاح تفتح به القلوب والأفهام، فرابح الناس حكيم. والدين دعا إلى السماحة فى الحوار فلو كنت فظ القلب لانفضوا من حولك، فهناك مساحة واسعة بيننا يمكن أن نعمل فيها، يمكن أن نعمل معًا فى نشر الفضيلة والبر ومقاومة الرذيلة، ويمكن أن نعمل فى قضايا الوطن، ويمكن أن ندعو إلى الإيمان بالله.

إن الله منذ البدء خلق الإنسان حرًا، وخلق الملائكة أحرارًا، وعن طريق الحرية أمكن أن يخطىء الإنسان. ففى التوراة يقول الله عز وجل: قد جعلت أمامك الحياة والموت، أمامك البركة والنعمة فاختر الحياة لكى تحيا. وقد ترك الله الناس أحرارًا حتى فى الأوقات التى انحرف فيها البعض إلى إنكار الله، ولكن مع الحرية الدينية

توجد المسئولية، ويوجد الثواب والعقاب، ومع الحرية أيضًا أوجد الله الوحى وأوجد الوصايا وأوجد النعمة التى تسند الإنسان فى جهاده الروحى. والحرية الدينية هى حرية فى العقيدة وحرية أيضًا فى السلوك، ولكن ينبغى فى السلوك أن تكون الحرية منضبطة، فلا يستطيع الإنسان أن يدعى الحرية وهو يعتدى على حريات الآخرين، أو على حقوق الآخرين، بل حتى لا يستطيع إنسان أن يقود عربته ضد قواعد المرور على أساس أنه حر يسير كما يشاء، فالحرية مرتبطة بالانضباط، مرتبطة بوصايا الله، مرتبطة بالنظام العام، ومرتبطة بالقانون أيضًا. نحن نريد هذه الحرية الدينية المنضبطة لنشر جميع الخير ونمنع الجميع عن الشر ولا نرغم أحدًا. إن الحرية الدينية هى علاقة بين الإنسان والله، علاقة يحكمها الضمير، وتتعلق بالقلب من الداخل. فالكتاب المقدس يقول: يا بنى أعطنى قلبك ولتلاحظ عيناك طرقى. فالله يريد قلب الإنسان أن يكون نقيا طاهرًا، وكل خير يأتى عن طريق الإرغام لا أجر له. إننا نريد أن نعيش أحرارًا مع الله. حرية تربطنا بالحب والإيمان نحب بعضنا بعضًا ونعيش فى سلام مع بعضنا البعض، والسلام هو السلام مع الله وسلام مع الناس، وسلام داخل النفس مع الضمير، حيث يقول الكتاب المقدس **"لا سلام قال الرب للأشرار"** لأن الإنسان الذى يعيش فى الخطيئة ويعصى الله يفقد سلامه مع الله ويفقد سلام ضميره ويفقد راحة قلبه. فلنعش كلنا فى سلام مع بعضنا البعض، نتعاون فى نشر الخير، ونرتبط باستمرار ببعضنا برباط الحب والسلام.

نحن أخوة فى الإنسانية حيث إن النظرة الإسلامية تنظر إلى البشر جميعًا باعتبارهم أسرة واحدة ينتسبون إلى رب واحد، وينتمون إلى أب واحد، هذا ما قاله الرسول محمد ﷺ فى حجة الوداع **"أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب"**. وعليه فنحن أخوة فى الإنسانية وفى الإيمان بالله الواحد، ونحن أخوة فى الإيمان بالوحى وبالنبوة وبالرسالة، ونحن أخوة فى الإيمان بالآخرة، وأن هناك جزاءً وثوابًا وعقابًا وجنةً ونارًا، ونحن أخوة فى الالتزام بالقيم

الأخلاقية التى جاءت بها الرسالات السماوية جميعًا. والحوار بين هذه الديانات واجب دينى ومطلب حضارى وضرورة أمنية، ونحن جميعًا نؤمن بالتعددية الثقافية واحترامنا للخصوصيات الدينية والحضارية، وأن المؤمن أخو المؤمن، وأن الأخوة لا الآخرون مواطنون لا أقليات، والدين لله والوطن للجميع.

إن حق المرء فى ممارسة دينه هو حق أساس من حقوق المواطنة غير أنه لابد من الإشارة إلى أن الدين لا يزال يشكل عاملاً فى النزاعات، إلا أنه يتم أحيانًا دمج السياسة والدين على نحو سلبى. وفى العالم المعاصر هناك حوار دينى ونقاش يتناول إمكانية تفسير الإسلام تفسيرًا جديدًا بمنحى حداثى، وهو تفسير يسمح بوجود تمييز مؤسساتى بين ما هو دنيوى وما هو دينى، وحيث يتوجب أن يتمكن الدين من التأثير على السياسة ولكن دون أن يهيمن عليها، وأنه من غير المقبول اعتبار الدين مبررًا للانحراف عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.

إن أوضاع الديمقراطية وحقوق الإنسان فى العالم الإسلامى المجاور للاتحاد الأوروبى تدعو للقلق، وتتحمل الأنظمة السياسية مسئولية كبيرة فى ذلك. إن هناك مهمة تقع على عاتق الدول الغربية وهى أن تساهم من خلال سياسة خارجية فعالة فى تطوير الديمقراطية، وزيادة احترام حقوق الإنسان فى المنطقة. إن زيادة انتشار الديمقراطية تقوض أسس الإرهاب والحرب والنزاعات المسلحة، وتقلل من مخاطرها، وبذلك فهى تؤدى إلى زيادة الأمن الدولى على المدى البعيد. إنه يتوجب أن يكون الهدف هو جعل بلدان العالم الإسلامى حرة ومستقرة وديمقراطية، حيث يحتل احترام حقوق الإنسان مكانًا بارزًا فيها.

إنه ليس هناك فى الإسلام أو فى الثقافة الإسلامية ما يحول دون تطبيق الديمقراطية، ولكن الشرط اللازم لتطبيق الديمقراطية هو وجود تفسير تقدّمى وحديث للإسلام. إن هناك نظرة إيجابية كبيرة تجاه ما تم اتخاذه من خطوات لزيادة الديمقراطية فى العالم الإسلامى، وحيث إنه من المهم دعم القوى التقدمية التى

تعمل من أجل الديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان، وعندما يكون هؤلاء الناشطون محليين، فإن إمكانية نجاح عملية تطبيق الديمقراطية تكون أكبر. إن الديمقراطية بوصفها نظامًا سياسيًا للحكم تتطور بشكل أمثل عندما تأتى من الداخل ولا ينبغى تحت أية ذريعة أو تفسير إقحامها من الخارج.

إن الشائع والمتعارف عليه أن هناك قوى معتدلة واسعة ضمن الإسلام السياسى، أما الإسلاميون المتطرفون أو ما يطلق عليه الإسلاموية المتطرفة فيجب إدانتها، لأن العنف ليس وسيلة شرعية لتحقيق تغييرات أيًا كان نوعها فى أى مجتمع من المجتمعات، ويجب احترام المبادئ الديمقراطية ومبادئ الدولة الدستورية، إن حقوق الإنسان أمر عالمى، ولا يمكن تبرير الانحراف عنها.

إن كافة تقارير التنمية الإنسانية العربية تركز على النقص فى المساواة ويوصف هذا النقص على أنه إحدى أهم مشكلات العالم العربى، وغالبًا ما يكون للتمييز أساس قانونى، ولذلك فإن الكثير من النساء يشعرن بأنهن لا يتمتعن بأى حماية من العنف، بما فى ذلك العنف الجنسى، إن حقيقة كون النساء فى عالم ضعيف فى العالم الإسلامى يشكل عائقا خطيرًا أمام علاقات العرب بالغرب، ولذلك كان على المؤسسات الدولية المعنية أن تعمل فى هذا السياق دون كلل من أجل تعزيز وضع النساء.

إن أدوار المجتمع المدنى هى الحل فى العملية الديمقراطية والحداثة وبناء المؤسسات وخلق الهوية الوطنية والوحدة، وعليه فإن دعم المجتمع المدنى يعتبر أمرًا مركزيًا فى التعاون بين أقطار المنطقة الشرق أوسطية. إنه يمكن ربط مشكلات العالم الإسلامى جزئيًا بافتقاره إلى التنمية الاقتصادية، وقد فشلت محاولات تقليد المنهج الأوروبى فى التنمية فى عدة حالات، ونتج عنها رد فعل معاكس سلبى. إن أحد حلول المشكلات الاجتماعية الاقتصادية الموجودة فى أجزاء من بلدان العالم الإسلامى قد يكون فى تقديم معونات كبيرة لتحسين الأوضاع المعيشية للناس، كما

أن أحد التفسيرات المهمة لنقص التنمية فى المنطقة العربية هو الاضطهاد السائد فى تلك المنطقة وإساءة استعمال السلطة من قبل الأنظمة الحاكمة، وإهمال قيادة المجتمع. وعليه يتوجب استخدام قنوات الحوار والتعاون المتاحة على نحو فعال، ويمكن أن تساهم خطط العمل مع الشركاء ضمن سياسة الحوار التى ينتهجها الاتحاد الأوروبى فى الوصول إلى الهدف المتمثل فى جعل بلدان العالم الإسلامى حرة مستقرة ديمقراطية، وعليه يتحمل الاتحاد الأوروبى وأمريكا توفير ظروف إيجابية لتحقيق تطور اقتصادى وديمقراطى، كما أن انضمام تركيا ذات الطابع الإسلامى إلى الاتحاد الأوروبى فى المستقبل سيكون مساهمة قيمة لتطوير العلاقة بين الاتحاد الأوروبى والعالم الإسلامى، كذلك دعم الحوار الديمقراطى.

إن أطرافًا أوروبية عديدة قادرة على بناء جسور الحوار، ذلك أن العمل الديمقراطى الذى تقوم به الأحزاب السياسية يستحق أن يكون محط اهتمام، كما أن الاتصال الحزبى يعتبر قيمة كبيرة بالنسبة لأوروبا والمسلمين. وعليه يتوجب زيادة موارد دعم الديمقراطية من خلال المنظمات الدولية، وفى ذات الوقت يتوجب الإشارة إلى البعد الدينى، حيث إن للدين دورًا مركزيًا فى العالم الإسلامى. ويجب أن يكون التعاون الأوروبى الإسلامى قائمًا على إدراك القيم الدينية والثقافية فى إطار استراتيجى يفعل الحوار الدينى الثقافى، ومعها جهود متكاملة لتعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان فى المنطقة العربية. إن الشروط اللازمة لكى تصبح هذه القيم مقبولة بوصفها عالمية، هو أن تتسم المقاربة بالاحترام والاستعداد للإصغاء والتعلم بعيداً عن فرض قيم معينة بأسلوب المتعالى، حتى لا تفقد الرسالة المنشودة مصداقيتها. وفى هذا السياق يكون الحوار بين الثقافات أمراً فى غاية الأهمية لحفز المزيد من التفاهم. إن الحوار، بوصفه أسلوبًا يتمتع بأهمية حاسمة فى تطوير العلاقات الأوروبية والدولية الإسلامية، يتطلب المؤسسات التى تعمل على خلق الحوار، شريطة أن تعزز هذه المؤسسات مع تعزيز التمثيل الدبلوماسى مع العالم الإسلامى.

إن النزاع الإسرائيلى الفلسطينى يزيد من صعوبة تطوير العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامى، ويزيد هذا النزاع من حدة التعرض بين إسرائيل والغرب من جهة والعالم الإسلامى من جهة أخرى. إن حلاً سلميًا ودائمًا وعادلاً للنزاع الإسرائيلى الفلسطينى من شأنه أن يسهل التطور نحو الديمقراطية والاستقرار والرخاء الاقتصادى فى منطقة الشرق الأوسط بأكملها. إن المفاوضات المباشرة بين الطرفين والجهود المتضافرة للمجتمع الدولى تشكل شروطًا أساسية للتوصل إلى حل عادل لهذا النزاع الدائم.

لقد انسحبت إسرائيل من غزة، وهو أمر مرغوب فيه دوليًا، شريطة أن يشكل هذا الانسحاب الخطوة الأولى نحو إنهاء احتلال المنطقة الفلسطينية بطريقة حرة وعادلة، وأن ينجم عنها وضع سياسى جديد يجب على المجتمع الدولى وإسرائيل أن يتعاملا معه بطريقة ذكية وحكيمة، كما أن الكيفية التى ستدير وفقها الحكومة الفلسطينية المسئولية السياسية الملقاة على عاتقها ستكون ذات أهمية حاسمة - إذا ما تم العودة إلى الأوضاع الفلسطينية المنشودة لتطورات المستقبل ولإمكانات التعاون بين بلدان المنطقة الشرق أوسطية وأوروبا معًا، شريطة أن تنفتح حماس نحو احترام الاعتراف الدولى فى الوجود لدولتين فلسطينية وإسرائيلية تعيشان معًا فى المنطقة الشرق أوسطية. وبالقدر نفسه تحمل أمريكا ومن يساندها العصا على كاهلها وترحل عن دولة العراق العربية، وأن تتخلى عن فكرة الهيمنة على العالم الإسلامى واستنزاف خيراته، والتحول من النظرة إلى الإسلام باعتباره الآخر العدو. إن هذا العدوان على تلك الدول الآمنة داخل حدودها الدولية يساعد على تردى الوضع الأمنى فى المنطقة بأكملها وصعوبة الأوضاع بشكل عام تحد من إمكانيات الحوار وتطوير العلاقات.

إن الإنهاء التدريجى والسريع للوجود الأمريكى والإسرائيلى فى المنطقة العربية أمر أساس له الأولوية الأولى فى تحسين علاقات العرب والمسلمين مع أوروبا

وأمريكا، كذلك فإن جهود الأمم المتحدة الفاعلة ستكون ضرورية فى تحقيق سلام آمن ودائم فى المنطقة الشرق أوسطية. إن كون الدول العربية والإسلامية آمنة ومستقرة وحرة هو أهم الظروف الجيدة لتطوير علاقتنا مع الآخر من أجل خير الجميع.

ثالثًا: ميراثنا وثقافتنا تشكل هويتنا:

تراث كل أمة وثقافتها وحضارتها وعاداتها وتقاليدها تشكل هويتها وخصوصيتها وهى بذلك تميزها. إن تراث الأمة هو أحد عناصر الثقافة التى تنتقل من جيل إلى جيل، وهو بذلك يعد قواعد السلوك الخاصة بجماعة أو طائفة معينة، والتراث العربى هو الحضارة العربية الإسلامية بكل ما يحتدم فيها من ممارسات وعمليات ومشروعات، وهو تراث تطلعى يتسع ليشمل كل المذاهب والفروق، وهو الإطار المرجعى للهوية العربية، وهو تراكمى بفعل الزمن، وهو وعاء القيم الثقافية التى يتوارثها المجتمع، والتى لا تزال حية وفاعلة وتمارس، وهو سلطان السلف القوى المؤثر فى الأفراد والذى يصل إلى منزلة التقديس، وفى هذه الحالة فإن النظرة تكون دائمًا متجهة إلى الخلف، وبالتالى لا تستطيع الهوية الاستمرار ولا تستطيع مواكبة التقدم والتطور العلمى. وهذا لا يعنى أن كل متوارث سلبى أو بأن كل ما جاء من السلف من قيم ثقافية لا يزال صالحًا للحياة، لأن هناك ما هو أصلح منه، وما هو أقدر على الدفع بالهوية إلى الأمام وإلى الحضارة التقنية.

إن الهوية هى من أكثر مفاهيم العلوم الاجتماعية أهمية وتعقيدًا فى آنٍ واحد حيث إنها تخص كل مجتمع وتميزه عن غيره، وتكسبه خصوصية فى اللغة والعرف والموطن والقيم، وهى من السمات التى تميز الأفراد بعضهم عن البعض فى الاسم والجنسية والسن والحالة الاجتماعية والمهنية، وعليه فهى تستعمل للإشارة إلى المبدأ الدائم الذى يسمح للفرد بأن يبقى هوهو وأن يستمر فى كينونته عبر وجوده السرمدى على

الرغم من التغيرات التى يعيشها أو يعانيها، إن هوية الفرد ثابتة بالرغم من أنه يتغير فى بيئته الجسمية وفى زمانه ومكانه وفى تفكيره وتعلمه وتطور حاجته ورغباته.

إن الهوية رابطة بين الماضى والحاضر والمستقبل، وهى توحد عدة أفراد وتميزهم وإن هؤلاء الأفراد فيما بينهم مميزون بعضهم عن بعض، فهوية الإنسان هى مرجعيته وذاتيته، هى منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية تنطوى على نسق من عمليات التكامل المعرفى وتتميز بوحدتها التى تتجسد فى الروح الداخلية التى تنطوى على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها. إنها تتمثل فى وحدة المشاعر الداخلية فى الشعور بالاستمرارية والديمومة والتمايز، وتعنى وحدة العناصر المادية والنفسية التى تجعل الفرد متميزاً ومختلفًا عن غيره.

إن الأسرة أهم وأول الوحدات الاجتماعية التى ترسخ فى الطفل القيم وثقافة الوطن من خلال تربية أفرادها، وتلقينهم الثقافات بوصفها الآداب العامة الواجب على الفرد اتباعها والمقدسات التى يجب عليه الالتزام والإيمان بها، وهى التى يتعلم من خلالها لغته ومبادئه وعقيدته وأخلاقه وقواعد سلوكه والمبادئ المؤسسة للشعور بالأنا الجمعى أى هوية الجماعة الوطنية التى ينتمى إليها، وقد يهتز هذا الشعور داخل الفرد نتيجة مروره بظروف معينة إلا أن القيم والمبادئ والمعتقدات التى غرستها بداخله الأسرة ثابتة وهى التى من خلالها تتحدد هويته. ومن بعد الأسرة تأتى المدرسة باعتبارها مؤسسة الإنتاج الاجتماعى، ولها وظائف وأهداف متكاملة مع أهداف ووظائف الأسرة ومهمة المدرسة الإرشاد والتوجيه وتنمية الوعى لدى الأفراد لتكوين وبناء البنية التحتية للثقافة الوطنية.

للأسرة والمدرسة مسئولية ودور يقومان به معًا ويتحملانه معًا فى الحفاظ على الهوية والتماسك والتمسك بها وإبراز خصوصية الأفراد بالتربية والتوجيه والإرشاد والتوعية وترسيخ القيم والأصول والمبادئ. فهما معًا حقيقة اجتماعية تحشدان مجموعة من المعتقدات والقيم والتقاليد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تميز

مجموعة من الأفراد عن غيرهم. إنهما، أى المنزل والمدرسة، تتحدد من خلالهما الشخصية الذاتية. فهى ليست شيئًا ساكنًا، وهى متجددة كما تتجدد اللغة والمواريث. إنها تتكون من الموقع وهو عبقرية المكان، إنها الهوية البصمة، والانفتاح على الآخر لا يلغى تميزها لأنها تعتبر من الثوابت حيث يحدث فيها بعض التطور على مدى طويل من الأزمان، إنها نسق مركب له مكونات متفاعلة ومتغيرة فى التاريخ، هى تتكون من عناصر الأساس يستمد من التراث وله مكونان لأيديولوجى والتاريخى والاجتماعى للأمة. الهواية الذاتية تتعلق بالانتماء الاجتماعى والمقومات المتمثلة فى الأصل والانتماء لأى مجتمع العادات والتقاليد والقيم، حيث إن الهوية الذاتية تجعل للفرد قيمة وتشكل خصوصيته وتبرزها ذلك أن الذات هى الجوهر والهوية والشخصية وهى التى تعبر عن الشعور والتفكير. والهوية تتغير وتتطور إما فى اتجاه الانكماش أو فى اتجاه الانتشار، إنها عينة تجارب أهلها ومعاناتهم وثقافتهم واحتكاكهم بالهويات الثقافية الأخرى سلبًا أو إيجابًا؛ إنها تبرز ثقافة المجتمع وقيمه وتعطيه الخصوصية وتميزه عن الآخر، وهى تشهد عمليات تحوّل عبر الزمن نتيجة إدخال متغيرات ذات تأثير على قيم الهوية.

إن أجدادنا العرب فى فترة ظهور الإسلام وانتشاره والتبشير به خرجوا إلى مناطق عريقة لكنهم لم ينصهروا كما حصل لغيرهم بل كونوا ثقافة خاصة بهم، ووضعوا أسسًا للحضارة، وظلوا متمسكين بخصوصيتهم وهويتهم العربية ودينهم الإسلامى. إن الهوية اليوم جعلت من العالم كله قرية صغيرة عن طريق التقنية التى قرّبت المسافات، واخترقت الحدود، وفى ضوء ما يطرأ على العالم من وسواس اندثار الاختلاف والتمايز وأدى ذلك إلى اختلاط الثقافات حيث أصبحت ثقافة واحدة، وما نخشاه أن تكون الهويات الثقافية فى طريقها إلى الزوال عن طريق التحديث والأمركة والتلفزة وأشكال توحيد أنماط المعيشة. وهويتنا العربية تتأثر بالآخر وبوسائله المتقدمة وبما يسمى ثقافة الاختراق، وهذه الثقافة تبث أفكارًا وآراء غايتها

طمس الثقافة والقضاء على القيم المحددة للهوية. والعرب دائمًا فى حالة استقبال لثقافة الآخر وتقنيته المتطورة، وبما أنهم لا ينتجون أيًا منها ففى هذه الحالة تكون هويتهم معرضة للخطر، وذلك بشرائهم التقنية بأعلى الأثمان وبعد فترة بسيطة تصبح دون نفع ذلك أن التطور أسرع من أن يعطيها حقها فى الاستعمال.

هل الذى يضعف الهوية هو الجديد من الآخر، أم التمسك بالقديم هو الذى يضعف الهوية؟، ففى هذه الحالة تكون المجتمعات غير متطورة، وغير مواكبة للتقدم الحضارى والعلمى بل مستمرة فى الانسحاب والتراجع والانعزالية من القيم الاجتماعية التى تشكل الذات، والتى تؤدى إلى نهاية الهوية حيث المحافظة والتقوقع والتنكر لكل تجديد أو تقدم. وما ينتج عن ذلك هو حالة تخلف وتمسك بالماضى، إذ العزلة تؤدى إلى نهاية الهوية الذاتية العربية أى الانفتاح على الآخر بلا حدود.

إنه عندما يتم الانغلاق على الموروث الثقافى والقيمى تصبح الذات فى حالة لا تطلعية، ولا يمكن أن تواكب التغيرات التى تحدث. ولكن ينبغى على الهوية أن تكون تطلعية لها مجال حيوى تبقى فيه قادرة على أن تكون هى هى فى أثناء عملية التواصل والتفاعل والتكامل مع الآخرين، كما أنها قادرة على الأخذ والعطاء دون حدود، والنمو والتقدم والتطور ومواكبة الحضارة لكل ما هو جديد دون أن تفقد الأصالة، وقادرة أيضًا على التجديد فى مسار لا يخرج بها عن جوهرها فى أثناء تعاملها مع الآخر، فهى ليست شيئًا ثابتًا جامدًا، بل هى خلاصة تاريخ من التجارب الثقافية والحضارية، وتعتبر أمرًا قابلاً للتعديل والتكيف والتفاعل مع الهويات الأخرى بشرط أن يتم ذلك باختيار واع ضمن معادلة متكافئة وكحاجة ضرورية للأمة العربية. إن العامل الأهم فى تحديد هوية الأمة هو خلفيتها الثقافية التاريخية والحضارية وتطورها العلمى والتجارب المختلفة، والحالات والأوضاع التى تمرّ بها والتى تصقل وتصهر وتقوى هويتها وهوية أفرادها، وتبرز لهم الخصوصية التى

تميزهم عن الآخر. إننا نصنع أنظمتنا الثقافية والاجتماعية ولكن هذه الأنظمة تشكل وتكوّن هوية الأمة. إن الهوية القومية للإنسان العربى هى الهوية العربية التى لها جذورها ومقوماتها الخاصة بها وقوتها تتمثل فى العادات والتقاليد والأعراف والمعتقدات وأفكار التاريخ وأحوال المعاش، وكلها تعلى قيمة الإنسان وهى الإحساس الرفيع بالانتماء ووضع الحدود بين النحنُ والهُم، وتستمر فى الوجود ما بقيت المقومات الاجتماعية والثقافية التى تبلور وتبرز ذلك. والثقافة العربية بعد ذلك ميدان واسع للانفتاح الذى يؤدى إلى اعتبار الذات والتمسك بهويتها والتطلع إلى الآخر، وهو ما يجعل الهوية العربية فى حالة استمرار وذلك بتمسكها بالموجب، وتنقية الثقافة بما يؤدى إلى تطورها وتقدمها، ونحن نعيش عصر الاندماج العالمى والانفتاح بما يمكن الأفراد والجماعات من تأدية أدوارهم الثقافية الوطنية والعالمية معًا. إن الإنسان العربى الذى نريده هو الذى يسعى للمحافظة على الذاتية العربية الإسلامية والخصوصية من ناحية، والإلمام بثقافة الآخر العصرى من ناحية ثانية، وعلى ألا تحل ثقافة الآخر محل الثقافة العربية بل نأخذ منها ما يفيدها وتحتاج إليه. إنه بدون هوية ممتلئة بمقوماتها يكون الانفتاح على الثقافات خاصة المهيمنة منها مدعاة للانزلاق نحو الوقوع فريسة الاستلاب والاحتراق.

إن الدين جوهر الوجود الإنسانى، وروح الحياة الإنسانية، فهو ضرورة من الناحية العقلية، حيث يحل ألغاز الوجود، ويجيب عن الأسئلة الخالدة التى سألها الإنسان منذ بدأ يفكر: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ السؤال عن المبدأ والسؤال عن المصير والسؤال عن الغاية. الدين هو الذى يجيب الإجابة الشافية، ويريح الإنسان من عذاب الحيرة والشك. والدين من الناحية النفسية هو فطرة وليس اكتسابًا ذلك أن الإيمان هو الوجود، وأنا مؤمن إذن فأنا موجود. ومن الناحية الأخلاقية فإن الإيمان هو الذى ينشئ الوازع الذاتى داخل الإنسان، فالقوانين كلها يمكن للإنسان أن يحتال عليها، المهم هو هذا الوازع الذاتى أو الضمير الداخلى، فإنه لا ينشئ هذا

الضمير إلا الإيمان الدينى، فالإيمان بالدين هو الذى يمنح الإنسان الحوافز على فعل الخيرات والردع عن فعل الشرور. ثم إن الإيمان من الناحية الاجتماعية هو الذى يربط المجتمع بعضه بالبعض الآخر، حيث يخرج الإنسان من الأنانية، ويحل مشكلة (الأنا) عند الإنسان حينما يربطه بغيره، ويعلمه أن عمل الخير للآخرين هو مصلحة له فى النهاية، مصلحة فى الدنيا ومصلحة فى الآخرة حيث يثيبه الله تعالى عليه. الدين إذن فى غاية الأهمية للإنسان سواء كان الإنسان فردًا أو الإنسان مجتمعًا.

إن السؤال هو: هل الدين واحد أم الدين يتعدد؟ الحقيقة أننا نرى الأديان موجودة ومتعددة. وهذا واقع بمشيئة الله التى اقتضت أن يختلف الناس. إن الله خلق هذا التنوع الإنسانى وغيره بالعقل والإرادة كل واحد عنده عقل يفكر به، وإرادة يختار بها. وما دام الناس مختلفين فى عقولهم وإرادتهم فلابد أن تختلف توجهاتهم واختياراتهم، ولو شاء ربك لجعل الناس على دين واحد ولا يزالون مختلفين، وسيظل الاختلاف قائمًا بينهم ولذلك الاختلاف خلقهم الله. إنه لو أراد الله أن يكون الناس مفطورين على عبادة الله وطاعته، وعلى اتجاه واحد لخلقهم كالملائكة حيث إنهم مفطورون على طاعة الله لا يعصون الله ما أمرهم. إن القول بوجود دين واحد تشدد وانغلاق، وهكذا هو مَنْ يقول إنه لا يوجد إلا دين واحد هو دين الإسلام، لأن الله تعالى خاطب نبيه محمدًا وأمره أنه يخاطب الوثنيين والمشركين بقوله: لكم دينكم ولى دين، وبذلك يكون التسامح. إن الأديان متعددة هذا لا شك فيه، والإسلام يعترف أن المسيحية ديانة سماوية نزل بها كتاب من عند الله هو الإنجيل، وذكر القرآن أن فى الإنجيل هدى ونور. وجاء بالمسيحية نبى من عند الله هو المسيح عيسى بن مريم من أولى العزم من الرسل. والإسلام دين سمح أجاز للمسلم أن يتزوج المسيحية لتكون شريكة حياته وأم أولاده، وأخوتها أخوالهم وخالاتهم، وهؤلاء لهم حقوق أولى القربى وذوى الأرحام.

إنه إذا كان هناك تعدد فهل العلاقة علاقة حوار أم علاقة خصام وصراع؟ الإسلام يحاور الناس جميعًا، ويحاور أهل الكتاب خاصة كذلك يحاور المسيحيين على وجه الأخص، ومنهج الإسلام هو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن، أم أهل الكتاب أى أهل التوراة والإنجيل خصهم الإسلام بالذكر دون سواهم حيث لا نجادلهم إلا بالطريقة التى هى أحسن، وأنه فى وقت الحوار نذكر الجوامع المشتركة ولا نذكر نقاط التمايز والاختلاف، فلا شك أن بين كل دين وآخر نقاط يختلف فيها، وإنما عند الحوار نذكر مع ما يجمعنا بالآخر. وهذا يقرب ويجمّع.

إن هناك حرية دينية يقرها الإسلام وأخرى يرفضها الإسلام. نقاتل من أجل الحرية الدينية حرية الأديان جميعًا، فقد شرع الإسلام الجهاد والقتال للدفاع عن حرية الأديان، وحرية المعابد الدينية الصلوات والبيع والصوامع، ذلك أن أماكن العبادة لليهود والنصارى ذكرت مع المساجد، وقد شرع الجهاد دفاعًا عن هذا ولولاه لضاعت حرية التدين. إن الإسلام يقرّ الحرية الدينية سواء كانت حرية الاعتقاد أن تؤمن بدين أو لا تؤمن، فلا يجبرك أحد على أن تدخل الإسلام ولو فعل أحد ذلك لكان إيمانك مرفوضًا لأن الإيمان الحقيقى ما كان عن اختيار حرّ، وأى شائبة تشوب الإيمان من الإكراه ترفض أنت من حقك أن تعتقد شريطة أن تكون حرًا تمامًا. فحرية الاعتقاد وحرية التعبد وممارسة الشعائر التعبدية هذا ما أقره الإسلام. إن الكنائس كثيرة وهى بجوار المساجد جنبًا إلى جنب تسمع دقات النواقيس وتسمع نداء المؤذنين هكذا تعود المسلمون فى ممارسة الشعائر. ومن الحرية أن يكون للإنسان حق فى أداء الواجبات الدينية، وأن يمتنع عما حرمه الله عليه. إذا كان الدين قد حرم عليه شيئًا فلا تلزمه أن يفعل هذا الحرام. كذلك من الحرية الدينية أن تحتكم إلى دينك فيما هو من شئونك الخاصة، والإسلام لم يلزم الأقليات من المواطنين مسيحيين أو يهود أن يحتكموا فى الأحوال الشخصية إلى شريعة

الإسلام، بل إن شاءوا احتكموا إلى شريعة الإسلام أو احتكموا إلى شرائعهم. لكن فى الحقيقة هناك حريات يرفضها الإسلام مثل الحرية فى تحريف الدين أى أن يأتى أناس ليصنعوا لنا دينًا جديدًا ذلك أن الحرية التى تهدد المجتمع خطر. أما الردة فإذا ارتد الإنسان فى نفسه فهو حر وأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة، لكن المشكلة أن يدعو إلى هذه الردة، أو أن يكوّن جماعة تهدد سلامة المجتمع ونظامه ذلك أن الحرية الدينية تبنى ولا تهدم، تجمع ولا تفرق، تقوى ولا تضعف.

إن الحوار بين الأديان واجب دينى ومطلب حضارى وضرورة أمنية، ونحن نؤمن بالتعددية الثقافية واحترامنا للخصوصيات الدينية والحضارية. نحن فى حاجة ملحة من أجل بلورة مبادئ وقيم وغايات عليا، لتكون أساسًا لمشروع ميثاق ثقافى مشترك نقيم به منهج سيرتنا الحضارى، وعلى أساسه نضبط معايير تعاوننا فى إقامة حياتنا وتحقيق مصالحنا. إن هناك ثلاثة منطلقات لتكون أساسًا لتوجهنا الثقافى المشترك هي: الإيمان بالله الواحد الأحد، والإيمان بوحدة الأسرة البشرية والأخوة الإنسانية، والإيمان بالتنافس بين الأديان فى أعمال الخير. وعلى أساس ذلك كله نعمل من أجل تحقيق الغايات التى كلفنا بها الله وهي: عمارة الأرض لخير الجميع، وإقامة العدل دون تمييز، واحترام كرامة الإنسان وصون قدسية حياته، واحترام سلامة البيئة وعدم إفسادها، والعيش معًا بحب وسلام. إن العالم الذى نعيشه يعانى من أزمة حادة فى القيم وغياب العدل واضطراب معاييره وهى جذور حالة السوء والتردى والدمار التى تعانى منها غالب المجتمعات. وعليه يتوجب أن تكون تلك المنطلقات والغايات موضع تأمل ومدارسة، ومن خلال التعاون والتكامل بيننا يتم بلورة ميثاق قيم عالمى بمساهمة مشتركة من القيادات الدينية والإسلامية والمسيحية واليهودية من أجل وضع حد لمعاناة الأجيال البشرية المعاصرة وتجديد آمالها فى العدل والسلام والتنمية الراشدة. إن الاعتراف المتبادل ليس شرطًا من أجل الحوار الجاد، إن الحوار الجاد سيبقى جادًا حتى مع الاختلاف

الدينى ومع غياب الاعتراف، لأننا نحن هنا نؤمن بأن هذا الاختلاف الدينى أصل قائم، وإذا تم الاعتراف المتبادل انتفت العلة.. علة الحوار، والإسلام حسم ذلك فى قوله تعالى: لكم دينكم ولى دين، لننتقل بالجدل من ساحة العقائد إلى ساحة المصالح وساحة الأمن المشترك والحياة المشتركة. إننا فى الحياة الدنيا أديان متنوعة متعددة، والإسلام أشار إلى كل الملل، إلى الإسلام واليهودية والمسيحية والمجوس والمشركين، والله يفصل بينهم يوم القيامة. أما فى هذه الحياة فنحن شركاء فى مهمة ربانية واحدة هى عمارة الأرض، لنلقى الرب كل منا على إيمانه ليجزى بالخير خيرًا أو بالشر شرًا.

إن ما يجب التأكيد عليه أن الإسلام دين سلام لا علاقة له بالإرهاب، والإسلام مرتبط بالسلام لغة وأصلاً، والإسلام كتعاليم ومبادئ وأخلاق يدعو إلى السلام والمحبة والإخاء ويحترم النفس البشرية ومال وعرض الإنسان، ومن مبادئه من قتل نفسًا فليقتل دون تمييز للون أو دين أو عقيدة أو ثقافة أو جنس أو جنسية. بل إن الإسلام يمنع الاعتداء على العرض والمال والنفس. فالإسلام دين وبنصوصه هو دين السلام والأمن والأمان والمحبة والإخاء يحافظ على الجار دونما تحديد لمعتقداته، كما أن الإسلام يدعو إلى التعارف والتعارف يمنع الاعتداء على النفس والعرض.. إنه يرفض الاعتداء، والقتال فى الإسلام دفاع عن النفس دونما اعتداء، وهو ما يعنى أن السلام هو الأصل وأن القتال استثناء، وهو إما دفاع عن النفس أو لحماية العقيدة من العدوان، وأن القتال يتوقف إذا أبدى الآخر استعداده للسلام. والإسلام لا يقتل شيخًا ولا طفلاً ولا امرأة، ولا يعقر نخلاً ولا يقطع شجرًا مثمرًا. إن الإسلام دين وعقيدة وتعاليم وأخلاق ومبادئ وسلوك لا علاقة له ببعض ممن ينتسبون إليه من المتطرفين، وهو أمر لا يخص الدين الإسلامى بل كل الديانات مسيحية كانت أو يهودية، بل إن الديانات تقول: أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم. إن السلام يؤسس على الحقيقة، ويكوَّن وفق مبادئ العدالة، وهو مفعم بالمحبة، ومتحقق برعاية الحرية. السلام

العالمى أساسه الاعتراف الصادق بين الأشخاص والأوطان بالحقوق والواجبات المتبادلة، وهدفه المرجو هو العدالة أى احترام هذه الحقوق وإحقاقها وأداء الواجبات.

والمحرك إلى ذلك كله هو المحبة، أى تحسس حاجات الآخرين وكأنها حاجاتنا، والدخول معهم فى شراكة حقيقية لاسيما فى عالم القيم الروحية. ومنهج العمل هو الحرية، أى العمل بروح المسئولية عن أعمالنا وصولاً إلى مساواة أكثر إنسانية.

رابعًا- السلام قوامه العدل والحرية:

إن الثقافة لغة السلام قضية محورية مطروحة على الساحة العالمية، وتتطلب الاقتراب من الأجواء الفكرية والثقافية والإبداعية لمفهوم وقيم ثقافة السلام، ودعم التسامح، وتعميق قيم المواطنة والانتماء والمشاركة والمسئولية المدنية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى وترسيخ قيمة دور المرأة، وتعزيز قيمة التجديد الثقافى، والتفكير النقدى، والحوار والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وإبراز تواصل الإبداع القومى عبر أجياله المختلفة وتياراته المتنوعة، وتناول بناة الحضارة العربية الإسلامية فى أوج عظمتها وازدهارها، ولأن هذه الحضارة كانت رافدًا قويًا قامت عليه الحضارة الأوروبية الحديثة، إنها نماذج واضحة لأهمية حوار الحضارات وطرق تواصلها.

ومن ناحية أخرى لابد من تناول أمراض العقل العربى المعاصر، ونفوره من الحقائق حيث تكون صادمة له، وعجزه عن التطور فى اتجاه الديمقراطية بشكل حاسم، والمراوحة بين مفهوم الوطنية الديمقراطية والوطنية الشمولية وبين الوطنية القائمة على التعدد والوطنية الأحادية. ثم لابد من الولوج إلى ظاهرة المفاهيم الإسلامية لشحذ العداء ضد الآخر الأجنبى، وتديين العنف ضد الآخر الأجنبى، أو التوسع فى استدعاء مفاهيم إسلامية لدعم هذا الطابع الذى شكل مقدمات

تاريخية لنتيجة مؤداها أن العرب والمسلمين يتحملون بعضًا من المسئولية عن الانحياز الأمريكى لإسرائيل. إن ازدواجية الموقف العربى تجاه العنف ضد الآخر يتطلب دورًا فاعلاً ومسئولية تلقى على كاهل النخب العربية، يساند ذلك إصلاح ديمقراطى فى عالم الأمة العربية والإسلامية. وهو ما يقلل أثر الموقف العربى من العنف على القضية الفلسطينية. إنه لابد أن ندرك ما نعايشه بفكر ليبرالى يحلل صورة بانورامية تتجلى فيها كل أبعاد مأساة أمتنا العربية الإسلامية، وهذا الميل إلى العنف العشوائى الآخذ فى التكوين لدى قطاع يعتد به من الرأى العام العربى، استنادًا إلى نزعة ثأرية تتغذى على فشل عربى متراكم يجرى تبريره بعوامل خارجية، وخلفية أصولية دينية يجرى تعميمها عبر إضفاء طابع دينى على القضايا الكبرى للأمة العربية، ويخلق هذا الميل المتزايد المبرر موقفًا تجاه العنف يضر الذاتية العربية الإسلامية، وينذر بخطر فادح على مستقبل الأمة. إنه موقف ينطوى على ازدواجية فى المعايير إلى حدّ أنه يبدو منفلتًا من أى معيار وعلى وجه الخصوص نظام القيم الإسلامية الذى يحض على الاستقامة، حيث أظهرت الحوادث فى عالمنا العربى مدى الأذى الذى يلحق العنف بالإسلام وأهله الذين يقبل قطاع كبير منهم ممارسات يرفضها ويحرمها هذا الدين السمح. وبالرغم من أن العنف المقاوم ينطوى على مشروعية تحظى بها حركات التحرر الوطنى ضد الاستعمار، فقد ساهم شيوع موقف عربى يمجد أى عنف ضد الأعداء، ويعتبره السبيل الوحيد للمقاومة، فى خلق مناخ عام ارتكبت فيه أخطاء فادحة دفعنا ثمنها غاليًا فى فلسطين والعراق. إنه اضطراب وارتباك فى الموقف العربى تجاه العنف، وليس ازدواج المعايير، إنه إحدى سمات هذا الارتباك وذلك الاضطراب، ويصل هذا الازدواج إلى ذروته عندما نجد وصف عملية مسلحة بأنها استشهادية ووصف أخرى بأنها إرهابية يكون مرتبطًا بالأهواء وليس بمعايير محددة منضبطة. إن هذا الخلل السائد تجاه العنف نتج عن شيوع ثقافة تحفل بأنواع من العنف ضد الآخر الأجنبى، خاصة

عندما يكون من الأعداء الذين تسود العشوائية فى تعريفهم، كما فى تحديد مفاهيم ذات صلة بهذه الثقافة مثل الجهاد والاستشهاد. إنها ثقافة عنف وإقصاء وكراهية وانتقام وبغض للإنسان، وقمع لحقوق الفرد والمجتمع.

إن ثقافة إقصاء وكراهية الآخر الأجنبى تشجع الإرهاب، وهى ثقافة متنامية تأسست على تراكم فشل الدول العربية فى قضايا داخلية وخارجية كثيرة، الأمر الذى خلق حالة سلبية فى المجتمعات العربية من سماتها اليأس والعجز والخوف وفقدان الثقة فى النفس. وقد اقترن ذلك كله بتفسير مغلوط يردها بشكل حصرى إلى أننا مستهدفون من قوى خارجية تعمل على إضعافنا وتتآمر علينا، وتسعى إلى تدمير هويتنا. وهنا يصبح العمل ضد هذه القوى الأجنبية موضع ترحيب مهما تكن همجيته وبغض النظر عن نتائجه، وهل هو مفيد لنا أم مضر، إنها حالة من الرتابة العربية الهمجية التى تسوق نفسها باعتبارها حالة من حالات النضال الوطنى.

إن ثقافة العنف ليست خارجة عن الإسلام فقط، بل هى نقيضة لقيم عربية أصيلة لا زلنا نفخر ونعتز بها مثل المروءة والشهامة والنجدة. والمشهد العربى الإسلامى فيه ما يؤكد ذلك من تفجير إنسان لنفسه ليقتل أبرياء، ومن خطف مدنيين عزل وقتلهم أمام الكاميرات.. إنها حالة مرضية أصابت روح الأمة التى تبحث عن مبرر لتلك الممارسات التى تتسم بالعنف والهمجية. إن الإسلام الحنيف يحث على الرحمة والغفران، وأنه دعوة إلى تنمية العقل لتحقيق إنجاز علمى أو الوصول إلى اختراع جديد يضيف إلى قوة الأمة.

إن ثقافة العنف أمست رائجة على منابر بعض المساجد، وفى بعض قاعات الدرس، وفى كثير من محطات التليفزيون.. إنها ثقافة عنف عشوائى ينطوى على ممارسات همجية، إنه مظهر للتخلف الثقافى والفكرى والسياسى والاجتماعى معًا. إنه تخلف عميق فى طرائق التفكير حيث الاعتقاد فى أن القوة هى السلاح بعيدًا عن القوة الشاملة للدولة الحدية التى ترتكز على التقدم العلمى والتقدم التكنولوجى

والإنجاز الاقتصادى. إنه من العسير على أمتنا العربية أن تلحق بالعربة الأخيرة فى قطار الثورة العلمية والبحث والتطوير. إن الاعتقاد فى أن القوة تكمن فى السلاح هو نتاج اختلالات فى بنية نظمنا وطريقة حياتنا، وفى مقدمتها إهمال العلم وإهمال البحث العلمى.

إن ضيق الفهم للاستقلال والسيادة الوطنية من أسباب تخلفنا، فقد ساد الاعتقاد بأن الاستقلال هو الهدف، ولم نعرف أن الأهم من استقلال الوطن هو بناؤه وتعميره وتحقيق أفضل حياة ممكنة لأبنائه، وعرفنا أن حب الوطن يتحقق بالأناشيد الوطنية والخطب المنبرية ولم ندرك أن أحسن إدارة الوطن هو السبيل للحفاظ على استقلاله. إننا أمة لها تاريخ ماض، وإمكانات كامنة أو معطلة فى الحاضر. إنه لابد من مراجعة الموقف العربى تجاه العنف، مراجعة تقود إلى موقف أكثر عقلانية وإنسانية واقترابًا من الإسلام الحقيقى.

إن هذا الموقف الذى يبلور العنف كاتجاه نحو الآخر فرض على الأمريكيين السؤال: لماذا يكرهنا العرب المسلمون ؟ والحق أنهم لم يصلوا إلى إجابة موضوعية، بل إنه غالب عليها موقف تبرئة الذات وإسناد الخطايا كلها إلينا نحن العرب المسلمين، وهو موقف ضد الآخر أيضًا من الزاوية المقابلة. ولم يعرف أكثر الأمريكيين أن فى سياساتهم الخارجية ما يدعم كراهيتها ويغذى بشدة الموقف الذى يغذى العنف ضدها. غير أن هذا لا يعنى فى ذات الوقت أن الموقف العربى الذى يحبذ العنف ضد الآخر الأجنبى، خاصة الأمريكى، هو مجرد ردّ فعل لسياسة عدوانية. ففى هذا الموقف خلل بنائى يعبر عن أزمة عميقة فى الفكر وطريقة إدراك الأمور والنظر إليها والتفاعل معها. هذا الخلل أصبح يتغذى على جموح السياسة الأمريكية وتطرف بعض العرب الذين يلعبون الدور الأكبر فى توجيهها، فهناك تراشق التهم والشتائم على الضفتين: شيخ يدعو على الكفار الغربيين بالعذاب، وجنرال غربى يعتبر الإسلام صيغة شريرة، ومقالات تهاجم وتحرض. ولم يكن

ممكنًا أن يصل الأمر إلى هذا الحدّ إلا لتهافت الفكر السياسى العربى باتجاهاته الليبرالية واليسارية، ودخوله فى أزمة عميقة أدت إلى فتح الباب أمام فكر متهافت ينتج العنف ضد كل آخر ويحض عليه ضد الآخر الأجنبى. إن دخول العرب القرن الواحد والعشرين هو دخول من أجل لا شيء على العلاقة بين الفكر السياسى العربى وعملية بناء الدولة. دخل العرب القرن الجديد وهم يحتلون المرتبة الأخيرة بين مناطق العالم، وتقدم عليهم الأفارقة خطوة على صعيد عملية بناء الدولة فى العقد الأخير تقدمًا لا يعرف العرب مثله بعد فى عملية بناء الدولة الأفريقية التى تقوم على مؤسسات وتنافس حر. إن الفكر العربى الذى تنوعت مشاربه وتباينت أوزانه واتجاهاته ليبرالية ويسارية وقومية عربية وأصولية إسلامية لم يبلغ نضجًا كافيًا يتيح له مثل هذا الدور الأفريقى.

إن من أهم سمات الفكر السياسى العربى تضاؤل التمايز والاختلاف بين اتجاهات متباينة فى لحظات معينة، أهمها لحظة الصدام مع الغرب خاصة عندما يكون الصدام عسكريًا. وتلك سمة إيجابية إذ تدل على نزعة قومية إلى التكاتف والتساند فى المعارك الكبرى. إن الاختلاف والتنوع فى العالم العربى وهو ما نفتقده ضرورة مهمة لضمان خيارات عدة، حيث إننا نقع دائمًا فى شرك خيار وحيد، وحيث تقوم الوحدة العربية فى الأزمات على موقف عاطفى انفعالى يعطل العقل ويهمش دوره، والمفترض أن يكون للعقل مكان فى ردود فعل جماعات النخبة السياسية والثقافية. وهذا تحديد ما يحقق الوحدة ويبقى على التنوع، فوجود العقل يكفل احتفاظ كل من الاتجاهات السياسية والثقافية المختلفة بطريقته فى فهم ما يحدث وفى بناء موقف تجاهه، وهنا يتحقق أرقى مستويات الموقف المشترك وهو ما يطلق عليه التنوع فى إطار الوحدة، فتكون وحدة ثرية ديناميكية وليست وحدة فقيرة صماء تنتج مجرد شعارات حماسية. إن العرب فى حاجة إلى تأكيد ثقافة المقاومة، وتجاوز الفهم الضيق الذى يحصر هذه الثقافة فى الرفض السلبى. إن المقاومة المجدية هى

التى تعيد الاعتبار إلى قيم الحرية والتسامح والمساواة والعمل والإنتاج والإنجاز والكفاءة والمعرفة والبناء، وهذه هى ثقافة المقاومة الحقيقية التى ننشدها بديلاً للعنف العشوائى الموجه ضد الآخر والذى لا يحقق أهدافنا القومية.

إن التراث لا ينفصل عن مفهوم حوار الحضارات وحوار الثقافات، ذلك أن شعوب الأرض تطلع على ذخائر الآداب المختلفة، وهو ما يتيح للشعوب أن تتفاهم، وأن يغنى بعضها فتتقارب وترتقى إلى مصاف تقدير الجمال وتعشقه. وإذا ما تجاوزنا القراءة فإن اللغة تلزم بلقاء مادى بالآخر سواء تعلق الأمر بالآخر بما هو فرد أو بالآخر بما هو مجموعة عبر حوار معه يتخذ جميع أشكال التعبير الإنسانى بدءًا بالحركة تصحب الكلمة، وبالصوت الموسيقى يوجه الحركة ويكسبها تناسقًا فى الرقص أو فى ترانيمه، وهى أشكال تعبيرية تتجلى فى أبعاد الزمن الثلاثة: الماضى والحاضر والتشوف إلى المستقبل.

إن بنية التراث وبنية الفنون التشكيلية تمثلان حجر الزاوية سواء لما نسميه التراث عامة أو بالثقافة، على معنى أنهما يتعلقان تعلقًا غاية فى الواقعية بأبعاد المكان الثلاثة، كما تتعلقان ما أمكن لهما ذلك بالثبات، وعدم قابلية الانقسام والدوام عبر الزمن. والتراث هنا لا يقتصر على المعمار المشدود بطبعه إلى الأرض التى رفع فوقها، ولكنه يهم كذلك الآثار الفنية المتصلة به والمنفصلة عنه كالنحت والرسم والأشياء المتنقلة ما جعل للاستعمال أو ما كان ذا قيمة رمزية، وقد تجمع هذه كلها للمحافظة عليها فى المتاحف، غير أن إشعاعها الذاتى يتجلى أحيانًا بعيدًا عن مواضع نشأتها، حيث إن ما يصدر عنها من معنى جزء من الحوار العام، وتلك الأشياء عندما توجد فى دولة غريبة عنها يقال عنها سفراء دول أخرى وهو ما يشير إلى تمتعها بالحصانة الدولية.

إن تواجد هذه الفنون على هذا النحو يحقق علاقات حوار سواء بين المتباين والمتشابه منها، أو بين ضروب من الحضارات والهويات المتعددة، أو بين عناصر من هذه الهويات الخاصة، وعندئذ يثرى الفكر من خلال نظرات متلاقية مثل نظرة

اللوحة الفنية التى ينظر إليها الزائر انطلاقًا من الحجارة، أو من خلال نظرة الزائر وهو يتأمل اللوحة أو الحجارة المنحوتة، فالفكر يثرى من خلال العين ويدرك أيضًا أثر اليد التى أنجزت الأثر الذى يدركه، وهكذا فهو يكبر الآخر صاحب الأثر ويحض على إكباره.

إن ثبات الأثر الفنى فى المكان يعين على بلورة ثقافة كونية حمالة أشكال من التنوع والتباين والبدائل والتضاد، ولكنها أشكال تؤول إلى التكامل ما لم ينتج ذلك الأثر عن تحطيم الكل المعمارى الذى هو منه تحطيمًا ماديًا. إن ذلك الاتصال لا يخلو من اكتشافات خفية مشدودة إلى علاقات غير معروفة وسابقة لعهد تفتق تلك الآثار الفنية، فندرك بذلك أحيانًا أنه لئن كان الحوار المنتهى الذى تنزع إليه حداثتنا فإنه كثيرًا ما يكون مشابهًا لجوهر الإبداع ذاته وإنه استبق الاستغراق فيما نشترك فيه جميعًا من تأمل نهائى يصبو إلى الكونية، ويحكم إنشداده إلى الأرض التى تقله فإن المعمار لا يتهيأ للاجتثاث من محيطه الخاص به، ولا من الطبيعة ذاتها التى تمثل محيطه سواء كان قصرًا أو معبدًا أو مسجدًا أو كنيسة، أو تعلق الأمر بقرية أو معلم دفاعى أو حربى.

إن الاستقرار العام ناشئ عن الفلاحة والحضارات التجارية وسبل ترحال بعض الشعوب التى واصلت فتح مسالك حضارية وكان حضورها أساسًا فى استمرار الحوار، وينسحب ذلك على الغزوات والغزوات المضادة عندما لا تفضى إلى تحطيم معمار الشعوب المتصارعة تحطيمًا همجيًا. إن وسائل التحطيم العسكرى المستحدثة أضرت كثيرًا بقطع برمتها من التراث الكونى، ولكن تطور فى مقابل ذلك مفهوم الترميم على أساس جهد من أجل الأصالة. إن القانون الدولى يستعين أكثر فأكثر بالتراث ليحصن الاحترام المتبادل المؤسس على الاختلافات. وينبغى ألا ننسى أن العلم ذاته الذى ابتكره الإغريق ونقله العالم الإسلامى وأثراه، ثم نقله الغرب الحديث وأغناه هو آلية للتلاقى والحوار مثل التراث المعمارى والأخلاقى.

إننا جميعًا نعتنى بالحوار الثقافى الذى يتناول آلية التراث والآثار الحضارية، والذى يتناول فى محاوره مكانة الآخر، والتربية على الاعتراف بالآخر، وثقافة السلام التى نحن ننشدها حيث نشبت الحروب ولاحت نذر حروب أخرى قرب وقوعها، وظهرت شراسة العولميين وبغيهم بغير حق، كما أن مفهوم السلام الذى ننشده هو السلم الذى يقوم على احترام الحق واعتماد العدل، وهو السلم الدائم ذلك أن حالة السلام بين الناس ليست من فعل الطبيعة إنما ينبغى أن تصنعها إرادة البشر تحقيق حرية الواحد إلى جانب حرية الآخر حسب فكرة الحق. إن الحرية إذا كانت مبنية على هذا الأساس تكون فى مأمن، فلا تتهددها الأخطار الناجمة عن اختلاف اللغات أو الأديان، لأن الالتزام الشخص الحرّ إلى كونه قيمة أخلاقية فى حدّ ذاته ينمى حركة التقارب بين الشعوب، ويحفز القوى الفعّالة على التسابق إلى الأفضل. إن السلام الدائم القائم على العدل والحرية يؤلف أروع مكسب تحققه الإنسانية المتطورة. إن الحق هو مجموعة الشروط التى تستطيع حرية الواحد بواسطتها أن تتوافق مع حرية الآخر وفق قانون عام للحرية. إن مفهوم السلم يتضمن فى طياته علاقة بين الأنا والآخر على صعيد الإنسان وأخيه الإنسان، والأمر نفسه على صعيد دوائر الانتماء الأخرى فى الاجتماع الإنسانى مواطنًا وملةً وقومًا ودينًا وثقافة وحضارة، ومن هنا كانت العلاقة وثيقة بين ثقافة السلام والاعتراف بالآخر ومكانته. إن السلم هو نقيض الحرب، وهو وقت الحرب وإيقاف التنازع والخصومة، وحالة من التوازن المستقر فى العلاقات السياسية، وحالة من السكينة والراحة العقلية فى ظل الصداقة، وهو مجموعة علاقات التعايش والتعاون المتحركة بين الأمم وفى داخل الأمم لا تتميز بغياب النزعات المسلحة فحسب، بل كذلك باحترام القيم البشرية التى عبر عنها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان.

إن مفهوم السلام يتطور وفقًا لتطور التجربة الإنسانية، وإن إيقاف العمليات الحربية هو خطوة أولى مهمة لبلوغ حالة السلام، غير أن بلوغ هذه الحالة يقتضى

أيضًا إيقاف النزاع والخصومة اللتين أدتا إلى نشوب الحرب والوصول إلى توازن مستقر فى العلاقات السياسية، فلابد أن يستقر السلام فى النفوس والعقول على أساس متين من العدل كى يجلب السكينة والراحة العقلية ويدوم.

إن إقرار السلام وجود ثقة متبادلة بين الناس، وديمومة السلام يقتضى أن يقترن السلام بالعدل فيتلازمان كهدفين. وقد قرن السلم بالعدل فى ميثاق الأمم المتحدة.

إنه وفى ظل السلام يسود نظام قيم ذو وجهة عالمية، ويقوى النزوع نحو التنوع والوحدة، ويتحقق الاعتراف بالغير رغم اختلافه ويؤدى إلى وجود حالة من التوازن. فإذا ساد نظام قيم نسبى التسليم باختلافه، واحتل التوازن، أصبح من المحتم أن يخيم شبح الحرب. وإذا كان الاستغلال الذى تمثله عملية الاستعمار يقدم أنموذجًا صارخًا فإن الاستغلال بصورة عامة حتى وإن حدث على صعيد الدولة الواحدة والأمة الواحدة هو أخذ مسببات التوتر التى تؤدى إلى نشوب الحرب والثورة، وما الثورة الاجتماعية فى مجتمع ما إلا محاولة قضاء على الاستقلال الذى تمارسه طبقة مستغلة على طبقات أخرى مقهورة فى المجتمع. ومن هنا كانت النظرة إلى هذه الثورة الاجتماعية باعتباره عملية إعادة الأمور إلى طبيعتها المتوازنة فى المجتمع. إن من بين مسببات التوتر على الصعيد الإقليمى الإرهاب الذى برز كظاهرة فى عالمنا المعاصر، وقد تفاعلت فى هذه الظاهرة عدة عوامل قومية واجتماعية وعقيدية وسياسية وفكرية وعلى الرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف الإرهاب إلا أنه من الواضح الفرق القائم بينه وبين مقاومة الاستعمار والاحتلال العسكرى والاستيطانى العنصرى. وقد مجد المجتمع الإنسانى التصدى للاستعمار والمقاومة والنضال من أجل التحرر، واعتبر ذلك كله عملاً من أجل استتباب السلام وعودة الحياة إلى طبيعتها. إنه لما كانت الحروب تتولد فى عقول البشر ففى عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام. إن أى جهد لسلام حقيقى لا يمكن أن يكتمل دون بعد ثقافى.

إن تشجيع الحوار بين الحضارات سعيًا إلى مستقبل مشترك هو ما يوجب معرفة أفضل بالآخر، ومعرفة الآخر معرفة أفضل تستدعى أيضًا العناية بماضيه. لقد كانت الحضارة العربية الإسلامية من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر فى قمة الحداثة، فعلى غرار ما وجدت معجزة أغريقية فى العصر القديم وجدت كذلك معجزة عربية فى العصر الوسيط، هى معجزة العلماء والمفكرين الذين اختاروا أن يكتبوا مؤلفاتهم بالعربية فى حين أنهم كانوا فرسًا أو بربرًا أو أندلسيين، وكانت معجزة إسهاماتهم غاية من الأهمية حتى إن النهضة الأوروبية ما كان لها أن تكون دون النهضة العربية.

هؤلاء العلماء والمفكرون ارتادوا مجالات المعرفة فى الفلك والرياضيات والكيمياء والطب وعلم النبات والفلسفة والجغرافيا وفن المعمار والتاريخ. فمن أين إذًا جاء القول الشائع أن العرب لم يبدعوا شيئًا، وبأنهم كانوا مجرد نقلة ؟

إنه فى القرن الرابع عشر حين كان العالم العربى فى حالة انحدار بدأت أوروبا حركة الصعود، واكتشفت بفضل العرب تراث الإغريق الرومانى، ذلك أن النصوص القديمة المفقودة فى عهد الظلمات المسيحى ترجمت إلى العربية من قبل سوريين مسيحيين عرب ومسلمين، كذلك تمت ترجمة نصوص أساسية من أصل فارسى أو هندى.

إن القرآن يؤكد سمو العالم أى الإنسان الذى اكتسب المعرفة والذكاء، فثمة فى القرآن (250) آية فقط مخصصة للتشريع، فى حين أن (750) آية أى ما يقرب من ثمن القرآن تحض المسلمين رجالاً ونساءً على دراسة الطبيعة وعلى التفكير، وعلى أن يجعلوا من طلب العلم والفهم بواسطته عنصرًا من عناصر حياة الأمة. إن تاريخ العلوم مقسم إلى حقب، تمتد كل منها خمسين سنة تقريبًا، ولكل حقبة وجه مركزى. فبعد المصريين والإغريق والإسكندرانيين والرومان والبيزنطيين يجين فى تتابع

متصل بين (750 م — 1100م) دور جابر بن حيان سنة 800م الكيميائى العربى، فالخوارزمى فالرازى (865م — 925م) الطبيب الفارسى مؤسس أول مستشفى فى بغداد، فالبيرونى (973م — 1050م) الذى ولد بآسيا الوسطى وهو فلكى ومؤرخ وجغرافى ورياضى وواضع كتاب (ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة) الشهير (1030م) فابن سينا (980م — 1037م) الذى ولد فى بخارى وهو فيلسوف وشارح لأرسطو، وطبيب بقى كتابه المسمى (القانون) مستعملاً مع مصنفات أخرى فى الجامعات الأوروبية حتى القرن السابع عشر، ثم يأتى عمر الخيام (1047 م — 1122م) وهو رياضى وشاعر فارسى الأصل. وكان العالم العراقى ابن الهيثم (965م — 1039م) أكبر علماء الفيزياء فى عصور كثيرة، فقد صاغ قوانين البصريات قبل روجد بايكون (1212م — 1294م) كما صاغ قانون العطالة الذى أصبح أول قوانين الحركة عند نيوتن (1642م — 1727م).

إن الأرقام العربية من (1) إلى (9) وضعت بالمغرب العربى انطلاقًا من الترقيم الهندى، وأدخلها إلى أوروبا البابا سيلفاستر الثانى عام 999م، ولم يدخل الصفر إلى أوروبا إلا فى القرن الثانى عشر، وتمثل الأعداد العشرية تقدمًا ذا بال بالمقارنة لنظام الأعداد الرومانى الذى كان مستخدمًا فى أوروبا. إن العلماء الأوروبيين لم يظهروا إلا فى القرن الثانى عشر وعاشوا قرنين ونصف القرن على عطاء علماء المسلمين من أمثال ابن رشد (126م — 1198م) وهو الفيلسوف الأندلسى شارح أرسطو مثله فى ذلك مثل ابن سينا وابن ميمون (1135م — 1204م) وهو اللاهوتى والطبيب اليهودى الأندلسى، وابن بطوطة (1307 م — 1377م) عالم الجغرافيا والرحالة المغربى الذى لا يقل شأنا عن ماركو بولو (1224م — 1324م) وكذلك ابن خلدون الذى ولد بتونس وهو مستحدث علم الاجتماع ومؤرخ يوم لم يكن ثمة على ضفتى الأبيض المتوسط إلا مدونى الأخبار.

إن المسلمين البدو انطلقوا من الصحراء واستقروا وأصبحوا بناة مدن كبرى إذ أسسوا حوالى مائتى مدينة منها مدينة القيروان (670م) أول مدن المغرب العربى، واستعانوا بالبيزنطيين لتشييد أولى معالمهم خاصة مسجد عمر أو قبة الصخرة بالقدس (688م – 962م)، ولكن العرب ومن دخل الإسلام أنتجوا بداية من القرن الثامن الميلادى فنًا معماريًا أصيلاً متميزًا ويشهد على ذلك المساجد والقصور. وكان للحضارة العربية الإسلامية فضل تغيير المشهد المتوسطى بأن زرعت فيه أنواع من النباتات جلبت من آسيا مثل البرتقال والخوخ والمشمش والقرعيات والحرشف، وأدخلوا إلى الحضارة اللاتينية الزراعة فوق الأسطح وطرق الرى وتوزيع المياه ولا يزال معمولاً به فى أسبانيا. ثم إن العرب المسلمين استلهموا تراث الطبخ الإغريقى البيزنطى والفارسى من ذلك كتاب الطبخ (1226م) للبغدادى، ثم كتاب (الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب) الذى وضعه أواسط القرن الثالث عشر الميلادى أحد أحفاد صلاح الدين، وفيه حديث عن تعقد الأطعمة وتنوعها، والتى كان العرب يعدونها وفيه يظهر تداخل الثقافات العربية والإغريقية والفارسية والتركية فى مجال الطبخ. ومن المعلوم أن أوروبا الغربية قد اتبعت بوجه عام قواعد التغذية العربية الموروثة عن الأطباء اليونانيين.

إن الجدير بالذكر هو أن هذه الإسهامات العربية الإسلامية لا توجد إلا نادرًا أو بشكل غير كاف فى المتون المدرسية الأوروبية، كما أن شباب العرب والمسلمين لا شك أنهم يعجبون ويسعدون باكتشاف أن لهم ماضيًا مجيدًا، وهو ما يساعد على تغيير نظرتهم إلى أنفسهم بل وتغيير نظرة الآخر إلينا نحن العرب والمسلمين. إنه آن الوقت للشروع فى كتابة تاريخ البحر الأبيض المتوسط كتابة لا تتجاهل ما يميز بعضنا عن بعض، ولكنها تؤكد على كل ما نشترك فيه وهو كثير.

إن هناك إجماعًا بين المهمومين والمهتمين بالثقافة العربية على أن المجتمع العربى يمرّ بأزمة ثقافية، ويحتاج للخروج من هذه الأزمة إلى استراتيجية حضارية تركز على

سبل النهوض وتجاوز التخلف الثقافى والسياسى والاقتصادى. وهى تحتاج إلى فهم عميق للتغيرات الكبرى التى حدثت وتحدث فى بنية المجتمع العالمى، ومنها ظاهرة العولمة وتبعات الحادى عشر من سبتمبر عام 2001م إن الديمقراطية أحد المخارج الأساسية للخروج من أزمة الثقافة العربية كما أن الديمقراطية مرغوبة لذاتها كنظام سياسى بعد أن ظهرت الآثار المدمرة للتسلطية العربية السائدة فى الوطن العربى. نحن فى حاجة شديدة إلى قبول الأغلبية العظمى من المحكومين لحق الحاكم فى أن يحكم، وأن يمارس السلطة. بما فى ذلك استخدام القوة. وأهم مصادر الشرعية ثلاثة أنماط نموذجية هي: التقاليد والزعامة الملهمة (الكاريزما) والعقلانية القانونية. إن الأنظمة السياسية العربية الراديكالية والتى أسست شرعيتها على أساس تحقيق الاستقلال الوطنى، والعدالة الاجتماعية، والتنمية الشاملة وخاضت فى سبيل ذلك معارك شتى داخلية مع القوى السياسية المنافسة انتهت بتصفيتها والقضاء عليها، وهى نظم تواجه مشكلة تآكل شرعيتها حيث فشلها فى التنمية وعجزها عن تحقيق قيم الديمقراطية والمشاركة السياسية، بل ومواجهة تهديدات الأمن من خارج حدودها.

إن هناك وعيًا صاعدًا فى عالمنا العربى والإسلامى بأهمية الإعداد للمستقبل ودراسة وتحليل المتغيرات العالمية. إن هناك إحساسًا لدى النخبة السياسية ولدى النخبة المثقفة أيضًا أن العالم لم يعدّ كما كان، وأن هناك متغيرات كبرى فى مجال موازين القوى العالمية، وفى مجال الثورات العلمية والتكنولوجية والاتصالية، وفى ميدان المشكلات الاقتصادية والسياسية والثقافية من خلال تدفق موجات العولمة أصبحت عابرة للحدود والقارات تجابهها مختلف المجتمعات أبرزها موجات التطرف والإرهاب والفساد وانتشار تجارة المخدرات وصراع الهويات وتفتت المجتمعات وانتشار الحروب. إن فى عالمنا العربى والإسلامى اهتمامًا بالمستقبل ظهر فى تلك الجهود التى يبذلها المثقفون والمؤسسات الثقافية والصحفية لقراءة خريطة

المجتمع الكونى الذى يتطلب ثورة مثلثة الجوانب فى الواقع فهى أولاً ثورة سياسية تشمل النظم السياسية المعاصرة، والعلاقات الدولية على السواء، ويمكن تلخيصها فى عبارة واحدة هى أنها تحول من الشمولية والتسلطية إلى الليبرالية، ومن صراع الفناء إلى إدارة البقاء. وهى ثانيًا ثورة فى القيم، وتحول من القيم المادية إلى القيم المعنوية، وهى ثالثًا ثورة معرفية تنطوى على الانتقال من الحداثة إلى عالم ما بعد الحداثة.

إن المستقبل يتطلب بناء قاعدة من الفهم النقدى للتراث العربى والإسلامى ليصبح تاريخنا حافزًا يدفعنا إلى الأمام فى ضوء فهم نقدى للماضى لنتجاوز السلبيات ونؤكد الإيجابيات، وفى ضوء قراءة نقدية للحضارة الإنسانية بهدف بناء مجتمع حديث قادر على الوفاء بالحاجات الأساسية للإنسان، وفاعل فى التعامل مع متغيرات العصر وأبرزها الثورة العلمية والتكنولوجية والمشاركة السياسية الجماهيرية، واحترام حقوق الإنسان. ولابد أن ندخل العديد من التغيرات على عاداتنا الفكرية واتجاهاتنا وقيمنا وأساليب حياتنا، وطرقنا فى التعامل والتفاعل مع الآخر. إن المشكلة الأساسية التى تواجهنا هى التخلف، وهو ما يكشف عنها ضآلة سيادتنا على الطبيعة، وضعفنا فى استغلال مواردها وهزال تنظيماتنا الاقتصادية والاجتماعية، وضيق قدرتنا التكنولوجية والتنظيمية بشكل عام. إن وسائل تحقيق مستقبل أفضل تكمن فى الاعتماد على التفكير العلمى، والانشغال بالنقد الاجتماعى والنقد الذاتى، والقضاء على الفجوة بين الصفوة والجماهير، والعمل دومًا على سيادة النظرة المستقبلية لتشكيل أمة عربية إسلامية جديدة.

الفصل الثالث

الطريق إلى قبول الآخر

أولاً: من يرسم صورة الآخر ؟

ثانيًا: التنوع الثقافى طريق السلام.

ثالثًا: اعرف الآخر لتعرف نفسك.

رابعًا: بناء الإنسان لثقافة التسامح.

الطريق إلى قبول الآخر

أولاً: مَنْ يرسم صورة الآخر؟

كيف نربى أبناءنا فيما يتعلق بالآخر؟ وماذا نقدم للأطفال بشكل رسمى من قبل الدولة عن هذا الآخر سواء فى وسائل الإعلام أو فى المدارس عن طريق المناهج التعليمية أو سلوك المعلمين وتوجهاتهم؟ وكيف نربى جيل الشباب الذى يتجاوز عمره الآن عشرين عامًا.. هل فى أجواء ترسخ داخله عنصرية شديدة تجاه الآخر المقيم داخل البلاد والمقيم خارج حدودنا ؟

إن قراءة سريعة للمناهج الدراسية فى الدول النامية فى المراحل التعليمية المختلفة، بدءًا من المرحلة الابتدائية ووصولاً وانتهاء بالمرحلة الثانوية، يمكن من خلالها ملاحظة حجم العنصرية التى تنطوى عليها مناهج الدين واللغة القومية والعلوم الاجتماعية على اعتبار أنها تعبر عن خصوصية ثقافية بعيدًا عن المواد العلمية، لأن العلم لا وطن له أما الثقافة فلها أرض ووطن. إن هذه المناهج ترسم دراما مسلسلة تعطى صورًا سيئة عن الدول الاستعمارية التى تمتلك الأسلحة الفتاكة والدمار الشامل وتمتلك الأعداد الكبيرة من الجيوش التى تشكل خطرًا داهمًا، إنها تقدم عن الآخر صورًا نمطية تحرف المعانى فهى تبرز شيئًا وتخفى أشياء تبعًا للصورة التى ترغب فى تقييمها عن هذا الآخر، فهى تقدم الآخر من خلال

تواريخ أحداث سالبة تلهب العنصرية، وهى تقدم تفسيرات مقنعة للطلاب تعليقًا على تلك الأحداث والتواريخ للبرابرة المتوحشين، بل إن من المناهج الدراسية ما يخفى أسماء العلماء والفلاسفة وأدوارهم الرائدة فى نقل العلوم والمحافظة عليها من الاندثار، وهم يتجاوزون ذلك بنسبة هذه الأدوار إلى علمائهم ومفكريهم.

وهناك فى المناهج الدراسية اتجاه سالب نحو الآخر من خلال تبسيط الوقائع والأحداث وكأنها أشياء طبيعية لا فضل للآخر فى إنجازها، أو من خلال عقد المقارنات حول التمسك بالقيم الروحية والأخلاقية ومدى تأثير طبائعهم على غيرهم وأن الأجانب هم مصدر الجرائم أو الشغب والاعتداءات على الوطنيين بعاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم وثقافاتهم التى تتعارض مع ما يسمى بخصوصيات تلك المجتمعات التى يعيشون فيها لأنهم بكل ذلك يشكلون مصادر للحساسية والجدل والتحريض على تجاوز الوطنيين لوقائعهم المعيشة وعليه تكون الازدواجية فى تعامل تلك الدول مع المواطنين وغير المواطنين.

وهناك فى المناهج الدراسية ما يشير إلى انفتاحها على الآخر على سبيل التلاقى مع الشعوب والتعارف بين الأمم والحضارات والثقافات والتركيز على مساحات التلاقى الإنسانى وتقديم العلماء والفلاسفة والمفكرين وأدوارهم وإنجازاتهم فى موضوعية ومن خلال الإيمان بالتنوع والتعددية والمحافظة على قدر من الموضوعية، بل وتدريس علوم وفنون برع فيها الآخر حيث يقدمونها لطلابهم لدراستها والإفادة من معطياتها وأسباب ازدهارها، بل إنهم يدرسون لطلابهم الآداب والفنون التى أبدعها الآخر وما قدمه فى مسيرة الحضارة الإنسانية، وتلك المناهج تعترف بالمواقع الجغرافية والثروات الطبيعية للآخر، وبفضل الآخر فى تقديم صناعة متقدمة والتعاون فى تطوير الحياة. وتلك رؤى منفتحة على الآخر تتصف بالإنصاف فى تربية الطلاب فى عصر الإنترنت وثورة المعلومات والاتصالات

وعصر العولمة الذى يتطلب ثقافة التسامح وثقافة السلام والعيش معًا والاعتماد المتبادل.

إن دراسة استخدامات اللغة فى مختلف المواقف والسياقات تندرج تحت مجال البراجماتية، وهو مجال حديث من مجالات علم اللغة مثله مثل مجال النحو والصرف والأصوات والدلالة والتراكيب. ومجال اللغة البراجماتية يشمل إطار استخدامها، أى ذلك المعنى الذى يقصده المتكلم منتج الرسالة أو المعنى الذى يفهمه المستمتع متلقى الرسالة.

إن المعنى فى اللغة له مستويات، أولها المعنى المجرد أى زمن المعنى الوارد فى المعاجم اللغوية، وله معانى عدة حسب مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة والمنطق وغيرها. وثانيها هو المعنى فى إطار الأسيقة، أى أن السامع يبحث عن دلالة الكلمة معتمدًا على السياق الذى وردت فيه حيث يصبح للكلمة معنى محدد فى الجملة. أما ثالثها فهو المعنى الذى يقصده المتكلم فى إطار الاستخدام السياقى الذى يحقق التفاهم إذا كان واضحًا فى أثناء الحوار، ولذلك تم الاهتمام بدراسة تفسير الجمل المنطوقة بهدف تحقيق التواصل اللغوى.

إن اللغة بشكل عام تعكس التكوين الفكرى والثقافى لأصحابها، ومن هنا فإن دلالة الألفاظ فى اللغة الواحدة تختلف من عصر لآخر طبقًا لتغير الفكر وتلون الثقافة، أى حدوث تطور دلالى للكلمة، وهذا التطور الدلالى للكلمة يسميه علماء اللغة بانتقال المعنى.

إن ما سبق يشير إلى استخدامات اللغة للتعبير عن الآخر هل هى:

- تبث روح التميز والتفرد على الآخر، باعتبار أن الثقافة العربية معيارية ومتميزة على الآخر باعتباره كان متخلفًا علميًا وأدبيًا وحضاريًا فى عصور مضت.
- تظهر أن ديانة المسلم هى الصحيحة النقية المبلغة عن الرب وأن ما عداها شابه الانحراف والتشويه والفهم الخطأ.

- تركز على السلبيات التى شابت العلاقات مع الآخر سياسيًا وحربيًا واقتصاديًا واجتماعيًا دونما ذكر الإيجابيات التى نتجت عن هذه العلاقات مع الآخر على المستوى المادى والمستوى المعنوى.
- تظهر مجموعة من الأسس العقدية التى تقتصر على المسلم دون سواه من حيث الاختيار والاصطفاء على العالمين، والوسطية كأمة لها سلوكها الحضارى، وأن الإسلام سيعم العالم وأنه دين الكافة. تشير إلى أن العلاقة السوية تكون بين المسلم وأخيه المسلم فقط، وأن اليهود والنصارى أشد عداوة للموحدين بالله وهم المسلمون.
- تذكر أن الدعوة إلى دين الإسلام بالموعظة والحكمة، وأن المجادلة بين غير المسلمين بالتى هى أحسن.
- تؤكد أن السلام أساس بناء الدولة وأن إعداد القوة لإخافة الأعداء والطامعين وليس للاعتداء والعدوان، وأن معاملة الأسرى فى الحروب لها قواعد إنسانية سامية، كما أن الحرب مع غير المسلم تحكمها قوانين وقواعد تقدر إنسانية الإنسان.
- تسمح بتعلم لغات الآخر فى مؤسساتها التعليمية وحضارته وتاريخه فى موضوعية، وتسمح بذكر العلماء والمفكرين والأدباء والفنانين الذين ينتمون إلى هذا الآخر.
- يجسد الأدب صورة الآخر من حيث الهوية أو الجنسية أو الفكر أو الصفات العامة والخاصة فى خيال الكتاب والتى تختلف عن الواقع وذلك فى الأعمال الأدبية من قصة أو مسرحية أو مقال بحيث تنم عن الكراهية والحقد وافتراءات وعدم التحضر والتخلف والتعامل بالقوة والقسوة.
- اتهام آخر بالسرقات الأدبية ومحاولة رد كل عمل أدبى إلى أصل عربى، وكذلك الحال فى بعض العلوم والفنون الأخرى غير العربية.

- الادعاء بأن الآخر ينتهك القوانين الدولية ولا يوليها الاحترام الذى تستحقه، وأنه يسعى لفرض سيطرته وقوته على الاقتصاد العالمى والتجارة الدولية، وأنه يستغل خيراتنا ويجعلنا سوقًا لتصريف منتجاته وتجريب أسلحته الجديدة.

إن محاولة رسم ملامح لصورة الآخر سواء من خلال المناهج الدراسية أو مراكز الأبحاث والمؤسسات التعليمية أو الدينية، أو عبر وسائل الإعلام تعدّ مهمة صعبة ولكنها ضرورية وأساسية من أجل دفع التعاون والتفاهم بين الشعوب، وهو أمر يتطلب تشكيل لجنة أكاديمية رسمية تتبع وزارة الخارجية بالتعاون مع وزارات التعليم والثقافة والإعلام تعد خطوة مهمة على طريق دعم وتعميق المعرفة والخبرة المنفتحة الواعية بالآخر، حتى وإن كان هدفها فى النهاية هو خدمة عملية صناعة القرار السياسى. إن قيام هذه اللجنة فى حدّ ذاته يعكس الحاجة إلى المزيد من المعرفة عن ثقافة الآخر وكيفية التعامل الفاعل مع الآخر والرغبة فى الحياة الآمنة السعيدة بعيدًا عن الكوارث والحروب. بل إن ذلك يحقق التعمق فى المعرفة الصحيحة المتبادلة عن ثقافة الآخر فتلك هى الطريق الآمن إلى تعاون اقتصادى وسياسى يتفق مع آليات العصر ورؤى المستقبل.

إن هناك صورة ذهنية عن الآخر فى الكتب المدرسية التى تقدم للمتعلمين فى المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، ومن المتوقع أن تكون هذه الصورة واقعية موضوعية، وأن يكون لدى مخططى المناهج الدراسية الدراسات العلمية التى تحقق الدقة والأمانة العلمية فيما يوردنه من معلومات وآراء فى تلك الكتب الدراسية التى يسطرونها لتشكل المفاهيم والقيم والأفكار لديهم عن الآخر، والتى تساعد على تحقيق ثقافة السلام، واحترام ثقافات الشعوب، والعيش معًا فى قرية كونية مسامية الجدران غايتها خير الإنسانية.

وتلك الصورة التى تقدم عبر المناهج الدراسية عن الآخر لابد أن تعدَّل وتحسَّن من الداخل أولاً فى وطننا العربى الكبير، لأن من يغيِّر الصورة الذهنية عن

العرب نحن لا هم، وذلك قبل أن ندافع عن أنفسنا بغير الحق ونقول إنهم يقدمون صورًا ذهنية عن العرب فى مناهجهم الدراسية مغلوطة قاصرة سطحية سلبية غير متوازنة.

إن الصورة الذهنية عن الآخر التى تقدم عبر المناهج الدراسية وسيلة فعالة لتشكيل وعى الأجيال وقيمهم وثقافتهم بل وسلوكهم بل إن هذه الصور الذهنية التى تقدمها المناهج الدراسية للمتعلمين قد تشوه سمعة جماعة أو ثقافة أو قومية، وتحط من قدرها بشكل مركز ومنظم ومنهجى. إن الكتب المدرسية وبخاصة تلك التى تتناول العلوم الإنسانية والاجتماعية تعدّ مصدرًا أوليًا يستمد منه الطالب مواقفه واتجاهاته إزاء كثير من الجماعات العرقية المختلفة، إذا إنها تزود الطلاب بما يحتاجون إليه من معلومات عن الأديان والتاريخ وحضارات العالم الذى يعيشون فيه، كما يمثل المعلمون عنصرًا مهمًا فى العملية التعليمية فهم لا يقومون فقط بتلقين المعلومات، بل يقدمون تفسيرًا لمختلف الثقافات أيضًا، ويتأثر الطلاب بما يختاره المعلمون من نصوص وأمثلة ونماذج، وبما يولونه من تأكيد لمفاهيم وأفكار، كما أن مضمون الدروس واتجاه النقاش فى قاعات الدرس، والواجبات والمهام التى يكلف بها الطلاب كل ذلك يشكل ذهنية الطلاب ونظرتهم الثقافية إلى أنفسهم وإلى غيرهم من جماعات معرفية أخرى، بل يشكل معتقداتهم عن أنفسهم مقارنة بالآخر لذلك يمكن إرجاع المواقف التى يتخذها الكبار تجاه جماعات معنية إلى التجارب التربوية المدرسية الأولى. إن المناهج هى تعليم مقصود قد تؤدى إلى تعزيز المواقف الإيجابية أو تنشئ الصور السلبية عن الشعوب الأخرى، نتيجة للمفاهيم المغلوطة أو الحذف أو التحريف بإقحام وقائع أو مقولات غير دقيقة أو غير كاملة أو غير متصلة بالموضوع، بقصد إشاعة صور ذهنية مشوهة عن الآخر الذى يجرى الحديث عنه. ولذلك فإن المناهج الدراسية لا تترك لمشيئة الأفراد، بل إن الحكومات تمارس قدرًا كبيرًا من الإشراف على مؤسسات التعليم خاصة فى مراحل التعليم ما قبل الجامعى.

إن الكتب المدرسية والمدرسين يمكن أن يكونوا بمثابة البذرة لمحصول من التفاهم الدولى والصداقة الدولية من خلال عرض المعرفة والمفاهيم عرضًا صحيحًا كمًا ونوعًا وبمنظور سليم شريطة مراعاة ما يلي:

- تخصيص نسبة لا تقل عن 10٪ من حجم صفحات الكتب المدرسية فى كل صف دراسى للحديث بدقة وموضوعية عن الآخر بصورة كاملة ودقيقة.
- تفسير ومناقشة القضايا والمفاهيم بين المعلومات والمعتقدات وثقافة الآخر فى شيء من النزاهة والأمانة العلمية مع احترام ثقافة الشعوب.
- التركيز على مساحات الاتفاق بيننا وبين الآخر والتى تبرز القيم والحضارات والتعاملات التجارية والاعتماد المتبادل والعلماء والأدباء وإنتاجاتهم وإبداعاتهم والإنجازات الحضارية، ومسيرة التقدم اجتماعيًا واقتصاديًا بصورة غير منقوصة.
- مراعاة العرض الموضوعى والإيجابى للصور والرسوم والبيانات والأشكال والنماذج التى تقدم الآخر إلى الطلاب.
- عرض الإسهامات الحضارية بصور متوازنة وكذلك الإنجازات العلمية والتطبيقات العملية، وما تشتهر به كل دولة من الدول الأوروبية والأمريكية من صناعات وفنون وأنشطة وآثار قديمة وزراعة وتجارة وسياحة مع التركيز على كل ما هو إيجابى تاريخيًا وجغرافيًا.
- تغطية الكتب المدرسية للآخر يجب أن تكون شاملة ودقيقة وإيجابية فى معظمها بعيدًا عن الأخطاء والحذف والمقولات المتحيزة، حتى تزود الطلاب بصورة واضحة عن الآخر.
- معتقدات المعلمين وانطباعاتهم عن الآخر وأحكامهم عليه من خلال النصوص المقررة والأحداث الجارية والموضوعات المتعلقة بها يجب أن تكون موضوعية

ومتجددة وشاملة، وأن تتعدى الصفات التى تنعت الآخر إلى صفات إيجابية، وألا يستخدم المعلمون قوالب جامدة دونما وعى كامل بالآخر.

- البرامج التى تعدّ المعلمين لابد وأن تشتمل على برامج كافية ودقيقة عن الآخر دونما وجود تحيز أو تشويه ضد الآخر، حيث إن هذه البرامج عن الآخر تشكل وعى المعلمين ومعتقداتهم عنه ونظرتهم الإيجابية أو السلبية حيال الآخر. وكلها يوجه سلوكهم التدريسى وطبع المتعلمين به من حيث الفكر والوعى والاتجاه وإصدار الأحكام القيمية عن الآخر.
- استخدام أساليب علمية لكشف معتقدات ووعى المعلمين بالآخر يجب أن تتم من خلال الدراسات التربوية والنفسية والبحوث العلمية التى تقدم فى كليات التربية باستخدام الاستبيانات والمقابلات الشخصية ومقاييس الاتجاه نحو الآخر وتحليل أحكام المعلمين حيال الآخر، والاختبارات التحصيلية التى تقيس معلومات المعلمين نحو الآخر. وكلها أدوات علمية للتشخيص ولبناء البرامج التدريبية التى تعالج السلبيات وتدعم الإيجابيات حتى تتكون صورة حقيقة متوازنة غير مشوهة ولا منحازة بل ودقيقة عن الآخر.

إن مكافحة التمييز ضد الآخر لابد وأن تراعى تغيير الصورة النمطية عن الآخر التى تشيع فى المناهج الدراسية. والصور النمطية هى مجموعة الصور والأفكار التى تأتى إلى ذهن الشخص عند تفكيره فى أبناء جماعة أخرى. وتتميز الصورة النمطية فى العادة بالعمومية وبعدم استنادها إلى حقائق موضوعية. وتناول الصورة النمطية وحدها لا يكفى لتقديم صورة منصفة عن الآخر، بل لابد من مكافحة تحيز المناهج الدراسية ضد الآخر ونشر التعددية الثقافية ويتم ذلك عن طريق تطوير أبحاث ومناهج وبرامج دراسية تعالج مشكلة التحيز ضد الآخر فى المناهج الدراسية، وذلك بتطوير المواد التعليمية التى تهتم بترسيخ قيم التسامح، كما يتم تقديم صورة منصفة عن الآخر من خلال تدريس المواد التعليمية التى تتناول الآخر خاصة دول

أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية لزيادة وعى الطلاب بالآخر، خاصة وأن تقديم هذه المواد التعليمية التى تتناول الآخر خاصة دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية لزيادة وعى الطلاب بالآخر، خاصة وأن تقديم هذه المواد التعليمية للطلاب تراعى التركيز على التعددية الثقافية وعن خطورة التمييز ضد جماعة أو دولة بعينها. إن العيش معًا فى قرية كونية مسامية الجدران تتطلب من المناهج الدراسية الانفتاح على الآخر وتأكيد قيم التسامح والسعى نحو فهم إيديولوجيات واحترام ثقافات الآخر، خاصة وأن كل ذلك يمثل دعمًا لا تهديدًا للوطنية فى عالم بلا هوية. كما أنه يخفف من الضغوط التى يواجهها الطلاب من فقر فكر معظم المعلمين بحقيقة الآخر وثقافته وحضارته وتقدمه العلمى والتكنولوجى، بل وتقدمه اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا، وحتى يتخلص الطلاب من الصورة النمطية المقدمة عن الآخر ويتزودون بالخبرة التعليمية الإيجابية التى تشكل ذهنية منفتحة لمعالجة الأزمات والصراعات بين الشرق والغرب أو الشمال والجنوب، وتنبذ صورة الكراهية التى لازمت الحديث عن الآخر وما يترتب عليها من مشاعر مختلطة تجاه الآخر، وهو ما يتطلب مراجعة للمناهج وتحديثها كى تتضمن قيمًا ومفاهيم ومعلومات خاصة بالتعليم للحياة، والممارسة الديمقراطية وأنشطة حقوق الإنسان وحقوق المرأة، ونشر قيم التسامح وتنمية المجتمع المحلى والمشاركة المجتمعية ومركزية التخطيط ولا مركزية التنفيذ.

ثانيًا- التنوع الثقافى طريق السلام:

لا توجد ثقافة واحدة تستجيب إلى معايير موضوعة محددة من قبل حضارة ما أو أمة ما، بل ثمة العديد من الثقافات بقدر عدد المجموعات الإنسانية وربما يقدر عدد الأشخاص. فالقول بثقافات إنما هو اعتراف بما نسميه التنوع الثقافى. والربط بين الثقافات والعالم إنما هو اعتراف وتأكيد على ضرورة رؤية كونية للثقافات.

إن الوعى بالتنوع الثقافى أمر بديهى، كما أن مكونات الثقافات ليست واحدة بل

متنوعة متعددة، فهناك ضروب من الموسيقى عالمية وضروب عن فنون الطبخ وغيرها. ذلك أنه من منتصف القرن التاسع عشر تم الانتقال من تعريف للثقافة بصيغة المفرد وهى بالطبع الثقافة الأوروبية المعيارية بداهة والمنحدرة عن التراث الإغريقى الرومانى، متطورة من مرحلة إلى مرحلة من العصر الوسيط إلى عصر النهضة إلى عصر التنوير عبر مختلف أفنانها، إلى مفهوم نسبى للثقافات أصبح مطبوعًا بمقاربة من قبيل اجتماعى أنثروبولوجى. غير أن هذا المفهوم ظل مقصورًا على أوساط محدودة. ولم تظهر عبارة حوار الثقافات إلا فى أوائل الستينات من القرن العشرين، وهى ليست عبارة علمية بل سياسية عامة وشاملة. وهى ما يعنى أن الثقافات تتحاور، فهل حدث وأن تحاورت يومًا ما ؟ لقد كانت العلاقات التى قامت بين الثقافات على الدوام علاقات قوة، ذلك أن الواحدة منها تسعى إلى السيطرة على الأخرى وأخذ مكانتها. إنه ثمة فى جميع أنحاء العالم ثقافات غالبة وثقافات مغلوبة وثقافات متصاعدة وأخرى فى طور الانقراض، حيث إن قويها يبيد ضعيفها، وعندما يكون الصراع متكافئًا فى القوة ويستمر طويلاً ويلحق المتخاصمين الكلال، عندها تأتى الثقافات إلى معاهدة سلام، وهو ما نحاول الحفاظ عليه وإنعاشه مع الاحتفاظ بالجزئيات التى تجعل ثقافة ما مختلفة عن ثقافة أخرى. وثمة ها هنا خطان متوازيان يتمثل الأول فى وضع حدّ للاعتداءات، ويتعلق الثانى لا ببلورة حوار مستحيل، بل باكتشاف متبادل لما بقى من أشكال الاختلاف. ويفترض هنا وضع حدّ للاعتداءات مقاومة للآخرين ولدوافعنا الذاتية، فكيف الصمود لموجة الأمركة العاتية بما فيها من تنميط وخضوع لقوانين السوق دون أن تأخذنا الرغبة فى الاعتداء على الآخرين، وفى أن نفرض عليهم فى المقابل قيمنا الذاتية لاتينية كانت أم إسلامية أم روسية أم غير ذلك من القيم بدلاً من أن ندافع عن أنفسنا ؟

إن علينا أن نستبدل حوارًا وهميًا بمعرفة متبادلة بفروقنا، فقد ينشأ عن ذلك تفهمًا أفضل لبعضنا البعض، وقد يتولد إثراء متبادل انطلاقًا من تلك الفروق ذاتها.

والمعرفة تستدعى الفضول والبحث والتفتح وكلها مواقف تناقض كراهية الآخر الأجنبى والعنصرية، والتعصب، والانغلاق على الذات والرفض.

إن الموضع المشترك الذى فيه تتحدد الحوارات بين الثقافات والأديان هو تلك الطبيعة المشتركة بين الناس أجمعين، ثم هناك العقل رابطة ثانية بين الناس. إن قوة الفكر الموحدة هذه لا تكون إلا حيثما كانت الحقيقة مطلب العقل، فلا يسلم أمره لضرب من اللهو الفكرى والسفسطة التى من شأنها أن تفرق بين البشر. وثالث الروابط بين الناس إنما هى القيم ولا سيما قيمة الكرامة الإنسانية، ولا قدرة لتلك الروابط على توحيد البشر إلا متى كان الاعتراف بها. وقبل ذلك كله فإن أعمق مصدر لتوحيد المؤمنين بالديانات السماوية، إنما هو الله ذاته الذى يوحّد الإنسانية، وبمعنى آخر يوحّد جميع المؤمنين من خلال تمام رحمته اللامتناهية، ذلك أن قدسية الله الرب هى ألصق الصفات به، وهى أهمها، إذ إن من أخص خصائصه أنه الرحمة والكمال، وسواء سلمنا بتلك الحقيقة عن طريق العقل أو عن طريق الإيمان والنقل فإنها تظل أساس السلم بين مختلف الديانات السماوية. ثم إن كل دين أصيل يفترض ضرورة قدرة أصيلة على معرفة تتجاوز الذات العارفة، وهذه المعرفة وحدها هى التى تستطيع أن تبين لنا كيف أنه عندما نكون مع الله فإننا لا نكون على صلة بموضوع محايد تشكل ثقافيًا بفعل الفكر الإنسانى بل على صلة بواقع متعالٍ حى هو الله الرب لذاته.

إنه ليس ثمة مفهوم أكثر مركزية من مفهوم كرامة الذات البشرية لا بالنسبة إلى الوجود السياسى للإنسان فحسب، وإنما بالنسبة إلى وجوده الأخلاقى، فهو قيمة موضوعية رائعة، وهو مغرس القيم الأخلاقية وجميع حقوق الإنسان، إننا نعرف كل صغيرة وكبيرة عن جسم الإنسان دون معرفة كنه الإنسان ذاته. فما لم نعترف له بالكرامة لم يكن أن نفهم لم لا نعامله معاملة الجماد. ثم إن كل معرفة حقيقية بالقيم تمتلك قوة توحيدية أعمق بكثير مما تمتلك المعرفة المحايدة. إننا إذا اعترفنا بالقيم

وعملنا بها فى الحياة فإنها تشكل وحدة أكثر عمقًا تجمع البشر جميعًا كالصداقة والعدل والكرم والإحسان التى هى فى جمالها وروعتها الأبدية قيم واحدة فى كل بقاع المعمورة. وجميع من مارس تلك الفضائل هم أقرب ما يكونون إلى بعضهم البعض، ذلك أن المسلم العادل أقرب إلى المسيحى العادل منه إلى المسلم غير العادل، والمسلم المحسن أقرب إلى المسيحى واليهودى الطيب منه إلى المسلم الفظ. إن الشخص جوهر فردى ذو طبيعة عاقلة، وما يميز الشخص إنما هو كرامته باعتبارها قيمة موضوعية مطلقة.

إن كرامة الإنسان إنما هى الطبيعة والوجود الفعلى الذى يتمتع صاحبه بالوعى واليقظة ويقدر على الفعل، والكرامة الإنسانية لا تدرج فيها ولا انقسام فيها ولا درجات لها من قوة أو ضعف. إن كل كرامتنا إنما قوامها بالتفكير، وهكذا الإنسان أينما كان هو مركز فعل حى، وكائن عاقل واعٍ وهو مصدر تلك الكرامة. ويترتب على كرامة الإنسان حقوق أهمها الحق فى معرفة الحقيقة، والحق فى ممارسة الحرية، والحق فى احترام حرمة الجسد والفكر والتعبير.

إن كرامة الإنسان مكتسبة من اتصاله بالواقع والتزامه بالحقيقة والقيم وبما يقوم به الإنسان من أعمال. إن الكرامة مكتسبة وهى قابلة للتلف ويلزم عن ذلك حقوق أخرى كالحق فى الاحترام الذى يلائم المكانة الأخلاقية والتى تميز الحياة العادلة. إن هذا معناه أن هناك كرامة لازمة عن الطبيعة الإنسانية ذاتها، والكرامة اللازمة عن ملكة العقل والتفكير، والكرامة اللازمة عن الفعل الفاضل، وهناك أيضًا نوع من الكرامة كأن يكون المرء محبوبًا للناس، وتلك هى الكرامة الهية وهى التى تقوم بالعلاقات بين البشر كالعلاقة بين الآباء والأبناء.

إن الروابط التى تعلوها كرامة الإنسان تجمع بين اليهودى والمسيحى والمسلم رغم اختلافهم فى مفاهيم ومعتقدات، ولكن ثمة روابط عميقة تجمعهم أهمها الانقطاع للبحث عن الحقيقة ولو اختلفوا فى مضمونها، فكل من أقبل على الله

بإخلاص أحبه، وهو ما يعنى وحدانية الله الرب الإله فى جميع الديانات التوحيدية، فإلهنا واحد لأنه الوحيد وهو ما يلتقى فيه اليهود والنصارى والمسلمون. هو إله مشترك بين الجميع إذا ما تدبرنا بحسب التجليات والوقائع التى أفصح بها عن وجوده الأنبياء، وحيث خلق الله العالم والموت والحياة، إنهم جميعًا يصلون لإله هو الخير بإطلاق فى مقابل الشيطان الذى هو الشر بإطلاق، وهم جميعًا يضفون على الإله الصفات نفسها: الأزلية والكمال والعدل، إلى غير ذلك من صفات تسع وتسعين هى واضحة جلية فى الإسلام. وهو ما يعنى أننا جميعًا أمة إنسانية واحدة يجمعها إيمان بالإله. لكننا عندما نتحدث عن الحضارات نعنى أنساقًا قيمية أى معايير لضبط المسلكيات الفردية والجماعية وإنتاج أنماط من الذاتية والعقائدية البشرية. إن السؤال المسكوت عنه فى الحوار المتشعب الدائر هو حول وحدة الحضارة الإنسانية المعاصرة أو تعدديتها، هو سؤال المقومات العقدية القيمية الذى يتنزل فى أرضية فلسفية معقدة نادرًا ما يتم التعرض لها. فإذا كانت الحضارة الإنسانية اليوم حضارة واحدة لعالم توحدت أركانه وترابطت حلقاته فما المضمون المعيارى لهذه الحضارة الواحدة، وأى قيم تستند إليها، وما شرعية هذه القاعدة القيمية الموحدة؟ أما إذا كانت الحضارة البشرية متمايزة مختلفة من حيث الشرعية فكيف يتسنى ضبط مقتضيات الكونية المتجسدة فى واقع قائم تجرى محاولات كيفية لصياغته ثقافيًا وقيميًا؟

إن الحضارات الكبرى تتميز دومًا بالاتجاه نحو العالمية، وتتسم بطابع رسالى هو دافعها نحو الانتشار والهيمنة. وإن الأخلاق والمقاصد القيمية هو أمر تشترك فيه جميع الأديان على اختلاف لغاتها وبالتالى فهو أمر يعنى الإنسانية برمتها. إن ما يتوجب علينا أن نتجه إليه فى يومنا قبل غدنا هو التعرف على ثقافة بعضنا البعض وبالتالى وجب تشجيع الترجمة، وتعلم الإصغاء إلى الآخر، فالثقافة العربية من أهم الثقافات فى العالم ولابد إلى جانب ذلك العناية بالتربية، فنحن فى حاجة إلى برامج

جديدة وتعليم جديد للتاريخ وعقلنته حتى لا يقتصر على تاريخ الحروب، بل يشمل الحضارات والاختراعات وتغيير الأفكار عسانا بذلك نوفق إلى تنشئة الأجيال على ما يجب أن تكون عليه، وعلينا إيلاء أهمية لتكوين الصحافيين والقادة حتى يستوعبوا التاريخ والثقافات الأخرى، فالسلم يتحقق من خلال الثقافة وحدها، ويتطلب إنشاء تنظيم أممى أخلاقى يتبنى فلسفة إنسانية فى الحوار.

إن معرفة الآخر أحد المرتكزات الأساسية من أجل العيش معًا من منطلق التسامح بين الحضارات والأديان، وتلك قضية محورية يتوجب أن ينشغل بها الباحثون والأكاديميون والمفكرون إلى جانب نخبة من السياسيين والإعلاميين، ومؤسسات المجتمع المدنى والأحزاب السياسية جميعها، ناهيك عن المنظمات الدولية، كما يتوجب الارتقاء بالحوار مع جميع الثقافات والحضارات والأديان إلى مستوى ما يفرضه التاريخ المعاصر من تحديات عاتية، وما توجبه أوضاع العالم المتقلبة من مبادرات ترسيخًا لكيان الأمة وتأكيدًا لحق ثقافتها فى الاختلاف والبقاء والنماء، ومساهمة أمنية فى الدفاع عن السلم والحرية وحقوق الإنسان فى العالم بأسره. وبصرف النظر عما شهده ويشهده العالم مذهولاً من أحداث ليس للعاقل إلا أن يدينها بشدة، فإن إرادة الحوار لدى أمتنا العربية الإسلامية تعبر عن رؤية ثقافية تتجاوز الظروف الطارئة لتؤكد حقيقة الحضارة العربية الإسلامية، وهى حضارة عرفت كيف تأخذ من غيرها دون أن تفقد أصالتها، وكيف تجود على غيرها فتثرى باستمرار.

إننا فى حاجة إلى فتح ملف الحوار الثقافى العربى – الأوروبى على أسس مستحدثة، وبأساليب غير مطروقة تتجاوز المواقف البروتوكولية لتنفذ إلى المصاعب الحقيقية، وتفتح الآفاق الممكنة. إنه اجتهاد فى التعبير عن إرادة عربية تمدّ اليوم أكثر من أى وقت مضى يدها إلى أوروبا بصدر رحب تدعوها إلى كلمة سواء تخدم السلم وتقوى أواصر التعاون على ما فيه خير المجتمع. إنها إرادة مشتركة من أجل العربى

والأوروبى تزداد تبلورًا، لأن مصيرنا واحد ونواجه إعصارًا واحدًا فلنكن معًا ضمانًا لانتصار الحق على العنف والتسامح على التعصب، وتغليب الاختيار الحضارى على المنزع الهمجى. نعم هو طريق طويل يتطلب السير، والمشى يصنع الطريق، بخطوات أوثق أركانًا وأبعد مدى تذلل الإرادة الخيرة كل عوائقه، وتفتح فيه للمستقبل آفاقًا رحبة كأبواب السماء.

إن حوار الثقافتين العربية والأوروبية مقصده دعم الظروف التى يقتضيها التفاهم المتبادل والسلم والتعاون بين الشعوب. إننا نمرّ بمرحلة تاريخية مضطربة تتطلب ترسيخ تقاليد الحوار بين ثقافات عربية وغربية درءًا لما علق بالأذهان من شكوك وسوء تفاهم من جراء ما وقع من أحداث مؤسفة، استغلها البعض لطرح رؤى لا أساس لها من الصحة، وإشاعة ثقافة الحقد، وإقصاء الآخر. إن ما يدعو اليوم إلى التأمل فى عالم لا يستقر على ما يقتضيه توازنه الجديد- إنما هو على وجه الدقة، هذا الطوفان من العنف الذى نحن جميعًا من ضحاياه بشكل مباشر أو غير مباشر. ذلك أنه لا يكفى أن ندين العنف بلا تحفظ ولا التواء، بل الواجب علينا أن نحدد أيضًا أسبابه، حتى نقضى عليه شيئًا فشيئًا، وإذا ما سلمنا وفق ما يوجبه العقل بأنه ما من شرير بإرادته كان علينا أن نعترف أن عودة قوى عدوانية حسبناها انقرضت هو مؤشر على وجود أخطاء وفشل فكرى حيث يسحق الواقع القيم، وتكره الإرادة على الانقياد الأخرق تكون كرامة الإنسان على غير حقيقتها. إنه إذا ما تدبرنا الأمور وفقًا لكنهها الصحيح، وباعتبار كرامتنا المشتركة وجدنا أن اختلافاتنا لا أهمية لها، فرسالتنا تقتضى منا أن نعمل حتى ينتصر ما يجب أن يكون على ما هو كائن، ويغالب العقل العنف، ويستولى السلم والتعاون على الخوف والانشقاق. وفى هذا الاتجاه من صالحنا جميعًا أن نتحاور، وأن نتعلم كيف نتواصل، وكيف تكون العلاقات بيننا مبنية على مبدأ الاحترام المتبادل والمساواة فى الكرامة والحقوق، وباستطاعتنا عندها أن نحقق من النتائج ما لا يمكن تصوره، وأن نتطرق

فى غير إحجام إلى كل المجالات الثقافى منها واللغوى والدينى والأخلاقى والاقتصادى. إنه من طبيعة الحوار حين نحسن تصوره أن يكون متعدد الأبعاد، وأن تساهم فيه جميع الإرادات الخيرة من أهل السياسية والآداب والفنون والاقتصاد والتربية والإعلام، ذلك أن الحوار تأسيس لمجموعة متآلفة، فى صلبها يستعاض عن الوجود المتوحد بالوجود المتحد.

إنه من طبيعة هذا الانتماء المشترك إلى مثل عليا بقوة العقل أن ينمى فينا الرغبة فى فهم الآخر والتعاطف معه فى غير انقطاع عن الوفاء للذات، ومهما كان لاختلافاتنا من المشروعية فإنها تلتقى عند ذلك المغرس المشترك، ذلك أن الفرق لا يكون له معنى إلا بالتماثل، ولا يكون للخصوصيات من الوزن إلا بقدر ما نقترب بها من معايير الكونية. ذلك هو المثل الأعلى الذى عليه تأسست الثقافة العربية، بصرف النظر عما تتعرض له من أحكام مسبقة وسوء فهم. وذلك هو المثل الأعلى الذى كان ابن رشد قد عبر عنه فى فكرة العقل الفعال بما هو عقل كونى خالد عبر الجنس البشرى أو قل الإنسانية جمعاء. إن ما نسميه اليوم بالنظريات ذات النزعة الإنسانية ليس من بعض وجوهه إلا استعادة فكر ابن رشد. وفى هذا الإطار لا يكون الحوار تعبيرًا عن إرادة الإنسان الذى يسلّم وفاء لكرامته بمتطلبات الحقيقة، وينفتح على غيره انفتاحًا يجعله قادرًا على التعاطف معه بما يمكنه من تفهمه، ومعنى ذلك أنه متى كان الحوار على أسلوب سوى لم تنفصل فيه عملية التفهم ولا معرفة الحق عن الاعتراف بالآخر.

إن هذه رؤى منطقية وأخلاقية للحوار، وفيها أن الوطن العربى الإسلامى فى دعوته إلى الحوار لا يستجيب لنداء ثقافة قديمة قدم الزمن فحسب، بل يضرب أيضًا مواعيد مع المستقبل. إن الثقافة العربية الإسلامية هى وريثة روائع حضارات بلاد ما بين النهرين، وأعاجيب مصر القديمة، وجسارة الفينيقيين والقرطاجنيين، والحضارات الإغريقية والرومانية، وقد عرفت على الدوام كيف تحسن الإصغاء إلى العالم وإلى البشر وإلى صوت السماء.

إن تلك الثقافة هى التى عرفت، بعد أن امتلكت التراث العلمى الإغريقى، كيف تتتلمذ على مدرسة العقلانية الناشئة ثم تطورها وتهب ثمارها للإنسانية جمعاء، وفى مقدمتها أوروبا.

إن أوروبا مدينة للعرب المسلمين بأشعة النور الأولى التى أضاءت ظلمات استمرت اثنا عشر قرنًا، فقد كان العرب أساتذة الأوروبيين كما كان المصريون أساتذة الإغريق. إنه فى إطار وفاء الأمة العربية الإسلامية لذاتها استفادت حتى من أشد تجاربها التاريخية مرارة، فقد تعلمت ممن استعمروها لغة موليير ولغة شكسبير، مما يدل على أنها ثقافة تغدق بلا حساب، وتطلب الحكمة أنى وجدتها فى غير مساس بهويتها، فى ثقافة كونية عن جدارة، ولذلك فهى ترفض مثل كل الثقافات كل أشكال الهيمنة والتنميط، كما ترفض بشدة إرادة فرض الأمر الواقع والأحادية مهما كان شكلها. ذلك أنه من حق كل ثقافة أن تحيا وأن تزدهر، وهو أمر لا يتطلب إلا تسامحًا يمكّن لها من أن تتعايش فى وئام، وعندها سنكتشف أن فى المختلف عنّى إغناء لى، ولذلك كانت الثقافة العربية الإسلامية فى صميمها وجدانيًا وعقليًا أبعد ما تكون عن الدعوة إلى صدام الحضارات أو صراعها. تلك هى الروح الجديدة التى يمدّ بها الوطن العربى اليوم يده إلى أوروبا بقلب أرحب من أبواب السماء، وهو وطن يغطى عشر المعمورة ويمثل خمسة بالمائة من سكانها. وهو شعب فتى باعتبار أن ثلثيه أقل من الثلاثين عامًا الجزء الأوفر منهم فى مراحل التعليم. وهو على قدر اعتزازه بماضيه المجيد يرنو إلى مستقبله ومستقبل الإنسانية، وذلك المستقبل هو الذى علينا أن نبنيه معًا فى إطار من السلام والتعاون والتفاهم المتبادل. والوطن العربى أعلن وعلى الدوام تمسكه بسلم متين شامل وعام وعادل. إن أخطر معضلة تواجهها البشرية إنما هى معضلة التوفق إلى إيجاد مجتمع مدنى يطبق فيه القانون تطبيقًا كونيًا، وذلك هو مبدأ الشرعية الدولية التى يتبناها الوطن العربى ويحتكم إليها خدمة لصالح الجميع. إننا إذا أردنا أن يكون الحوار جادًا علينا ألا ننسى الواقع

المعيش، ففى الوقت الذى نتحدث فيه عن حقوق الإنسان والحريات الأساسية فإن ثلث سكان العالم يقاسى الفقر، وأن خمس الإنسانية محروم من الماء الصالح للشرب فضلاً عن الإيواء اللائق. فكيف أن نربى النشء على قيم التضامن والسلم والاعتراف بالآخر، وكيف لنا أن نجنب النشء مضار السلط الأيديولوجى بما فيه من إنزلاقات خطرة نحو التطرف والتعصب، إنه جدير بنا أن نقدم للنشء مُثلاً يعيش من أجلها فنفتح له بذلك أبواب الأمل. إن مستقبلنا المشترك يقتضى السلم والتعاون والتضامن الإنسانى والحوار بين الثقافات هو الخدمة التى تقدم لترسيخ السلم العالمى والوفاق بين الشعوب والثقافات.

ثالثًا: اعرف الآخر لتعرف نفسك :

إن ما تنبس به الشفتان تلتقطه الأذنان، وما يجود به القلب يصل إلى صميم القلب. إن الحقيقة المحزنة هى أنه بالرغم من التقدم فى مجال التكنولوجيا ووسائل الاتصال فى النصف الثانى من القرن العشرين، وبالرغم من سفر الإنسان على نطاق واسع، واختلاط الأجناس وإماطة اللثام عن كثير من ألغاز هذا العالم فإن سوء الفهم هذا بالنسبة للغرب لا يمكن أن يكون حصيلة عدم المعرفة، فهناك بليون مسلم فى شتى أرجاء العالم، وهناك عشرة ملايين مسلم أو أكثر فى بلاد الغرب. إن الجاليات المسلمة تنمو وتزدهر منذ عقود، ففى بريطانيا مثلاً خمسمائة مسجد، والاهتمام الشعبى بالثقافة الإسلامية يتنامى بسرعة. إن الإسلام يحيط بالغرب من كل جانب ومع ذلك يستمر الشك والخوف. ولا ريب أن فرص السلام فى عالم التسعينيات بعد انتهاء الحرب الباردة أصبحت الآن أعظم مما كانت عليه فى أى وقت مضى خلال القرن العشرين. ولكن الأخطار كما يراها الغرب لم تندثر، ففى العالم مشاهد التدمير والتخريب المنتظمين لنسق الحياة الفريد، وهو نسق يسود منذ آلاف السنين، ولابد أن تشكل هذه المسائل قضية يجمع فيها المسلمون والغرب قواهم من أجل سلامة البشرية.

إن المعاناة المروعة للمسلمين فى دول عربية كثيرة وأفريقية تسهم فى إبقاء المخاوف والأفكار المتعصبة التى يكنها كل هؤلاء للغرب. إن الصراع يندلع نتيجة لسوء استخدام السلطة وتضارب الأفكار، ناهيك عن النشاطات المهيجة التى يمارسها القادة ورؤساء الدول المتعصبون والمجردون من الضمير الإنسانى. ولكن من المحزن أيضًا أن الصراع يندلع نتيجة عدم القدرة على الفهم والعواطف الجياشة التى تؤدى، نتيجة لسوء الفهم، إلى الخوف وانعدام الثقة. وعلينا ألا ننجرف إلى حقبة جديدة من الخطر والانقسام لمجرد أن الحكومات والمجتمعات الدينية لا تستطيع أن تتعايش معًا.

إن الذى يربط بين المسلمين والغرب أقوى بكثير مما يقسمهم فالمسلمون والمسيحيون واليهود جميعهم أصحاب كتب سماوية، ويؤمنون بإله ويشتركون فى النظرة الوحدانية، وأن الحياة الدنيا فانية، وبالمسئولية عن أفعالنا، والإيمان بالآخرة، إننا نشترك فى الكثير من القيم: احترام المعرفة والعدل والرأفة بالفقراء والمحرومين، وأهمية الحياة العائلية، واحترام الوالدين.

إن تاريخ عالم الغرب والمسلمين مرتبط على نحو وثيق، غير أن معظم ذلك التاريخ تميز بالصراع والعداء المتبادل. وقد أدى معظم ذلك إلى نشوء تقليد دائم من الخوف والشك، لأن عالمينا غالبًا ما ينظران إلى ذلك الماضى بمنظورين متعارضين. فبالنسبة لتلاميذ المدارس فى الغرب تعتبر الحروب الصليبية التى استمرت مائتى عام سلسلة من الأعمال البطولية المجيدة حاول خلالها الملوك والفرسان والأمراء الأوروبيون تخليص القدس من أيدى المسلمين الأشرار. أما المسلمون فيعتبرون الحروب الصليبية حقبة من الوحشية الشديدة وأعمال السلب والنهب المروعة التى قام بها المرتزقة الغربيون الكفار، وكذلك الفظائع المرعبة التى ارتكبها الصليبيون فى القدس. وبالنسبة للغرب، يعدّ عام 1492م عام البحوث الإنسانية والآفاق الجديدة عام كولومبوس واكتشاف الأمريكتين، وبالنسبة للمسلمين فإن هذا العام هو عام

مأسوى حيث سقطت قرطبة فى أيدى المسيحيين وانتهت بذلك ثمانية قرون من الحضارة الإسلامية فى أوروبا. ليست المسألة هى تحديد أى الصورتين أكثر صحة من الأخرى، أو أيهما تنكر الحقيقة، المسألة هى سوء التفاهم الذى ينشا عندما نفشل فى تقرير كمية رؤية الآخرين للعالم وتاريخه وأدوارنا فيه.

إن الغرب فى تاريخه ينظر إلى الإسلام غالبًا باعتباره تهديدًا، أى كفاتح عسكرى فى العصور الوسطى، وكمصدر لعدم التسامح والتطرف والإرهاب فى العصر الحديث، كما أن الدول الغربية احتلت العالم العربى تقريبًا بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية. صحيح أن أيام الفتوحات تلك قد انتهت، ولكن موقف كلا المعسكرين لا يزال يعانى حتى الآن، لأن أسلوب فهمنا له اختطفه التطرف والفهم السطحى، فالكثيرون هنا وهناك ينظرون بمنظار الحروب المأساوية وأعمال القتل والتفجير التى تقوم بها جماعات متطرفة فى الشرق الأوسط، وبمنظار ما يشار إليه عمومًا بعبارة الأصولية الإسلامية. لقد عانى حكم الغرب على الإسلام من التحريف الجسيم نتيجة الاعتبار بأن التطرف هو القاعدة. صحيح إن التطرف موجود ولابد من معالجته، ولكنه عندما يستخدم أساسًا للحكم على مجتمع فإنه يؤدى إلى التحريف والإجحاف.

إنه كثيرًا ما يجادل الناس فى دول الغرب بأن قوانين الشريعة فى العالم الإسلامى قاسية ووحشية ومجحفة، ويروق لصحافة الغرب أن تروج هذه الأفكار الاعتباطية المجحفة. إن الحقيقة بالطبع مختلفة، ذلك أن المبدأ وروح الشريعة الإسلامية المستمدين من القرآن الكريم ينصان على الإنصاف والرحمة، وعلينا أن ندرس التطبيق الفعلى للشريعة قبل أن نصدر أحكامنا، وعلينا أن نميز بين أنظمة العدالة التى تدار باستقامة وأنظمة العدالة كما نراها قيد التطبيق والتى قد حرفت لأغراض سياسية وتحولت إلى شيء لم يعد إسلاميًا. علينا أيضًا أن نميز بين الإسلام والعادات المألوفة فى بعض الدول الإسلامية. وثمة موقف مجحف عربى واضح وهو الحكم

على وضع المرأة فى المجتمع الإسلامى من خلال الحالات المتطرفة مع أن تطبيق الإسلام ليس متماثلاً فى كل البلدان والصورة ليست بسيطة، ففى تركيا ومصر وسوريا منحت المرأة حق التصويت فى نفس الفترة التى منحت فيها أوروبا نساءها حق التصويت أيضًا، بل وقبل اتخاذ سويسرا بفترة طويلة الخطوة ذاتها، كما أن هؤلاء النساء تتمتعن منذ وقت طويل بالمساواة فى مجال الأجور، والفرص فى ممارسة كافة الأعمال فى مجتمعاتهن، والقرآن الكريم نص على حقوق المرأة المسلمة فى الأملاك والإرث، وبعض الحماية فى حالة الطلاق وممارسة التجارة وذلك منذ خمسة عشر قرنًا من الزمان حتى وإن كانت هذه الحقوق لا توضع موضع التطبيق فى جميع الدول الإسلامية. وفى أوروبا كانت بعض هذه الحقوق غربية، وأصبحت بينظير بوتو والبيجوم خالدة ضياء رئيستين للوزراء فى مجتمعاتهم التقليدية عندما شهدت بريطانيا أول رئيسة وزراء منتخبة فى تاريخها.

إن المرء لا يجنى مكسبًا بل يتسبب فى كثير من الأذى إذا رفض تفهم مدى التخوف الحقيقى لكثير من الآخرين، ولذلك يتوجب عدم إلصاق الأصولية بدين دون دين آخر، وأن نميز بين دعاة الصحوة الدينية الذين يختارون ممارسة دينهم بأعلى درجات التقوى وبين المتعصبين والمتطرفين الذين يستخدمون هذه التقوى لتحقيق أغراض سياسية، وعلينا ألا ننساق وراء الاعتقاد بأن التطرف هو سمة المسلم وجوهره، ذلك أن التطرف ليس حكرًا على الإسلام بل ينسحب على ديانات أخرى مسيحية كانت أم يهودية، فالإسلام دين الاعتدال، ويجب أن نميز بين ما تؤمن به الغالبية العظمى من المسلمين وبين أعمال العنف التى تقوم بها فئة صغيرة والتى يدينها الناس فى كل مكان. لقد شجع الإسلام البحث والتنقيب وحافظ عليهما وثمة قول مأثور هو: إن حبر العالم أقدس من دم الشهيد. إن كثيرًا من المزايا التى تفخر بها أوروبا العصرية جاءت أصلاً من أسبانيا فى أثناء حكم المسلمين مثل الدبلوماسية، وحرية التجارة، والحدود المفتوحة، وأساليب البحث الأكاديمى،

وعلم الإنسان، وآداب السلوك، وتطوير الأزياء، والطب البديل، والمستشفيات. وفى الأندلس منح اليهود والمسيحيون الحق فى ممارسة معتقداتهم الموروثة. إن الإسلام جزء من ماضى الدول الغربية ومن حاضرها فى مجالات البحث الإنسانى، وقد ساهم فى إنشاء أوروبا المعاصرة إنه جزء من تراث أوروبا والغرب وليس شيئًا منفصلاً عنه. وفوق ذلك فإن جوهر الإسلام حافظ على نظرة متكاملة للكون، فهو يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة، وحافظ على نظرة غيبية وموحدة للبشر والعالم أجمع، وسيظل الحوار طريقنا معًا كى يفهم بعضنا بعضًا، وكلما قطعنا شوطًا أطول فى الحوار تحسنت نوعية العالم الذى نقيمه لأبنائنا وأجيال المستقبل.

حوار الأديان وحوار الثقافات وحوار الحضارات يجب أن تبدأ دائمًا بتمهيد الطريق أمام الجيل القادم بحيث تيسر أمامه السبل للتعايش مع الآخر بأسلوب أفضل، وأن نوفر له تربية أفضل وأن نمنحه تعليمًا أفضل يتناسب مع تطورات العصر الذى يعيش فيه، حيث أصبح لزامًا عليه أن يتعامل ويتعايش يوميًا مع الآخر سواء بأسلوب مباشر وجهًا لوجه أو بأسلوب غير مباشر عن طريق التواصل بالإنترنت.

وهنا لابد من تربية جديدة لأبنائنا تقوم على المبادئ والأفكار الجديدة والأيدلوجيات التى نشيد على أساسها الحكم والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ذلك لأن ما يتعلم الإنسان فى طفولته يظل راسخًا باقيًا على مرّ السنين، من هنا يتم التغيير تغيير حضارة وثقافة الشعوب بتلقينها أفكارًا ومفاهيم جديدة تتلاءم مع معطيات العصر ورؤى الغد بتعريف أفضل عن الآخر لمزيد من التعايش السلمى ولإرساء أسس سليمة للحوار مع الآخر وتحقيق حوار الحضارات. وقد لاقت هذه الدعوة الموجهة للدول صدى إيجابيًا واسعًا يتمثل فى السعى نحو تجديد المناهج الدراسية.

غير أن المفكرين المسلمين الذين يرجون لعقدة المؤامرة ويعارضون كل ما يأتى من الغرب دون مراجعة عقلانية قد قابلوا هذه الدعوى العالمية لتجديد المناهج الدراسية بالاستياء الشديد واعتبروها نوعا من التدخل فى الشئون الداخلية للدول الإسلامية، وان المطالبة بتجديد المناهج الدراسية فى ضوء تحسين التعامل مع الآخر هى دعوة قصد من ورائها إلغاء التربية الإسلامية من المناهج الدراسية، وعليه فهى تدخل سافر فى أساليب تربية الأجيال القادمة وتنشئة الشباب، بل إن بعضا منهم اعتبر تلك الدعوة الدولية محاربة للإسلام والمسلمين فى بلادهم، وطالبوا بالبدء أولاً فى تعديل المناهج الدراسية فى الغرب وحذف كل من شأنه أن يشوه صورة الإسلام والمسلمين ثم بعد ذلك يتم النظر فى إمكانية تعديل وتجديد المناهج الدراسية فى الدول العربية والإسلامية.

إن ما يدعو إلى التفاؤل هو أن الهيئات الدولية المتخصصة فى التربية والثقافة والعلوم قد أخذت على عاتقها هذه المهمة الإنسانية سواء فى الغرب أو فى العالم العربى والإسلامى، ومن ثم قامت بتكليف خبراء من ذوى العقلية المنفتحة والخبرة الواسعة والعميقة فى علوم المناهج الدراسية بإجراء الدراسة الميدانية كخطوة أولى توطئة لتجديد تلك المناهج، ومن أهم تلك الهيئات المجلس الأوروبى، ومنظمة اليونسكو، ومعهد جورج إيكرت فى برنشفيج بألمانيا إلى جانب المنظمات العربية والإسلامية وفى مقدمتها جامعة الدول العربية فى القاهرة، ومنظمة اليونسكو فى الرباط وجمعية الدعوة الإسلامية فى طرابلس. وقد اهتم الكثير من الخبراء والمتخصصين من أساتذة الجامعات ومن التربويين المرموقين بهذه القضية وأنجزوا دراسات قيمة فى هذا المجال، بل ودراسات مقارنة بين المناهج الأوروبية والمناهج العربية الإسلامية لمقارنة ما يقدمه الغرب عن الإسلام والمسلمين وما يكتبه المسلمون والعرب عن الآخر الأوروبى فى إطار مواكبة التقدم العلمى والاستفادة من معطيات الغرب من تقدم تكنولوجى واهتمام أكثر بالعلوم الفيزيقية وبالمنهج

العلمى فى التناول وبالأسلوب البرجماتى العقلانى الذى يقوم على المنطق والموضوعية دون المساس بالثوابت. ولعل أهم ما توصلت إليه الدراسات العلمية المقارنة ما يلي:

- الدول العربية والإسلامية تقدم من خلال المناهج الدراسية بذور ثقافتها وحضارتها وسياستها، وعليه فقد ركزت على الأصول الثابتة فى الفكر الإسلامى، وغرس الثقافة الإسلامية فى نفوس وقلوب وعقول المتعلمين المسلمين ليس فقط من خلال كتب التربية الإسلامية بل من خلال كتب اللغة العربية والعلوم الاجتماعية وفى مقدمتها كتب التاريخ والتربية القومية، حيث الاهتمام بتقديم تاريخ العرب وتاريخهم وحضارتهم المزدهرة فى الأندلس واختراعاتهم التى ارتكزت عليها النهضة الأوروبية الحديثة فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى.
- واللافت للنظر أن المناهج الدراسية فى دول العالم الإسلامى تعطى أهمية لتاريخ وحضارات العالم أجمع ولا تتقوقع على تاريخها الإسلامى، وأنها تعرض أهم مميزات الحضارة الأوروبية إلى جانب الحضارات الأخرى فى العالم مثل الحضارات الهندية والأفريقية والآسيوية، غير أنها لا تتوخى الموضوعية والأسلوب العلمى البراجماتى فى عرض مسيرة الأحداث وتاريخ الشعوب حيث تقدمها طبقًا لمعاييرها هى، وطبقًا لتقييمها ولقيمها الإسلامية ولا تراعى فى ذلك الخصوصيات الثقافية لتلك الشعوب والحضارات التى تختلف معاييرها الإسلامية.
- إن المتعمق فى الكتب المدرسية التى تقدم فى المدارس الأوروبية أو الأمريكية يصطدم بظاهرة إغفال الحضارات الأخرى فى العالم حيث لا تعرض ما جرى من أحداث تاريخية مهمة فى دول الجنوب، وعلى الأخص فى العالم الإسلامى أو فى أفريقيا وآسيا ولا حتى فى الصين واليابان والهند، لأن كل الاهتمام لديها متجه

إلى أوروبا وتاريخها القديم والحديث، وعلى أمريكا منذ وطأت قدما كريستوف كولمبس أرضها، وكأنها كانت تلك القارة التى أطلقوا عليها اسم القارة الجديدة غير موجودة من قبل اكتشافهم لها، رغم أنها قارة قديمة مثلها مثل باقى القارات الأربع الأخرى، وكانت موجودة وعامرة بالسكان من الهنود الحمر، وكانت لهم لغة وحضارة طمسها النازحون من أوروبا وأبادوا الهنود الحمر ولغتهم وحضارتهم. إن إغفال تاريخ الآخر والحضارات الأخرى مغالطة تاريخية كبيرة ونوع من أنواع الانكفاء الجماعى على العرقية وتلك سمة أساسية فى المناهج الدراسية الأوروبية والأمريكية.

- المناهج الدراسية فى الغرب لا تذكر عن العرب والمسلمين إلا قليلاً من الأحداث التاريخية التى تظهر تفوق أوروبا أو انتصاراتها على المسلمين، كذلك فإن صورة الإسلام والمسلمين لا تزال مشوهة فى كثير من الكتب الدراسية الأوروبية، بل إن هناك ظاهرة جديدة بعد أحداث 11سبتمبر المؤلمة وهى ربط الإسلام والمسلمين بالإرهاب، وهناك من أدرج تلك الأحداث ونسبها إلى المسلمين فى بعض دول الشرق الأوسط، ومن ثم فإن المتعلمين سترسخ فى أذهانهم تلك المعلومات غير المؤكدة حيث لما تنته التحقيقات حول هذه العمليات الإرهابية وإدراجها فى المناهج الدراسية تسرع ليس له ما يبرره.
- إن ظاهرة إغفال الآخر وعدم الاعتراف بثقافته وحضارته ومساهماته فى الحضارة الإنسانية تؤكده الكتب المدرسية الأوروبية والأمريكية فهى لا تذكر فضل الفلاسفة والعلماء العرب والمسلمين على النهضة الأوروبية فى القرن الخامس عشر الميلادى، وهى حقيقة علمية ثابتة فى المعاجم والموسوعات العلمية الكبرى فى العالم مثل ابن رشد والبيرونى وجابر بن حيان والخوارزمى وابن المقفع وابن سينا وابن النفيس وابن الهيثم والطوسى وغيرهم، ممن يرجع إليهم الفضل فى الكثير من الاختراعات والاكتشافات والنظريات التى ترتكز عليها العلوم الحديثة فى العالم. بل إن المغالطات الغربية وصلت إلى حدّ أن تم نسبة ما

قام به علماء العرب والمسلمين إلى علماء غربيين، مثال ذلك: العالم يعتبر المخترع الإنجليزى روجيه بيكون هو صاحب المنهج العلمى التجريبى على حين أن جابر بن حيان فى القرن التاسع الميلادى قد استخدام المنهج العلمى التجريبى. كذلك فإن أول من فكر فى نظرية الجاذبية بأسلوب علمى ليس هو إسحاق نيوتن بل هو أبو الريحان البيرونى الذى عاش ومات قبل أن يولد نيوتن بأكثر من ستمائة عام، كما أن نظرية القانون الأول للحركة ليست لنيوتن بل إن ابن سينا سجلها فى كتابه الشفاء فى القرن الحادى عشر، كذلك فإن محمد بن موسى الخوارزمى الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى هو مؤسس علم الجبر وأول من ابتكر (المحددة) وليس هو العالم الألمانى ليبنز. كذلك فى مجال الرياضيات اكتشافات علمية تنسب إلى العلماء الأوروبيين على حين أن العرب هم الذين أرسوا قوانينها مثل حساب التكامل ونظرية المثلث قائم الزاوية، ومعاملات نظرية ذات الحدين، وفى مجال الطب كذلك مثل اكتشاف الدورة الدموية الصغرى. تلك بعض دلائل على إغفال بل وتشويه الأفكار العلمية ونسبتها إلى غير أصحابها. إن هذا الاعتراف بفضل العرب على الغرب لا أثر له فى المناهج الدراسية الأوروبية والأمريكية، وهو ما يفرض على الآخر احترام حقوق الإنسان العربى المسلم وإرساء حوار الحضارات بدلاً من صراع الحضارات.

ومن ناحية أخرى فإن صورة الأوروبيين والأمريكيين مغايرة للواقع وتعكس الكثير من السلبيات والتشويه فى المناهج العربية والإسلامية. ولذلك يتوجب تجديد تلك المناهج الدراسية وعدم الاستمرار فى بث روح العداء والكراهية للغرب فى نفوس التلاميذ المسلمين وتصوير الأوروبيين والأمريكيين على أنهم مختلفون عنا اختلافًا كبيرًا وأنهم يعيشون فى انحلال خلقى وتفكك أسرى وأنهم نهبوا خيرات بلادنا وأن الحروب الصليبية مسلسل مستمر، لابد من تقديم معلومات عن الآخر المسيحى وعن الأقليات المسيحية بعد الفتح الإسلامى، ومعلومات عن الالتقاء الثقافى فى الوقت الحاضر.

إن الدعوة لتجديد المناهج الدراسية دعوة عالمية ذات شطرين لتطوير المناهج العربية والمناهج الغربية على حدّ سواء وهو أمر يتطلب القضاء على ظاهرة إغفال الآخر وتجاهله فى الحضارة الإنسانية. إن ما نريده هو تجسير الفجوة بين الشمال والجنوب لزراعة بذور المحبة والسلام فى نفوس الأجيال الصاعدة ونشر تربية السلام لتحقيق التعايش.

لقد ساهم عصر العولمة فى تدفق الأفكار والسلع والخدمات بين الشعوب وتجاوزت الكثير من الحواجز والقيود لتنزع إلى توحيد العالم فى كافة المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية وما ينطوى عليه هذا التوحيد من خطر إلغاء التنوع الثقافى. لقد بلغت العولمة مرحلة القطب الواحد وعملت على تهميش الكثير من الشعوب والثقافات وهنا تدارست وتداركت بعض الدول تلك السلبيات فعقدت المؤتمرات للحوار السياسى والاقتصادى والثقافى بحثًا عن المصالح المشتركة، وامتدت الدراسات لتشمل مشكلة الهوية، والصراع بين مناطق ساخنة ومخاطر الإرهاب والصدام المفتعل بين الإسلام والغرب، وبين الشمال الغنى والجنوب الفقير ومشكلات البيئة والبطالة وانطلقت الحوارات من مقولات أساسية سادت عصر العولمة منها الديمقراطية، والليبرالية، والعلمانية القادرة على نشر العلوم العصرية والتكنولوجيا المتطورة التى تشكل القاعدة المادية للإنتاج.

إن الحوار مع الذات لابد أن يسبق الحوار مع الآخر أو يسيران معًا جنبًا إلى جنب بناء على قاعدة التعددية الثقافية ومعرفة الذات ومساءلتها، وبلورة أطر مرجعية للحوار البنَّاء، ورفض كل أشكال التمييز العرقى والدينى وتبنى الدولة المدنية القادرة على تحقيق العدالة الاجتماعية والتنمية البشرية المستدامة، والحوار أيضًا للحفاظ على الخصوصية الثقافية شريطة أن تكون منفتحة على الثقافة الكونية وبعيدة عن كل أشكال التعصب والتقوقع والعنصرية ورفض الآخر أو الإساءة إلى تراثه الروحى والثقافى.

إننا فى قلب الصراع الدولى المتفجر على جبهات متعددة سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية، فهنا الدعوة إلى تبدلات مصيرية على مستوى الشرق الأوسط فى إقامة شرق أوسط كبير أو تكتلات جغرافية وسياسية، وهنا أيضًا لابد من فتح باب الحوار الإيجابى البناء لصناعة موقع عربى متقدم فى عصر العولمة نصنعه بأيدينا لا أن يحدد لنا عن طريق الآخر. إن الحوار الذى ندعو إليه وننشده هو الحوار المبنى على حرية الاختيار وشرعية الاختلاف بعيدًا عن الاختلاف فى اللون والجنس واللغة والثقافة، لابد فى حواراتنا أن نتخلى عن عقدة الذنب، وعن سياسة الاعتذار والدفاع المستمر عن الذات. إن الحوار الذى ننشده محكوم بظروف دولية معقدة فهناك تصاغ برامج وخطط تفرض علينا فى إطار ما يعرف باسم حرب الأفكار وإعادة تشكيل الآخر وفق ثقافة موحدة يفرضها القطب الواحد الأقوى والذى يتفرد بالقرارات الدولية المصيرية التى تطول مستقبل البشرية. إن العالم فى حاجة إلى حوار مباشر لترسيخ أسس عقلانية لعلاقات دولية جديدة تقوم على تغليب مقولات السلام، والاحترام المتبادل وحق الاختلاف على مقولات القوة والهيمنة والتسلط ورفض الآخر، إنها مبادئ جديدة لحوار عربى جديد مع الآخر المتنوع بسبقه حوار مع الذات يقوم على أساس قاعدة مشتركة للتفاهم بين جماعات بشرية مختلفة فى العقيدة والسياسة والحياة. إن الحوار العقلانى مع الآخر أهمه معرفة الذات، وممارسة النقد الذاتى للواقع الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والثقافى الذى نعيشه والذى وضعنا فى حالة من التفكك والضعف والتهميش إقليميًا ودوليًا، إنه نقد إيجابى عميق للذات الثقافية، والبحث عن جذور العقلانية وتوظيفها فى مشروع حضارى جديد، وفى حوار مع الآخر.

إن الغرب الأوروبى الحديث هو أول من أبدع مقولات ثقافية كانت الأكثر تأثيرًا فى تاريخ العالم الحديث، وهو صانع الثورات الصناعية والتكنولوجية الأولى قبل أن يستفاد منها. إن المعرفة النقدية لمقولات الغرب الثقافية يتوجب استيعابها

وتجاوزها باعتبارها المدخل والأساس لحوار إيجابى مع دول الغرب الأوروبى والأمريكى. ويميز حوارنا أنه من داخل حضارة إنسانية جديدة ساهم العرب أنفسهم فى توليدها، ورفدها بكثير من المقولات التى أبدعها العرب أو نقلوها من تجارب اليونان والفرس والصين والهند. إن ذلك كله يتطلب القيام بحوار تفاعلى مع الثقافة العربية النقدية التى أسهمت فى توليد ثقافة الغرب وإنجازاته العلمية الكثيرة، كما يتطلب العودة إلى تلك المعالم المضيئة فى ثقافتنا العربية الإسلامية كى ندرك أننا جزء من الحضارة الكونية المعاصرة التى استفادت منها شعوب كثيرة. نحن مدعوون للحوار الإيجابى مع ثقافتنا النقدية والعلمية والعقلانية شرط لا غنى عنه لحوار إيجابى من موقع المساواة مع الثقافات الكونية المعاصرة، مطلوب استيعاب نقدى عميق لثقافة الآخر المتنوع من مصادرها الأصلية، فالحوار مع الآخر يتطلب الاطلاع بصورة عميقة وعقلانية على فكره وتراثه وأدبياته وسلوكه، ويتطلب بلورة أطر مؤسساته، ويتطلب مرجعية تأخذ بعين الاعتبار التراكم الإيجابى لجميع الحوارات التى أنجزت مع الآخر، والاستفادة من التراكم الكمى والنوعى لأدبيات الحوار والوثائق التى أصدرتها المنظمات الدولية والتى شارك العرب فى صياغة مقولاتها ومبادئها. إن الحوار المتوازن المقترن بالنزاهة الفكرية والأخلاقية يعزز الأرضية المشتركة للتفاعل الإيجابى، والحفاظ على القيم المشاركة، وبناء عولمة أكثر إنسانية تحافظ على خصوصيات الثقافات المحلية المنفتحة، وتفترض مبادئ هذا الحوار تنمية الشعور الإنسانى المشترك، والحفاظ على التعددية، واحترام حقوق الأقليات، والتصدى لكل الضغوط الرامية لفرض قيم أو مبادئ بالقوة، كذلك اعتماد المنهج العلمى فى الحوار، والالتزام بالموضوعية المطلقة وصولاً لمعرفة حقيقية بهدف التفاعل الإيجابى معه والمشاركة معًا فى بناء مستقبل إنسانى أفضل عبر تطوير نظم التعليم والبحث العلمى وتنشيط التبادل الثقافى والمعرفى بين الشعوب.

إنه يجب التسليم برفض نظرية صمويل هنتنجتون فى صراع الحضارات والتى حاولت توصيف الواقع فى ظل انهيار الاتحاد السوفيتى والهيمنة الأمريكية على العالم بأن الصراع من خلال الألفية الثالثة صراع بين الحضارات وليس صراعًا اقتصاديًا أو أيدلوجيًا، بل هو حوار الحضارات الذى نادى به المفكر الفرنسى روجيه جارودى كبديل عن صدام الحضارات. إن الحوار مشروع إذا كان يرجح المصلحة على المفسدة، وإذا كان لمواجهة الانحراف الأخلاقى، ولتبادل الخبرات الفكرية والثقافية والتقنية. إن الحضارات مهما اختلفت وتنوعت لابد أن تتعايش معًا، ويتوجب علينا العمل بكل الأساليب العلمية على تأكيد العناصر المشتركة بين الحضارات وتعميقها وحصر عناصر الاختلاف وتحجيم آثارها، والسعى نحو تأكيد الحرية الفكرية والأخوة الإنسانية، وتطبيق مبادئ المساواة الطبيعية والعدالة المطلقة بين الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، والتأكيد على أن الحضارة فى جوهرها تعنى التقدم المادى والروحى للأفراد والجماعات وأنها لم تكن سببًا مباشرًا للصراع والعدوان، وأن الأخطار التى تواجه عالمنا هى أخطار عالمية تهدد الجميع وتتطلب تكاتف جميع القوى لمواجهتها، كما أن التعددية فى الأجناس والمجتمعات والثقافات والأديان ليست عائقًا أمام توحيد الجهود وتآلف الأمم والشعوب وتعاونها، فهى رافد يثرى الإنسانية. إن فهم الآخر هو الأسلوب الطبيعى للتفاهم، وهو للتوفيق بين المصالح يدعم ذلك كله الحرية الفكرية والديمقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية ونشر الأمن والسلام داخليًا للتعايش فى قرية كونية مسامية الجدران.

رابعًا: بناء الإنسان لثقافة التسامح:

العالم كله وحده واحدة يسودها التجانس، ولابد أن يشكل الشرق والغرب هذه الوحدة للصالح العام ولخير الإنسان. إن الاختلاف فى المصالح الاقتصادية والسياسية والفروق الاجتماعية والثقافية جدير بأن يؤخذ فى الاعتبار، ومن المهم أن

يقبل الشرق والغرب معًا مقولة اختلاف الآخر عنه فى الكيان والهوية، ويدرك فى ذلك الوقت إن هذا الاختلاف يعنى التعددية والتنوع وتلك طبيعة الحياة. إن الدين أحد محاور الثقافة ولكنه ليس هو الثقافة نفسها التى تضم كذلك العادات والتقاليد والأعراف والقيم والتراث لذلك يطلق على الثقافة أنها أسلوب الحياة الناس دون أن نعنى بهذا تحديدًا معتقداتهم الدينية فالدين ثابت والثقافة متغيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان والخصائص الاجتماعية والثقافية والسكانية للسكان فى المجتمع.

إن الإحساس بالآخر يسبق الشعور بالذات داخل الثقافة الواحدة وخارجها، بل إن الشعور بالذات لا يتحقق إلا من خلال الآخر، ذلك أن الإنسان مشروع وجود لا يتحقق هذا المشروع إلا من خلال آخر يلعب دورًا كبيرًا فى تجسيد الذات وتحديد ملامحها. إنه لا يتصور أن تستقيم حياة الفرد فى ظل الأحادية البشرية فالإنسان يحتاج إلى آخر يقف بجانبه ويساعده فى بناء شخصيته، إن الأطفال يكونون صورة الآخر من خلال معايشة الكبار وممارسات الكبار وأساليب تعاملهم مع الآخر، ذلك أن الكبار هم القدوة التى يتمثلها الصغار ليس فى الأقوال بل فى الأفعال، فالصغار يتمثلون سلوكنا الفعلى باعتباره السلوك المثالى الذى يختزنونه فى أعمالهم. إن الخبرات الشخصية المعيشة هى تلك الخبرات التى يسهم تراكمها فى اختبار مصداقية القدوة التى سبق وأن تمثلها الأطفال، ويتم ذلك عن طريق التفاعل المستمر بين الطفل وبين الأفراد الذين ينتمون إلى جماعته، ويؤدى مجمل هذه الخبرات إلى تثبيت أو اهتزاز ما سبق أن تمثله الصغار من خلال القدوة التى قدمها الكبار. إن هناك من أنماط التنشئة الاجتماعية من تربى أبناءها على أن العالم بما فيه وبمن فيه إنما هو نوعان لا مجال للتدرج بين هذا وذاك حيث المفاضلة بين الذكر والأنثى وبين النظم الاجتماعية والأفكار السياسية وغيرها وتصبح الثنائية هى المعيار للتفرقة بين الذات والآخر أى التفرقة بين الجماعة التى ينتمى إليها الطفل والجماعة الأخرى التى لا ينتمى إليها، وعليه فإن عملية التنشئة الاجتماعية

تتضمن نوعًا من التدعيم لتمايز الذات عن الآخر. وهذا الآخر يمكن تصنيفه فى ثلاثة أنواع لكل منها تعامله الذى يختلف عن غيره:

- صورة الآخر المجهول تتسم بطابع الاستكشاف الحذر.
- صورة الآخر الصديق والتى تتسم بطابع التعاون المتبادل والتنافس السلمى فى إطار الحرص على التمايز.
- صورة الآخر العدو والتى تتسم أساليب التعامل معه بالتجاهل والعنف.

وتلك الصور الثلاث للآخر متغيرة دائمًا على مستوى الواقع المعيشى ، **وهو ما يعنى ان التنشئة الاجتماعية تزود الأطفال منذ البداية بأساليب التعامل مع الآخر** بصورة، وبتصنيف الكبار للآخر من بين تلك الصور أو وفق تصوراتنا عنه. ومن خلال تلك الصور الثلاث للآخر يتشكل ما نطلق عليه عالم الآخرين أى صورتهم بالنسبة لنا، إنه عالم من الصور والتصورات تشيّده عملية التنشئة الاجتماعية بهدف حماية (النحن) وضمان تماسكها، وليس من بأس لبلوغ هذا الهدف من ابتعاد يزيد أو يقلل من الملامح الموضوعية لصورة الآخر المختلف عنا. وتتخذ هذه الفجوة أو النمطية بين الخصائص الموضوعية للآخر وبين صورته كما تصوغها عملية التنشئة الاجتماعية أبعادًا خطرة تجعل من الآخر صورة العدو، تتشارك فى صناعته المناهج المدرسية وأجهزة الإعلام وفق ما يراه أولو الأمر محققًا لمصلحة الأمة، أو وفق ما يراه الأجنبى لخلق العداء المدمر فى جدل الأنا مع الآخر داخل الأمة الواحدة، ذلك الآخر المختلف فكرًا أو عرقًا أو جنسًا أو دينًا أو عمرًا مع التأكيد على أن الفكر يحكم التعامل مع بقية صور الآخر. كما أن اقتباس القيم الاجتماعية من الآخر يجعل الاقتباس فى هذه الحالة يصب فى ميزان الآخر من رصيدنا ولا يضيف إليه.

إن الحوار يمثل واحدًا من أهم أساليب التفاعل مع الآخر حيث يحمل رسائل

واضحة ودلالات محددة وبذلك يستمر هذا التفاعل الذى يمثل فى ذاته ضرورة إنسانية. إنه لابد من الاتصال بالآخر من خلال التقدم بكلمة طيبة أو بسؤال ما قد يثير لدى الآخر حماسه الإجابة. إن الاتصال فى حد ذاته يمثل رغبة فى فتح قناة الحوار مع الآخر، والفائدة من ذلك محققة، حيث إن تأكيد الفرد لوجوده كذات مستقلة يتحقق بالاتصال بالآخر الذى يمثل ذاتًا أخرى.

إنه من خلال تراكم خبرات الأجيال والاتصال المباشر وغير المباشر يتم تطوير صورة نمطية تنسحب على جميع أفراد الجماعة المعنية، وتتسم هذه الصورة بالبساطة الشديدة والتعميم المبالغ فيه، كما أن هذه الصورة تقاوم تأثير خبرات الواقع المغايرة لكل أو بعض محتوياتها.

إنه يجب أن يدرك كل طرف ذاته الجماعية أى الجماعة الداخلية، وكيف يدرك الأخر أى الجماعة الخارجية. وتأتى أهمية رصد صورة الآخر من خلال: أن يسترشد صانع القرار السياسى بالحس الشعبى، وأن يتم رصد التباين بين المواقف الرسمية والمواقف الشعبية، ثم توظيف المواقف الشعبية فى عمليات التفاوض.

إن خفوت صوت العلم وتراجع سلطة العقل والمنطق فى وضع صورة الآخر على ساحة البحث العلمى، يساعد على زحف الأفكار الخرافية أو الانفعالية المرتجلة فى أحكامنا على الآخر، كما يؤدى إلى استسهال نفى الآخر على محاولة فهمه ومكابدة التفاعل معه، كما يؤدى إلى أن يصاب القرار فى صنعه أو اتخاذه بالتأخر أو التناقض أو التردد. إن غياب الدراسات العلمية عن صورة الآخر تجعلنا ندرك صورة الذات بشكل إيجابى، على حين ندرك صورة الآخر بشكل يغلب عليه الطابع السلبى ونصفه بالخيانة والمكر والدهاء وكراهية العرب وحب المال والأنانية وحب السيطرة، وقد لا يتحقق الإجماع على رسم صورة الآخر.

إن موقفنا من الآخر يتحدد إلى حد كبير بالصورة المدركة، ويمكن أن تساعد

النتائج العلمية فى تفسير حالة الفرقة التى تعترى موقفنا من الآخر على مختلف الأصعدة. ويمكن أيضًا فى ضوء النتائج العلمية لمدارسة صورة الآخر رسم الخطط التى تقترب حال تنفيذها من الحقيقة الموضوعية للآخر، والتقريب بيننا وبينه فى إطار ثقافة التسامح والعيش معًا من صورة ذهنية مدركة تقترب من الواقع، حيث إنه لا يعقل أن تخلو صورة جماعة مهما كان شأنها من إيجابيات، وإن كان هذا لا يحول دون قولبة ما هو إيجابى أيضًا. إنه لابد من إزالة الصورة المدركة للآخر التى تتسم بالطابع السلبى والتى يغلب على سماتها الأنانية وحب السيطرة والتعصب والغرور والمكر وحب المال والانحلال الأخلاقى، من أجل العيش عبر ثقافة السلام وما يستتبعها من خير للإنسانية.

إنه يتوجب تأسيس حركة بحثية علمية عربية تتوافر لها الموارد والكفاءات العلمية، حتى نصل إلى صورة للآخر مدركة على أساس علمى يستفيد منها صانع القرار السياسى وكل من له دور فى تشكيل العقل والوجدان العربى.

إنه ليس ثمة من مجال إنسانى أو طبيعى لا يكون مفتوحًا للجميع يجتهدون فيه فيصيبون أو يخطئون، ولكنهم يعمقون المعرفة باستمرار، ويتقدمون بالعلم على الدوام، فالعلم للجميع مبدءًا وموضوعًا وإن تفاضل الناس فى كسبه بحسب الجهد والاستعداد. وإذا قصرنا النظر على الظاهرة الإنسانية كان علينا أن نميز فيها بين بعدين: **بعد ذاتى** يطلب فلا يدرك أصلاً، **وبعد موضوعى** لا يمتنع فيه الاجتهاد بأى وجه من الوجوه، فليس للمسلم أن ينكر على المسيحى إمكان فهم الظاهرة الإسلامية بتعلة أنه ليس مسلمًا، وبالتالى فهو غير متهيئ للنفاذ إلى حقيقة الإيمان على الطريقة الإسلامية، فحين يدور الأمر على الدين من حيث هو ظاهرة ثقافية، فالاجتهاد فيه مباح للجميع ولا رقيب عليه إلا قيم المعرفة العلمية وحدها، وليس لأحد عندها أن يتذرع بخصوصيات لا يدركها إلا أهلها، إذ لن يكون ذلك المهرب إلا أيديولوجيا دفاعية وظيفتها أن تكون ملجأً للجهل يتستر بالتقوى حمايةً لعقل

كسول يتأذى من أن يفكر الآخرون. وليس أدل على خطورة مثل ذلك المنحى من مواقف الفكر العربى والإسلامى الغالبة من ثقافة الغير عامة ودينه خاصة، فهو لا يكاد يذكر الثقافة الغربية إلا ليلعنها أو ينبهر بإنجازاتها التكنولوجية مع ادعاء السبق الدائم والأبوة الثابتة، وهو لا يتحدث عن المسيحية أو اليهودية إلا ليشنع عليهما زيف ما قامتا عليه، وكأن الغرب ليس من صنع يديه وكأن اليهود والنصارى ليسوا من إنتاج حضارته أنى كانوا اليوم على أرض البشر.

إن هذا الموقف يقوم على خلط بين المعيش الدينى والظاهرة الدينية وبين الإيمان والمعرفة، فالإيمان حسٌّ لا يدركه العقل وليس له ذلك ولا عليه، فعمر بن الخطاب قبّل الحجر الأسود لأنه رأى محمدًا ﷺ يقبله وكفى. ومن هذه الناحية فكل إيمان جدير بأن يُحترم على الأقل احترامًا لأهله إن لم يكن لفضله، ومن حق المسلم بإطلاق أن يتمسك بأن الدين عند الله الإسلام فتلك عقيدة لا جدال فيها، وإذا ما اتسع الصدر كان لنا جميعًا أن نلتقى فى الإلهى المطلق على تعدد المسالك إليه وتنوعها، فالدين واحد فى صلب تباين الشعائر. ولن يكون الأمر على غير ذلك العوج التاريخى والابستيمولوجى ما قامت المقاربة على منطلقات إيمانية تزيد سوء التفاهم عمقًا، لا على منطلقات علمية هى شرط معرفة الذات والآخر معًا، فمن لم يعرف الآخر جهل نفسه ومن لم يعرف إلا دينه جهل الأديان جميعًا بما فى ذلك دينه هو، وأية جامعة عربية تدرِّس المسيحية أو اليهودية على نحو ما يراه فيهما الآخذون بهما وما موقع الديانات المقارنة أو تاريخ الأديان فى مؤسساتنا العلمية؟ ألسنا أشد استعلاءً من غيرنا لاعتقادنا أننا فزنا بالحقيقة المطلقة وتغنى عن زيف الآخرين؟ وإن كان لنا أن نذهب إلى أن تلك المطلقة العلمية أسلم المنطلقات فليس لنا أن نزعم إنها بلا مصاعب ذاتية ووافدة داخلية وخارجية، غير أنها لا تخص المستشرق وحده ولا المستغرب وحده بل هى تعرض لعالم الاجتماع كما تعرض للمؤرخ والأنثروبولوجى واللسانى ومؤرخ الفلسفة والعلوم. وتقديرنا أنه ما لم تجتمع تلك

الشروط الثلاثة الأنطولوجى الأخلاقى منه والابستيمولوجى والمنهجى فلن يكون حوار الثقافات بما هو كناية عن حوار البشر إلا واقعة بائسة تتراكم فيها أسباب سوء التفاهم وسوء الفهم بحكم تحولها إلى بؤرة لانتشار الأحكام المسبقة واستيلاء الجهل على العلم، وعوامل التنائى عن دواعى التدانى بما قد يترتب على ذلك من مآسٍ لاسيما فى عصر تناسب تزايد قوته عكسًا مع تناقص أمانته وبالتالى تراجع الحكمة فيه بشكل واضح.

إن ذلك هو ما يقضى بضرورة الانتقال من الحوار باعتباره واقعة إلى الحوار من حيث هو قيمة، وذلك الانتقال إنما يكون بإدارة تتجاوز بؤس الوجود، وإنجاز تلك الإدارة يجعلها علية متعالية تكسر حتمية الوقائع وتغير مجرى التاريخ. وليست تلك الإدارة مجرد نية حسنة قد يكون فيها من أريحية الوجدان بل هى العزم الذى لا ينفصل فيه المبدأ السامى على المصلحة المرسلة، ولا التواصل مع الآخر عن التمسك بالذات، ولا احترام اللامعقول ما ظل فى حيزه عن المقاربة العلمية فى حدود إمكانها، وبشروط إنجازها الأنطولوجية الأخلاقية وكذلك الابستيمولوجية والمنهجية.

إن هناك ضوابط للعقل فى استعمال الحوارى منها أن يفكر المرء بنفسه، وأن يفكر واضعًا نفسه مكان الآخر أيًا كان، وأن يفكر فى وفاق مع ذاته، وذلك هو التفكير المتحرر من الأحكام المسبقة، كما أن الفكر له حب الأفق، وأن مبدأ الفكر أنه متناسق. وعلى هذا النحو تتكامل آداب الحوار ومبادئ الروح العلمى، وتتلاقى ضرورات المعرفة ووجوبات الاعتراف بالآخر وشروط الإدارة الناجزة بمراس العقل المحصن، فيكون الوجود البشرى تصورًا وإدارة معًا، أو علمًا وحرية، بهما يدرك أسباب القوة الأمنية وإلا ظلت الإنسانية تعيش فى غابة. إن تلك المبادئ الثلاثة الموجهة لاستخدام العقل الحواري: الأخلاقى والابستيمولوجى والمنهجى تشكل فى تضافرها نسيجًا واحدًا متينًا، هو أقرب ما يكون إلى أصالة الفكر العربى

يوم لم يرهقه الخوف من الآخر، ولم يخلخل الجهل إيمانه بنفسه، ولا ثقته فى القدرة على إدراك حقائق الأمور يأخذ من الدنيا فى غير تردد ويجزل لها العطاء دون أن يمد يدًا. إن ما يمكن أن يكون علم الثقافة عليه هو حين لا يفقد الفكر أريحيته الإنسانية ولا يضحى بضرورات الموضوعية العلمية فيحاول الوقوف على ما عند الآخر من المناقب والمآثر والرؤى والسلوكيات على ما هى عليه ويسعى من خلال ذلك إلى النفاذ لمعانيها عند أهلها، ثم إلى تفسير المعانى أو تأويلها بحسب ما يتاح للعقل السببية فيها فى غير استحياء مما بدا له أنه الحق ووفقًا لما يوجبه العقل فى سياق نظرة شمولية.

إن ما يتوجب إثباته هنا هو: بيان باريس للحوار الثقافى العربى الأوروبى الذى صدر عن مؤتمر: مرتكزات التعرف على الآخر من أجل التعايش معًا من منطلق التسامح بين الحضارات والأديان فى يوليو 2002م، وحيث انتهى إلى أن ما شهدته مواضع كثيرة من العالم من أحداث مؤسفة مؤلمة وصراعات دامية لأسباب سياسية أو اقتصادية أو عقدية أو عرقية يستنفر جميع الإرادات الخيرة وفى طليعتها المثقفون والعلماء والفنانون لتحمل المسئوليات الجسام فى حفظ السلم العالمية صيانة لمكاسب الإنسانية ودفعا لمسيرتها فى معارج التقدم تقديرًا من أنه ليس كالفكر قوة معنوية لتشييد حصون السلام فى القلوب والعقول ليستتب الأمان فى واقع البشرية المعيشى، لا سيما وقد أصبح للإنسان من أدوات الدمار ما يجعل حاجته إلى الحكمة أكد من أى وقت مضى.

إن هناك انشغالًا عميقًا بتنامى ظواهر التطرف والإرهاب وعدم التسامح وتزايد الانغلاق على الذات وإقصاء الآخر. ومن المفارقات أن يكون ذلك فى عصر حققت فيه الإنسانية من وسائل الاتصال وأسباب التعرف والتقارب ما لم يسبق له مثيل فى تاريخها. إن من أجدى سبل تجاوز تلك المفارقة بناء نظم تربوية سليمة تعد الناشئة لحياة بشرية لا مجال فيها لأى شكل من أشكال التمييز، وتمكن لها من تكوين

متوازن يهيئ لها أسباب اكتساب قيم الكرامة الإنسانية. ولابد هنا من التأكد على ما لوسائل الإعلام وتقنيات الاتصال من دور خطير لابد لها من الاضطلاع به مساهمة منها متأكدة من بناء أجيال حرة مسئولة وإشاعة ثقافة التآخى الإنسانى.

إن السعى الحوارى يشكل الوسيلة الفضلى لوصل الإنسان بالإنسان فى مجرى التقريب بين الرؤى واستكشاف سبل التواصل والتفاهم والتعاون بين الشعوب، بدعم الجوامع المشتركة بين الثقافات والحضارات فى تنوعها الخصب تلمسا لكلمة سواء ومغالبة لأسباب الجفوة والتعصب فى مجرى أخلاقيات إنسانية كونية بما من تجاوزه كل أشكال الهيمنة والتنميط الأحادى والإقصاء والتهميش، ذلك أن لكل ثقافة الحق فى الحياة والازدهار والاحترام، لذلك كان الحوار بين الثقافات من أهم ضرورات السلم العالمية ومن أول واجبات الحفاظ على تنوع إنتاجات التجربة الإنسانية عبر التاريخ.

إن إقامة منبر حوارى بين الثقافين العربية والأوروبية له أهمية فى إحياء تقاليد تاريخية عريقة انتفع بها الجميع أمس، على نحو ما يشير إليه فى جلاء ما قام بين فلاسفتنا وعلمائنا وأدبائنا من صلات وثيقة وتثاقف حقيقى ازداد العلم به ثراء وتقدم الفكر فى كل المجالات تقدمًا لا ينكر تدين له الإنسانية اليوم بما حققت من عظيم الانتصارات المعرفية والإنجازات التكنولوجية، وبالتالى كان الواجب يدعو اليوم إلى تجديد الوجه المشرق لتلك العهود، من أجل تعاون ثقافى شامل تقتضيه مصالح شعوبنا وتحتمه علاقات الجوار وضرورات المستقبل فى زمن تفرض فيه العولمة ما تفرض من تحديات.

إن نجاعة الحوار الثقافى العربى الأوروبى تقتضى أن تكون المؤتمرات منطلقا لمسيرة حوارية طويلة النفس تدعمها البلدان العربية والأوروبية بتكثيف اللقاءات بين المثقفين وإحداث قنوات الاتصال والتعرف بينهم وتشجيع الترجمة وتبادل

البعثات الدراسية والعناية باللغة العربية فى أوروبا على غرار ما تلقاه الكثير من اللغات الأوروبية فى البلدان العربية.

إنه لابد من التعلق بقيم حقوق الإنسان والحريات الأساسية ولابد من اتخاذ التدابير الضرورية العملية العاجلة ليستتب سلام عادل شامل فى الشرق الأوسط وفى العالم بأسره وفقًا للشرعية الدولية. إن من شروط استتباب السلم وارتقاء الإنسانية إلى مصاف أخلاقى وروحى أرفع أن تبذل الدول كل ما فى وسعها للحد من الفوارق المجحفة بين الفقراء والأغنياء، ذلك أن العمل التنموى حين نحسن إنجازه إنما هو عمل شامل لا ينفصل فيه البعد الأخلاقى عن البعد السياسى والاقتصادى.

إن دول العالم تتقارب مع بعضها البعض، ويزداد انفتاح الحدود السياسية بين الدول والثقافات وكلها يؤدى إلى التعددية فى أساليب الحياة واختفاء البيئات التقليدية والمجموعات الاجتماعية، ونتيجة لذلك يعيش الناس فى ظل أنظمة متباينة فى القيم وأساليب الحياة. إن العالم الذى نعيش فيه عالم متباين متنوع، ويمثل هذا التباين والتعايش مع هذه الاختلافات تحدٍّ يومى لكل منا، ويبدو أن هويتنا تواجه هذا التحدى وسط هذه المتغيرات. وفى خضم هذا التحول الذى يتعرض له المعلمون وصانعو السياسة التعليمية فإنهم يواجهون مهمة صعبة لخلق مفاهيم وبيئيات معرفية تدعم المهارات والقدرات التى لا يمكن الاستغناء عنها لتوفير حياة آمنة فى عالم متغير متباين.

إن التسامح هو الأساس الذى تستند إليه الديمقراطية، وعليه فإن تعليم المواطنة يجب أن يركز على تدريس المعرفة، والمهارات اللازمة لقيام حياة تعتمد على التسامح، وقبول الحقوق المتساوية للجميع، وتظل المشكلة هى تفعيل المفهوم التعليمى للتطبيق العلمى لمصطلح التسامح بحيث يكسب المتعلم خبرة تعليمية جديدة. إن المجتمعات الحديثة ذات طبيعة ثنائية يثريها التباين الثقافى والمعرفى

والعرقى والدينى، وهذا التنوع يؤدى غالبًا إلى التنافس بين الدول والجماعات المختلفة. إن ظاهرة التعصب تتزايد بشكل واضح سواء كانت على شكل عدم الرغبة فى الاستماع إلى الآخرين، أو زيادة العدوان على أصحاب الحقوق المهضومة اجتماعيًا وكبار السن والمعوقين، واضطهاد الأقليات، وقلة الاحترام فى التعامل مع الأجانب وكل هذا ردّ فعل لشيوع الإحساس بعدم الأمن، وانتشار الخوف من المستقبل الذى أحدثه التحول الاجتماعى الأمر الذى قد يؤثر سلبا على ديمقراطية النظام الاجتماعى، حيث إن المجتمعات الديمقراطية ترى نفسها هيئات تعددية مفتوحة لجميع الناس، بغض النظر عن ألوانهم وعقائدهم وأصولهم العرقية والثقافية فى وقت نما فيه التباين والتعددية فى أساليب الحياة اليومية، وتعترف هذه المجتمعات بحق كل إنسان فى تنمية قدراته إلى أقصى حدّ مبدأ أساسيا، إن الحرية الشخصية هى أكثر القيم أهمية للديمقراطية، ورغم أن الطريقة التى يتم التعامل بها مع حرية الفرد مشكلة متشابهة فى جميع النظم الديمقراطية إلا أنه ليست هناك دولة يتم فيها إشباع الحاجة للحرية الشخصية وقبول حقوق الآخرين باعتبار أن الحرية للجميع بصورة متكافئة تمامًا، وقد يجد بعض الناس أن حقهم فى الحرية الشخصية منقوصا بأعمال أناس آخرين، وفى أنحاء العالم توجد أنواع من التعصب قلت أو كثرت لكنها عنصرية سائدة تتطلب استخدام التسامح وتطبيق الديمقراطية فى التعامل مع التنوع. إن الأسئلة للإسهام فى عملية اتخاذ القرار الديمقراطى وأن يمثل هذا الإسهام تحديا قائما؟ ثم ماذا يمكن عمله لإعداد المواطنين للحياة بطريقة أفضل فى مجتمع متعدد الثقافات؟ وكيف يمكن تسوية الصراعات التى تخلقها أساليب الحياة مع اختلاف الديانات والثقافات بهدف تنمية القدرات إلى أقصى حدّ ممكن؟ إننا فى حاجة إلى تحقيق تواصلات مجتمعية ناجحة تقوم على التسامح الذى يساعد الناس على تقدير أفضل لأعمالهم. إن المناقشة فى تطبيق التسامح بين الناس تقضى على العنف وإقصاء الآخر. وهذا يتطلب أن يشعر كل الناس داخل المجتمع بالتفاهم والاحترام والتقدير دون النظر إلى أية اختلافات فى الجنس أو الدين أو

الثقافة، كما يتطلب أن يعترف بكل الناس كجزء حيوى فى المجتمع مع ضمان إسهامهم فى النشاط السياسى والاقتصادى والاجتماعى، ومن المحتمل أن يكونوا أكثر احتراما لأنفسهم ولغيرهم إذا ما أتيحت لهم الفرص للتعاون والمشاركة وإظهار وجهة نظرهم فى الكثير من مجالات الحياة قدر الإمكان وهنا تتضح العلاقة الإيجابية للارتباط بين التسامح والديمقراطية وهذا يعنى أن تعليم التسامح فى مؤسساتنا التعليمية هو فى الحقيقة تعليم من أجل الديمقراطية.

إن التسامح له مضامين متعددة: هل هو فضيلة؟ هل هو موقف أخلاقى؟ هل هو سلوك؟ هل هو سمة شخصية؟ هل هو آلية لضم المجتمع فى وحدة واحدة؟ هل هو سلاح ضد العنصرية أو الاستبعاد؟ هل التسامح يعنى الحيادية والتخفف من الخلافات التى تسببها الثقافات والديانات والهوية؟ هل هو سلوك انتقالى للتحول إلى الاعتراف بالآخر؟ إنه كل ذلك معًا، التسامح فضيلة أساسية واتجاه فكرى، وسلوك ذو قيمة فى التوجيه الاجتماعى، ولكى نصل إلى فهم أفضل للتسامح فإن علنيا أن نفهمه فى الموقف الاجتماعى، وأن نحدد متى يكون التسامح مطلوبًا، فى الأحوال المجتمعية المتباينة. إنه مطلوب عندما نتعرض لوجهات نظر وأعمال تتعارض مع أفكارنا ومعتقداتنا، أى أنه يظهر فى حالات الصراع حيث يزود الناس بالبصيرة فى كيفية حل الصراع سلميًا مع إشراك جميع الأطراف، اعتمادًا على الاعتراف بالمساواة فى الحقوق للجميع ومن حيث حقهم الأساسى فى تنمية قدراتهم بالكامل. أنه أحد العناصر الحيوية فى المجتمع الديمقراطى، وعليه فلابد من بحث المهارات والمفاهيم والسلوك المرتبط بالتسامح، وأن يتم تعليمه للطلاب عن طريق تقديم الخبرات التى يتم اكتساب التسامح من خلالها عن طريق الممارسة العملية والتطبيقات الحية فى مواقف طبيعية، وكذلك من خلال ممارسة الأنشطة المدرسية والمناقشات والحوارات، وفى كل ذلك يتعلم التسامح باعتباره مبدأ أخلاقيًا للفرد، وقرارًا أخلاقيًا مرغوبًا فيه، لتحمّل صراع ما أوحل ببدائل سلمية

اعتمادًا على قناعة بأن الأطراف الأخرى فى الصراع تتمتع أساسا بالحقوق نفسها. وفى أوضاع الصراع بشكل التسامح نشاطا موجها يمكن الناس من حسن تقدير العمال وهذه النظرة الشاملة تسمح لجميع الأطراف بقبول أوضاع بعضهم البعض وآرائهم على أنها شرعية وقانونية. هذه النظرة إلى التسامح هى الأساس لموقف ديمقراطى ليست قابلة للقياس وليست هناك مستويات أو أنواع للتسامح والمسألة فى أساسها هى مدى استعداد الأفراد أنفسهم للتطبيع مع مبدأ التسامح، وهذا المعنى للتسامح يمكن تطبيقه فى ميادين التعليم، ويمكن توضيح البدائل التى تقدم للفرد فى مواقف الصراع. إنه إذا قبل الأفراد مقولة أن كل فرد له نفس الحقوق لتنمية قدراته إلى أقصى حدّ فهل سيصبحون قادرين على قبول التباين ووجهات النظر المعارضة لرؤيتهم حسب الضرورة، أو يبحثون سويًا عن حلول لصراع ما. وإذا كان من الممكن تحديد التوجه لمعارضة العنف كظاهرة لصراع ما؟ إلا أن البواعث على العمل تختلف بعض الشيء عن قبول مبدأ حق الآخرين فى تنمية قدراتهم إلى أقصى حدّ. إن هناك عددًا من القدرات التى تؤدى تنميتها إلى زيادة ميل الإنسان إلى موقف وسلوك متسامح وهى:

* التنافس من أجل الحوار والتواصل والقدرة على الاستماع وإظهار آراء الشخص والحقوق والاحتياجات بطريقة تمكن الطرف الآخر من أن يفهمها.

* القدرة على تغيير التصورات ووضع آراء وأفكار الآخر موضع التفهم والتقدير والاحترام.

* الالتجاء إلى النماذج عند اتخاذ قرارات بناءة، وعند اتخاذ القرارات الديمقراطية للصراع.

* التبصر فى الحدود الرئيسة والموضوعية فى أى نمط تفسيرى والحساسية لأية افتراضات ضمنية.

إن التعليم الذى يستهدف تحقيق التسامح لا يجب أن يقتصر على تدريس المعرفة والمهارات التى تعمل معًا لخلق مواقف التنافس من أجل التسامح، بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى وضع الإحساس الثابت المستقر بالهوية موضع التنفيذ، ولا يحتاج الشخص ذو الهوية المستقرة إلى الحط من أقدار الآخرين حتى يزيد من قدر نفسه بل إن الاحتمال الأكبر هو النظر إلى التباين باعتباره عنصر إثراء وليس كعنصر للتهديد. وعليه فإن تنمية التنافس فى التسامح يجب أن تقوم على أنشطة تزيد من قدرة الفرد على الثقة بنفسه وإحساسه وذاته ومعرفة رأيه واحتياجاته.

إن التسامح هو عماد المجتمعات الديمقراطية، فهو يمكن الفرد على التعايش مع الخلافات وقبولها، كما أنه يوفر توجيها يسمح للناس بحق تقدير أعمالهم ووضع نتائجها فى الاعتبار، كما أن المناقشة فى التسامح تشكل مطلبًا مسبقًا لتسوية الصراعات عن غير طريق العنف، وتلك إحدى أسس المجتمع الديمقراطى.

إننا فى حاجة إلى تعليم مهارات المنافسة فى التسامح بتطوير مناهجنا المدرسية فى إطار الخبرة والفكر التربوى القائم على العمل وأن يراعى فى المفاهيم اللازمة لتعليم التسامح: اعتبار سوء التفاهم حدثًا عاديًا، وتمكين الناس للتغلب على الخلافات عن طريق التواصل، وتدريب الفرد فى أن يسيطر على سلوكه فى مواقف الصراع، وإبلاغ الناس بنتائج التسامح ونتائج التعصب، والتدريب على وسائل تسوية الصراعات. وأهم من ذلك كله هو خلق بيئة تعلم آمنة، وتلك مسئولية المجتمع والمدرسة معًا للتربية والتنشئة من أجل التسامح والتعليم من أجل الديمقراطية، ليس من أجل الإعداد للحياة بل وممارسة الحياة ذاتها لتعليم المواطنة.

الفصل الرابع

تقدم الإنسانية فى العيش معًا

أولًا: الإسلام دين التعايش.

ثانيًا: الفهم والتفاهم أساس السلام.

ثالثًا: الفجوة والجفوة لا تصنع السلام.

رابعًا: من نيران الثروات إلى ثروة السلام.

تقدم الإنسانية فى العيش معًا

أولاً: الإسلام دين التعايش:

الإسلام ليس قريناً للإرهاب، فالإسلام الذى عرف تطرف الخوارج هو نفسه الإسلام الذى أنتج عقلانية المعتزلة. إن من يقرنون الإسلام بما يسمى الإرهاب لا يتأملون الأسباب التى تنتج اجتهاداً إسلامياً متسامحاً حيناً واستظهاراً لاهوتيًا منغلقاً حيناً آخر. الإسلام أكد على حق محاربة الشر ومحاربة الظلم، إن مبادئ وقيم اللاعنف هى الأقرب إلى روح الدين الحنيف، والإسلام أقر مبادئ القتال بضوابط لإقامة سلام قوى على قواعد سياسية واجتماعية أخلاقية. إن العنف ليس نتاجاً سماوياً بل هو نبت أرضى مكتسب.

إن إشكالية قبول الآخر وإلغاء الآخر أو تهميشه أو إقصائه هى أهم العوامل التى تكرس وتبلور الإرهاب فى العالم، وإن ذلك ليس مقصوراً على الجنوب دون الشمال، وليس مقصوراً على الإسلام دون ديانات سماوية أخرى، فهو ليس ديناً منغلقاً لا يسمح بالحوار. إن إشكالية غياب ظاهرة احترام الآخر بعيدة عن الإسلام، ولكنها ترتبط بطبيعة بعض النظم السياسية الحاكمة فى البلدان العربية، هى نظم تتشبث بالسلطة وتستخدم فى سبيل ذلك القمع والإرهاب ضد مواطنيها، وتمنعهم حقوقهم وتصادر آراءهم وترفض قبول الآخر. إن هذه القوى المهمشة

تلجأ إلى استخدام أساليب العنف والقوة للرد بالمثل. ومن ناحية ثانية فإن تهميش الآخر ونفيه وعدم قبوله سمة من سمات بعض المجتمعات غير المسلمة المجتمعات الغربية الديمقراطية، فهى مجتمعات تمارس الديمقراطية فى الداخل وتحترم الآخر ثم إنها تنغلق على نفسها فى الخارج وتتجاهل الآخر، بل إن بعضها يلغى الآخر الأمر الذى يدفع إلى تبنى سياسات عدوانية تنطوى على استخدام العنف لمواجهة هذا التهميش والإقصاء، بل إن هناك خلطاً بين الإرهاب والجهاد دفاعاً عن الأرض والعرض والوطن فإن صفة الإرهاب تنسحب عليهم، وهو فهم يجانبه الصواب.

إننا حين نحاور الآخر الذى نختلف معه فى الاعتقاد أو فى الانتماء السياسى أو فى الفقه أو فى العلم فإن علينا أن نلتزم بأسس للحوار من أهمها:

- أن نتحاور مع الآخر بقلب منفتح وعقل منفتح بالرحمة واللين والشفافية.
- ألا نتهم دوافع الآخر ذلك أن الصحة والخطأ تخضعان لشروط موضوعية يمكن التحقق منها واكتشافها.
- أن نتبنى قاعدة رأيى ورأى الآخر والصواب فى درجة واحدة، وهذا يعنى أننا لسنا على صواب مطلق وأن الآخر ليس على خطأ مطلق. إن هذا الاعتقاد الحيادى يخفف من حساسية الآخر ويدفعه إلى التأمل والتفكير.
- إن الدعوة والحوار يجب أن تتحرك فى إطار الحيادية والمرونة والشفافية والانفتاح دون تفريط فى القناعات والتنازلات عن الثوابت.

إن الحوارات تتعدد بتعدد أغراضها، فمنها ما يكون هدفه إقناع الآخر بأن رأيه أو موقفه على حق، ومنها ما يكون هدفه مجرد معرفة ما عنده كى لا يكون هناك سوء فهم بأن ينسب إليه ما لا يرى أو يعتقد، ومنها ما يكون الغرض منه الوصول إلى آراء أو أهداف مشتركة تساعد على ما يكون الغرض منه الوصول إلى آراء أو أهداف مشتركة تساعد على التعايش والتعاون. وكلها أهداف مشروعة للحوار

تستوجب المناقشة. وهو لا يكون كذلك إلا إذا توافرت فيه شروط وخلا من بعض المفسدات. أول هذه الشروط أن يكون المتحاورون صادقين فى الوصول إلى ما أعلنوا من أهداف، وثانى الشروط أن يستند الحوار إلى معايير يؤمن بها الطرفان مثل العقل والحقائق العلمية المتفق على التسليم بها أو الاحتكام إلى حقائق دينية يؤمن بها كل من الفريقين.

إن مفهوم الذات ومفهوم الآخر يمكن أن يكونا نسبيين على ضوء المحور الذى نستند إليه، فقد يكون هذا المحور هو الذات الشخصية أو الذات المذهبية فى إطار الدين الواحد، أو الذات الدينية، أو الذات المؤمنة بدين سماوى، أو الذات المؤمنة بمطلق قيمى حتى لو لم تؤمن بدين سماوى، وحينئذ يختلف الآخر باختلاف محور الذات، وتختلف نوعية العلاقة بينهما سعةً وضيقاً، وتتنوع آفاق التواصل، وبالتالى تختلف الأشكال وآليات التواصل تبعاً لذلك. إنه لا يمكن الفصل بين المسألة الاجتماعية، أى الأسلوب والآليات الخطابية والسلوكية ونظام التعامل، وبين المسألة الفلسفية أى كيفية تقييم الوجود بما فيه التاريخ والإنسان فهما مرتبطان. وإذا كانت الأيديولوجية مرتبطة بالسلوك فلا يدعى الفصل بينهما إلا المغالطون، وعليه فما لم تحدد الأسس النظرية الفلسفية المشتركة يصعب الالتزام بالمنطقية فى مجال تحديد الأساليب وآليات التعامل مع الآخرين. إن النظريات الفلسفية نظرت إلى الوجود باعتباره وحدة متكثرة أو كثرة متوحدة. إن الوجود حقيقة خارجية لا يوجد فيها تباين أو تنوع بل هى ذات واحدة متكثرة وكثرة متوحدة قائمة على أساس الإيمان بالوجود المشكل المؤدى إلى تنوع فى العلل والمعاليل والقوى والفعليات ولكنه لا يعد تنوعاً فى الماهيات، وإنما هو تنوع فى حد الوجود وقوته وضعفه ودرجاته ومراتبه، إن كل الفلاسفة والعرفاء يدركون حقيقة جامعة وهى هذا الالتحام بين وحدة هذا الوجود المترامى وبين تنوع مظاهره وتجلياته ولكنهم يختلفون فى تفسير ذلك. وإذا ما ركزنا على الوجود الإنسانى اتضحت هذه الحقيقة بشكل أعمق، فنحن دائماً ندرك

وجود مساحة أصيلة تميز النوع الإنسانى عن غيره، وتبعاً لذلك تميز العمل و السلوك الإنسانى، كما ندرك تنوعاً واسعاً فى الألوان واللغات والأجناس والأذواق والثقافات، ومن هنا ونتيجة لنظرة موضوعية فاحصة نجد الإسلام بمتقضى انسجامه مع الفطرة والواقع الإنسانى قد أقرّ أموراً تنطلق من الواقع وتنظم هذه العلاقة مما يشكل نظرية إنسانية فى العلاقات بين بنى البشر.

التنوع لطف إلهى له غاياته الكبرى فى الخلق، هو سنة إلهية ونعمة على الموجودات وأهمها الإنسان، تسهل له حياته إلى جانب ما لا يحصى من الظواهر التى تدل على التخطيط الإلهى الحاكم لهذه المسيرة الإنسانية المتكاملة. إن التنوع ضرورى لتحقيق التعارف السليم مقدمة للتعاون البناء لتحقيق أهداف الخلقة الإنسانية، كما أنه ضرورى لإفساح المجال لانطلاقة العقل نحو الاجتهاد والإبداع والابتكار وتطوير الحياة عبر الاستفادة من قدرة التجريد العقلى والخلاص من اسر الظروف الحسية لتصور الحالة الأفضل وبالتالى التخطيط لتحقيقها. والتنوع ضرورى للتنافس فى الخير لتحقيق الدفع التكاملى المطلوب بما فيه التسخير المتبادل للطاقات والتعاون اللازم، ثم إن هذا التنوع لابد أن يعنى الاعتراف بتنوع الرؤى والمواقف والمذاهب.

إن الإنسان يطمح إلى تغيير الواقع إلى الشكل الأمثل، وهو يحتاج فى كل مراحل التغيير إلى الإيمان بالقيم الثابتة فى مرحلة إيمان الإنسان بذاته، وفى مرحلة العبور إلى خارج الذات، وفى مرحلة صياغة الفكر وتكوين الصورة عن الحاضر والمستقبل انطلاقاً نحو التغيير إلى الأفضل، وفى مرحلة نقل الفكرة إلى الآخرين واستلام أفكارهم، وفى مرحلة السبر والتقسيم والتمحيص والتداول، والاستنتاج والإقناع والتخطيط للتغيير.

إن هناك تلازمًا بين المسيرة الحضارية الإنسانية التغييرية وعملية الحوار والإيمان بالقيم المشتركة والمطلقة. إن قيمة العدالة مطلوبة مهما كانت الظروف كذلك تقديم

الشكر للمنعم المتفضل، وكذلك حفظ الذات وحفظ الكرامة والتعاون والدفاع عن المستضعفين والسلام والأمن والتغيير على الأفضل والرحمة والإيثار والأمانة.

إن التركيبة الوجودية تتطلب التواصل الفكرى مع الآخرين عبر صياغة الفكرة ونقلها إلى الآخرين والتعرف على ما يفكر به الآخرون ليتم التفاعل بين الأفكار وبالتالى تطويرها. ولكن هذا التفاعل يحتاج إلى قواعد توضحها إرشادات. إن الإسلام يعرض نظريته الحوارية المتكاملة الشاملة لمرحلة ما قبل الحوار ولأهدافه ومواضيعه وأخلاقه وشروطه ليحقق أهدافه بعيداً عن التعصب والنرجسية والعناد والتقليد الأعمى والاستخفاف بالآخر، إن ذلك لتنقية الحياة الفكرية منه ليتسنى للإنسان أن يحاور فى صفاء وموضوعية وبروح حضارية.

إن الحوار يتطلب الاعتراف بالآخر، أى وضعه إلى مستوى الفكر الآخر، بل الأجدى من ذلك هو البحث عن مسيرة ومساحة مشتركة بين الذات والآخر. إن الهدف العام للحوار هو دراسة الجوانب التى يشترك فيها المتحاوران، وهو اشتراك فى الخطوط الجوهرية دون التفاصيل، ثم إمكان التوسع فى هذه المساحة عبر سبر أبعاد المسائل والتوصل إلى محاور مشتركة ثم التخطيط لتمويل المساحة المشتركة إلى واقع مجسد.

إن المسئولية الحضارية يوليها الإسلام أشد الاهتمام حيث يربى فى المسلم رؤية إنسانية واسعة تجعله يفكر فى الآخرين، فإما إنهم أخوة فى الدين أو أخوة فى الخلق. إن الله أودع فى الفطرة الإنسانية ما تدرك به هذه الحقوق وما يتم ضمانها للنوع الإنسانى، بل إن هناك حقوقًا إنسانية يدركها الإنسان بالعقل العملى. إن الإسلام ينطلق فى نظريته عن حقوق الإنسان من منشأ واقعى فطرى ينسجم فى كل تشريعاته مع هذا المنشأ فى حين تعجز النظرية المادية عن إقامة مثل هذا البناء.

إن العالمية اتجاه طبيعى يخرج الإنسان عن دائرته الضيقة على المساحة الإنسانية

الواسعة، ومن همومه المحدودة إلى المسئولية الكبرى. ونحن نشهد اليوم كيف ترابطت المصالح واشتبكت الأمور فى مجالات البيئة والإعلام والعلوم والحقوق والطاقة. إن الأمان مطلب فطرى يستمد جذوره من حب الذات وتلك سمة تعمل مع غيرها بشكل متناسق لتحقيق مسيرة إنسانية متوازنة نحو الأهداف التكاملية العليا للإنسان، فلا يكفى وجود سمات طبيعية لتأمين المسير الإنسانى المتوازن، بل يجب تأمين جو طبيعى للذات الفردية وللذات النوعية تدفعها تلك السمات نحو أغراض منشودة. وتأكيداً من الفطرة نفسها على توفير الجو الآمن نجد الإسلام قد زود الإنسان بالحكمة والميل نحو العدل والنفور من الظلم والاعتداء، مما يمهد للنفس الإنسانية الاتصال بالخالق وتقديم العبادات والولاء له. الأمن حاجة إنسانية دائمة لا تغيرها الظروف وعليه نتصور الحاجة إلى نظام إسلامى شامل يتكفل حماية أمن الفرد والجماعة، ولا يتصور ذلك إلا فى إطار مسألة التكامل الإنسانى بين الذات والآخر من أجل أهداف مشتركة تحقق سعادتنا أجمعين.

ويستخدم مصطلح التعايش لوصف أناس يعيشون جنباً إلى جنب فى سلام، والعيش مثل أعلى للحياة تتقاسمه جماعات متنوعة تنوعاً شديداً ثقافياً واجتماعياً وسياسياً، وإنها حياة مشتركة قابلة للنمو والعيش معاً على نحو مستقر دائم مرغوب فى حدّ ذاته. والتعايش معاً شيء مستحب، يسهم فى تعلم مسايرة الأمور وتحملها. إن التعايش معاً أو المعايشة تتحقق عندما يستطيع أناس مختلفون أن يعيشوا معاً دون التعرض لمخاطر العنف، ومع توقع استغلال أوجه الاختلاف استغلالاً مثمراً. إن التحدى الذى يمثله التعايش هو أساساً تحد للتسامح إزاء التنوع ويتجلى هذا فى حالة غياب العنف.

إن التعايش لا ينكر هوية ما أو يستبعدها، وهو يسلم بأن الخيارات التى توفرها جماعات أو تقاليد مختلفة يمكن اعتبارها على نحو ما متكافئة، بل هى مفيدة لنماذج مختلفة من المجتمعات التى توجد فى نطاق المجتمع ذاته. والتعايش معاً يقوم على

استبعاد أعمال العنف من خلال قوانين مشتركة مقررة، وتعميم فكرة حل الصراعات سلمياً والتوصل إلى اتفاقات، لأن الهويات تعتمد عليها لتوفير الأساس الضرورى لتحقيق التسامح إزاء التنوع وليظل حيوياً قابلاً للنماء، أى إن العيش معاً يتم فى إطار مؤسسى قانونى تتبناه الجماعة على نحو واضح صريح، واعتبار الاختلاف فرصة لمعرفة بعضها البعض من أجل توسيع آفاق للمبادلة تقترن بالموافقة والاستحسان والتوصل إلى اتفاقات يتم الالتزام بها وتحديثها. إن الاستهجان الأخلاقى والثقافى للأفعال غير القانونية، وإن الاستحسان الأخلاقى للأفعال الملزمة شرعاً هما المفتاح الرئيسى للتعايش.

إن التعددية الأخلاقية تعنى أن الناس ذوى المعايير الخلقية المختلفة يمكن أن يشعروا باحترام معنوى أو أخلاقى متبادل، وهو ما يشير إلى أن القواعد يجب أن تكون عامة بدرجة كافية ومتوافقة بدرجة كافية، وتجد تعبيراً جمالياً ملائماً لإثارة احترام الناس ذوى الأطر الأخلاقية المختلفة، وهذا ما يتوجب على أى مجتمع أن يفهمه ليحقق المعايشة. إن التوافق والانسجام بين القانون والأخلاق والثقافة هو تلك النقطة التى يختار فيها الفرد سلوكه على نحو أخلاقى أو ثقافى ولكنه يختاره من ناحية قانونية، وهو ما يتوجب على الدستور أن ينص على احترام التنوع الثقافى والدينى، وكذلك التنوع فى العادات والتقاليد شريطة احترام القانون، وبعبارة أخرى تحيا التعددية ولكن ليس إلى الحد الذى يبرر أخلاقياً اللاشرعية أو يؤدى إلى القبول الثقافى لها.

إن أمماً كثيرة قد تعرضت للأزمات التى تعوق التعايش نتيجة للفجوة بين القانون والأخلاق والثقافة. إن الدول القومية هى التى استطاعت أن تحقق درجة من النظام بإعطاء الأولوية للقانون، وإنه لمن خلال القانون مع قدر ما من المساندة من خلال الأخلاق والثقافة وبصفة أخص من خلال الدين والأيديولوجية يمكن تحقيق درجة عالية من التوافق والتناغم بين القانون والأخلاق والثقافة.

إن هذه المنظومات الثلاث: الثقافة والأخلاق والقانون تحقق سلوكاً مجتمعياً يتسم بالنقاء والبقاء بعيداً عن العنف والفساد وهو ما يعنى وجود التنظيم الثقافى أو الثقافة المدنية، يضمن مفهوم الثقافة المدنية ويسعى دائماً إلى تعزيز وتشجيع التنظيم الذاتى فى العلاقات بين الأشخاص، ومن ثم التشديد على التنظيم الثقافى للتفاعلات بين المختلفين ديناً أو جنساً أو جنسية أو بين أفراد المجتمع المدنى وأفراد الحكومة، ذلك أن المجتمع يعتمد اعتماداً كبيراً على حسن التفاعل وسلامته بين هذه النوعيات ضماناً للعيش معاً دون عنف أو فساد. وعليه تتحدد أهداف الثقافة المدنية التى تعد الأولوية الأولى للتعايش في:

- تنمية الالتزام بقواعد التعايش.
- تنمية قدرة المواطنين على تشجيع أنفسهم وغيرهم على الالتزام السلمى والتمسك بالقواعد والضوابط.
- تحسين القدرة على الاتفاق والحلول السلمية للصراعات بين المواطنين والدول.
- تنمية مهارات المواطنة فى الاتصال والتواصل من حيث أدوات التعبير والتفسير من خلال الفنون والرياضة.

لقد سعت الأفعال المتصلة بفكرة الثقافة المدنية إلى تحديد نوع من الأرضية المشتركة تمثل الحد الأدنى من القواعد الأساسية المتقاسمة، والتى تتيح لنا جميعاً التمتع بالتنوع الأخلاقى والثقافى دونما عنف أو فساد. إن ترابط الرأى العام الحساس والصراحة الشديدة والشفافية والمنهجية يؤدى دوراً حيوياً وحاسماً فى حسن المعايشة، ذلك أنه عندما تتعاظم عملية الاتصال ينشأ بالطبع آلية وإزاحة أو إزالة الالتباسات لمفاهيم غير ناضجة تتعلق بالقواعد والسلطة والاختصاصات فى تفسير المواقف المجتمعية والأحداث الجارية، وهنا لابد من تفهم الصراع على أساس أن القيود المفروضة على الاتصال هى التى تسببه أو تعمل على تفاقمه. كما أن الاتصال المباشر وجهاً لوجه من شأنه أن يثنى عن العنف.

إن التعايش هو عملية مؤلفة من الامتثال للقواعد والقدرة على التواصل والتوصل إلى اتفاقات والالتزام بها مع توفير قدر من الثقة المتبادلة. وهو ما يتطلب طاعة القواعد القانونية والأخلاقية والثقافية دونما توتر فى هذه المنظومات الثلاث، والتسامح وتحمل التعددية الأخلاقية والثقافية. أضف إلى كل ما سبق أن الاحترام يجب أن يقوم على نزعة المساواة بين الأقران، فمبدأ المواطنة هو جزء لا يتجزأ من هذا الاحترام، وهنا تمس المواجهة مواجهة بين مواطنين، من حيث النظر إلى الآخر كَنِدٍّ مماثل للمرء نفسه، والاعتقاد بأن المرء نفسه مثل غيره، إنه احترام مستند إلى الوعى بالمساواة وهو أحد التحديات لإقامة التعايش، فاحترام الآخر كَنِدٍ منذ البداية يعد دعامة رئيسة وركنًا ركينًا للتعايش.

إن العاملين الرئيسيين فى التعايش هما: القدرة على وضع الاتفاقات والالتزام بها، وعلى احترام القانون الذى هو العامل الأفضل فى التنبؤ بانعدام العنف. إنه لابد من شيوع الثقافة الديمقراطية، وتقدير ما هو صالح، وتقدير القواعد والإجراءات الديمقراطية لاتخاذ القرارات.

إن مطلب التعلم للعيش مما لا يمكن تغافله فى وقتنا الراهن الذى يمر بحالة من التغير والثقافة، يتسارع فى اتجاه العولمة وتحدياتها بالغة الاتساع. ومن قبيل هذه التحديات التطور فى تكنولوجيا المعلومات، وفى عمليات الإنتاج، والاتجاهات المتزايدة نحو الهجرة، وتعاظم دور الاقتصاد، والتحولات الاجتماعية والسياسية، واتساع حدود المعرفة البشرية. كل هذا يتطلب تنمية اتجاهات جديدة، واكتساب معرفة جديدة. وفى هذا العالم المعقد والمتداخل الذى يتطلب منا احترام وتقبل وتفهم اختلاط الثقافات، وتحمل الفروق بينها، فإن عملية التعلم للعيش معاً تصبح مطلباً ضرورياً للمستقبل المنشود. ولمواجهة هذه التحديات فإن التربية تغدو مركز الاهتمام ولتصبح التربية للجميع، بل ومن الضرورى كذلك تقديم نوعية جيدة من التعليم، وهو مطلب شديد الصلة بمبادئ العدل والمساواة. إن أهم الاحتياجات

التربوية التى برزت كمطلب لا يمكن الاستغناء عنه للعيش معاً بشكل أفضل لتنمية قدرة الأفراد ليصبحوا مواطنين من خلال مشاركتهم فى الحياة السياسية، وانخراطهم فى الهيئات العامة مشاركين فى تحقيق أهدافها من ناحية ومشاركين فى فحص وتقويم هذه الأهداف من ناحية أخرى. إن العناية بتعليم الشباب أصول المواطنة الديمقراطية آخذ فى التزايد فى جميع النظم التربوية المتقدمة، الأمر الذى يكشف عن تقدم النظام الديمقراطى وهو دور التربية المدنية وتدريب الشباب ليكونوا مواطنين. وهذه التربية تتطلب اكتساب المعرفة، وتنمية الاتجاهات، وتكوين القيم الملائمة وهو ما يتطلب توجيه الانتباه إليه وتخصيص الوقت المناسب له فى جميع الأنشطة.

إن مدارسنا وجامعاتنا فى حاجة إلى أن تزود طلابها بالمعرفة المرتبطة بالمبادئ والعمليات المتعلقة بالنظم السياسية الديمقراطية وطبيعة القوانين والحقوق السياسية وديناميات العمل فى النظم الديمقراطية ووظائف التعدد الحزبى، وأهمية الخصائص المميزة للديمقراطية كما ترشحها النظريات السياسية، والانتخابات الحرة ومشاركة الجماهير فى التنظيمات المدنية وما من شأنه تقوية الديمقراطية مثل أن تسمح الطبقة الحاكمة بانتقادها، وأن يحترم المواطن مهما كانت مكانته القوانين، وأن يدلى بصوته فى الانتخابات، وبذلك يمثل الطلاب جزءًا من الثقافة السياسية حيث يكونون مفاهيمهم عن المسئوليات السياسية والاقتصادية المنوطة بالحكومة وهو ما يمكنهم إلى حد بعيد من التوافق والاندماج مع من يشاركونهم الحياة فى مجتمعهم فيما يتعلق بالمفاهيم الأساسية للحياة المدنية التى تتصل بالحياة اليومية. إنه ليس فقط مطلوبًا أن الطلاب يتعلمون المبادئ الديمقراطية المطبقة فى المجتمع، بل الأهم هو أن يطبقونها فى حياتهم اليومية. أى إنه من المهم تجسير الفجوة بين المعرفة السياسية والمدنية وبين السلوك الفعلى الممارس فى الحياة اليومية، وحتى لا يفتقد الطلاب الحساسية الاجتماعية. وكل ذلك يتطلب التدريب التربوى للطلاب لمساعدتهم على

تحمل بعض المسئوليات بصفتهم مواطنين مثل القيام بأعمال حماية البيئة، والإسهام فى حل مشكلاتها ومشكلات المجتمع المحلى، وذلك بتنمية أساليب المشاركة والمناقشات المفتوحة والاضطلاع بأعمال ضمن فعاليات الحياة المدرسية مما ينمى الشعور بالالتزام أو اكتساب مهارات الحياة.

إن السياسات الثقافية ينبغى أن تتحول من فكرة الثقافة، الموروثات، الأمة، إلى تفهم أفضل للتنوع الثقافى على الصعيد العالمى يصبح بمقتضاه البعد القومى للهوايات الثقافية فى علاقة مع أكبر عدد ممكن من الأبعاد الأخرى التى تميز مجتمعاتنا المعاصرة، وعلينا أن نستبدل بالثقافة المصرية الحياة الثقافية بمصر، وأن نطلق على عبارة الحوار بين الثقافة المصرية والثقافات الأجنبية عبارة أخرى هى: مساهمة الثقافة المصرية فى الحوار بين الثقافات والحضارات.

إن اليونسكو اجتهدت على الدوام للارتقاء بمبدأ عدم التميز باعتباره خطًا أحمر تستعمله جميع الأجهزة المعيارية الدولية حفاظًا على حقوق الإنسان. إنه من وجهة نظر حقوق الإنسان لا يمكن أن تتحدد للفرد واجبات تبعًا لأصوله أو ثقافته الموروثة، وذلك سعيًا لتحقيق التعايش بين الأشخاص والمجموعات المنتمية لهويات ثقافية متعددة متنوعة وديناميكية.

إن التربية على التعددية هى فكرة التربية على التحرر، وهى تصور حديث للتربية الشاملة تقوم على مبدأ تحويل نظم التعليم إلى محيطات تساعد على التعليم، ويشمل ذلك تحويل مهنة التعليم إلى اختصاص يسهل مسيرة التعليم وينظمها، والسعى إلى إيجاد مدرسة تتميز بجعل التسامح مراسًا يوميًا، وذلك بإعانة التلاميذ على الأخذ فى الاعتبار وجهة نظر الآخرين.

وهكذا يصبح تعدد وجهات النظر هدفًا عامًا من أهداف التربية للقرن الحادى والعشرين بما يسمح للفرد أن يحدد أولوياته، وأن تكون له وجهة نظر تجاه مختلف الأيديولوجيات التى تنازعه فى المجتمع المحيط به فى مدرسته وفى قاعات الدرس.

إن العالم السويسرى جان بياجيه، ومنذ العشرينات من القرن العشرين، بلور نظرية فى التطور الإنسانى تأسست على كونية عينية جامعة، حيث إن كل تعلم إنما يحصل بالسعى من أجل التوازن بين التأقلم مع الآخرين واستيعابها، وهو مبدأ عام يربط بين التطور المعرفى ونضج التفكير الأخلاقى. وفى هذا الاتجاه القاضى بالتفاعل التربوى يتضح أن إرادة فرض قيم محددة لم يتم استيعابها مسبقًا إنما هى إرادة نفيها. ذلك أن القيم لا تكون ذات معنى إلا إذا تخيرها الفرد بحرية، والتربية على القيم ليست التربية على أدنى مستويات التسامح المتمثلة فى مجرد التأقلم مع الآخرين، وعليه يجب أن نجد إطارًا أرحب خدمة لإنضاج التفكير الأخلاقى فى إطار من الروح الديمقراطية. فالواجب فى تعليم التاريخ مثلاً أن يتجاوز الإطار الوطنى، وأن يتضمن بعدًا اجتماعيًا وثقافيًا، بحيث تعد معرفة الماضى لفهم الحاضر والحكم عليه بشكل أفضل، وباختصار فإن التربية على القيم تتطلب تضافر الاختصاصات فى العلوم الاجتماعية والإنسانية.

إن علينا أن نتفهم ونطبق الخطة الدولية التى تدعو المنظمات الدولية إليها من حيث إعانة الهيئات التربوية والثقافية والعلمية على تكثيف جهودها للتربية على التعايش والعيش معًا، وتدعوها إلى المساهمة فى إبراز عولمة ذات شكل إنسانى. ويتحدد إطار هذه التربية الجديدة فى استراتيجية متوسطة المدى تشمل: الارتقاء بالتربية باعتبارها حقًا أساسيًا، وتحسين نوعية التربية، والارتقاء بالتجريب والتجديد وكذلك نشر المعلومات وتقاسمها، وحماية التنوع الثقافى، وتشجيع الحوار بين الثقافات والحضارات. وثمة إلى جانب ذلك استراتيجيات فرعية ضمن الاستراتيجية المتعلقة بتنمية إمكانيات التعليم عن طريق تمكين المتعلم من الوصول إلى محتويات ونظم تقديم خدمات تربوية متنوعة. ويتضمن إنجاز الاستراتيجية على الصعيد العربى الأوروبى العناصر التالية:

* التعاون بين وكالات اليونسكو والمنظمات الدولية المعنية والنشطة فى هذا المجال مثل الألكسو، والجامعة العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامى، والمجلس الأوروبى، والاتحاد الأوروبى.
* حث وتشجيع ودعم المجتمع المدنى من خلال اللجان الوطنية، وكذلك المنظمات غير الحكومية العالمية.
* آلية لإنجاز المشاريع ذات الأولوية، وتتضمن إنشاء تنسيق داخل اليونسكو، وما بين الوكالات وتصور أنماط متنوعة للتمويل.
* إن ذلك يتطلب توزيع منشورات وتقارير على نطاق واسع، ويكون ذلك على مستوى وزارات التربية ومؤسسات تكوين المعلمين ومراكز تخطيط البرامج المدرسية، وتنظيم التبادل بين المدرسين والقائمين على السياسة التربوية مع إنشاء شبكات اتصال بين مؤسسات تكوين المعلمين أى كليات التربية فى العالم العربى والعالم الأوروبى.
* إنجاز تحليل مقارن للبرامج والكتب المدرسية فى عدد من البلدان العربية والأوروبية، وطبع عدد خاص من المجلات التى يصدرها المكتب الدولى للتربية يهتم بالحوار العربى الأوروبى.
* إعداد نشرة محسنة للدليل العملى للتربية على حقوق الإنسان والتسامح والحوار بين الحضارات والثقافات مع التنويه بأفضل ممارسات "التدريب على العيش معًا"، والتربية للمواطنة بعد التعاون مع المجلس الأوروبى والألكسو.
* وإسهامًا فى إنجاز الخطة العربية يتم بعث شبكة من المؤسسات الجامعية والبحث المختص فى مجال التنوع الثقافى للعالم العربى بما فى ذلك المؤسسات المتخصصة التابعة لجهات غير الدول العربية وأوروبا.
* الارتقاء بالتعاون بين الجامعات العربية والأوروبية من خلال مشاريع بحوث مشتركة ومن خلال المشاركة فى كل البرامج الكبيرة.

* دعم المهرجانات الثقافية والمعارض والملتقيات الإعلامية الثقافية الهادفة إلى تطوير الحوار العربى الأوروبى.

* اعتماد مشاريع ريادية لبيان تأثير النظم المجددة لتقديم الخدمات التربوية مثل خدمة اليونسكو متعددة اللغات من أجل التربية على حقوق الإنسان والديمقراطية وذلك بتوظيف التجارب المكتسبة فى مشروع تقديم الخدمات الموجودة بأوروبا وذلك لبعث مشاريع مماثلة فى الدول العربية.

* جمع أهم طرق نشر معارف الجهة الأخرى عبر وسائل الإعلام فى شكل ورش تنظم بالتعاون مع الإعلاميين وجمعياتهم المهنية والحصن على التعاون والتبادل بين وسائل الإعلام العربية والأوروبية.

إنه لو لم يكن التفكير إلا فعلاً باطنيًا أى ضربًا من مناجاة النفس لذاتها فأنى لنا بالتأكيد من أن ما نتعقله؟ إنما نتعقله على استقامته، وكيف يكون لنا موضوعيًا دليل على ما نجد ذاتيًا؟ ألا نلزم عندها بعرضه على محك ذاتٍ إنسانية أخرى فيكون الانتقال على هذا النحو من المناجاة إلى المجاورة؟ أليس شأن الفكر حين تتعلق إرادته بالحقيقة أن يكون بالأساس أخذًا وعطاءً وإثراءً متبادلاً ليكون بالتالى تواصلاً؟ ما أسعد مَنْ رفع معرفة الذات إلى مصاف الواجب المقدس على غرار ما فعل سقراط، ولكن إذا ما وضعنا فى الحسبان أن الواجب فى كل معرفة أن تتنزل فى سياق حوارى، ألا يصبح الآخر عندئذ ضرورة لابد منها لينشأ الوعى بالذات؟ ألا يكون الإنسان عندها مستقبل الإنسان؟ وحين نتدبر الغيرية على حقيقتها ألا نكتشف أنها بُعد أساس من أبعاد حقيقة الذات؟ ألا يكون الفرق حين نحسن إدراكه سبيلاً إلى الهوية؟ وإذا كان الأمر كذلك ألا يكون الوجود البشرى تواجدًا بل ألفة بحكم أنه إنما يكون على حقيقته بفضل التلاقى عند ملكة الحس السليم، التى هى أعدل الأشياء توزيعًا بين الناس؟ ومع ذلك فإن ما نشاهده من أحداث مؤلمة يستوقفنا جميعًا ذلك أنه لا يكفى أن ندين العنف بلا تحفظ، بل يقضى الواجب كذلك بأن نقف على أسبابه، إذ ليس من وسيلة

أخرى لمواجهة ما أصاب العالم جراء هذا الطوفان من الأحكام المسبقة، لذلك لم يكن الحوار من متطلبات التفكير السليم وحده، وإنما هو أيضًا واجب أخلاقى سياسى تمليه مقتضيات السلم، فبقدر ما هو من شروط ظهور الحقيقة فهو فى الوقت ذاته من ضرورات قيام السلم وحماية الحرية.

إنه فى إطار بيت الصداقة العربية الأوروبية نؤمن نحن المستنيرين، مقدرى الإنسان والإنسانية، أنه من واجبنا جميعًا أن نسعى إلى ترسيخ تقاليد الحوار بين الشعوب والحضارات. وبصرف النظر عن المستجدات الحارقة الجارحة فإنها تلبى نداء الثقافة العربية الإسلامية العريقة التى عرفت دائمًا كيف تأخذ عن غيرها دون أن تفقد ذاتها، كما عرفت كيف تجود فتثرى باستمرار. إن إرادة العالم العربى اليوم هى أكثر من أى وقت مضى تمد يدها إلى أوروبا بصدر رحب داعية إلى أن تقتحم معه رغم صروف التاريخ سبيل النجاة، سبيل المستقبل والتعاون والسلم. فلما كان مصيرنا واحد، وكنا نواجه إعصارًا واحدًا فكيف لا نكون جميعًا مدعوين، مهما كانت مواقعنا، دعوة العقل والواجب لتوحيد جهودنا ضمانًا لانتصار الحق على العنف، والتسامح على التعصب، وتغليب الحضارة على الهمجية على الرغم مما نشهد من أحداث مأساوية وجنونية أحيانًا. إن أهل الفكر والثقافة عربًا وأوروبيين مدعوون قبل غيرهم لتأمل مكانة الآخر وثقافة السلم ومسألة تربية النشء أمل المستقبل، ولاشك أن حكمتهم تهيئهم من أى مكان إلى إدراك أنه ليس ثمة من شئون الإنسان لا يعنينا.

ثانيًا: الفهم والتفاهم أساس السلام:

الفهم هو الخطوة الأولى للتفاهم، والتفاهم يعنى الفهم المشترك، وهو ما يتطلب تحديد الألفاظ المستخدمة فى الخطاب. إنه يبدو الخلط واضحًا بين مفهوم الأنا والآخر، ومفهوم الذات وعلاقتها بذات أخرى تكوّنان معًا موضوعًا. إنه يتوجب

الوعى أى وعى صاحب هذه الأنا بأنه مفارق لما حوله، وهو ما نطلق عليه الآخر سواء أكانوا أفرادًا إنسانيين أو مخلوقات أدنى بها فى ذلك الكون والبيئة المحيطة. إن صراع الإنسان مع غيره يبدأ عندما تتضخم الأنا، وهنا نجد العدوان والتجاوز أى تجاوز حدود الأنا بالعدوان على حدود الآخر، وهو يتم بنفى الآخر. من هنا فإن علاقة الأنا بالآخر تقوم على الإلغاء والنفى الذى يضيف إلى رصيد الأنا ما ليس من حقها على حساب هذا الآخر الذى يكون والحال كذلك غريبًا، والذى يشكل وجوده إعاقة طريق اتساع مجال الأنا، كما تتوهم بسبب أنانيتها وانغلاقها وجهلها حتى بواقعها. إن علاقة الأنا والآخر ستكون علاقة صراع من أجل النفى والإلغاء والإزاحة، وهذه الحال نراها فى حياة القطعان على الرغم من أن المكان يشكل ظرفًا للالتقاء، كما أن الهدف من هذا اللقاء هو الإشباع، إلا أن هذه العلاقة لن ترقى إلى حالة الوعى بأهمية الآخر، فما إن ينضب الماء أو يقلّ العشب حتى يبدأ الصراع على اليسير المتبقى وربما التقاتل، إضافة إلى أن العلاقة بالأرض تقع فى إطار الآخر الغريب، فالقطيع لا يملك إلا أن يغادر الأرض، إذ إن ما يحدد طبيعة هذه العلاقة هو المنفعة التى تقع فى هذه الحال فى إطار إشباع الغرائز.

إن أفراد القطيع بهذا التفسير ما هم إلا أرقام تتعامل مع أشياء، والرقمية والتشيؤ هما سمة جماعة القطعان.. ويمكن القول إن الجماعات البشرية فى مستوى وعيها الأدنى تظل محكومة بذات العلاقة، بل إنه يمكن القول إن البشرية على الرغم من هذا التطور الهائل فى وسائل المواصلات والاتصالات وأشكال التقنية المختلفة إلا أن هذا التطور لم يسهم فى تطوير شكل العلاقات، بل ربما جعلها فى كثير من الأحيان أكثر شراسة وضراوة وتوحشًا إلى الحدّ الذى يجعل البشرية أكثر هبوطًا وتدنيًا فى علاقاتها من علاقات أفراد القطيع، ذلك أن أفراد القطيع ما إن يشبع أحدهم حتى يكتفى عند حدود الإشباع، أما البشر فهم وحدهم الذين يتجاوزون حدّ الإشباع إلى أن يصل إلى التدمير والإفناء لكل شيء من أجل أن يملك كل

الشيء، حتى علاقة هؤلاء مع الكون ستكون علاقة عداء، فكم من شواهد لتدمير الكون فى تاريخ البشرية. إن من ينظر فى أرقام وأحجام وسائل الدمار الشامل ومخزون هذا يدرك إلى أى حدّ وصلت فظاعة البشر.

إن علاقة الذات بالآخر غير علاقة الأنا بالآخر، ذلك أن الذات حالة اكتمال فى الأنا، ووعى الأنا بحدود الذات هو الذى يقودها ليس إلى إلغاء الآخر بل إلى الإحساس بالحاجة إليه.

من هنا تقبل الأنا بالتنازل لصالح هذه العلاقة، وإن كان هذا التنازل الواعى والإرادى سيكون لصالح الأنا، فهو الذى يحولها إلى ذات تتأكد من خلال هذا التنازل. أى أن علاقة الذات بغيرها من الذوات لا تقوم على الرقمية بل على الاعتبارية، فالآخر قد تحول إلى ذات اعتبارية، بل إن العلاقة مع الأشياء ستقع فى إطار هذه الاعتبارية، فالعلاقة مع الأرض لن تكون قائمة على المنفعة، بل تتحول الأرض إلى مضمون قيمى هو الوطن، ومن هذا المعنى يكون التاريخ هو تاريخ الوعى أى هو الفعل الإرادى الواعى الذى يؤكد ذات الإنسان، ومن هذه الذات يكتسب المكان والزمان قيمتهما.

إننا نعيش فى عصر المونولوج ولغة القطب الواحد الذى تتمركز فى يده كل وسائل القوة، فهو العدالة المطلقة، وفى المقابل فإن الآخر هو الشر المطلق. إن المخاطب لا يتوقع منه ردّ، لأن الخطاب أحادى يفترض فراغًا يتوقع معه رجع الصوت أى الإذعان الكامل. إن الولايات المتحدة تجاوزت بكثير نظرية أفلاطون القديمة التى تفترض أن العقل يلقى بأوامره على الأعضاء، لأنها تتوسع كما تشاء فى هذا الجسم الذى يطلق عليه المنظومة الدولية. إن هذا الوضع غير الإنسانى فى حاجة إلى تصحيح، فنحن لم نعد الآن فى حال الأنا والآخر، بل فى حال هذه الأنا المتوحشة المهيمنة التى تبتلع دولاً داخلها، نحن فى حاجة إلى عودة الحق والصواب

حتى يظل الحوار لا المونولوج هو الشكل الأمثل للتخاطب الجديد، وأن يتحول البشر إلى ذوات شكل موضوعات الأمم، واعتبار الأفراد داخل المجتمعات ذواتًا، وكذلك المجتمعات فى منظومة العالم وفى إطار المجتمع الدولى. إن القطب الواحد المهين يقود إلى المزيد من الاندثار والتراجع فى سلم المعرفة الإنسانية والقيم، والإلغاء والنفى يؤديان بالضرورة إلى التطرف والدفاع الغريزى عن الوجود، والصراع الدموى والأعمال السرية والتخريبية فى حال العجز عن الحوار المتكافئ، وظهور محاولات إرهابية وكلها ظواهر ترتبط بتوحش القطب الواحد. نحن فى حاجة إلى الحوار المؤسس على مرجعية جماعية متكافئة مقبولة من الجميع أى من شعوب الأرض التى تقدر القانون الدولى، واللغة المشتركة للحوار التى تقوم على الاعتراف والقبول، أى تحول الأنا إلى ذات تخدم بقية الذوات الإنسانية أفرادًا ومجتمعات فى إطار من التفاهم والتخاطب وهو ما يقود إلى التنافس من أجل الأفضل.

إن من المتعارف عليه بين الجميع أن الأديان الكبرى فى العالم قد رفضت الإرهاب رفضًا قطعيًا، واعتبارًا إلى أن جذور الإرهاب توجد فى الخارج فسيكون من السذاجة استعمال حجة محاربة الإرهاب لتطوير الحوار بين الأديان، بل إن ذلك لفت الانتباه إلى إشكال حقيقى واسع الانتشار وإن بدا أقل حدة من سواه وهو إشكال العلاقات السيئة القائمة بين الطوائف الدينية، حيث عدم الثقة المتبادلة واللاتسامح والحوادث العنصرية مما يتجلى فى صيغ عرقية وأحيانًا فى صيغ دينية، ومن حسن الحظ أن تلك الإشكاليات ليست متواترة، الأمر الذى يتطلب الاهتمام بوضع برنامج تربوى جديد يقوم على الوصل بين موضوع التربية التثاقفية وموضوع الحوار بين الأديان. وهدف هذا البرنامج يبدو متواضعًا حيث إنه يتمثل فى إكساب الشباب القدرة على المشاركة فى نقاش خاص أو عام مشاركة متحضرة حول العلاقة المشتركة بين الديانات.

إن الشباب المؤمن يحتاج فى مجتمع يتميز بتعدد وجهات النظر الدينية إلى التفاعل مع مؤمنين بمعتقدات أخرى فى مسائل تخص الإيمان، كما يحتاج إلى التفاعل مع من لا علاقة لوجهات نظرهم فى الحياة بالدين ومع وسائل الإعلام ومسائل عديدة تتصل بالحياة العامة وللدين فيها رأى. فسواء تعلق الأمر بما يجرى بقاعات الدرس أو ما يجرى فى مؤسسات التعليم برمتها فثمة مسائل عامة تتصل بالتثاقف والتربية ومسائل نوعية تتصل بمختلف أنماط التنوع الثقافى. إن من المسائل العامة تربية الطفل تربية أخلاقية تعلمه احترام حقوق الآخرين حتى من كان غاية فى الاختلاف معه، كما تحمله على أن ينمى ملكة التعاطف حيال الآخر وإحساساته، وتدربه على تبليغ رؤاه وانفعالاته وكيفية السيطرة على الخوف والتصرف فى المناقشة. وذلك كله لابد أن يدرج فى الممارسات اليومية لتربية الطفل وتعليمه وليس من اليسير فصل استراتيجيات تربوية عن الأخلاق الإيجابية القائمة على قيم العمل والاحترام المتبادل، كما أن الأساليب التأديبية مهمة لتفادى الصراعات بين التلاميذ والعنف فى الحياة اليومية. ومما لا يحتاج إلى بيان أنه على المربين أن يكونوا قدوة فى هذا المجال، يضاف إلى ذلك تحديد المعارف والمهارات التى يحتاج إليها الشباب ليشرع فى حوار ناجح بين الثقافات وهو ما يتطلب أساسًا التمكن من اللغات قومية وأجنبية وذلك يعين على كسر الجليد، لأن بلوغ مستوى من التمكن من لغة أجنبية يسمح بالمشاركة فى نقاش جاد. كما أن التاريخ يشكل مادة أكثر حساسية حين يتعلق الأمر بإصدار حكم أخلاقى على أناس لهم تاريخ ولهم حضارة، حيث إن درس التاريخ يلقى خطر إحياء صراعات الماضى، إلا أن التاريخ يمثل بحثًا عن التفسير الموضوعى على أساس حجج مستمدة من الوقائع، وربما يتوجب علينا الاحتفاظ بما يتصل بالمقاربات النقدية المختلفة للتاريخ ووجهات النظر المختلفة حول الأحداث التاريخية وتأويلها.

وتستعين التربية على تفعيل المواطنة بقيم مشتركة ذات طابع كونى عالمى مما

يتصل بحقوق الإنسان، وحيث تمثل وتشكل تلك القيم للمواطنة مجموعة جزئية من قيم الثقافات العالمية ذات الصلة بالحياة العامة وحدها دون الحياة الشخصية. ويمثل الحوار بين الثقافات وضع تلك القيم موضع التنفيذ فى إطار إجراءات تربوية.

يضاف إلى ذلك لتفعيل حوار ناجح بين الشباب على اختلاف ثقافاتهم الكونية درس الفن والأدب وتنمية النشء خلقيًا بإذكاء خيالهم، وبسط أشكال الخير والشر لهم لا فى أسلوب الفلسفة الأخلاقية الجاف بل فى مجرى ظرف اجتماعى ونفسى مقنع، ومدارسة الثقافة للمجسمات الفنية التشكيلية عن فظائع الحروب، والمجسمات المسرحية عن شرور المعارك والحروب عالميًا بل ومحليًا. إن مدارسة الديانات فى مؤسسات التعليم أمر جوهرى باعتبارها مكونًا أساسيًا من مكونات الشخصية والزاد الثقافى الروحى الذى يقى الطلاب من الصراعات والتوترات الدولية المتجددة، وحيث التأكيد على أن ما يسمى الإرهاب ليس مقصورًا على دين أو ثقافة دون غيرها، وحيث يتعلم الطلاب احترام العقائد الدينية بعد معرفتها جميعًا دون تفاضل، وإكسابهم القدرة على التواصل بما يسمح بتجاوز حواجز الديانات والثقافات من أجل العيش معًا.

إن التربية على معرفة الآخر والاعتراف به دستور إسلامى للتعامل مع الآخر. والإسلام بمبادئه الحنيفة مرشد بين أهله وبين الناس كافة، وعليه تنتفى التفسيرات التى تجعله بعيدًا عن أهله وعن عصره. إن السؤال: لماذا التعارف والتفاهم والاعتراف بالآخر؟ ولماذا الإلحاح الشديد على تلك القضايا؟ إجابته أن القرن العشرين الذى بدأ بعولمة الحروب وانتهى بعولمة الحضارة والتجارة دفع الإنسان المعاصر إلى البحث عن الأسباب التى تحُول دون الصراعات الدولية، ذلك أن الدمار الذى تجره تلك الحروب بات يشمل الغالب والمغلوب على حدّ سواء، وأدرك الإنسان العاقل أن يتعلم كيف يعيش مع أخيه الإنسان معترفًا له بحقه فى

المساواة والحرية، وأن يكون فى الوقت ذاته مختلفًا عنه فى الثقافة والتفكير ومعايير التقدم والحضارة. والإنسان العاقل مدعو فى سعيه نحو السلام والاستقرار أن يتساءل عما إذا كان الصراع ضروريًا للتقدم، وعما إذا كانت الديكالتيكية هى أساس صحيح لتفسير حركة التاريخ، وبالتالى يمكن طرح السؤال: هل الاختلاف يتتبع الصراع، أم أن من الصواب اعتبار الاختلاف مدعاة للإغناء المتبادل واستثارة الفضول للتعارف والاعتراف، للتفاهم والفهم؟

إنه فى الماضى كان الإنسان يرى أن تحقيق ذاته وتحقيق طموحاته يتمان من خلال انتمائه القومى أو العرقى أو الطبقى أو الدينى أو الإقليمى، أما اليوم فإن الإنسان يرى أن تحقيق ذاته وتحقيق طموحاته لا يتمان إلا من خلال الاعتراف بالآخر وبحقه فى الاختلاف، وضرورة التعاون والتفاهم مع الآخر قوميًا وعرقيًا وطبقيًا ودينيًا، ليس من أجل تفادى الصراع والاقتتال والحروب فحسب، بل من أجل إقامة أمة إنسانية واحدة قوامها العدل والاستقرار والسلام.

نحن لا نعيش نهاية التاريخ، بل فى الحقيقة نهاية مرحلة من مراحل التاريخ. إننا نعيش بدايةً لتاريخ جديد ولمرحلة جديدة من التاريخ، التاريخ كالزمان ليس شيئًا نستطيع التحكم به فنحركه متى نشاء أو نوقفه متى نشاء. إنه لكى تؤسس الإنسانية للمرحلة الجديدة من التاريخ تكون الدعوة لمعرفة الآخر والاعتراف به واحترام اختلافه شرطًا أساسيًا وضروريًا ولازمًا لبناء هذه المرحلة التاريخية الإنسانية الجديدة لتقدم الإنسانية وارتقائها ماديًا وثقافيًا وحضاريًا. إن معرفة الآخر ليست توجهًا جديدًا، بل هو معروف منذ بدايات التاريخ، فقد تتطلب معرفة الآخر لدرء خطره، أو لتحقيق السيطرة والغلبة عليه، وقد تتطلب معرفة الآخر لترويج صورة مشوهة عنه، وإبراز عيوبه وبيان امتياز غيره عليه، وتبرير الاعتداء والقضاء عليه. إن (اعرف عدوك) مبدأ معروف وهو ضرورى فى الحروب وشرط أساسى من شروط كسبها. المعرفة قوة، وبقدر ما تكون هذه المعرفة دقيقة وموضوعية تكون

سلاحًا حاسمًا فى تحقيق الانتصار. لقد تجاوزت الإنسانية ذلك إلى مرحلة النضج والرشد بحيث أصبحت معرفة الآخر هى للاعتراف به، والتعاون معه، وتبادل الخبرات، بل إن الإنسانية العقلانية تجاوزت ذلك أيضًا ووصلت أو كادت أن تصل إلى درجة أبعد وأرقى فى الإنسانية فجعلت معرفة الآخر شرطًا لمعرفة الذات وتقويمها ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً. وتلك مرحلة جديدة فى تاريخ الإنسان، لا تبنى على معرفة الآخر من أجل قهره، بل هى للاعتراف به ولمعرفة الذات فى آن واحد.

إن غير العقلاء فى عالمنا اليوم لا يزالون يعيشون بعقلية بدايات القرن العشرين، ولا يزالون مؤمنين بمبدأ (اعرف نفسك) على أساس حب الغلبة والسيطرة، وحرص الأقوى على فرض ثقافته وحضارته على الآخر وهو فى فهمهم العقيم مطلب قومى أو دينى أو إقليمى. وطالما أن هناك ظلمًا فاحشًا وعدوانًا مستمرًا على حقوق الأفراد والدول والشعوب، واستغلال القوى للضعيف، وتسخيره لتحقيق مصالحه فإن هذا الفهم لمبدأ أعرف عدوك سيبقى سائدًا موجهًا لمعرفة الآخر. غير أنه من حق الإنسانية أن نتفاءل وأن تطمح بل أن تحلم بأن يكون هناك ميلاد جديد للإنسانية تكون فيه معرفة الآخر للاعتراف به، وإتاحة الفرصة له بأن ينمو ويتحضر ويتطور كما يريد هو، وألا يكون فى معرفته قهر وفرض واستعلاء وتوحش. إن التأسيس لمرحلة تاريخية جديدة قوامها المثل العليا والطموحات الكبرى وهذه وحدها هى التى تحفز الأمم على التقدم والرقى، ذلك أن حركة التاريخ هى الاستجابة للمثل العليا التى وضعتها الأمم لنفسها وللمعايير التى اعتمدتها للتقدم والرقى.

إن التربية هى الوسيلة الأهم لبناء الإنسان وبلورة مواقفه. والتربية بكافة مؤسساتها من المنزل والمدرسة والجامعة ودور العبادة والنوادى ووسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية هى التى تشكل الذوق والشخصية السوية القادرة على

الفهم والتفاهم والعيش معًا على أساس الاحترام المتبادل، والاعتراف بالحقوق وصون كرامة الناس وسائر المخلوقات.

إن بداية مرحلة جديدة من تاريخ الإنسان تتواكب مع ثورة المعلومات والتقنيات والاتصالات، وتتطلب تربية جديدة تحقق قيم العدل والحرية وكرامة الإنسان وثقافة السلام من أجل تقدم الإنسان وارتقاء الإنسان، كما أن العولمة فى انعكاساتها التربوية تجعل معرفة الآخر شرطًا لابد منه للتعاون معه ولمواجهة الانغلاق والتقوقع والتوحش.

إن التاريخ بمفهومه الواسع هو أقرب العلوم التى تعرّف الشعوب بذواتها، وإن من لا يعرف تاريخه لا يعرف ذاته، كما أن معرفة الآخر لابد أن تشمل معرفة تاريخه. إن التاريخ سجل الحياة بمختلف جوانبها، إن واقع تدريس التاريخ يشير إلى أنه يقتصر على تاريخ الحروب والمعارك، والتاريخ السياسى، والبطولات التى تعتز بها الأجيال وأغلبها بطولات عسكرية وكلها يمجد القوة العسكرية، حتى ليكاد المرء يعتقد أن المجد والشرف والعزة لا تنال إلا عن طريق الانتصارات العسكرية أى عن طريق قهر الآخر لأنه العدو وأن السيطرة عليه واستعباده أو استعماره واستغلال موارده هو غاية المجد، فكيف تنشأ الأجيال على حب السلام واحترام الآخر والإيمان بحقوق الإنسان، وتقديس الحرية والديمقراطية، ونحن ننظر إلى الحروب كما لو أنها مصدر البطولات وشرط التقدم والرقى؟ إن فلاسفة التاريخ فى القرن العشرين، مثل توينبى وهمنتنجتون، يؤمنون بالصراع والصدام لا بالتقدم والاعتراف بالآخر أساسًا لحركة التاريخ وتقدمه، ولكنهم أعطوا الصراع والصدام مفاهيم حضارية أكثر منها عسكرية وتلك خطوة إلى الأمام للابتعاد عن فكرة الصراع العسكرى ونبذ العنف والدعوة إلى التفاهم والتعايش واحترام الآخر والعيش المشترك فى ظل نظام يؤمن بالعدل والمساواة. إنَّنا نتعجب ونندهش ونتألم ونحن نشهد كيف تتباهى دول عظمى بانتصاراتها العسكرية وتدعو المجتمع الدولى

لتأييدها والتحالف معها فى عدوانها واستغلالها لدول ضعيفة! لهذا أصدرت اليونسكو دعوة إلى نزع الحروب من دروس التاريخ، والتأكيد على أن الدعوة إلى السلام يجب أن تبقى، وأن السلام يبنى أولاً فى عقول البشر، وأن الفهم والتفاهم مع الآخر والاعتراف به شرط للسلام، وأنه يتوجب علينا إعادة تأهيل المعلمين فى العلوم الاجتماعية وتدريبهم على التفكير الناقد والانفتاح العقلى وتقبل الآخر واحترام ثقافات الشعوب ليؤمنوا بأهمية وضرورة مفاهيم وقيم العيش معًا وثقافة السلام.

إن بناء الإنسان من خلال إعلام منفتح مباشر يحترم الآخر ويقدر ثقافات الشعوب يستطيع أن يشكل عقول الناس خاصة إذا قدمت الدراما والأفلام التسجيلية والبرامج المتنوعة عن ثقافات الشعوب وحضارات الأمم مركزين على مواطن الاتفاق والاعتماد المتبادل والتعايش فإن هذا المناخ العام فى التربية المؤسسية المقصودة والتربية الإعلامية الموجهة تحقق نتائج إيجابية وتعايشًا بين الأفراد والمجتمعات، وتجدر الإشارة إلى أنه من حق كل شعب أن يعتبر حضارته وثقافته القومية هى الأفضل والأرقى، غير أنه علينا أن نربى المجتمع على أن هذا الاعتبار لا يعنى امتيازًا مطلقًا ولا استعلاءً، بل يجب أن يصبح احترام الاختلافات جزءًا أصيلاً من كل حضارة أو ثقافة، وانطلاقًا من هذا المبدأ أقرّ الإعلان الدولى للتعددية الثقافية فى المؤتمر العام لليونسكو فى نوفمبر 2001م. على أن احترام التعددية الثقافية واحترام الثقافات بعضها للبعض الآخر لا يجب أن يتخذ ذريعة لتشجيع الاختلاف وأثارت النعرات الثنائية، والتحريض على تفكيك التجمعات الثقافية الموحدة، وإلا أدى احترام الاختلاف إلى غير ما يتوخاه من إشاعة لروح الوفاق والتعاون بين الناس. إننى كلما أمعنت النظر فى الآخر رأيت نفسى، وكلما أمعنت النظر فى نفسى وجدت الآخر.

إن تعليم التفهم أساس لثقافة السلم، وفى عصر انتصار الاتصالات انكسار

يتحدد فى انعدام التفاهم، إذ لا نحسن فهم بعضنا البعض سواء بين ثقافة وثقافة أو بين أمة وأمة أو بين دين ودين أو بين فرد وفرد آخر. ثم إن المعرفة الموضوعية وحدها لا تكفى لأن فهم الآخر وإدراك البعد الإنسانى يتطلب جهدًا وانطلاقه واسعة فيها من التواجد والتعاطف ما يسمح باعتبار الآخر فى امتلاء كيانه البشرى وتعقده. وما نسميه بالتقدم الحضارى لم يحسّن الأوضاع. وعليه يجب القيام بإصلاح معمق إذ لابد من إصلاح تربوى يعلم كل إنسان منذ طفولته ممارسة النقد الذاتى، ويعلمه كذلك ثقافات وحضارات الآخرين، كما يعلمه كيف يعتبر دائمًا الأفعال والأعمال فى إطارها، وكيف يتجنب الإدانة التامة التى لا نهوض منها، وكيف يمتلك مهارات وتقنيات الحوار الهادئ والتفتح الثقافى على أساس الهوية المشتركة بين جميع البشر، فهم يعيشون على كوكب واحد، وفى حقبة تاريخية واحدة، ومصيرهم مشترك فى إطار مخاطر تصنعها الطبيعة ويصنعها الإنسان.

إن البحر الأبيض المتوسط أعظم مصهر ثقافى عرفته الإنسانية، حيث المسارات العميقة من المبادلات الثقافية والعرقية لشعوب وثقافات متنوعة. وينبغى تصور الثقافة والتربية فى هذا الحيز الأوروبى المشترك على معانى التنوع العرقى التعددى، غير أن مواطن البحر الأبيض المتوسط تحدى على الدوام البنى الذهنية الغالبة فى كل عصر، وجعل من الشك منطلقا له وطريقة عمل.

إن دور العائلة بمعناها الحديث يتحدد فى بلورة الثقافة ونقلها باعتبارها العنصر الأساسى فى الحفاظ على القيم الإنسانية والديمقراطية، وفى ذات الوقت تلك أدوار ووظائف للنظم التربوية، ذلك على الرغم من أن تربية اجتماعية غير ملائمة على المستويين العائلى والمدرسى معا تشكل فى أغلب الأحيان سببًا لتطرف الكثير من الأحداث الصغار الذين يصبحون فى آخر مراحل نموهم غير متسامحين وغير متضامنين، وهم يعتبرون الدولة الديمقراطية عاجزة عن حلّ المشكلات الاجتماعية. وعندما تضعف تلك العلاقات يستغل ضرب التفكير الغالب الفرصة

ليفرض نفسه بإنشاء عالم منغلق يحمل فيه الناس أزياء واحدة، ويفكرون ويتصرفون بطريقة متشابهة، دون أن يكون التنوع هو الإرث التاريخى للشعب، وهو الذى ينشئ مجالاً فكريًا، وفى ذات الوقت منطقة إبداع فنى إنسانى علمى، وتلك هى أهم العناصر الأساسية التى يتقوم بها الوجود البشرى. فكما أن التنوع مستحب فى العالم البيولوجى، فإن الواجب فيه أن يعمل به فى مجال الأهداف الاجتماعية والسياسية.

إن التاريخ لا يفتأ يبين بطريقته الخاصة، كيف أن الشعوب والأمم لطالما سفكت الدماء باسم مثل وقيم أخلاقية مزعومة، ذلك أن الكائن البشرى يأخذه الوهم بأن السعادة تتحقق بفضل المطالبة بالأرض، أو نشر اللسان، وإنما يعزى هذا الضرب من الفكر فى جانب مهم منه إلى قصر ذاكرتنا، إذ إننا كثيرًا ما ننسى أن حياة الإنسان ورفاهيته لا يمكن أن يدفعا ثمنا لوهم كثيرًا ما يكون شبيهًا بضرب من العنصرية.

إن العولمة والتعددية الثقافية هما الواقعتان اللتان ستحددان معالم القرن الواحد والعشرين، غير أننا نشهد شهود العاجز اضمحلالاً تدريجيًا يصيب المخزون الثقافى، فكما أن الإنسان يهدد بقاء بعض الأنواع البيولوجية فهو كذلك يهيئ اندثار بعض التجليات الثقافية، وعليه فإن التنوع الثقافى لم يكن فى يوم ما أقل مما هو عليه اليوم، ذلك أن ظواهر مثل التلفزة والإنترنت تقترب شيئًا فشيئًا نحو التجانس الثقافى خاصة عند الشباب مع ما فى هذه المرحلة من إيجابيات وما ينتج عنها أحياناً أخرى من سلبيات، ولذلك فإن مفهوم الهوية الثقافية بدأ اليوم يتخذ شكل النزعة العالمية، وهو ما يمكن أن يتمخض عنه عالمًا توهميًا رتيبًا ينزع بأهله نحو النعاس. إننا نعرّف الثقافة بأنها أوربية أو عربية مع تغيير فعلى فى الواقع التاريخى، متناسين أن البحر المتوسط كان منطقة إبداع إنسانى تقاسمت فى حيزها ضفتاه أساليب وتعبيرات فنية متمثلة على امتداد عصور طوال. أما فيما يتعلق بالأيديولوجيات، وفيما يتعلق بالإقصاء الثقافى فالمتوقع أن تكون المنطقة المتوسطية قادرة على تذكر أن

ليس ثمة نسق أو نظام سياسى كامل، والتاريخ يبين أن الدول لها نهاية لا مردّ لها، لذلك كان الأمر يتطلب أن ننقل إلى الأجيال الصاعدة فكرة الاندماج التاريخى الحى المتأسس على مفهوم التعايش، وهو الأنموذج البعيدة أصوله فى ثقافات إغريقية ورومانية.

إن القرن الواحد والعشرين يوجب علينا العناية بتحديد النسيج الاجتماعى والتحليل التاريخى، وإنه قرن تفكيك النظم الكيانية تفكيكًا لا رجعة فيه ورفض الإقصاء الدينى والسياسى والاجتماعى رفضًا مطلقًا، والمبادرة بحيوية فى مراجعة المفاهيم الأساسية، وكما أن المجتمع المدنى مطالب ببذل جهد أكبر لتحديد المشكلات التى تعوق دعم الواقع الديمقراطى هدفًا اجتماعيًا ثابتًا وتحديا يوميًا. وليس مستبعدًا أن نكون بصدد استعادة الوعى الفردى، ومن المحتمل أن تبين التجربة أن الفلسفة والإيمان يمكن أن يكون لهما بعض الجدوى، ومن الممكن أن نفيد من دروس التاريخ وأن نكون قادرين على بناء مستقبل أكثر تلاؤمًا مع الطبيعة، وليس يقبل فى مجتمع يتنامى فيه الوعى بضرورة التوازن البيئى وينشغل لمستقبل كوكبنا البيئى أن نسكت عن مسائل أخرى تتصل بالحقوق الأساسية، وذلك أن الحق فى الصحة وفى الشغل وفى الحريات الفردية ينبغى أن يكون هدفًا ثقافيًا وتربويًا معا.

إن ثمة إدراكًا خاطئًا يتمثل فى القول بوجود تناقص بين الصراع والحوار، والعلاقة العربية الأوروبية تشكل حالة أنموذجية تبين وجود جدلية أكثر مما تبين وجود انفصال بين الصراع والحوار، باعتبار أن الصراع يمثل مرحلة من مسار معقد يفضى إلى الحوار، إذ ما من ثقافة وما من حضارة واجهت ثقافة أو حضارة أخرى فى البداية مواجهة الحوار أو الوفاق أو التفهم والحب ولا حتى مواجهة مجرد الجوار، وإنما تكمن أهمية الحوار فى الوعى بالواقع التاريخى وكثافة هذا الصراع ثم فى البحث عن سبل تجاوزه، ليكون الانتقال من الصراع إلى الحوار، وهذا يعنى أن الحوار

مرحلة يسيرة يكون الصراع جزءًا منها، وشريطة ألا ننسى أن ذلك الصراع لا يضمحل أبدًا من التواتر الثقافى على الدوام بين عوالم مختلفة، بل هو يشكل مؤشرًا على ضرب من الحضور المتخفى وراء الحوار بين الثقافات والأديان، ، حضورًا يضفى على الحوار راهنيته الدائمة ويجعله ضروريًا ومتأكدًا.

وهناك سوء فهم آخر يتمثل فى أنه لا يمكن اعتماد الصحافة ولا الصورة التى تعكسها عن الآخر معيارًا نهائيًا، أو معيارًا لمعرفة ما إذا كان هناك حوار أو صراع أو لم يكن فثمة وراء الصحافة طبقات أعمق تشكل عالم المثقفين وعالم العلماء وعالم عموم الناس. وثُمة هناك بعد ثقافى لم يؤخذ فى الاعتبار، إذ يمكن قلب اتجاه الحجج التى تؤخذ بها الصحافة. فلئن كان العالم العربى الإسلامى قد أخذ مأخذ الشيطان بسبب أحداث سبتمبر، فثمة قانون اجتماع يشير إلى أنه على قدر التشهير بالخصم يكون الإشهار له. وبالفعل فإن ذلك التشهير قد خلق اهتمامًا حقيقيًا بالعالم العربى، والعالم الإسلامى، وهو ما يشهد له الباحثون والكتّاب، حيث انفجر اهتمام بالعالمين العربى والإسلامى لم يكن موجودًا.

وهناك سوء فهم آخر يتصل بالصراع والحوار يتلخص فى اختزال رهان الحوار فى رهان المعرفة المتبادلة، ذلك أن المعرفة الابتدائية منطلق الحوار الأساسى، ونحن لا نمارى فى أن الحضارات لا يعرف بعضها بعضًا معرفة معمقة أو قل إنها تعرف بعضها بعضًا معرفة محدودة جدًا. إن ما نطلبه هو أبعد من المعرفة المتبادلة، لأنها تفترض وجود هويات منفصلة لا يمكن ردّ بعضها إلى بعض، فبدل الحديث عن عالم عربى وعالم أوروبى منفصلين تقترح إدخال فكرة التفاعل الثقافى فى الحوار، وأن يتم ذلك بشكل عميق، وهو أمر كفيل بتمكين معرفة حقيقة العلاقات بين العالم العربى والعالم الأوروبى، ومن منطلق أن الحوار لا يتقدم إلا بالمعرفة المتبادلة وحدها لابد أن نتقل إلى إبراز الإخصاب المتبادل والتفاعل بين العالمين، ولا يتوقف ذلك الإخصاب والتفاعل عند مستوى مثالى من الحوار المحبب إلى النفس والدافع

إلى التعاطف، ولكنهما يتولدان عن الصراع ذاته. لقد كانت الحروب الصليبية مرحلة من الصراع ولكنها مرحلة خصبة من التفاعل والإثراء المتبادل دامت طويلاً.

وهناك سوء فهم آخر يتعلق بالثقافة، ذلك أن الثقافة غالبًا تختزل فى البُعد الجمالى، فما يعرفه الغرب عن العالم العربى إنما هو جمالياته معمارًا وشعرًا وأدبًا، فى حين لا يعرف شيئًا عن البعد الآخر من الثقافة أى الأخلاق والقيم الموجودة فى العالم العربى، وهاهنا تحديدًا نقف على جهل الآخر واحتقاره فمسار احترام الآخر ومبادلته مشاعره لا يبدأ إلا مع قبول أخلاقه وقيمه، وعليه لابد أن ينزل البُعد الأخلاقى تنزيلاً أساسيًا فى الحوار بين الثقافات.

إن الحوار العربى الأوربى يعكس المثل القائل: عندما تختصم فى الغالب أغصان الأشجار تكون جذورها فى حالة عناق، وأغصان الأشجار تكون جذورها فى حالة عناق، ولكن ثمة فى العمق الثقافى والبُعد التاريخى جذورًا ينبغى الوصول إليها لتجديد الأغصان. إن الحوار يندرج فى إشكالية كونية أكثر اتساعًا تتجاوز أوروبا والعرب مع ثقافات أخرى.

ثالثاً: الفجوة والجفوة لا تصنع السلام:

المقارنة بين الظواهر الثقافية فى بلدان وحقب مختلفة تعين على الفهم لا على إقامة تفاضل قيمى. ولنا أن نتصور تاريخ الأفكار فى العالم العربى كما فى غيره على نحو يكون فيه بمقدور الآخر أن يساعدنا على فهم أنفسنا، وفهم العالم الذى نعيش فيه. وإن لقاء الحضارات يتيح فى تاريخ الثقافات لحظات من الأريحية الفكرية، وهو ما تقوم شاهدًا له النزعة الإنسانية العربية فى عهدها الذهبى، والحديث عن التأثير فى هذا المجال لا يعنى حطًا من القيمة، ونحن نتحدث عن تاريخ الأفكار عن الجذور والمنابع والرواد التماسًا لضرب من القرابة بين النماذج تربط الأفكار بعضها ببعض

عبر القرون. إنه بمستطاع الفكر اللسانى العربى على النحو الذى يبدو به من خلال التراث النحوى أن يعلّم المعاصرين شيئًا ما على شرط أن يؤخذ على أنه ثمرة فذة من ثمرات تفكير العرب وغير العرب فى اللغة، وألا يعتبر بمثابة الوصف الوحيد الممكن لتلك اللغة، أو بمثابة النحو المعيارى الأبدى، وبمستطاع اللسانيات الحديثة أن تمدّنا بمفاتيح لقراءة الكتب القديمة وعملية اقتراح قرابة بين أفكار القدامى ينبغى ألا تؤول على معنى الحط من الحداثة انتصارًا لتراث لا يمكن تجاوزه.

إن بين الأفكار علاقة حميمة مثلما هو الشأن بين الأشخاص أيضًا، من حيث هم ذوات بشرية يؤثرون فى ثقافة الآخر كما أنهم يؤثرون بالطبع فى ثقافتهم فإذا ما قدّر الفكر النقدى عند الآخرين فلأن المثقفين الأوروبيين يقدرونه فى ثقافتهم هم. والفرصة المتاحة لمن يدرس ثقافة الآخر تتمثل فى قدرته أن يبرز فى جلاء ذلك الفكر النقدى، يمارسه تجاه نفسه وتجاه الآخرين باسم قيم كونية متقاسمة بين جميع البشر.

إننى شخصيًا ابن ثقافة مصرية عربية إسلامية أعيش فى بدايات الألفية الثالثة، وعلى قدر ما أحيا أشعر بأن الصعوبة الحقيقية بالنسبة إلينا تتمثل فى استيعاب الفوارق وإدراك الآخر مختلف عنا والتسليم بذلك. إن تجربة الاختلاف تلك التى ينبغى أن يعيشها من يدرس ثقافة الآخر باعتباره ترجمان الثقافات بشكل دائم وفى عمق شخصيته عليه يستخرج العبر والتعالى على صدام الثقافات وبالتالى صدام الأديان، وعليه أن يقول "لا" للإحساس بالذنب و"لا" للمفاهيم الجامدة المحنطة المثقلة. إن ثمة أعمالاً تنتظرنا، أودّ شخصيًا أن أهتم بالعالم الغربى والأمريكى وبوجه أشمل بالعالم المتقدم، حتى حين لا تطرح بشكل حاد مسألة علاقتنا به نفلح فى التخلص من فكرة الآخر الإبليس والآخر العدو والآخر المتوحش. علينا أن نهتم بالآخر وبمعرفة العالم الغربى والأمريكى معرفة مطردة التحسين وعقلنة التاريخى والتخلى عن الذكريات المؤلمة والنظر إلى الغد المأمول، وأن نتحسن فى

معرفة الآخر معرفة أفضل فأفضل وأرشد وأعقل، من أجل أن نحيا معًا فى عالم آمن مستقر بلا حروب فيه خيرنا أجمعين.

إن الفجوة والجفوة من الآخر لا تصنع السلام، بل إنه ينشأ عنها الجهل بالآخر، وبودنا أن نشهد ترجمة المؤلفات الكبرى فى الثقافة الأوربية، وأن ينشأ البحث الموضوعى المتبصر النزيه فى تلك الثقافة، وأن تنشر نتائج ذلك البحث عبر وسائل النشر الجماهيرى، وبودنا أن يعرف معرفة أفضل ما نبذل من جهد للتعرف بالثقافة العربية لأوروبا وأن يقدّر بما هو أهل له. وإنه يوجد اليوم كتّاب كثيرون يقدمون مجموعات وثائقية وطبعات لنصوص كلاسيكية ومعاجم وكتب فى التاريخ والأدب واللسانيات والعلم وتاريخ العلم ودوائر المعارف وغيرها، غير أن هؤلاء جميعًا ليسوا هم الذين يمكنهم التأثير فى الرأى العام وليسوا هم الذين يحتجون على ما يشاع عن الأسلوب الكارثى كثير التداول، أو أن يتدبروا مستقبلنا المشترك الذى يجمعنا غدًا. لابد من مهاجمة المفاهيم السلبية التى يغلب عليها الجهل والتنميط وما يبديه البعض من سوء إضمار عندما يتعلق الأمر بالحديث أو الكتابة حول العرب أو المسلمين، لابد من إنجاز الكثير أيضًا من أجل معرفة أفضل بالثقافة العربية والإسلامية. ويبدو لى أن الاتصال المباشر أفضل السبل للعمل معًا لما فيه خير الجميع ولتحقيق فائدة تفاهم أفضل بين شعوبنا أجمعين.

إن علينا تجسير الفجوة للقضاء على الاستقطاب الثنائى الذى لن ينتهى بين أغنياء وفقراء، ومن يملكون ومن لا يملكون، ومن هم متقدمون ومن هم متخلفون، بل بين الشمال والجنوب، بين الشرعية الجديدة والمعارضة العنيفة اللاشرعية والإرهاب. إن السؤال المهم هنا لإزالة الجفوة الفجوة هو: إلى أى مدى يمكن اعتبار العنف مشروعًا؟ ذلك سؤال مهم حيث إننا نتحدث عن الحاجة إلى السلام وإلى تسوية جميع المشكلات بالطريقة السياسية والسلمية ونقول بضرورة استبعاد العنف استبعادًا كليًا. ومعنى ذلك ضمنًا أن كل عنف هو شكل من أشكال

الإرهاب. وفى ذلك ضيم كبير بالنسبة إلى الشعوب التى ترزح تحت نير الاحتلال. وما كان يمر بخلد شعوب أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية أن تتخلى عن العنف الموجه ضد الاحتلال النازى، وما كان القوم يميزون فى مثل تلك الظروف بين العنف والإرهاب. وقد أقرّ ميثاق الأمم المتحدة حق كل شعب فى مقاومة الاحتلال بكل الوسائل المتاحة له بما فى ذلك النضال المسلح. ولكن الجهة التى وجه إليها النضال المسلح فى حروب التحرير الوطنى غداة الحرب العالمية الثانية هى الدول الأوروبية التى خرجت منتصرة من تلك الحروب، وهى التى كانت تصف عنف الحرب ضد الاستعمار بأنه إرهاب لاسيما فى الجزائر. وقد أصبحت الحدود الفاصلة بين العنف المشروع والعنف اللامشروع أكثر غموضًا مع إقرار شرعية التدخل لأسباب إنسانية ضد دول تصفها الإدارة الأمريكية بأنها سوقية، وثمة ها هنا مسائل غامضة لا يمكن التساهل معها رغبة فى إحلال سلام قائم على العدل الدولى.

إن المشكلة تصير معضلة أو أكثر تعقيدًا عندما يجرى النضال لا فى ظروف تدعو إلى الأمل وتعد بالتحرر، بل فى ظروف يأس وإحباط. وهنا تطرح مسألتان تحتاجان إلى توضيح، تتعلق الأولى بالحكم فى ما يلحق الضحايا المدنيين الأبرياء جراء أعمال العنف، والثانية بالحكم فى شأن العمليات التى ينتحر فيها القائمون بها. وسواء تعلق الأمر بأعمال انتحارية أو بأعمال غير مشروعة تضر بالأبرياء، فإن تلك الأعمال دالة على أن الموت غلب الحياة خلافًا لما جرى عليه المنطق الذى ساد زمن الحرب الباردة أى زمن الاستقطاب الثنائى، حيث كان الأمر يقضى بالأخذ بمبدأ أخف الأضرار كنمط حياة يلزم الواجب بالتعود عليه. أما اليوم فإن أخف الأضرار أصبح الموت، وهو ما يعنى حصول الاقتناع بأن الحياة التى أكره المرء على أن يعيشها أسوأ من الموت ذاته. وللخروج من ذلك المأزق حمل الآخرون المصير نفسه الذى نتحمله نحن أنفسنا ولو كانوا هم أيضًا ضحايا أبرياء. إن البعض يعتبر التضحية أمرًا يُتحمل فى سكينة إذ هى عندهم مدخل إلى الشهادة وإلى الجنة،

وهاهنا يتدخل بُعد دينى يحوّل اليأس الناجم من واقع دنيوى إلى وعد بتعويض أخروى. ومنطق اليأس يقتضى الالتجاء إلى الدين، أو غيره، فيجد نفسه وحيدًا خلافًا لما يكون عليه المؤمن. وهكذا ينبنى نظام الاستقطاب من جديد انطلاقًا من مرجعيات دينية. هل لنا أن نستنتج من ذلك أن الحل الإنسانى فى يد الأقوى المسيطر المحتل؟ لا ريب أن الأمر يتعلق بأعمال ينبغى إدانتها، ومدارسة هل الموت المحقق للقيام بتلك الأعمال يجعلها أعمالاً أقل شناعة؟ إن المسئولية عنها لا تلزم القيام بها وحدهما بل كذلك المحرضين عليها، ولابد من توزيع عادل للمسئوليات حتى يمكن الخروج من المأزق الحالى، وحتى يكون النصر النهائى للحياة وليس للموت.

هل يحق لنا أخلاقيًا، وهل يصح علميا أن نتناول الدين باعتباره عامل وفاق بين الشعوب، ومكونًا ضروريا من مكونات عملية إرساء أسس السلام رغم ما هو شائع من أن الدين عامل تقسيم وعدم تسامح وظلامية؟ إن الدين فى تعاليه المحض وفى كنهه الروحى مولد سلام وحمال إنسانية، ولكنه إذا ربط بالقوميات، وارتبط بالسياسة فإنه يصبح خطرًا لا إنسانيًا، وبالتالى فإن السياسى هو الآثم وليس الدينى، ذلك أنه يمتلك نزعة كونية مادية لا إنسانية، وهو صاحب فلسفة تتصور العالم بلا إله، وأنه عالم خائب الرجاء. إن أسس السلم ترتبط بعوامل متعددة معقدة، فهى ترتبط بالتوازن العالمى وبعلاقات القوة بين الأمم والعلاقات الجغرافية السياسية والجغرافية الاستراتيجية وبالمصالح الاقتصادية التى هى مصالح متناقضة، وفى خضم هذه المعايير يعتبر الدين كمًا زهيدًا دوره أخلاقى وتربوى يهيئ لانبجاس ثقافة سلام أساسها التسامح واحترام الآخر.

إن حوار الأديان يمكن أن يكتسى أهمية بالغة شريطة أن يتجدد ذلك الحوار للخروج من حظيرة المؤسسات الدينية إلى الحياة ، وأن يُدرج تدريسه مقارنة بغيره من اكتشاف مساحات التلاقى والوفاق والقيم والأخلاقيات بما يشكل خطوة حاسمة والحوار بين الأديان، وفى انبجاس ثقافة السلام شريطة أن يكون تناوله

علميا لا دعويًا. إن الاهتمام بمعرفة المسيحية واليهودية غائب تمامًا فى الفكر العربى الإسلامى، وهو بمثابة الأرض المجهولة لأسباب تتصل فى ذات الوقت برواسب ثقافية مؤداها أن الدين الإسلامى والثقافية العربية والحضارة العربية الإسلامية مكتفية بذاتها لأنها تتمثل قمة الأشياء والحقيقة المطلقة. كما تتصل بحكم مسبق يتمثل فى التساؤل عن جدوى فهم أديان ليست على صواب، ولماذا بذل الجهد لتوسيع الأفق وما فائدة صرف الجهد فى ما لا نفع فيه، ولم البحث عن الحقيقة وهو يعتقد أنه يمتلكها؟ إنه لابد من اهتمام المسلمين بدرس المسيحية واليهودية من منابعها وتاريخها وواقعها المعين درسًا موضوعيًا. ولابد أيضًا من قيام المسيحية واليهودية بمدارسة الإسلام بالأسلوب ذاته، فقد ينتهى عصر التناقضات الخصامية ويبدأ عصر الحوار الإنسانى المتكافئ القائم على حلقة ملأى بالمعرفة المتبادلة واجتثاث العنصرية المناهضة للإسلام والمسيحية واليهودية على السواء، وحتى يعمّر القلوب سلم حقيقى على أساس أخوة إبراهيمية أصيلة.

ولما كانت الحروب تتولد فى عقول البشر، ففى عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام، لابد من اجتثاث عوامل الصراع ونغرس بالمقابل سلامًا عادلاً يعيننا على الوفاء بمتطلبات التقدم من أجل الرخاء. إن ثقافة السلام فى عالمنا العربى تعيش بين النهج الخطأ والواقع والمحيط، ذلك أن المعوقات التى واجهتنا فى نشر ثقافة السلام لم تكن راجعة إلى بنية ثقافة عربية ترفض الآخر وتحبذ الصراع معه، إن الثقافة العربية وإن تضمنت من القيم ما يحض على القتال دفاعًا عن ظلم وقع إلا أنها فى الوقت نفسه لا تسعى إلى قتال ما لم يقع مثل هذا الظلم فضلاً عن أنها تجنح إلا السلام. إن النزوع الأصيل نحو السلام ونحو التسامح فى الثقافة العربية هو الذى جعل الشعوب العربية تتعامل مع من استعمرها على نحو طبيعى يكشف عن درجة عالية من التسامح مع الماضى وذكرياته الأليمة، والماضى لا يمثل عقبة على طريق الحوار مع الآخر خاصة إذا أبدى الآخر تفهمًا واضحًا للمصالح والحقوق العربية.

إنه لابد من تأكيد العلاقة بين ما هو ثقافى وما هو سياسى، أى علاقة القيم السياسية بالواقع، ومن ثمّ بالنهج الممكن اتباعه لغرس وبلورة منظومة ثقافية تنطوى على قيم جديدة هى قيم السلام والتسامح، وذلك أن القيم لا يمكن أن تستقر ما لم تكن تعبيرًا عن تفاعلات تجرى على أرض الواقع أن جهود غرس هذه القيم وتعزيزها يمكن أن تساهم فى تطوير الواقع إلى الأفضل، لكن هذا الإنجاز لا يبقى مستندًا إلى الأساس الثقافى وحدة بعيدًا عن التفاعلات الواقعية. إن القيم تعهدات يلتزم الناس باحترامها، وهى ليست محل مساومة أو تأويلات وتفسيرات حسب مصلحة كل طرف. ومن هنا عانت جهود نشر ثقافة السلام فى وطننا العربى من فجوة مصداقية خطيرة على ضوء السياسات الامبريالية الفعلية.

إن المناخ الذى نعيشه يكشف على نحو صارخ التماهى بين السياستين الأمريكية والإسرائيلية، حيث تشيع مشاعر الظلم والإحباط فى الأوساط العربية، وهى مشاعر لا يمكن أن تمثل بيئة مواتية للعمل من أجل نشر ثقافة السلام، بل هى تفضى إلى مناخ التشدد إن لم يكن التطرف مناخًا تزدهر فيه ثقافة الاستشهاد دفاعًا عن الحقوق المشروعة، طالما أن النظام العالمى ومعايير الشرعية الدولية غير قادرة، مناخ تنشأ فيه أجيال جديدة من الأطفال على مفردات الصراع، وتعود أجيال الشباب إلى المفردات ذاتها بعد أن كانت قد حلمت يومًا بسلام عادل، ومناخ تستنفر فيه كل قوى الدفاع عن الذات وعن القيم فى وجه ما يبدو على أنه محاولة للإملاء من مركز النظام العالمى الراهن على أجهزة الإعلام ونظم التعليم وأدوار الريادة فى الوطن العربى. إن هذه أمور تدعونا إلى التأمل فى نهج معيب يجرى على أرض، كلها تطورات معاكسة لجهود السلام مدمرة لها، إنها دعوة إلى ترشيد هذه الجهود وحسن توجيهات الوجهة السليمة. إنه لا يمكن لجهود نشر ثقافة السلام أن تنجح مالم ترتبط بالحدّ الأدنى من السعى إلى تأسيس سلام قائم على العدل.

إن الثقافة والسلام والديمقراطية ثمرة الحوار بين الثقافات. ومن شأن التعقد والتباين أن يجعلا التعاون الثقافى مسألة حساسة، فالثقافات مطبوعة بطابع الأديان. لقد كان الكثير يؤمنون بأن فى الإدارة الطيبة وتعدد اللقاءات بين الغرب والشرق ما يمكن من السيطرة على الفوارق، غير أن أحداث سبتمبر وردة فعل أمريكا والغرب كانت دليلاً على انعدام التفاهم المتبادل. إن الهم العاجل يتمثل فى تحسين الفهم، فثقافة السلام تقوم على أساس من الحوار بين الثقافات، والإعداد لحوار حقيقى بين الثقافات يتطلب أول ما يتطلب تحسين التفاهم والواجب أن توجد مدونة أخلاقية للتعايش الاجتماعى يبدأ منها الحوار وتقوية التفاهم المتبادل والتسامح. إن العالم يحتاج إلى عولمة التفاهم والتضامن والشرق والغرب يحتاجان إلى توسيط التفاهم والتضامن، وكما أن العالم لا نجاة له إلا بعون من دين الأخوة الإنسانية فلا نجاة كذلك للشرق والغرب إلا بعون من دين أخوة.

إن التنمية متهيئة للجميع ولكن مفاتيحها لا تمتلكها إلا قلة، كما أن الابتكارات تثيرنا وتقلقنا، ذلك أن الذين يدفعون بها يقودون العالم، ولكنهم لا يقودون بالضرورة سلام الشعوب، وما يتاح اليوم من وسائل يحرر الوضع البشرى نظريًا ولكن يمكن تحويل وجهته لتدميره. إن شعبنا لا يعى ذاته ولا يتحقق كيانه إلا فى إطار الحضارة التى نشأ فيها. فهل تفلت من وطأة التقاليد الثقافية عملية إنشاء حياة مدنية يكون فيها احترام الذات البشرية الضامن للحرية الفردية؟ واعتبارًا إلى أن مهاجمة التقاليد يولد التمرد. كان أخذها فى الاعتبار بداهة يوجب تنمية النزعة الإنسانية التى تستبطنها كل حضارة. وهل يمكن البحث عن مسلك ديمقراطى أن يزيل كل أشكال الغلو إذا ما تجاهل روح المجتمع المعنى بذلك البحث؟ إن العناية بالعدل والانقطاع للصالح العام الكونى يجب أن يقودا عمل الدول فى مجال العلاقات الدولية إن أوربا وأمريكا يجب عليهم خدمة للسلم أن يوفقا إلى التحدث بصوت واحد وبشكل مستقل فيما يتصل بالسياسية الخارجية فى الشرق الأوسط.

إن العلاقات الدولية تأسس على الحوار ورفض الحلول بالقوة والسعى إلى المصلحة المشتركة. إن الواسطة الجهوية التى تسمح بتوجيه العولمة معهود إليها أن تساهم فى السيطرة على توقى الصراعات على الأمدّ البعيد. إن الحوار ليس ممكنا فحسب، بل يجب أن يكون من العناصر الأساسية لنزع فتيلة التوترات المتعددة الأسباب التى تستعملها بعض المجموعات للاتجاه إلى العنف الإرهابى. إن التحدى المتمثل فى العيش معا يجب أن يتم فى مجتمع دنيوى وتعددى بشكل كبير، وإن تضمين جراح الذاكرة يمكن من الالتزام بالعدل والسلم للجميع، كذلك تنمية قيم مشتركة تمكن من المساهمة النشطة فى بناء مجتمع أفضل.

إن الحفاظ على التراث الثقافى الإنسانى ذو أثر مهم لا فى الحفاظ على الهوية الثقافية بل كذلك فى دعم اللحمة الاجتماعية. إنه ينبغى إبراز الدور الذى يلعبه التراث الثقافى لفائدة النمو والحوار بين مختلف الثقافات والحضارات. إن أهمية ارتباط الحوار بالتراث لازمة، إن الشعب الذى يعى التأثيرات العديدة التى صنعت تاريخه يكون أقدر على بناء علاقات سليمة مع الآخر، وبالتالى فبدل أن يكون التراث هدفًا للاعتداء بحكم قيمته الهوية فإن الواجب فيه يقتضى بأن يصبح رمزًا لإرث تعددى ولمستقبل مشترك وعندما نتعلم تقدير تراثنا نحن وإبراز مكانة يمكن لنا أن نعرف تراث الثقافة الأخرى وأن نقدره، وتلك مرحلة أساسية لتأمين حوار مثمر وتفاهم مشترك.

إن حفظ التنوع الثقافى لا يقتصر على العناية بالممتلكات المادية أو التركيز على معالم الماضى وبناءاتها وحدها، لذلك فإن صيانة التراث الثقافى تحت البحار قد سمحت بتدارك ثغرة مهمة فى مجال تطبيق الآليات المعمارية العالية المتصلة بالتراث المادى، ويمثل توقيع تلك الدول على الاتفاقات ودعمها لها جزءًا أصيلاً من الحوار بين الثقافات واعترافا بقيمة التراث الثقافى العالمى بجميع أشكاله. وعلينا أيضًا أن

نعمل بسرعة على حفظ تراثنا الثقافى اللامادى هو مصهر للإبداع والعنصر المحرك للثقافات الحية وبالتالى للحوار بين الثقافات.

إن الحوار بين الحضارات والثقافات يطرح على العالم المعاصر تحديات كثيرة، فكل ثقافة إنما تنشأ عن المزج والتلاقى والصدام وهى تغنى على العكس من ذلك بحكم الانعزال، وبالتالى فإن كل ثقافة هى نتاج الكثير وثمرة التأثيرات عن طريق الانتشار أو بالتبادل. إنه ليس الحوار الحضارى والثقافات مجرد أمنية، وإنما هو واقع تاريخى على كل واحد منا أن يعيه، فليس ثمة ثقافة لم تثر بالاتصال والتفاعل والتبادل مع الثقافات الأخرى، لذلك أمكن القول بإن كل حضارة إنما هى فى العمق تفاعل ثقافات، وعليه نقدر أنه من الجوهرى أن يدمج فى البرامج المدرسية ولا سيما برامج التاريخ والجغرافيا هذا العنصر الأساسى فى إنشاء ثقافة السلام، ولذلك كان الحوار عملية ديناميكية فى تطوير دائم إذا كان خاصية التعدد التى تطبع مجتمعاتنا هى خاصية فعلية. إن الحوار بين الثقافات عنصر حيوى لتنمية السلم فى العالم، وإن لغة الحوار بين الثقافات قد أثرت إثراءً حاسمًا وذلك بالرجوع إلى التراث الثقافى العالمى الذى هو حق لا يقبل مصادرة من حقوق كل منا مهما كان موطنه، وحماية التراث الثقافى لا ينفصل لا عن حماية التنوع الثقافى للإنسانية ولا عن الحوار، فهما عمليتان توفران فى تضافرهما أفقًا للحوار والتسامح والتفاهم والقيم المشتركة، وفى ذلك أفضل ضمان للسلم ولثقافة السلم.

إن الاختلاف مصدر إثراء متبادل، وهو ما يتناقص مع من يستغلون المناخ الحاصل من جراء أحداث إرهابية ندينها بشدة، وحيث حاولوا استدعاء نظرية صراع الحضارات لإسقاطها على علاقات الغرب وأمريكا والعرب والمسلمين من خلال الحديث عن التفوق الحضارى، كما أن البعض خلط وحدث لديه تعميم واختزال للصور النمطية وهجوم يقيم جدران ثقافية بين الغرب والآخر العربى والمسلم بعد سقوط جدران خط بارلين بهدف تشويه قضايا تحرير وطنية لها

دينامياتها وخصوصياتها مثل قضايا فلسطين والعراق وأفغانستان وجنوب السودان والصومال من خلال التعامل معها عبر منظور مكافحة الإرهاب، فى حين أن المقاومة الوطنية ضد الاحتلال حق وواجب مشروع مطلق . إن نظرية صراع الحضارات التى جىء بها من طى النسيان بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر لا تستند إلى أى قاعدة علمية أو موضوعية، وهى فوق ذلك تعانى من قصور مفاهيمى فاضح.

إن الحضارات والثقافات ليست أطرافًا فاعلة فى النظام العالمى بل إن الدول والمنظمات والأفراد هم الأطراف الفاعلة، وهم حسب منظومة القيم التى يعتقدونها ويتصارعون ويتعايشون مع الآخر. لكن بعض الأطراف التى تريد أن تصادر حق التحدث باسم فضاءات ثقافية معينة تدعو للاصطدام مع الآخر من خلال سياسات الإقصاء والتهميش وعدم احترام الآخر مما يؤدى إلى صدام الجهالات أو حوار نفى الآخر.

إن إنجاح الحوار الثقافى يتطلب القبول بشرعية الاختلاف مع الآخر فالاختلاف ليس حتماً مصدر نزاع وتوتر، بل إذا ما أحسنت إدارته قد يكون مصدر إثراء متبادل، والاختلاف الثقافى لا يعنى بالضرورة الخلاف السياسى، كما أن الاهتمام بتغيير الآخر والتأثير فيه من خلال الحوار يفترض أيضاً بالتأثر الآخر، وبالتالى بحصول تغيير ذاتى فى كثير من المفاهيم والقيم المترسخة، كما أن المطلوب التنبه لعدم الوقوع فى فخ التثاقف، فالحوار الثقافى ليس حواراً حول الثقافة فحسب، بل يجب أن يشمل القضايا الأخرى مصدر التوتر فى العلاقات بين أطراف فى فضاءات ثقافية مختلفة من قضايا اقتصادية واجتماعية وسياسية وغيرها قد يعبر عنها فى أوقات أو فى حالات معينة بأشكال ثقافية. أضف إلى ذلك أن المطلوب دمقرطة الحوار الثقافى، أى إشراك أوسع القطاعات فى المجتمع المدنى فى هذا الحوار حتى لا يبقى على المستوى الرسمى أو النخبوى وذلك لإعطائه شرعية مجتمعية ضرورية لترسيخه وتأكيده.

إن الزمكانية التاريخ والجغرافية قد طبعا العلاقات العربية الأوروبية بخصوصيات عديدة، فهناك إرث غنى شكل ذاكرة جماعية فيها الإيجابى وفيها السلبى عند كل طرف من الطرفين، وحذار من السقوط فى انتقائية تقوم على حتمية متشائمة أو أخرى متفائلة. إنه إذا أردنا أن نعزز هذه العلاقات ونرسيها على قواعد ثابتة مستقرة توجب علينا أن نكون صريحين مع الذات صريحين مع الآخر، وتوجب علينا كذلك أن نستفيد من دروس الماضى البعيد والقريب على حدّ سواء لنتعاطى بعقلية انفتاح، وروح تعاون، ومنطق شراكة مع قضايا الحاضر والمستقبل من هواجس وتحديات وهموم واهتمامات تحمل عناوين عديدة جديدة ومتجددة، ولكنها مترابطة متداخلة بين ضفتى البحر الأبيض المتوسط. فبقدر ما يكون حوارنا الذى نرجو له أن يتحول إلى تقليد دورى عبر تأسيس منتدى عربى أوروبى للحوار – متعدداً فى أطرافه، متنوعاً فى مواضيعه، متميزاً فى أفكاره، غنياً فى أجندته، وشاملاً فى مقترحاته – فإننا ننجح فى ما نصبو إليه جميعاً، وهو ترسيخ وتدعيم علاقات التفاهم والتعاون العربية الأوروبية لما فيه مصلحة الشعوب والدول.

إن المشاكل الثقافية من جهة والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من جهة أخرى، هى فى الحقيقة مشاكل شديدة الارتباط بعضها بالبعض الآخر متزاحمة متزايدة التلاحم حتى إن إغفال ذلك يفضى إلى انعدام الجدوى فى تناولها. إن أوروبا والعالم العربى معنيان على السواء بالعولمة، إنهما معنيان بها، بل قل إنها تدفعها بقوة باعتبار أن المسار الحالى يضع أيضاً قيم كل منهما ومشاريعه التطويرية موضع تساؤل، فهما معنيان مدفوعان ويواجهان تحدياً غاية فى الأهمية بل إنه يرتبط بالمستقبل. العولمة ظاهرة الوصل بين مختلف أنحاء العالم، وذلك بفضل ما طرأ على فكرتى المكان والزمان من تغيير، ذلك أن وسائل الاتصال الحديثة، وتراجع تكاليف النقل قد محت المسافات بالفعل، سواء تعلق الأمر بالتنقل أو بالاتصال، فهى تتيح تبادلاً معمماً بين مختلف أصقاع المعمورة، وتسمح بفتح الحدود والأسواق

الأمر الذى جعل العالم العربى وأوربا يجدان أنفسهما بحكم العولمة يواجهان تحديات واحدة. فلأوروبا والعالم العربى مصالح مشتركة متزايدة منها الرد على العولمة، والتنمية الاقتصادية، والاستقرار السياسى، ومحاربة الإرهاب، والتحكم فى تدفق الهجرة، فهما مجموعتان على غاية الاختلاف وعليهما الاعتراف بالحوار والاعتماد المتبادل.

إن أوروبا ليست قادرة على أن تؤثر وحدها تأثيراً حاسماً فى أوضاع يتوقف عليها مستقبل شراكتها مع الواجهة الجنوبية لحوض البحر الأبيض المتوسط، والعالم العربى فى جملته، وبالتالى فإن إحدى العوائق الأساسية والقائمة فى وجه الشراكة العربية الأوروبية إنما هو تبعية أوروبا لوضع عالمى لا تتحكم فى الجزء الأوفر منه وعليها أن تعى ذلك، كما أن على أوروبا أن تعى أن الطريقة الوحيدة بوجه عام لمقاومة الإرهاب المحلى منه والعالمى، إنما هو حرمانه من التربة التى تنتعش منها، ذلك أن العرب والأوروبيين فى حاجة معاً ليبقى كل منهما وفيًّا لذاته. وهل لنا ألا نحس بإشارات القدر؟ فقد التأم شملنا أساساً حول هذا البحر المتوسط الذى توارثناه. وهذا البحر كان موضع مولد الحضارة وقمتها، وعلينا نحن أن نجعل منه موضعاً نتعلم فيه كيف نجعل العصور الجديدة فى خدمة الإنسان، وعلينا أن نعى الدرس من أن أنموذج ثقافى وحيد خطر جسيم على الجنس البشرى، وليس يمكن أن تكون الحضارة العالمية إلا ائتلافاً على المستوى العالمى لثقافات حفظت كل واحدة منها أصالتها.

إن الحوار ضرورة بقاء لأننا نعيش معاً فى عالم يلاقى الكثير من المصاعب وأشكال عدم التسامح وألوان العنف الرهيب المتفاقمة باستمرار، حتى تتحول أحياناً إلى بوادر ليس ضررها بأقل من فداحة مشهدها، وفى هذا تأكيد ضرورة الحوار فى عالم نحن جميعاً فيه عرضه لمعاودة الاصطدام بعوائق مفجعة إذا لم يفهم بعضنا البعض.

إن الحوار الذى ننشده يبدأ بحوار نقدى مع الذات يكون الآخر بضرب من الحضور الخفى – طرفاً فيه، ولو على جهة الشهادة. وعلى هذا النحو يتحول الآخر بفعل إرادتى إلى ما يشبه الحكم بينى وبين ذاتى. يبيّن لى الحدّ الذى عنده يحق لى أن أكون أنا بالذات دون أن أمس حدوده، جاعلاً من احترام تلك الحدود علامة أكيدة على تلاقٍ ممكن. وهو تلاقٍ ممكن وضرورى. ومن حسن الطالع أنها حدود كثيرة المنافذ لا تحول دون أن تخترقنى حقيقة هذا الآخر كلما أتيح لها ذلك، كما يطالب هو أيضاً أن يرضى بأن تخترقه حقيقتى أنا: إنه إذا ما كلفنا أنفسنا الجهد الذى لا مناص منه لمعرفة من هو الآخر وما هى آراؤه أمكن لنا أن نتماهى معه، وبالتالى لن نجد فى أنفسنا تلك العدوانية التى كان يمكن أن تجرنا إلى إقصائه.

إن التعارف يعبر عن المعرفة الفاعلة المتبادلة التى نسميها اليوم الحوار الثقافى أو النموذج الثقافى. إن الإله هو الذى أراد الاختلاف وأوجده وحضّ عليه، إذ بدونه لن يكون ثمة ما يدعو إلى السعى فى الاقتراب من الآخر، ولا إلى السعى فى استمالته نحو الذات وهى تقبل فى ذات الوقت عليه. إن ذلك السعى هو المطلب المركزى للتبادل بين الناس والتعارف بينهم تعارفاً لا يخلو من إعجاب، وهو ما يتحدد به تدقيقاً الحوار بين الثقافات والحضارات فى أحدث معانية وبأشكاله المتنوعة، وهذه العلاقات المتبادلة وهذا التعارف من شأنه أن يشدّ الانتباه شداً أقوى إلى ما فى هذا المشهد والموقف الثقافى من روعة الأصالة والحداثة.

السلام يتمحور حول الإنسان، فالإنسان يحمل كرامة طبيعية لا تمس، يسمو على كل تحقيق اجتماعى، وعليه فإن حماية حقوقه الأساسية وواجباته الملازمة لهذه الحقوق هى المحور الأساسى للخير العام، إما فى الدول منفردة، أو فى الجماعة البشرية العالمية. وهذه نظرية شخصانية حاسمة تناقض أى تيار فكرى آخر يجعل محور الخير العام خارج الإنسان الشخص، كالماركسية التى تجعله فى الطبقة، أو التيار القومى التى تجعله فى الأمة، أو العنصرية التى تجعله فى العرق، أو المكيافيلية

التى تجعله فى السلطة. لذا فإن الإسلام الحقيقى يرسخ على صخرة الاعتراف بحقوق الإنسان، واحترامها، وصونها، وتعزيزها. إن ميدان حقوق الإنسان يحتل مكانة مرموقة، ولا بد أن ينشغل كافة قيادات المجتمع المدنى والدينى والسياسى بتعزيز حقوق الإنسان.

فى الماضى كان السلام هو الطرف الأضعف، وكانت الحرب هى الطرف الأقوى، فى مثنى الحرب والسلام. وكان التفسير المهيمن هو أن السلام ليس سوى فاصلة بين حربين، ولم يكن هناك قوام للسلام فى حدّ ذاته. كان تحديد السلام ذاته رهنًا بتحديد ما هو ضده، أى الحرب. وكان العالم حتى ذلك الحين محكوماً بمعادلة قاهرة تقول: إذا أردت السلام هيئ السلام. مع رسالة السلام على الأرض، إن الحرب العادلة محور عملية السلام، لقد بات السلام نظاماً إلهياً مربع الأركان له قوامه الخاص، ومنطقه الخاص، ومساره الخاص، وغايته الخاصة، وثقافته الخاصة. إن الحرب النووية جعلت الحرب لا تصلح لاستعادة الحقوق المسلوبة، ولم تعد أهلاً لتصلح أداةً للعدالة، حيث إن الحرب والعدالة ما عادا يلتقيان تحت مظلة واحدة، لا حرب يمكن وصفها بالعدالة، ولا عدالة يمكن إدراكها بالحرب. إنه لفترة طويلة كان القانون الدولى قانونًا فى الحرب والسلام، والآن هو مدعو لأن يصبح أكثر فأكثر قانون السلام حصراً، وأن يتكون وفق مبدأى العدالة والتضامن. السلام صالح لضبط العلاقات الفردية كما العلاقات الدولية، ولا انفصام فيه بين المناقب الفردية والمناقب الاجتماعية، والعلاقات الأعم بين الدول كما العلاقات الأخص بين الأفراد، لذا نجد فيه إضافة إلى ضرورة حماية حقوق الإنسان الشخصية احتراماً مطلقاً لحقوق الأمم المستقلة ولحقوق الأقليات والمواطنين.

السلام منظومة أخلاقية فى جوهرها، فلا يقع أى نشاط إنسانى متصل بتحقيق السلام خارج مجال القيم الأخلاقية. وحيث إن السياسة أحد أهم هذه النشاطات فمن الواجب أن تخضع بدورها للأحكام الأخلاقية، وهو ما ينسحب على السياسية

الدولية، وهو ما يدحض بشكل نهائى النظرية القائلة بأن السياسة الدولية تقع فى نوع من منطقة حرة لا سلطة فيها للناموس الأخلاقى.

إن السؤال الكبير المطروح على الأديان فى إطار ذلك هو كيف للأديان أن تسهم فى تهيئة السلام؟ وكيف لها أن تعمل على السلام؟ وكيف لها أن تصون السلام وفق مبادئ الحقيقة والعدالة والمحبة والحرية؟ تلك هى التحديات الكبرى التى يتعين على الأديان أن تتصدى لها فى ظل نظام سياسى وحقوقى راهن ما زال يتملص من موجبات احترام حقوق الإنسان الشخصى، وحقوق الأوطان المستقلة، وحقوق الأقليات الدينية. إن ذلك يتوجب الصلاة من أجل السلام، وأن يبدى رؤساء جميع الأديان العالمية وممثلوها تصميمهم الشديد على التصدى للمسألة المتفجرة المتعلقة بتنامى العنف والحقد على الكرة الأرضية باسم الدين. إن من المبادئ الطليعية يأتى فى مقدمتها نبذ كل لجوء إلى العنف والحرب باسم الله أو الدين، ويعلن تعهد أبناء الأديان بذلك غاية وسعهم لاجتثاث الجذور التى تسبب الإرهاب، وضرورة تربية الأفراد المنتمين إلى جماعات مختلفة فى الثقافة والدين على الاحترام والتقدير المتبادلين وصولاً إلى التعايش الأخوى فيما بينهم، ثم التزام الأديان بتعزيز ثقافة الحوار بين الأفراد والشعوب كمقدمة لإرساء السلام الأصيل، واستعداد الأديان للدفاع عن حق كل إنسان فى عيش حياة لائقة بها يتوافق مع هويته الثقافية، وفى تأسيس أسرته الخاصة بحرية، وترفض الأديان أن ترى فى فوارقها عقبة يستحيل تخطيها فتقر على العكس بأن اللقاء بالآخر المختلف يمكن أن يؤدى إلى ازدياد فى التفاهم المتبادل، وفوق ذلك كله يتوجب التأكيد بوضوح الالتزام بين جميع الأديان بأن يصفح بعضنا لبعض عن الأخطاء والإجحافات الماضية والحاضرة، وبأن يدعم بعضنا بعضاً فى جهد مشترك من أجل تخطى الأنانية والعنجهية والحقد والعنف، ومن أجل الاتعاظ من الماضى بأن سلاماً بلا عدالة ليس سلاماً حقيقياً. وتلك أول مرة فى التاريخ تتبادل فيها الأديان أول فعل تطهير لذاكرتها، وإقراراً متبادلاً بالذنب، والتماساً

متبادلاً للمغفرة، ناهيك عن التزام من الأديان بأن تنصر الفقراء والمستضعفين، وتكون صوتًا من الأصوت لهم، وتعمل فعلاً على تغيير أوضاعهم. كما تتعهد الأديان بأن تجسد صراخ من يرفضون الاستسلام للعنف والشر، فتكون آية رجاء حقيقى لمعاصريها بإمكانية قيام العدالة والسلام. وتلتزم الأديان بتشجيع كل الجهود الرامية إلى تعزيز الصداقة بين الشعوب، لأن انعدام التضامن والتفاهم بين الشعوب فى ظل التطور التكنولوجى سيعرض العالم بازدياد لخطر الدمار والفناء، وأخيراً فإنه يتوجب أن تلتزم الأديان حض حكام الدول على بذل كل وسع من أجل قيام عالم من التضامن والسلام المؤسس على العدالة على الصعيدين الوطنى والدولى. إنه مما لا شك فيه أن هذه المبادئ هى الطريق السوى للأديان نحو بناء السلام الحقيقى، ومصدر إلهام رائع لكل مسئول دينى ولكل من يعتنق دينه بأمانة، وإن روح السلام وعهده يقود جميع البشر ذوى الإرادة الصالحة إلى نشدان الحقيقة والعدالة والحرية والمحبة، فينعم كل إنسان بحقوقه المكفولة له وكل شعب بالسلام.

إن بُنى السلام وإجراءات السلام، القانونية والسياسية والاقتصادية، ليست سوى حصيلة الحكمة والخبرة المتراكمة عبر التاريخ من جراء لفتات سلام لا تحصى، أداها رجال ونساء لم يفقدوا الأمل ولا استسلموا للإحباط، وهذه اللافتات إلى السلام هى التى تخلق تراث سلام وثقافة سلام، وهى التى تجعل من أصحابها الذين ربوا فى ذواتهم مسلك سلام دائم صناعاً للسلام، وتلك بإدارات تستجلب عليها امتنان الأرض وبركات السماء.

إن أمام الأديان جملة من المهام المصيرية أولها وأهمها هو أن تربى أهل الأرض، لا سيما الأجيال الجديدة، على مبادئ السلام الأربعة: أن تربيهم على أن السلام هو أكثر بكثير من عدم النزاع، وأن تربيهم على أن السلام هو عملية بناء طويلة دؤوبة ترمى إلى إحقاق العدالة للأفراد والتنمية للشعوب بروح التضامن والمحبة وفى مناخ الحرية خدمة للحقيقة. ومهمة الأديان الثانية هى أن تذكر حكام الدول بأن إحقاق

السلام فى الواقع السياسى للأوطان يفترض احترام حقوق الأفراد الأشخاص وحقوق الجماعات فى آن واحد. ولا يستقيم السلام إلا بتعزيز الاثنين معاً. وهذا يعنى أيضاً أن تنبرى الأديان للدفاع عن هذه الحقوق ولإدانة منتهكيها كائناً من كانوا فهى المؤتمنة فى النهاية على حقوق الأفراد والجماعات، لأن هذه الحقوق بمثابة الطرف الآخر لحقوق الله تعالى. والمهمة الثالثة أمام الأديان هى تذكير الأسرة الدولية بأن السلام كلّ لا يتجزأ، أى أن ثمراته تقع على الكل أو لا تقع على أحد، وهذا ما يتطلب على نحو متزايد الاحترام الصارم للموجبات الأخلاقية فى العلاقات الدولية والقانون الدولى، وتوزيعاً منصفاً لثمار التنمية الحقيقية بين الشعوب الغنية والشعوب النامية الفقيرة. إن مهمة الأديان يجب أن تتخطى التذكير. فالأعباء المتعاظمة التى تواجه الجماعة البشرية العالمية باتت من الاتساع والتعقد لا سيما فى مسألة حفظ السلام العالمى، بحيث إن جهود السلطات العامة فى الدول المنفردة لم تعد تكفى وحدها للنهوض بهذه الأعباء، حتى إذا ما تضافرت هذه الجهود فى الاتجاه نفسه. لذلك يحتاج العالم اليوم إلى سلطة عامة تتمتع بالصلاحيات المناسبة وتسهر على خير الأسرة الدولية العام. وعليه يتوجب مراجعة أسس النظام العالمى الذى قام بعد الحرب العالمية الثانية، حيث وضعت الدفة فى يد الدول الكبرى المنتصرة آنذاك لصالح قيام نظام دولى جديد اجتماعاً وسياسياً وحقوقياً، تتمتع فيه السلطة العليا التى تعلو الأمم دون أن تبتلعها، وتقوم على التوافق بين الدول لا على الفرض بالقوة والقدرة الفاعلة على توفير الأمن فى العالم وقضاء العدل بين الدول فى حال النزاع، والسهر على حقوق الأفراد والجماعات فيها. وإذا شاءت منظمة الأمم المتحدة أن تجسد هذه السلطة العليا المرجوة، فمن الواجب أن تعيد النظر جذرياً فى أنظمتها وبناها، وتكيف وسائل عملها مع سمو أهدافها واتساعها بحيث تتخطى أكثر فأكثر حالة المؤسسة الإدارية الباردة لتصبح نقطة المركز الأخلاقية فى العالم. أما المهمة الرابعة والأخيرة للأديان فهى أن تستعيد

السلام الحقيقى فيما بينها عبر التقدير المتبادل والمحبة الحقيقية والمغفرة السمحة والحوار المستمر والمثمر. إن أتباع الديانات إذ يمارسون بصدق ما هو خير فى تقاليدهم الدينية الخاصة ويتبعون إملاءات ضمائرهم هم لفى حالة استجابة أكيدة لدعوة الله. إن موقف الدين من الديانات الأخرى يسوده الاحترام الصادق والتعاطف العميق والتعاون الودود حيثما يكون ذلك ممكناً ومواتيًا. إنه إذا أسرت الديانات بعضها إلى بعض هذه المشاعر الصافية فستكون قادرة على أن تقدم للعالم اليوم عبر تناغمها ضمن تنوعها نموذجاً حياً لحضارة المحبة، وأن ينعم جميع الناس وجميع الشعوب بالسلام الأصيل والدائم.

رابعاً: من نيران الثروات إلى ثروة السلام:

إن التعصب يتربص بمن انغلق على نفسه داخل ثقافته وحدها. إن المرء ينبغى أن يكون خلاقاً ليكون قادراً على تحقيق ذاته، فقد مكننا الجنى والصيد من تعلم إنسانيتنا فأصبح القمح والملح منذ ذلك العصر غذاءنا الأول، والإبداع حتى الفردى منه ينتج عن فعل وفكر جماعيين، فهو يستدعى الثقافة استدعاءً مباشراً فى صلب قيمة الهوية وبواسطتها، وفى صلب ما فيه من التجديد وبواسطته، وفى صلب ما يبتكر وبواسطته، وليس ثمة فى غياب الابتكار إلا الوهن وانحباس الوجود. ولكن فى أى مستوى يكون الابتكار واستخدام المعارف الجديدة؟ والثقافة نتاج عصر الفلاحة ولجميع تقنيات الإنتاج والاتصال، وهى إمكان أن نأكل كل يوم ونحن نعمل لحسابنا مع الآخرين. إن القنابل والتفجيرات لا تمثل حلولاً، بل هى الحقد والعنف، ونفى هذا وذاك نفياً قاتلاً. وهل تتيح الإلكترونيات والإعلاميات لجميع البشر أن يسهموا فى الابتكار؟ أم إنها تيسر السحق بالقوة والعدد؟ إنهما إمكانيتان قائمتان فإما الهول وإما النجاة، وإما الدماء الجارية، وإما فضائل العقل. وهل يمكن أن يتيح لنا الممكن والآتى أملاً فى أن يعترف بعضنا ببعض فى نطاق

احترام قيمنا المتبادلة؟ إن من مهام أصحاب الإرادة الخيرة أن يعودوا إلى سبل الإنسانية بتوسط القدرات الحالية على الابتكار الخلاّق. إن مثل التربية والتضامن الاجتماعى والتنظيم الاقتصادى تدعونا دائماً إلى العمل من أجل خير الجميع شريطة أن نحترم التطور الذاتى لكل ثقافة، وأن نتيح أسباب ازدهار كفاءات كل شخص.

إننى أنهض بوجود الآخر كى أكون موجوداً، وأنتمى إلى حضارة العفو والتسامح والمساواة، كما أن المسيحية وهى ديانة الأخ وليس الآخر حضارة أيضاً، يتماهى فيها العفو عن الإساءة بالقدرة على الخلاص. وفى كليهما عظمة الصلاة الجماعية والصيام الجماعى والحج الجماعى، من خلال كل هذا ومن خلال الجهد الشخصى فى اتجاه العدل ارتقاءً بطبيعتنا الإنسانية، فهلا نفهم جهاد الحياة هذا؟

إن وظيفة الإنسان الأساسية أن يبدع المستقبل، غير أننا نحيا العالم فى ضجيجه، وفى تردى العلاقات بين شماله وجنوبه، فكيف نتصور العالم فى المستقبل؟ نحن نعيش أبعاداً مقلقة، ولننظر فى العالم عن قرب، إنه عالم يعمل وفق مبدأ موجه هو أن الكل عقلانى، ومجتمعات الغد التى يبشر بها النظام (أو الفوضى) العالمى الجديد ستكون مدفوعة بإرادة الغلبة تلك التى كانت دائماً مصدر المثل الأعلى للمركزية الغربية، كما أن أمركة العالم إكراه جبار فرض على كل المجموعات المتأخرة التى تجد من العناء ما تجد لتغالب عديد رهانات الألفية الجديدة. إن الدعوة الضمنية الموجهة إلى هذه الدول تدعو إلى الحيرة فهم مدعوون إلى التحول انطلاقاً من اليسير الذى يميزهم إلى مجتمعات ذكية وبراجماتية لا تلتفت إلا إلى الدين الوحيد الذى يفيد ألا وهو دين الكفاءة. وهو يصنع من الخاسرين أكثر مما ينتج من الرابحين، إننا نعيش عالماً تتناقص فيه الرحمة، ويتضاءل الحسِّ الأخلاقى، والواجب أن نغيِّر ذلك وأن نستعد له وإلا سنطرد من هذا العالم الآلى إذا فاتتنا قيم التأقلم التى بها قوام الحداثة الفكرى والاجتماعية فى عالم استولى عليه التغير المتسارع وليس قادراً على تغيير شيء يذكر من بؤس الدول الفقيرة وعزلتها.

إن العالم الجديد الذى ترسم القوى العظمى ملامحه لم يعد يعنى بقيمة الوجدان، ولا فيه ما يبشر بأبنية أفضل للعلاقات بالعالم وبين سكان العالم، وليس ثمة فى واقع العلاقات البائسة بين الشمال والجنوب ما يسمح بتوقع احترام أفضل للتنوع الثقافى، الذى لا تزال تدعو إليه المؤسسات العالمية المتخصصة فى الارتقاء بثقافة السلم. إن البشر يصنعون التاريخ ولكنهم لا يعرفون التاريخ الذى يصنعونه. إن عدم نجاح الحوار الثقافى فى الماضى يمكن إرجاعه إلى نرجسية الذات وعنجهية الآخر، والصورة النمطية المستقرة فى اللاوعى الجماعى والتى لم تغيرها كثيراً تقلبات الأيام والأحداث، فذلك الآخر الذى كان تابعاً فصار متبوعاً، تحكمت فى الحوار معه على الدوام قوانين الحضارات الغالبة، حيث تفرض كل حضارة فى أوج قوتها وازدهارها أسلوبها على الكون كله، وتتحكم فى شكل الحوار ونتائجه ليظل يعمل فى صالح منظومتها القيمية، وهذا ما يخلق ردة فعل عند الآخر تدفعها إلى المغالاة فى تضخيم الذات واستقلال الهوية، وهكذا تضيع مساحات التسامح الطبيعى الموجودة بالفطرة عند الشعوب وسط صرخات الهيمنة التى تجيز كل ما من شأنه إيقاع الأذى بالآخر.

إن الصورة النمطية للذات والآخر تتحول باستمرار ولكن فى اتجاه الأسوأ أحياناً، فالذين رسخوها تاريخياً كانوا من رجال السياسة واللاهوت، الذين لا يقلون تعصباً وفاشية عن بعض وسائل الإعلام الحديثة المتعصبة وفى ظل هذا المناخ، ورغم كل ما قدمته ثقافة حقوق الإنسان والثورة التكنولوجية من وسائل لإنجاح التقارب، ظل الحوار الثقافى العربى الأوروبى كسيحًا مبتور النتائج، وصار الجهل بالآخر أعمق من أن التليفزيون جهله قريباً وملموساً ومسموعاً داخل البيوت. إن وسائل الإعلام الحديثة ساهمت فى تكريس العزلة لتبنيها خطاب التفوق الانعزالى، ونظرًا لغياب تقاليد ثابتة لثقافة السلم والحوار. وقد تعثر الحوار العربى الأوروبى لأنه لم ينطلق من فضاء التسامح والمحبة، وظل حبيس فضاءات

المصالح المتقلبة، وحين توافر فضاء المحبة الذى تخلقه ثقافة السلام، وستتحول الجدران العازلة إلى جسور تقارب تعوق تشييدها مصالح النخب والأحزاب الحاكمة التى تحرص على إحياء الصورة النمطية المكروهة للآخر دفاعاً عن أنانية الذات، ودائماً وحين تتصادم لغة المصالح مع ثقافة التسامح يكون حوار الحضارات والثقافات أول ضحايا الصراع.

إن المعلومة تكون صحيحة طالما أن نقيضها لم يثبت صحته، والمعلومة الصحيحة فى المستوى المنظور أن خيار العيش بمعزل عن تيار الحضارة الكونية الحالى من المستحيلات، فلماذا لا نتوقف إذا عن الغائية ونروض أنفسنا على قبول الآخر، لا خدمة لنداء المصالح المشتركة للإنسانية فحسب، بل على مبدأ المحبة ومن منطلق التسامح؟.

نحن أحوج ما نكون إلى ثقافة التسامح والاعتراف المتبادل، نريدها أن تكون أقوى من الانتحاريين وأشباههم أو أضدادهم الأصوليين، وعلينا أن نتذكر أن كبرى أزمنة النمو الاقتصادى والثقافى كانت أزمنة الاندماج الثقافى وأزمنة الحوارات الكبرى بين مختلف الثقافات، مثلما كان الشأن زمن حضور الإسلام فى صقلية فى بلاد الأندلس. إن الواجب فى الدستور الأوروبى أن ينص بإلحاح على أن أوروبا الموحدة لن تنشأ دون ثقافة، وأن ثقافة أوروبا تتغذى من جذور الثقافة المتوسطية فليس ثمة ما يبرر وجود أوروبا اقتصادية أو سياسية محضة، ولا يمكننا أن نعرف أوروبا على صعيد قانونى واقتصادى صرف فهى كل أوروبا الثقافية، والثقافة المتعددة وحدها هى التى تستطيع أن تحول قدر أوروبا والمتوسط إلى ازدهار وسلم. فليس بوسع الاقتصاد وحده أن يحقق للناس الازدهار والفرح، فمن ثروات البترول اشتعلت نيران الحرب ومن ثروة الثقافة يرتسم قوس قزح من السلام: إن الثروة وحدها لا تجعل الإنسان والأمم سعيدة، ولكن النفس السعيدة والأمم الآمنة يمكنها أن تجعل كل شيء صالحاً للحياة الغنية.

إن ما يتوجب الدعوة إليه أبدًا هو مرتكزات التعرف على الآخر من أجل التعايش معاً من منطلق التسامح بين الحضارات والأديان. إنه موضوع تتشكل جميع مفرداته أو جلها فى الظروف الراهنة أصوله فى أحسن الحالات، أو أمنية بعيدة المنال فى أسوئها. وتتساءل عما إذا كان يمكننا الشروع فى الحوار فى غياب السلم أو إحلال السلم دون اللجوء إلى حوار! إن ثمة معطيات تستحق التأمل بعد 11 سبتمبر أهمها وقوع كوارث متصلة برفض الآخر والانطواء على الذات، والقول بالتفاضل فى المعتقدات والقيم مما يبعث مشاعر مشتركة ويثير تساؤلات ضرورية أهمها أنه يمثل ثورة فى مستوى تجلى علاقات الصراع التى كانت فى أغلب الأحيان مخفية أو مجهولة غائمة فى ضرب من اللاوعى أو ضرب من طيب السريرة.

إن جهوداً بذلت، وبرامج وضعت من أجل الارتقاء بثقافة السلم ومن أجل التنوع الثقافى وحوار الثقافات، وهى ما نهضت له منظمات عالمية، وجهوية حكومية وغير حكومية، ومفكرون ومبدعون ومربون وفنانون. هل كل ذلك له جدواه؟ إننا نشعر بالوعى بالمخاطر ومن الأهمية بمكان ألا نستسلم للإحباط وخاصة وأن هناك تأكيدات كثيرة على الاعتراف بدور التنوع الثقافى فى تطوير ثقافة السلم، وإضفاء الصيغة الديمقراطية على العلاقات الدولية، ومن هنا بات علينا أن نتابع السير على ذلك الدرب. ونُسر لما أحدثته أحداث 11 سبتمبر ونتائجها من تزايد الأصوات والمبادرات من أجل الحوار ومن أجل معرفة أفضل بالآخر. إن امتداد الأيدى من الجنوب إلى الشمال وتقديم المبادرات من بلدان ودول عربية وإسلامية من الجنوب وقد أحست وهى على حق أنها أكثر من غيرها عرضة لمخاطرة الانطواء فى الهوية والدين، وأنها مستهدفة من قبل الشمال، وعليه فإن الحوار ضرورة ملحة على مستوى عالمى، وواجب حيوى على صعيد أخوة البحر الأبيض المتوسط. إن ما يبشر بالسلام ما نشهده من تبادل تجارى وثقافى وسياحى ومهاجرين، ولنا أن نتحدث اليوم عن تفاعل حقيقى قائم بين أخوة المتوسط الذين أحسوا بمشاكل

بعضهم البعض، وشعروا بتضامن إزاء مآسى الضحايا، وعقلوا المصالح الاقتصادية والسياسية من حيث مسألة احتياجات أوروبا من الطاقة، ولا نزال نسعى جميعاً من أجل الحوار والسلام.

إن تسارع نسق مسيرة التاريخ بحكم تبدل أحوال العالم جعلت إنسان اليوم مدعوًا إلى التوقف لحظة ليسأل نفسه عن معنى مسيرته ومغزاها ومسيرته هو بالذات باعتباره إنساناً ينتمى إلى مجتمع محدد واقع فى موضع اتصال ما بين تاريخ وجغرافيا، وحوله تقوم مسيرة هؤلاء الآخرين وهم أخوته يعيشون فى خضم التاريخ الكونى معه، وعليهم مثله تماماً تضحية الانخراط فى المستقبل. فعندما يتوقف إنسان الألفية الثالثة فى الطريق الذى يقله لينظر إلى ماضية ومستقبله فى إطار من الوعى بظروفه الراهنة يتوجب عليه أن يراجع نفسه أمام حاسوب المستقبل ليحدد مكاناً وزماناً مجهولين، وذلك قبل الإيغال فى الانطلاق إلى الأمام ليلبى نداء المستقبل الملح. من هنا كانت دعوة الأمم المتحدة حين جعلت من عام (2001م) عام الحوار بين الحضارات وبين الثقافات أيضاً. ومنظمة الأمم المتحدة هى المنظمة الأم، وهى لذلك تعطى للإنسان إشارة لانطلاق تبادل النظر للرجال والنساء من جميع البلدان، ومن جميع القارات على اختلاف عقائدهم ومعتقداتهم الأخلاقية والروحية والفكرية وكذا هوياتهم المتباينة، من أجل أن تنفتح أمام الآخر بما يحمل من رموز ثقافية وحضارية خاصة به موضوع استضافة واعتراف وتبادل وحوار، طمعاً فى تأليفة خصبة تنشأ عن تلك المساهمة المزدوجة مساهمتى ومساهمة الآخر وحتى تتولد تأليفة آية فى الإبداع. إنه إبداع نظرة الإنسان الذى يعترف به من حيث هو إنسان من حيث هو صنو لى، وهذا الإنسان الذى اعترفت به ورحبت به بماله من صفة الإنسان وكرامته، إنما هو ذاك الذى يهبنى خير ما يمكن أن يوهب وهو اختلافه النسبى عنى فى إطار التشابه المعترف به.

إن الثقافة هى مجموعة الخصائص المميزة، الروحى منها والمادى والفكرى والوجدانى، التى تميز مجتمعاً أو مجموعة اجتماعية، وهى تشمل إلى جانب الفنون والآداب وأنماط العيش والحقوق الأساسية للكائن البشرى اتساق القيم والتقاليد والمعتقدات. والثقافة بهذا المعنى لم تهمل أية صفة من صفات مجتمع ما التكنولوجية والاجتماعية والإيديولوجية. والهوية الثقافية هى البعد الأول للكرامة الإنسانية وهى المطلب المشترك بين جميع الحقوق الثقافية، وهى أيضاً الموضوع المشترك بين كل الالتزامات المتصلة بتلك الحقوق، وكذلك بمجموع حقوق الإنسان من جهة بعدها الثقافى. ومعنى ذلك أن تلك الهوية تحتل موقعاً وسطاً بين الخصوصى والكونى، وبين الوحدة والكثرة، وبين الفردى والجمعى، وبين التراث المتراكم أو الموروث والمشاريع النازعة إلى المستقبل، ذلك أن الثقافة هى أيضاً هذا المسار المنطلق من الماضى يحمل جميع حضارتنا نحو المستقبل، ليضع التركة الغالية بين أيدى شباب العالم الذى يتولى بإمكانياته هو إثراءها وإعادة إنشاء العالم. وينبغى ألا نستسلم للخطأ الذى يمكن أن يترتب على اختزال كل واحدة من ثقافاتنا إلى ما كانت عليه فى الماضى، بل يجدر بنا أن نثق بها تستطيع استنباطه من ذاتها فى تنوعها وباعتبارها استباقاً إلى المستقبل.

إن جميع الظروف تدفع شعوب الأرض إلى وضع من التبعية المتبادلة تكون فيه غاية فى التقارب، حتى إنها لن تستطيع فى آجال قريبة أن تتجاهل بعضها بعضاً تجاهلاً يختزل العلاقات فيما بينها إلى مجرد عمليات ذات أغراض نفعية، وسيحلّ محلّ ذلك شئ آخر غير أعمال الاستغلال والانتهاك والزجر والمنافسة.

إن حوار الثقافات والحضارات من شأنه أن يعيش على بلوغ ذلك، إن حضارة الحوار هى حضارة الاعتراف بالآخر فى أخوته وفى ثقافته الخاصة به قبالة الأنا، وهى حضارة اعتراف الآخر برموز أخوتى الذاتية وبثقافتى الخاصة. إن حوار الثقافات يتقوم بكل أشكال التبادل، وهو تبادل يقوم على احترام الفوارق ويتم بين

أمة وأمة، وبين لغة ولغة وبين روحانية وروحانية، فهو فى هذه الجهة وفى تلك تأثر وانفتاح، وهو إرادة متأكدة بوضوح لا فى السيطرة على الآخر وإذلاله واستعباده ولا فى استغلال مواضع الضعف فيه لاحتقاره ونهب خيراته بل لمساعدته فى إطار من التقاسم الحق، على أن يكون هو ذاته، وأن يتطور فى الاتجاه الصحيح، وفى الاتجاه الذى يختاره هو، وعلى أن يقدّم هو أيضاً خير ما عنده فى إطار من التكامل الفكرى والاقتصادى والروحى بما تُثرى به كل الأطراف.

إن إرادة الحوار هى إرادة سيطرة السلم الحق الذى يملأ الصدور، وهو سلم المصالح والضمائر بما فى ذلك الصريح والمضمر مما يخامرنا من أفكار، وهو سلم بين الشعوب والقارات. إن ما ينبغى إنقاذه إنما هو ظاهرة التنوع وليس المحتوى التاريخى الذى وهبته إياه كل حقبة، لذلك يجب أن نشجع الممكن الخفى وأن نوقظ جميع القدرات على العيش معاً التى ادخرها التاريخ، كما وجب أن نكون على استعداد دونما مفاجأة ولا ثورة لتصور ما لا يمكن أن تتخلف عن إيجاده كل هذه الأشكال الاجتماعية من أشياء لم تألفها. فليس التسامح موقفاً تأملياً يمنح الغفران عما كان، وعما هو كائن، وإنما هو موقف ديناميكى يتمثل فى توقع ما يجب أن يكون وفهمه والارتقاء به. وتنوع الثقافات الإنسانية ظاهرة تنتمى إلى الماضى وتحيط بنا فى الحاضر وتدفعنا إلى المستقبل، وليس لنا ما نطالبها به إلا أن تتحقق فى أشكال يكون كل واحد منها إسهاماً فى أهم ما يميز الآخرين، وهى مطالبة تنشأ عنها بالنسبة إلى كل فرد واجبات تقابلها على رأسها أن تتحول الدول النامية والدولة العربية إلى الحداثة، وأن تتبنى الديمقراطية قولاً وسلوكاً، وأن تتجه بقوة إلى اقتصاد السوق وما يسند كل ذلك من قيم. وعلى الدول المتقدمة وعلى رأسها الولايات المتحدة أن تجفف منابع الصراع الإسرائيلى الفلسطينى، والفوضى الدامية فى بلاد الرافدين، ولا بد لها من التشريع فى معالجة حضارية إنسانية لتراكم وضعيات العنف والقهر المسلط على العرب والمسلمين وهم فى حالة عجز مثيرة، وكذلك بسبب ما يلقاه

المسلمون من ضيم باعتبارهم مسلمين، إنه يتوجب إصلاح تلك الوضعيات من قبل المجموعة الدولية.

إن أوروبا عليها أن تتحمل مسئولية ملقاة على عاتقها حيال الدول العربية والإسلامية فإن لها موقعاً خاصاً لدى العرب والمسلمين، ولها علاقات مكثفة هى علاقات قرب وتبادل. فالدول العربية آخذة بقيم الغرب ذات المنزع الكونى وقد كانت هى أصل تلك القيم التى بلورتها انطلاقاً من تأليفة جمعت أثينا والقدس وروما. وهى تأليفة أسهمت فيها الحضارة العربية الرائعة. والحق أنه يستحيل فهم الفلسفة الغربية دون مرور بابن رشد وابن سينا. لذلك فإن على أوروبا أن تساهم سياسياً وثقافياً فى وقت واحد، ورتق ما يحدث من صراع فى البحر المتوسط، وأن تعمل على تفادى مسارات الصدام، ومن مصلحة بلدان الضفة الجنوبية للبحر المتوسط أن يعملوا هم أيضاً فى هذا الاتجاه. وإنه يمكن أن توجد ثلاثة عناصر يمكن أن تعين على تحقيق هذا الهدف هي: دبلوماسية تسوية الصراعات، والشراكة الأوروبية المتوسطية، وحوار متجدد بين الثقافات، وهى ميادين ثلاثة لفرنسا دور ديناميكى فيها.

إن الواجب يقضى بعدم الفصل بين التجنيد ضد الإرهاب العالمى وبين المجهود المُصرِّ على تسوية الصراعات والأزمات، لا بد من دفاع أوروبى عن العودة إلى مسار سياسى حيال صراعات الشرق الأوسط، وإنه لا بد من السعى نحو تجنيد جماعى عند العمل داخل الاتحاد الأوروبى مع شركائه، ويمكن لأوروبا أن تؤثر لإقناع الأمريكيين بعدم الانسياق إلى أحادية جديدة.

إن الشراكة الأوروبية المتوسطية أمل واعد، فهى قادرة على تنظيم علاقات سياسية وأمنية واقتصادية واجتماعية وثقافية متينة بين ضفتى المتوسط، والشراكة تهيكل علاقة تضامن دائمة، وهى بذلك تصل التغيير بالاستقرار مما يمكن من فتح آفاق فيما يتعلق بالأمن الجماعى والتبادل البشرى ناهيك عن التبادل التجارى الحرّ.

ونحن فى حاجة إلى حوار متجدد صريح بعيداً عن القول بوجود معسكرين يواجه أحدهما الآخر. خاصة وإن الأوروبيين يعترفون بإسهام الثقافة العربية فيما هو كونى، وفى ذات الوقت بخصوصيات مشروعة للجميع، غير أن ردَّ العالم العربى على التحديات الخارجية إنما يكون جزئياً بتجاوز أزمته الداخلية بواسطة الانتقال إلى الحداثة المستوعبة انتقالاً رصيناً مبتكراً. إن عالم الغد يتميز بأنه عالم معقد وثرى، وعلاقة فرنسا بالعالم العربى الإسلامى تهم السياسة الداخلية وسياسة البناء الأوروبى والسياسة الإستراتيجية للقرب الجغرافى، وهى علاقة تجمع الدول المعنية وتتجاوزها وفيها موضع لضروب من التهجين الثقافى وهو ما نصبو جميعاً إلى تحقيقه.

إن دنيانا عالم واحد لا يعرف الحدود، ولا يبنى على الاختلافات أو الانغلاق، بل الأفق المفتوح الذى يذيب الخصوصيات الثقافية والهويات الحضارية المتغايرة فى منظومة كوكبية واحدة، يسهم فى صنعها حوار موجه بين الحضارات والثقافات، يكرس حضور أحادى البعد لنزعة كوكبية واحدة. إنها العولمة التى لا ترى فى حوار الحضارات سوى وسيلة من وسائل تحقيقها فى إزاحة العقبات التى تقف فى طريق تقدمها.

إن العوامل المقاومة للهيمنة الكوكبية عديدة وفاعلة رغم هامشيتها، ومتعددة الأشكال والتأثيرات سواء فى امتداداتها الجغرافية أو تسلحها بالتقنيات المعرفية التى أسهمت العولمة فى تطويرها كلها يقاوم الحضور المتوحش للعولمة، تسهم فى ذلك دول العالم الثالث إسهامة وافرة فى صياغتها تحت مظلة الأمم المتحدة وداخل اليونسكو جنباً إلى جنب مع المفكرين الذين يقاومون الهيمنة والتبعية على السواء، وهذا هو اتجاه التنوع البشرى الذى يسعى إلى تحقيق التقدم الإنسانى بما لا يقوم على الاستغلال، ويستبدل بعلاقات التبعية الاقتصادية علاقات التعاون البنَّاء، وتوسيع دائرة الاعتماد المتبادل فى مواجهة الكوارث البيئية الكبرى التى لا تستطيع دولة

بمفردها مواجهتها والتى تمتد بتأثيرها إلى الكوكب الأرضى بأسره. ويوازى ذلك حرص اتجاه التنوع البشرى على أن يستبدل بعلاقات الاتباع الثقافى لمنظومة ثقافية مهيمنة كوكبيًا علاقات التفاعل الذى يقوم على احترام الخصوصيات الثقافية وتشجيع إبداعاتها التى تسهم فى ثراء المشهد الإنسانى، ثم يستبدل هذا الاتجاه بالحوارية التى تتسم بأنها مفتوحة الأفق متكافئة الأطراف.

إن الوجه الآخر الإيجابى لقضية حوار الحضارات فى مقاومة الهيمنة هو الذى يؤكد احترام الخصوصيات الثقافية. إن مشكلة التفاهم الدولى هى مشكلة علاقات بين حضارات، ومن هذه العلاقات يجب أن يظهر مجتمع عالمى جديد على أساس من التفاهم والاحترام المتبادل. ويجب أن يتبنى هذا المجتمع العالمى الجديد نزعة إنسانية جديدة، بحيث تتحقق فيه العالمية من خلال الاعتراف بالقيم المشتركة بين الحضارات المختلفة. إن كل حضارة لها اعتبارها وقيمها التى يجب المحافظة عليها واحترامها، كما أن لكل شعب الحق فى التنمية البشرية، وعليه واجب تنمية حضارته الخاصة، إن كل الحضارات بكل ما فيها من تنوع واختلافات عميقة وتأثير متبادل على بعضها البعض جزء من الإرث العام للبشر.

إن التنوع الخلاق ينطوى على نزعة واعدة من موازنة بين الخصوصية الحضارية والثقافية لكل أمة، والقيم المشتركة التى تجمع كل الأمم فى منظومة إنسانية واحدة. وكان من الطبيعى أن يكتسب حوار الحضارات معنى جديداً ويتأكد حضوره بوصفه وسيلة فاعلة للتفاهم والتعاون والتفاعل بين الحضارات والثقافات، وذلك كله بالمنطق الذى يقوم على التكافؤ بين الأطراف المتحاورة ثقافياً وحضارياً، وعلى التسليم بحق كل منهما فى الوجود والنماء، ومن ثمَّ التسليم بقدرة كل منهما على الإضافة التى تغنى غيرها فى دائرة التفاعل، بعيداً عن أشكال الاحتكار أو الهيمنة أو التميز، وتجسيداً للقيم الإنسانية المشتركة التى تثرى بالتعاون.

غير أن العالم العربى تموج فيه ممارسات للتعصب والتطرف وعمليات الإرهاب التى تتستر باسم الدين، والعنف القمعى الذى يصاحب الدعوة إلى الدولة الدينية، ووصل التحديث أو الحداثة ببدعة الضلالة المفضية إلى النار، وبطريركية البناء الاجتماعى، وعشائرية الأنظمة الثقافية. وكلها علامات ملازمة لهذه الأصولية الدينية التى اتخذت الإسلام شعاراً للتغطية على أهدافها، وذلك ضمن سياق سعيها إلى دولة دينية يكون طابعها الدين القائم على التعصب. وقد روعت هذه الأصولية الإسلامية بممارسات عنفها الآمنين، وأسهمت فى تصدير وإشاعة صورة مغلوطة عن الإسلام، اقترنت بالإرهاب اقترانها برفض الحوار مع أى حضارة مغايرة، والنظر إلى الحضارات المغيرة بوصفها حضارات معادية من المنظور الدينى، ولا بد من الاصطدام بها. وكان من الطبيعى أن تستفز هذه الأصولية المنتسبة إلى الإسلام زوراً وبهتاناً الأصوليات الملازمة للعولمة والتى لا تزال تصدر عن المركزية الأوروبية الأمريكية.

إن العالم لم يتعلم بعد كيف يحترم بعضه بعضاً، وكيف تتعاون دول وتعمل يداً واحدة. إن العالم يعيش لحظة تاريخية تحتاج إلى حلول وإلى إعمال فكر جديد لصياغة تساؤلات جريئة وتقديم إجابات تقوم على خرائط عقلية جديدة، وهنا كان لا بد من تعظيم حوار الحضارات تحقيقاً لأمل جديد وجليل فى أن يفضى هذا الحوار إلى تحقيق العدل الإنسانى واستهلال الحرية الإنسانية. إن من أكثر الإنجازات جدارة قبول ضرورة الحوار ودلالته ورفض العنف ودعم التفاهم والفهم فى المجالات الثقافية والاقتصادية والسياسية، وتقوية أسس الحرية والعدل وحقوق الإنسان. إن تأسيس التمدن وتقويته سواء على المستوى الوطنى أو العالمى يعتمد على الحوار بين المجتمعات والحضارات بما يطرح الآراء والميول والتوجهات المختلفة. وإذا كرست الإنسانية جهودها لتأسيس الحوار أو جعله مؤسساتيّا، وإحلال النقاش محل العداء والمواجهة فإن ذلك يعدّ ميراثاً لا نظير لقيمته لصالح أجيال المستقبل.

إن من الخير لنا جميعاً السعى الجمعى للمجتمع الدولى لتعزيز التفاهم من خلال الحوار البناء بين الحضارات، ولا بد من تسهيل هذا الحوار ودعمه. إن الأفراد الذين يعيشون فى خوف مفتقدين فهم الثقافات الأخرى أقرب إلى اللجوء لأفعال الكراهية والعنف والتدمير ضد عدو متخيل، أما أولئك الذين يتعرضون لثقافات الآخرين، ويتأثرون بها، أو يعرفونها خلال الاتصال الذى يعبر الانقسامات الثقافية فهم أقرب إلى رؤية التنوع بوصفه نعمة قوة، كما أنهم أقرب إلى الاحتفال به بوصفه نعمة. إن عمليات الهجرة والاتصال والارتحال قربت اليوم بين الأجناس والثقافات والأعراق المختلفة، ولم يحدث من قبل أن فهم الناس أنهم يتشكلون بواسطة العديد من الثقافات والمؤثرات، وأن الجمع بين المحلى والأجنبى يمكن أن يكون مصدر معرفة قوية، وبصيرة ناقدة، ويمكن للناس، بل إن عليهم، أن يفخروا بدينهم الخاص، أو ميراثهم الحضارى، وعليهم فى ذات الوقت الاهتمام بما هو عليه دونما كره بما ليسوا عليه. إن هناك قيماً عامة تشترك فيها الإنسانية ذلك أن الحوار يمكن أن ينتصر على النزاع، وأن التنوع نعمة نحتفى بها، وأن أمم العالم تتحد بإنسانيتها أكثر وأكثر مما تنقسم بهوياتها المنفصلة، ومن هذا المنظور يمكن النظر إلى مبادئ ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان بوصفها قوة دفع للإنسانية كلها.

إن التاريخ لم ينته والحضارات لم تصطدم حتى بعد الحادى عشر من سبتمبر. صحيح أن المؤسسات والأوطان والمجموعات والأفراد تواجه اتجاهين متضادين هما: نزعة العولمة ونزعة المحلية، لكن فى حين أن العولمة فى العلم والتكنولوجيا وأدوات الاتصال الجماهيرى والتجارة والتموين والسياحة والهجرة والجريمة والمرض تقدمية فى مدى سرعتها ودرجتها، فإن تغلغل الهويات المحلية وتعمقها بمصطلحات العرقية واللغة والأرض والدين أمر يبرزها بوصفها قوة أساسية فى هذا العصر. ولذلك فإن خصائص التحديث تكتسب دلالة كوكبية، وفى الوقت

ذاته، فإن قوة التقاليد يتزايد دورها فعلياً فى تكوين العالم الحديث. ويدفعنا الوجود المشترك والتفاعل المتبادل بين نزعة العولمة والنزعة المحلية. والحضور المستمر للتقاليد فى العالم الحديث إلى أن تتحرك إلى ما بعد العقلية البسيطة إلى إما هذا أو ذاك. إن قوة التضاد بين ما نملكه وما لا نملكه على كل مستويات التجربة الإنسانية تغذى مزاجاً منتشراً من عدم اليقين، على حين أن سرعة التغير وسهولته تقوى عدم القدرة على التكيف، ومن ثم تثمر التعصب والتطرف والتحيز بكلمات أخرى كلما يذكّر بالإقصاء وعقلية إما (هذا أو ذاك)، وعقلية (نحن وهم). إن التنوع يعطى قانونًا من قوانين الطبيعة تشارك فيه كل الأنواع حيث يتشابه الإنسانى وغير الإنسانى، فالناس عبر التاريخ ظلوا يتجمعون فى مجموعات وقبائل وأوطان، وأصبح ذلك واضحاً عندما بدأ الناس يواجهون أنفسهم بأعداد أكبر للاتصالات ومعرفة اختلافاتهم. وليست المشكلة فى حقيقة التنوع نفسه، وإنما فى إدراك التنوع بوصفه خطراً، مع أنه ليس كذلك، والدليل على ذلك الآيات القرآنية التى تؤكده كما فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ سورة الحجرات الآية 13.

إن حوار الحضارات لا بد له من الدعم من منطلق التنوع البشرى الخلاق أولاً، وبحثاً عن أفق متوازن للتفاعل بين العام والخاص، العالمى والوطنى ثانياً، وقائماً على الاعتراف بالآخر، وحقه فى الاختلاف، والتميز بخصوصيته ثالثاً، وداعماً لقيم العدل الاجتماعى وآفاق الحرية الفكرية والإبداعية رابعاً، ولن يتحقق ذلك إلا بشروط على رأسها أن يكون كل طرف من أطراف الحوار مسلماً بأنه لا يمتلك الحقيقة المطلقة، مؤمناً أن المعرفة نسبية لا تكتمل إلا بالتفاعل مع الآخرين. ويعنى ذلك التسليم بنوع من التكافؤ العقلى بين الأطراف المتحاورة، وعدم تسلل نزعات عرقية أو تحيزات استعلائية إلى الحوار. وإذ يؤكد هذا النوع من التكافؤ العقلى

سلامة اتجاهات الحوار، على امتداد مجالاته ومستوياته، فإنه يضيف إلى استقلال الحوار من حيث هو عملية خلاقة لا تبدأ من نقطة ردّ الفعل السلبى أو المتابعة لأوامر الكبار وشروطهم، وإنما من منطق الرغبة فى مجاوزة شروط الضرورة على مستوى الذات ومستوى الآخر فى الوقت ذاته. ومن هذه الشروط أن يكون كل طرف مستعداً لنقد نفسه أولاً، وتأسيس فكر التنوع الخلاق فى بلده قبل الحوار عنه مع الغير ذلك أن التهديد الدائم للاستقرار مصدره الصراعات العنيفة داخلاً الدول وليس فيما بينها، وهناك حاجة ماسة لدعم قوانين حقوق الإنسان، أى أنه لا مكان للحوار مع الغير إلا إذا بدأنا الحوار مع الذات، وكنا مستعدين له مستعدين لمواجهته ومواجهة أعداء الحوار الذين ينفون المختلف ويقومون بتصفية المغاير، ذلك هو الأمل فى مستقبل آمن.

إن أصحاب الأديان الأخرى فى المجتمعات الإسلامية مواطنون لا أقليات، إنهم يتمتعون بصور شتى من الحريات العامة تتسع لتشمل: حرية المعتقد، وحرية الفكر والتعليم، وحرية التنقل، وحرية العمل والكسب، وتولى وظائف الدولة، والحرية الاجتماعية. لقد أقر الإسلام حرية الاعتقاد لكل الناس فلا إكراه لأحد على اعتناق الإسلام وإن كان يدعوهم إليه، ومن القواعد الأساسية فى معاملة غير المسلمين ضمن هذا الإطار قاعدة (نتركهم وما يدينون). ومن أعظم الشواهد الواقعية على حرية المعتقد فى الإسلام ما يرى من أماكن العبادة من كنائس وأديرة ومعابد منتشرة فى كل مكان من بقاع العالم الإسلامى، وذلك التعايش الإسلامى المسيحى الذى يعيشه أبناء الديانتين السماويتين على أرض الواقع فى العالم الإسلامى، وحيث ثوابت كل شريعة منهما فى المحبة والسلام وعدم الاعتداء فضلاً عن الانتماء والمواطنة لتشكل فى مجملها عوامل لقاء والتقاء. وهناك حقيقة أخرى فى حرية المعتقد حيث نصت عهود المسلمين ومواثيقهم لغير المسلمين على احترام مقدساتهم ورموزهم الدينية وحرياتهم الاعتقادية.

وهناك حرية الفكر والتعلم، فحين أرسى الإسلام قواعد المجتمع الإسلامى كان من بين أسسه نشر العلم بين كل فئات المجتمع، وكان غير المسلمين من بين أولئك الذى تم نشر العلم بينهم، وابلغ الأدلة على تلك الحرية كثرة الإنتاج العلمى الذى ظهر على أيدى غير المسلمين فى شتى المجالات العلمية. وهناك حرية التنقل لغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى حيث حرية الحركة والسفر والترحال من بلد لآخر وفى أى وقت أو اتجاه.

إنه لا يوجد فى التشريع الإسلامى تجاه غير المسلمين ما يغلق أمامهم أى باب من أبواب العمل، بل على العكس فقد كانت كل المجالات مفتوحة أمامهم لتعاطى كل المهن والأعمال. وأما ما يتعلق بتولى غير المسلمين لوظائف الدولة فى المجتمع الإسلامى، فإن أحكام الشريعة لا تمنع غير المسلم فى مجتمعها من تولى أية وظيفة من الوظائف كالمسلمين تمامًا. إلا ما كان من هذه الوظائف ذا صبغة دينية بحتة مثل الخلافة وقيادة الجيوش. ولغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى أن يشاركوا فى انتخابات ممثلين لهم فى مجلس الشعب أو المجالس النيابية، وكذلك لهم الحق فى ترشيح أنفسهم لهذه المجالس، لأن عضوية هذه المجالس تفيد فى إبداء الرأى للدولة، وعرض مشكلات المواطنين وأحوالهم ومعالجتها. وكفل المجتمع الإسلامى لمن يعيشون فيه من غير المسلمين حرية ممارسة كل الأنشطة الاجتماعية كالأعياد والمهرجانات والزيارات وحسن الصلة بينهم وبين المسلمين.

لقد كانت سمة المجتمع الإسلامى فى التعايش السلمى والدينى بين كل طوائفه وملله. فلقد أوصى القرآن الكريم بهذا التعايش وحث عليه، وكان النبى ﷺ يعود مرضى غير المسلمين، والاحتفال بأعيادهم ومناسباتهم من الأمور المألوفة لدى المجتمع الإسلامى، فى جو من الحرية والتسامح حيث كانت الطقوس الدينية تجرى داخل المعابد والكنائس والأديرة وفى كثير من الأحيان كان بعض المسلمين يشارك فى هذه الأعياد، ويرتاد الأديرة بين الحين والآخر. وقد سجل التاريخ أن أعياد

القديسين فى مختلف الأديرة كانت من أكثر الأعياد نصيبًا بالاحتفال. ولم يكن فى المدن الإسلامية أحياء خاصة باليهود أو النصارى كما يوجد فى أوروبا أحياء مخصصة لسكن اليهود، بل كانت بيوت المسلمين متلاصقة ومتداخلة مع غيرهم.

إنه فلابد انطلاقًا من وحدة الدين الذى جمع أفراد الإنسانية تحت مظلة واحدة أن ذلك الدين الإسلامى السماوى يمكن أن يحدث من التغييرات لخارطة العالم، وذلك بجعلها رقعة مثالية للعيش المشترك بين أتباع كل الأديان السماوية فى احترام متبادل، واعتراف بحق أتباع كل دين فى تمتعهم بحقوقهم فى العيش بسلام فوق أرضهم وباحترام مقدساتهم وخصوصياتهم. كما أن ذلك من شأنه أن يؤسس لعمل مشترك مخلص وجهد مبارك يجمع أبناء الديانات وأهل الكتب السماوية على هدف واحد، يرمى إلى رفع الظلم عن المظلومين، والعالم بأسره يعانى من ظلم ومظالم استشرت فى جسده بسبب اعتماده على نظريات حكم وضعية ومنطلقات سياسية من وضع البشر متناسين وحى السماء وهدى الأنبياء، الأمر الذى سمح لمطامع البشر أن تبرز ولحظوظ النفس والهوى أن تغلب فكانت الحروب والويلات والاحتلال وما يمارس من عمليات هدم للمنازل، وهدر للكرامة الإنسانية يوميًا تحت أنظار وأسماع العالم الحر. إننا فى حاجة إلى دور أكثر فاعلية لكل أبناء الديانات الدولية والدينية والفكرية والإنسانية، لتسليط الضوء على ما يجرى من انتهاكات لحقوق الإنسان فى العالم وللحدّ من اعتداء الإنسان على أخيه الإنسان واستباحة أرضه وعرضه.

إن لقاء أصحاب الديانات السماوية هو لقاء أخوة كى يتحاوروا، وتلك نعمة من الله لأن الإنسان عدو ما يجهل ومعرفته هى الخطوة الأولى لاكتشاف شخصيته، وانفتاحنا عليه يقربنا منه، ويحملنا على الإقرار بحقوقه وعلى احترامه والتعاون معه لخلق عالم أفضل تسوده المحبة والسلام. إن الإنسان مهما كان لونه ودينه وجنسيته ولغته فكلهم أبناء إبراهيم. والإسلام منذ نشأته درج على الانفتاح وعندما اضطهد

أتباع الرسول ﷺ لم يجدوا لهم ملجأً وملاذًا أفضل من الحبشة، فإليها رحلوا وبين الأحباش أقاموا كرامًا عليهم حلوا وكأبناء للأسرة الواحدة عوملوا. ولما دخل الخليفة عمر بن الخطاب القدس ظافرًا استقبله البطريرك على باب المدينة وسلمه مفاتيح باب المقدس، ولما حان وقت الصلاة دعاه لتأديتها فى كنيسة القيامة فاعتذر عمر شاكرًا خشية أن تتحول الكنيسة إلى جامع بسبب صلاته فيها. لقد ظهر الإسلام منذ اللحظة الأولى دين سلام وأخوة واستمر هكذا امتثالاً للعهدة العمرية فى عهد الخلفاء الراشدين وأيام الأمويين والعباسيين، فكان للمسيحيين احترامهم ودورهم لدى كبار المسئولين كمستشارين مخلصين أمناء وكشعراء وكتّاب ومترجمين. ومنذ البداية الأولى قام الإسلام والوئام بين الطرفين، إذ إن المسيحية والإسلام، ولئن اختلفا فى بعض معتقداتهما، فهما عمليًا سواسية ينهيان عن المنكر ويأمران بالمعروف، "ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذى قالوا إنّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون"، إن دين الإنسان حياته وأعماله وأخلاقه وتصرفه ومدى عطائه لأمته ومدى خدمته لوطنه ومدى نجدته لأخيه الإنسان. إن الدين حياة وعمل ليس لقبابه نتغنى وليس مؤسسة إليها ننتمى، وليست مجموعة عقائد بها نؤمن فالدين هو المعاملة. كم هو جميل أن يتعانق الصليب والهلال، إنما الأجدى هو انصهار أبناء الإنجيل وأبناء القرآن فى بوتقة قيم ومبادئ دياناتنا السماوية. وفى بوتقة إلهنا الواحد الأحد، وهو تعالى محبة، وعلى أن محبتنا لله، إذا بقيت مجردة ولم تتجسد فهى كاذبة، فليس هو الذى يتضرع لله هو الذى يدخل ملكوت السماء، إنما الذى يعمل وفق إرادة الله، وإرادة الله تعالى أن يحب بعضنا بعضًا، ومحبتنا إن لم تتجسد فى حياتنا فهى نفاق. المحبة بذل وعطاء وفداء.

إن العالم اليوم يعيش ظروفًا عسيرة وخطيرة ومصيرية، وكلنا كعرب مستهدفون، ونحن العرب أبناء أمة واحدة أعضاء فى جسم عربى واحد حين يتألم عضو منه يتعذب معه الجسم كله. لطالما كانت محبة الأوطان من الإيمان، فما الذى

علينا أن نفعله لنجدة إخواننا المقهورين المعذبين فى فلسطين والعراق لإحلال السلام والوئام، إننا نصر على أن نعيش أحرارًا حياة كريمة وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، وعنوان الكرامة وطن، نعم للسلام وليس للاستسلام نعم لإقامة دولتين عبرية وفلسطينية فى فلسطين دولتان مستقلتان متعاونتان سويًا لمصلحة البلدين وخير الشعبين، وعلينا أن نتحاور.. نعمل ونصلى.

إن ثقافة السلام تتأسس على القناعة وعلى المشترك بين المسلم وبين أخيه المسيحى لا فرق على الإطلاق، إن ثقافة الصفح لابد أن تسبقها ثقافة العدل وتحقيق التعايش معًا حتى نقول عند ذلك المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة. نحن كأصحاب ديانات سماوية دعاة سلام، ودعاة أمن وأمان ودعاة منع للاعتداء على الغير، ونحن بلا استثناء مطالبون بالالتزام بالمبادئ والقيم والأخلاق ولا يعفى أحد من ذلك، فلنعلم الأبناء المبادئ الصحيحة للدين وقبول الغير والتفاهم معه، نتعاون جميعًا لنبنى وننشئ أجيالاً تسودها المحبة وتقبل الغير، ونتعاون ونتحاب حتى ينتشر الأمن وينتشر السلام. إن الإسلام حين ينادى بالسلام يرفض الاستسلام، بل يدعو المؤمن إلى أن يدافع عن نفسه وعن ماله وعن عرضه، فمن قتل دون نفسه فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد، فالإسلام يدعو إلى الجهاد عندما يعتدى علينا أحد، والجهاد فرض عين إذا دخل العدو أرض المسلمين لأن الإسلام يرفض الاستسلام.

إن السلام لا معنى له إذا لم يكن له أركان أربعة يرتبط بعضها ببعض، فالسلام بلا عدالة ليس سلامًا، والسلام بلا حقيقة الإنسان ليس سلامًا، والسلام إذا لم يكن مرتبطًا بمحبة ليس سلامًا، والسلام دون حرية ليس سلامًا. نحن نريد السلام لأنه قيمة فى ذاته، ولأنه أساس بناء المجتمعات. إن كلاً منا حارس للسلام وعلينا أن نسعى جميعًا فى سبيل تثبيت دعائم السلام فى أرجاء المعمورة.

الفصل الخامس

حـــوار لا مواجهة

أولاً: ثقافة الحوار مع الآخر.

ثانيًا: ما يبقى حوارات الشعوب.

ثالثًا: مستقبل الحوار مرهون بمستقبلنا.

رابعًا: إنه حوار مع الأخ وليس الآخر.

حـــوار لا مواجهة

أولاً: ثقافة الحوار مع الآخر:

الحوار صيغة من صيغ التواصل والتفاهم ، وأسلوب من أساليب العلم والمعرفة، ومنهج من مناهج الثقافة، عمدت إليه الشعوب فى تواصلها وتفاعلها مع غيرها، واختطه المفكرون والمربون أسلوباً فى تعليمهم، واعتمد عليه المصلحون فى دعوة الناس إلى الخير والفضيلة.

وتزايد الاهتمام بالحوار مع مولد النظام العالمى الجديد سواء على صعيد الثقافة والقيم أو على صعيد السياسة والاقتصاد، وتعمق الاقتناع به وبدوره فى تحقيق وفاق ثابت بين أبناء الأمة الواحدة، وتفاهم مشترك بين الشعوب المختلفة على أساس قاعدة الكرامة والعدالة والمساواة، وشاع استخدام الحوار على مختلف الصعد، وفى شتى الميادين الثقافية والفكرية والحضارية، وهو سمة تميز عصر ثورة المعلومات وثورة الاتصالات التى هى ثمرة من ثمرات العلم. وبالحوار يقوى التواصل بين بنى البشر، وتتأسس صيغة معرفية متجددة تعتمد تزاوج الأفكار، وتبادل الرؤى، وتداول الطروحات، من خلال الاستماع إلى الرأى الآخر والإصغاء إليه والاهتمام به تحقيقاً للتواصل العلمى والمعرفى، وابتعادًا عن العزلة والانكفاء الذى لم يبق لهما مكان فى عالم الألفية الثالثة.

وتنوع الحوار وتعددت أشكاله بتعدد موضوعاته وبتنوع مقاصده وأغراضه فكان منه ما يعنى بالمناهج الفكرية، ومنه ما يعنى بالجوانب التربوية التعليمية، ومنه ما يعنى بالجوانب الثقافية المعرفية، ومنه ما يعنى بتحديد العلاقة بين الدول والأمم والشعوب، وللحوار آثاره وثمراته فى كل ذلك.

واللغة بما تمتلك من مخزون معنوى ووظيفة اجتماعية وتأثير نفسى هى الركيزة الأساسية فى الحوار والتفاهم والتعارف والتعاون والتواصل الإنسانى بكل أجناسها وأساليبها من دعوة ومناصرة ومناقشة ومثاقفة ومجادلة ومراجعة. وإذا كانت العلة والهدف من تنوع الخلق هو التعارف والتعايش والتفاهم تحقيقاً لسنة الله فى التدافع والتكاثر والتنامى الذى لا يكون إلا بالتنوع، فإن الحوار بأشكاله ومسمياته المتعددة يصبح من لوازم الحياة وضمان استمرارها، وإقامة العمران، والاضطلاع بأعباد الاستخلاف البشرى الذى يتطلب التعارف والتعاون والتعايش.

إن مسيرة الأنبياء حفلت بألوان الحوار وأساليبه وأنواعه ومشاهده، منذ بدء الخليفة حيث حوار الله مع ملائكته حول خلق آدم، وحواره مع آدم وزوجه، وحواره مع الشيطان، وحوار الرسل والأنبياء مع رب العالمين فى بيئات مختلفة وأزمان مختلفة وأساليب متنوعة، الأمر الذى استغرق كل أنواع الحوار وأساليبه وموضوعاته على مستوى الذات والآخر.

علينا أن نبصر أنفسنا، ونعترف بواقعنا صراحة، وننتقد أداءنا بصدق، ونتفاكر ونتشاور ونقوم بعملية تحاور ومراجعة شاملة من خلال عيون خبيرة فاحصة وعقول متخصصة ونوايا مخلصة، وننتهى بهذه المراجعة والحوار مع الذات إلى انفتاح الرؤى التى تتوافر على أهداف إستراتيجية واضحة واستطاعات ممكنة وظروف محيطة، ومن ثم تكرار ممارسة عملية الحوار مع الذات فى ضوئها حتى

تصبح ثقافة شائعة فى الأمة قبل الحوار مع الآخر لتوسيع دائرة الرؤية والتفاهم حتى تشمل الأمة، وتزيل الحواجز من بينها، وتحقق القاعدة الثقافية المشتركة لاستيعاب الواقع وإبصار المستقبل واستشعار المسئولية. إن كل ذلك هو الخطوة السابقة على حوار لاحق مع الآخر.

إن حالة التأزم فى عالمنا العربى الكبير، وفكر التشرذم والتعصب والتمذهب والانغلاق الفكرى وضياع الرؤى الإستراتيجية تستدعى الحوار ومراجعة الذات والتخطيط الشبكى وإعادة مدّ الجوار بين أوصال أمة عربية واحدة رؤاها مبعثرة. إن الحوار بألوانه المتعددة من تشاور وتفاكر وتثاقف ومجادلة بالتى هى أحسن هى جسور التواصل، والوصول إلى أنسنة الإنسان من أجل أمة لها مستقبل قبل أن تكون دولةً وسلطانًا.

إن المواجهة وإعداد القوة لم تشرع لا لحماية الحوار وتأمين أجوائه وفتح قنواته، فالإنسان لا يقاد إلا من خلال قناعاته، والإحاطة بالآخر هى التى تؤهلنا للحوار معه، ذلك أن خلفيته الفكرية هى التى تشكل ذاكراته، وتاريخه يبين مدى تمكن هذه الخلفية من سلوكه واستجاباته وواقعه الذى يمثل مشكلاته وكيفية التعامل معه. أى أن تنطلق من الحوار فى معرفة الآخر بكل مكوناته والتعامل معه من خلال ذلك وليس من خلال ما نريد ونتمنى، ولا يمكن أن يكون هناك حوار مع الاعتراف بالآخر، لأن الاعتراف به وثقافته ووجوده شيء وإقراره على ما هو عليه شيء آخر.

إن الحوار ثقافة تتطلب الحوار مع الذات الذى يعنى البدء بالحوار مع النفس، ثم الحوار مع المحيط الخارج عن النفس فى الأسرة والحى والشارع، والمدرسة والمجتمع، وهو حوار يتطلب تصويب التوجيهات وتوسيع دائرة المشاركة والتفاهم، وإزالة الحواجز النفسية وإعادة بناء شبكة العلاقات الاجتماعية. إن الحوار مع الذات هو المؤهل للحوار مع الآخر، حيث يوسع دائرة التفاهم وينمى الخبرات والطاقات ويمنح الفرد الشفافية والسلوك الحضارى، شريطة أن تستكمل

شروط الحوار وأولها الاعتراف بالآخر، ثم تجسيد التنوع والإفادة منه فى إثراء وبناء المشترك الإنسانى، لأن التعارف الذى يأتى ثمرة الحوار هو سبيل العمران والتكامل والتعاون.

إن الكثير من الحوارات والندوات التى يعنون لها بالحوار مع الآخر إنما تتم غالباً بغيابه أو بالوكالة عنه أو الوصايا عليه، أو بطرح أفكاره وإدارة الحوار حولها ومناقشتها وتخيلها وتحديد أهدافها واستنبات نواياها مع، ادعاء الموضوعية والحياد والنزاهة فى التناول دون استكمال شروط الحوار وعناصره الضرورية من الحرص على حضوره، والاستماع إليه، والتبصر فى دوافعه ودفاعه وأهدافه وحججه ومسوغاته، لذلك فهى غالباً ما تقصى الآخر وتتجاهله، وبدلاً من أن يكون الحوار حلاً لمشكلة التجافى والتباعد وعدم التفاهم وتوسيع دائرة المشترك وتفكيك التعصب والتخرب يصبح مشكلة تسهم سلباً فى التعصب والانغلاق والتشرنق وتأجيج المواجهة والصراع. ومن آفات الحوار مع الآخر غياب عنصر تكافؤ الفرص فى الحوار بين المتحاورين. وغلبة أجواء الهيمنة والتسلط والإذعان، حيث يتحول الحوار إلى رسالة تلقى على الآخر بإرادة منفردة يستخدم فيها وسائل الضغط لتمريرها وبلوغها أهدافها، ويحل صراع الحضارات بدلاً من حوار الحضارات. إن الحوار هو السبيل إلى التعارف والتعايش والتعاون والارتقاء بالإنسان وتحقيق كرامته واسترداد إنسانيته، وهو السبيل إلى الاستقرار وتنسيم الحرية وأنسنة الإنسان، والاقتناع بأن التنوع حقيقة وواقع وأن الاختلاف حق من حقوق الإنسان وكرامته.

إن الحوار يتحقق عندما يتم طرح أكثر من رأى، وأكثر من فكرة فى موضوع محدد، والحوار الطبيعى يتحقق من خلاله الوصول إلى صيغة علمية فى الأداء والطرح والتفكير، وهو ما يتطلب جملة من الشروط هي: توافر الحرية الفكرية، والاستعداد النفسى للاقتناع بالنتائج، وعدم التعصب لفكرة مسبقة. إن القواعد العامة للحوار التى يتوجب الحفاظ عليها هى:

1- الاعتماد على العقل والمنطق فى تقديم الأدلة.

2- عدم التناقص فى عرض الفكرة أو الرأى أو الأدلة.

3- المحافظة على حق الطرف الآخر وإنصافه بغض النظر عن صفه المحاور أو مركزه العلمى أو الاجتماعى، لأن الأمر المهم هو إبراز حق الطرف الآخر وإنصافه.

4- إبراز الهدف الذى تدور حوله المحاورة، مع التركيز على أن تكون الغاية واضحة والهدف محدداً ومقبولاً.

5- خلق الأجواء الهادئة للتفكير السليم والصحيح الذى يمثل فيه المحاور نفسه وفكره، لأن الانخراط فى محيط الأجواء الانفعالية يفقد المحاور استغلاله الفكرى وشخصيته المميزة مما يبعد الحوار عن الحقيقة.

6- إعداد خطة علمية للحوار أى وجود ضوابط نظامية تحكم عملية الحوار وتتأتى به عن أن يكون ارتجالاً، ويتطلب ذلك تحديد موضوع الحوار، وتحديد المفاهيم، وتحديد الهدف، وتحديد الآليات والإجراءات.

كما أن شروط الحوار وآدابه تتطلب: استخدام اللغة المقنعة، واحترام التخصص وخبرة المحاور وتاريخه العلمى، وطلب الحق بالتجرد عن العاطفة والأدلة الخطابية، والتخلى عن النرجسية والأنانية والكبر، وسرعة البديهة واحترام الآخر، وعفة اللسان والقلم، وحسن الصمت والإصغاء، والتواضع، وتقدير حديث المحاور وأفكاره، والحوار بهدوء وروية وبمودة، والبعد عن الثرثرة والإطناب فى الكلام أو اللف والدوران، والوضوح فى العرض، والابتعاد عن الغضب والانفعال والتعصب لفكرة أو فئة، وتلخيص القضايا والأفكار مع المحافظة على البدائل والخيارات والرأى والرأى الآخر من جانب المتحاورين وصولاً إلى أهداف الحوار.

الحوار فى الفكر المعاصر من المفاهيم الجديدة حديثة العهد بالتداول، ذلك أن المواثيق والعهود الدولية التى صدرت فى الخمسين سنة الأخيرة بعد إنشاء منظمة الأمم المتحدة تخلو من الإثارة إلى مفهوم الحوار على حين استخدمت مفاهيم إنسانية أخرى مثل التسامح والتعاون والتعايش وتنمية العلاقات الدولية بين الدول، وتحقيق التعاون الدولى، والدفع بالرقى الاجتماعى قدماً، وإفساح الحياة لممارسة الحرية، وتعزيز العمل الجماعى المشترك لما فيه الخير للإنسانية.

إن مفهوم الحوار يتسع ليشمل الحوار بين الأديان، ثم الحوار بين الثقافات والحوار بين الحضارات، والحوار للتعايش السلمى والتعايش بين الأمم والشعوب.إن الغرب هو صاحب الدعوة إلى الحوار بأشكاله المتعددة، كما أن ثقافتنا العربية الإسلامية فهمت الحوار بمعنى المراجعة فى الكلام والتجاوب بما يقتضى ذلك من رحابة الصدر، وسماحة النفس، ورجاحة العقل وبما يتطلبه من ثقة ويقين وثبات، وبما يرمز إليه من قدرة على التكيف والتجاوب والتفاعل والتعامل المتحضر الراقى مع الأفكار والآراء، وهو أصل من الأصول الثابتة للحضارة العربية الإسلامية،وهو ما يقوم على: الاحترام المتبادل، والإنصاف والعدل، ونبذ التعصب والكراهية.

إن مجتمعاتنا العربية فى المرحلة الراهنة فى حاجة إلى أن ينفتح فيها الحوار على آفاق العصر، ويتيسر هذا بأحد سبيلين: أولهما الدخول فى حوار مع العصر بلغته وبأسلوبه وطرائقه، ليكون الحوار مدخلاً إلى الألفية الثالثة بأعماقها وبقدرات أكبر وإمكانات أوفر، وثانيهما تحصين الذات بإصلاح أحوال الفرد والمجتمع إصلاحاً عميقاً ومن كافة النواحى حتى تسود روح الحوار العالم العربى ويتعمق ما يصطلح عليه الحوار الوطنى من جهة والحوار العربى الغربى والحوار الإسلامى من جهة أخرى. ولابد أن يهدف الحوار العربى الوطنى إلى رصد عوامل تفاهم الأوضاع الاجتماعية واحتوائها والعمل على تدعيم سبل الاستقرار والتنمية، وحتى تصبح

تلك الحوارات نقطة انطلاق إلى آفاق جديدة فى واقعنا السياسى والاجتماعى وكافة الميادين، ولابد من الحرص على الإدارة العلمية والدقيقة لهذه الحوارات، والحوار الداخلى هو خطوة أولى نحو الحوار مع الآخر الخارجى، لأنه يقوى النسيج الوطنى ويكسب المجتمع العربى مناعة للتعامل مع العالم.

إن العالم العربى ملزم بالاستجابة للدعوات التى صدرت من الغرب للدخول فى حوارات شتى، فالحوار الإسلامى المسيحى لا ينبغى فيه الدخول فى مناقشة مسائل الاعتقاد على حساب قضايا عملية تعود معالجتها بالنفع والفائدة على الطرفين، لا تهربًا ولكن لأن مثل هذه المناقشة لا فائدة من ورائها، فهى أقرب إلى الحل العقيم، ولذلك فإن من القضايا التى يجب التركيز عليها، التعاون من أجل إقرار المبادئ والتعاليم الدينية المشتركة التى تحث على احترام الحياة الإنسانية، وحرمة الإنسان، والسعى من أجل الخير والأمن والسلام، ومحاربة الفساد والطغيان، ودعوة الناس إلى قيم المحبة والتسامح والإخاء الإنسانى، وهذه مساحات شاسعة للعمل المشترك من أجل سعادة الإنسان وخدمة البشرية.

والإسلام له فى كل ذلك حضور نافذ وأثر قوى عبر العصور لأنه يؤمن بشريعة المسالمة على مبادئه وتعاليمه وأخلاقه، ذلك أن الإسلام مبدأ وموقف ورؤية إلى هذه المجالات جميعًا، فتعاليم الإسلام تحث على التعاون من أجل الخير والحق والفضيلة والشرف والعزة والكرامة وكل ما فيه سعادة الإنسان. والحوار العربى على هذا النحو الراقى ومن أجل هذا الهدف السامى ضرورة لانتظام سير الحياة على طرق سوية تفرضها طبيعة العمران البشرى. الحوار مطردة وقوة دافعة للنشاط الإنسانى، وطاقة للإبداع فى شتى مجالات الحياة، ووسيلة للنهوض بالمجتمعات، وسبيل لتحصين الشعوب والأمم ضد أخطار الخلافات حول قضايا العقيدة والفكر والثقافة واللغة والحضارة، أو تلك التى ترتبط بشئون السياسة والاقتصاد والتجارة والأمن والحرب والسلام، والحوار بدلاً من الصدام هو دليل على نضج فكرى

ووعى حضارى، وسبيل قوى لتجنب الخسائر وللتغلب على المشكلات ومعالجة الأزمات وإدارتها بعقل متفتح.

إن العالم العربى مدعو إلى إنجاز مهام أساسية لبناء الذات وتقدم المجتمع وازدهار الحياة والانفتاح على آفاق العصر، هو مدعو لحوارات جادة هادفة هادئة ليثبت للعالم جدارته واستحقاقه وأهليته فى بناء حضارة إنسانية جديدة تسود فيها قيم الخير والحق والتسامح والتعاون وقيم السلام. وأهداف الحوار هنا هى كل ما يحقق الخير والصلاح والأمن والسلام والرخاء والتعارف، الذى يتسع ليشمل التعاون والتعايش وكل ضروب العمل الإنسانى المشترك التى هى أحد أهداف الحوار مع الآخر. والحوار هنا يبدأ من الإنسان وشئونه وقضاياه متمثلاً فى:

- نشر التعارف وحفز المواهب وإثراء الثقافات.
- تنمية العلاقات السلمية والصداقة بين الشعوب.
- تمكين الإنسان من اكتساب المعرفة والمشاركة فى التقدم العلمى والانتفاع بثمراته وإثراء الحياة الثقافية.
- تحسين ظروف الحياة الروحية والوجود الإنسانى فى العالم.
- إبراز الأفكار والقيم التى توفر مناخ صداقة وسلام.
- استبعاد مظاهر العداء فى المواقف وفى التعبير عن الآراء.
- توخى النفع المتبادل لجميع الأمم التى تمارسه.
- تصحيح المفاهيم الخطأ التى تسود المجتمعات وتفوق مسيرة التعاون والتقارب والتفاهم.
- السعى نحو تفاهم المجتمعات وتقارب الثقافات وتلاقى الحضارات، أى التفاعل الحضارى الذى يدعم التعاون الدولى لمواجهة تحديات العصر ومشكلاته ووضع الحلول والبدائل.

إن الحضارة الإسلامية قامت على أساس التفاعل، فهى ثقافة حوار أخذت من الحضارات السابقة، واقتبست من ثقافات الأمم والشعوب وصهرت حصيلة هذا كله فى بوتقة التفاعل الحضارى، فكانت بذلك حضارة الإسلام مثالاً للتفاعل بين الحضارات، وكانت لحيوية حضارة الإسلام قوتها الذاتية الدافعة إلى التطور والتقدم والإبداع فنقلت روح المدينة إلى العالم العربى. إن تكوين أوروبا فى جانب منه يرجع إلى الحضارة الإسلامية التى احتفظت بمركز الصدارة منذ أوائل العصور الوسطى لا فى الشرق فحسب، بل وفى غرب أوروبا. إن الإسلام هو الدين الذى يدعو الكافة إلى التفاعل الحضارى ويحث عليه، على اعتبار أن الحوار الذى نادى به الإسلام هو فى طبيعته وجوهره ورسالته تفاعل حضارى. والتسامح قاعدة إسلامية فتحت أمام الأمة الإسلامية السبيل إلى الاحتكاك بالأمم والشعوب، وشجعت على التفاعل مع الثقافات جميعًا، فالتسامح الإسلامى يعنى أن تكون لكل طائفة فى المجتمع الإسلامى الحرية فى تأدية شعائرها الدينية، والجميع أمام قوانين دولة الإسلام سواء، كما أن التفاعل الحضارى يستند فى فكر الإسلام إلى مبدأ التدافع الحضارى والتحاور والتفاعل الذى هو حوار دائم مطرد ينشد الخير والحق والعدل والتسامح للإنسانية جمعاء.

إن التفاعل الحضارى عملية تكاملية تتم بين طرفين وتؤدى فى النهاية إلى حالة من الانسجام، إنه فعل ينتج عن التقاء إرادتين تسعيان إلى تبادل التأثير فى المحيط الاجتماعى على تنوعه وتشعبه. إن الحوار هنا حوار هادف هادئ مؤثر فاعل بانٍ يقوم على قاعدة الاحترام المتبادل بالمعنى الأخلاقى وبالمدلول الحضارى الرفيع، وهو يقوم على ما اجتمع عليه البشر من أن الحوار يفضى إلى تفاعل حضارى باعتباره فعلاً إنسانياً مؤثراً فى حركة التاريخ، وعنصراً مساعداً على استتباب الأمن والسلام، وقوة دفع لاستقرار الحياة الإنسانية وازدهارها ورقيها بإشاعة قيم التسامح كما يفهمه المؤمنون بالله والمؤمنون بوحدة الأصل الإنسانى وبوحدة المصير الإنسانى.

إن العالم العربى الإسلامى يمدّ جسور التقارب والتفاعل والتعاون مع الأديان السماوية والثقافات والحضارات دونما استثناء، إنه يتطلع إلى مواقع له مشرقة تقوم على عطاء متميز واستيعاب ذكى ونفع متبادل فى قرن التحول العظيم فى الصلات والعلاقات الدولية المنفتحة القائمة على المشاركة، وباعتبار أن الأمة العربية الإسلامية أمة ذات رسالة سامية وذات حضارة إنسانية راقية.

إن الحوار الذى تم بين الإسلام والغرب يشير إلى أنه كانت له الكثير من خصائص المونولوج أى الحوار من طرف واحد. وهذا يعنى أن الحوار الحقيقى غير قائم، ذلك أن كل جانب لم يستطيع أن يفهم الجانب الآخر، وعليه فنحن فى حاجة إلى حوار حقيقى مثمر بين أهل الإسلام وأهل الغرب يحقق التعاون البناء بين الجانبين. إن الحقيقة تشير إلى أن هذا الحوار قد نشأ أصلاً تحت ضغط ظروف مادية، فجاء حواراً حول النفط والثروة الجديدة فى جانب وبين التفوق التكنولوجى والقوة السياسية فى جانب آخر. ولا يخفى على أحد أن الجانبين معاً يشعر كل منهما بأن هناك حاجة تتطلب بحثاً عن حلول وبدائل على الصعيد الثقافى والحضارى لتكون مكملة لتلك القائمة على أسس مادية.

إن كل جانب يشعر أنه لم تفهم مقاصده فهمًا سلبياً، كما أن الجهود التى تبذل فى إقامة جسور التفاهم والثقة بين عالم الإسلام ودول الغرب لا تزال جهوداً متواضعة إلى حد بعيد، ولا تسمو إلى مستوى المسئولية التى آن الأوان أن يتحملها كل جانب من الجانبين وهنا لابد أن الاختلافات الحضارية فى الأساس ليست اختلافات مطلقة، وعليه فإن التعرف على الآخر تعرفاً حقيقياً أمر لا ينبغى التخلى عنه. إن الاختلاف بين الشعوب والأمم بين بنى البشر هى دعوة كى يتعرف كل منهم على الآخر، إن هذا الاختلاف ومن ثم التعارف هو سبب من أهم أسباب وجود البشر على الأرض.

وفى إطار هذا التعارف فليس ثمة امتياز أو طبقية لجماعة على جماعة فى أى شكل من الأشكال، ذلك أن الهدف واحد وأن الغاية البعيدة واحدة، وأن معيار المفاضلة بين بنى آدم هو التقوى والقرب من خالق البشر جميعًا. إن المهمة التى خلق البشر من أجلها فى مختلف الشعوب والأمم والحضارات تتمثل فى التعارف الحقيقى والفهم المتبادل، كما أن الفهم الصحيح ليس فقط أمراً واجباً، بل هو فرصة تتيح لكل إنسان المجال إلى ترسيخ جذوره ترسيخاً أعمق عن طريق الاعتراف بواقع الاختلاف بين بنى البشر الذين خلقهم الله تعالى شعوباً وقبائل، مع بذل الجهد الصادق لفهم الآخر. وهنا يرتبط الفكر بالعمل فى وحدة واحدة، والسبيل إلى ذلك وإلى تحقيقه هو طريق طويل، غير أن بلوغ الهدف ليس مستحيلاً.

إن العلم والمعرفة من شأنه أن يقرب المسافات ويوثق الصلات بين الحكماء والعلماء فى شتى الأمم والشعوب، فالعلم لا وطن له، ولا يخضع إلا للعقل وسلطانه، والعلم موضوعه البحث والدقة والمسئولية، وحرى به أن يزيل سوء الفهم والأحكام المسبقة ويصوب ويصحح الأفكار المغلوطة، وكلها يمهد الطريق لحوار حقيقى مثمر وييسر إلى تعاون بين أبناء آدم من صانعى الحضارات ومعتنقى الديانات.

إن المفاهيم المغلوطة تفتقد لغة العلم، والعلماء هنا وهناك يحترمون ويقدرون لغة العلم، وهنا يصبح ما يمكن أن يسمعه أو يقرأه الآخر عن الإسلام فى وسائل الإعلام الغربية بعيداً عن لغة العلم بسبب الأحكام الخطأ المغلوطة التى تنكشف فى هذه الأفهام والعقول، كما أنه فوق ذلك كله يفتقد تماماً الشعور بمسئولية العلم. وعلى ذلك فإن روح التسامح تعد أمر أساسياً لا غنى عنه، وكما أن روح التسامح يتوجب أن تسبق روح الفهم الصحيح، ذلك أن التسامح هدنة عقلية وطريق واضح للوصول إلى فهم صحيح للذات والآخر، يؤكد ذلك الميراث الإبراهيمى المشترك لكل أبناء الديانات السماوية بعيداً عن الحق المطلق الذى تعلنه الديانات

المختلفة لنفسها، والذى لا يزال يتعرض لفهم خطأ ومغلوط. ذلك أنه لا يصح أن تدعى ديانة ما لنفسها الانتساب إلى الحقيقة طالما هى ملتزمة بالوحى الأصلى. وبناء على ذلك يأتى الاعتراف بكل الرسل الذين أرسلهم الله إلى البشر منذ بدء الخليقة دونما تفريق بينهم، وتلك قاعدة أساسية لدى المسلم لا يجوز أن يحيد عنها، وعليه فإن التسامح الدينى لدى المسلم أساس من أسس الإيمان الحق، ويؤكد ذلك أن الدين الإبراهيمى الواحد منذ خلق الله آدم هو دين الله الذى يطلب من كل البشر الشيء ذاته وهو التسليم لله، والسعى إلى تشكيل حياتهم الفردية والاجتماعية طبقاً لروح الإسلام لله والتسليم لله، والسعى أيضاً أن يجد الإسلام الطريق لبناء المجتمع وبناء الدولة حتى يقوم بنو البشر بالدور الحقيقى المنوط بهم فى العالم، دونما أن يفقد الإنسان شيئاً من هويته بوصفه مشاركاً فى تحقيق التضامن العالمى بين بنى البشر، وفى إقامة نظام للمجتمع يكفل المساواة بين البشر جمعياً أمام القانون، ويتمتع فيه كل البشر بالحقوق ذاتها فى الحياة، وفيه يتوجب التسامح والاعتراف بحقوق الإنسان لكل الناس دونما تحفظ.

إن الرؤى التاريخية تشير إلى أن كفة الأمور المشتركة بين العالم الإسلامى وعالم الغرب فى المجالات الحضارية والعلمية ترجح على كفة الاختلافات، وهو ما يفتح طريق الأمل نحو أمة إنسانية واحدة، يدعم ذلك تاريخ الآداب العالمية الذى بوضوح إلى ذلك الإسهام الوافر الذى قدمه كل جانب فى سبيل تنمية الثقافة.

إنه إذا كان ينبغى أن يكون هناك حوار حقيقى ومثمر يكتب له الاستمرار، فإنه يتوجب على الأقل أن تتوقف تلك المعاملة غير الحسنة لبنى الإسلام فى ديار الغرب، ولا يجوز الاعتذار عن سوء المعاملة هذه بالنقد الموجه إلى العالم الإسلامى. وليس هناك شك فى أن الإسلام قد أسيء فهمه من قبل الآخر فى الغرب، ولكن هناك فى العالم الإسلامى من يسىء أيضاً فهم الإسلام، وهذا أمر يشترك فيه الإسلام مع غيره من الديانات، وعليه فإن الجهود العلمية لبحث الإسلام بحثاً

موضوعياً هى جهود على درجة عالية من الأهمية، كما أنه يتوجب أن يكون البحث الإسلامى موصولاً بالحاضر منفتحاً قادراً على وضع حلول وبدائل للمشكلات القائمة، والقيام بالمهام الموكولة إليه فى إطار روح الإسلام السمح الذى يحث على الاجتهاد وعلى إحداث تقدم حقيقى فى مجتمع المسلمين.

كما أنه يتوجب عرض الإسلام كما هو فى مصادره الأصلية ولدى عقول المسلمين المنفتحين الذين يمتلكون القدر المناسب من المرونة والتسامح معاً، آخذين فى الاعتبار ما يتوجب على الباحثين الالتفات إليه من أن الأحكام القيمة على هذا الدين أو ذاك بالصحة أو البطلان أمر لا يدخل ضمن إطار البحث العلمى فى الأديان. ذلك أن البحث الموضوعى لم يستطع أن يقدم للعقل الغربى المعاصر صورة الإسلام خالية من التشويه الذى أصابها، وهو فى حاجة ماسة إلى توضيح الأسباب التاريخية للأحكام المغلوطة المسبقة عن الإسلام والتى لا تزال تتردد دون وعى، والتى هى فى الأساس نتيجة خلط للحقائق ترجع إلى قصور فى التكوين الثقافى. وهو ما يستوجب جهد يبذل من أجل ترسيخ فهم صحيح للإسلام يقوم على أساس علمى فى البحث والتقصى.

إن الأديان العالمية الكبرى تدعو كلها وفى جوهرها إلى السلام، غير أنه وفى ناحية أخرى قد أسيء فهمها، وهذا الفهم الخطأ لجوهر الديانات لا يستند إلى الحقيقية وإلى مبادئ هذه الديانات، بل يرجع إلى أسباب دنيوية يتم الدفاع عنها تحت غطاء دينى. إن ضرورة التعايش واستمراره تتطلب التعاون الحقيقى والاعتماد المتبادل بين بنى البشر جميعًا، وحيث إن جوهر الديانات هو الوفاق والسلام بين بنى البشر.

إن الاهتمام بالتخطيط للمستقبل يعكس مستوى راقيًا من الوعى بمتطلبات التغيير والتجديد وإعادة البناء على أسس ثابتة راسخة، كما يعبر التفكير فى استشراف آفاق المستقبل واستطلاع أماده عن نضج عقلى يبلور إرادة ذاتية فى الانتقال من طور إلى آخر على المستويين الخاص والعام، نحو بناء الذات، وترسيخ

الكيان، وتقوية القدرات الكامنة فى النفس والمجتمع. ولقد اقترن البحث عن المستقبل والتطلع نحوه دائمًا بإرادة البناء فى جميع الأحوال التى تتضافر فيها الجهود من أجل رسم خريطة هذا المستقبل، وصياغة ملامحه العامة بما يؤكد على أن التوجه نحو الغد بالتخطيط المقترن، وبروح الثقة وإرادة التحدى ظاهرة حضارية ومسلك راق من مسالك العمل العام، فضلاً عن أنه منهج علمى لا يرقى الشك إلى جديته وشجاعته. إن العناية ببحث مستقبل الوطن فى ضوء المتغيرات الدولية ظاهرة صحية تعبر أصدق التعبير عن درجة عالية من التطور فى فهم مقتضيات الحاضر ومتطلبات المستقبل، وتدل هذه الظاهرة على توجه سليم يؤدى إلى نتائج إيجابية تدعم مجهود الوطن فى خدمة مصالحه العليا.

إن مراعاة المتغيرات الدولية عند التخطيط لمستقبل الوطن أمر لا غنى عنه، لأننا من جهة لا نملك أن ننعزل عن العالم ومن جهة ثانية لا يسمح لنا أحد بأن ندير شئوننا خارج متغيرات العصر. وعليه فإن الحرص على المواءمة بين متطلبات التجاوب والتكيف مع هذه المتغيرات وبين مقتضيات التمسك بالثوابت وبالهوية الحضارية للوطن هو من الضرورات التى تقتضيها المصالح العليا للوطن، بل هى حجر الزاوية فى بناء مستقبل الوطن.

والحضارة فى عمقها وجوهرها هى القدرة العالية على المشاركة فى صنع الحاضر وصياغة المستقبل، والفعل الحضارى هو الجهد البشرى الذى يبذله الأفراد والجماعات لتحقيق تلك الغايات، ولا تكتمل لهذه المشاركة شروطها إلا بالتعايش الثقافى الحضارى بين الشعوب والأمم، وهو يقوم على قاعدة التعاون الإنسانى الرحب الواسع غير المحدود، والذى تحكمه القيم الإنسانية النبيلة، وتضبطه القواعد الحكيمة التى اجتمعت إرادة المجتمع الدولى على التقيد بها والاحتكام إليها. والتعايش الثقافى والتساكن الحضارى يمهدان للحوار الذى هو ضرورة من ضرورات العيش.

إن الحوار بين الثقافات والحضارات وبين الأفراد والجماعات وبين الشعوب والحكومات وبين المؤسسات والمنظمات، هو الوسيلة المثلى لتحقيق التوازن فى الحياة الإنسانية. ولقد كان للتطور الذى عرفته العلاقات الدولية مؤخرًا الأثر فى تقوية الاهتمام بالحوار فى مدلولاته العامة، وذلك بحسبانه وسيلة ثبتت شجاعتها لتحقيق التعايش بين الشعوب، وباعتباره أداة فعالة لاستتباب الأمن والسلم فى العالم.

إن الاهتمام بقضية الحوار فى إطاره الثقافى والحضارى وبأهدافه الإنسانية موضع إجماع من البشر على اختلاف ثقافاتهم وتباين حضاراتهم باعتبار أن الحوار هو اختيار الحكماء والعقلاء فى العالم. إن العلاقة بين المستقبل والحوار والمسلمين والغرب فى حاجة إلى ضبط منهجى كدورها، وذلك أنه إذا كان المستقبل للحوار العالمى الذى تلتقى على صعيده الشعوب والأمم، وكان الحوار الحضارى العميق والشامل هو إحدى الوسائل العلمية التى تتوافر للبشرية لإقامة علاقات تعايش وتعاون مثمرة ونافعة لجميع الأطراف، فإن المزاوجة بين المسلمين وبين الغرب فى سياق الحديث عن المستقبل وبحث موضوعات الحوار تنقصها الشروط الموضوعية لتكون منطقية ومفهومة وواقعية.

إن الغرب منظومة حضارية مترابطة متكاملة من القيم والمبادئ والأفكار والمذاهب والسياسات تضج بالحركة، وتبحث عن مصالحها وتضعها فى مقدمة أولوياتها، وتتعامل مع العالم من منطلق الحرص على هذه المصالح واستثمارها وتنميتها والحفاظ عليها بكل الطرق والوسائل. إن علينا أن نعرف طبيعة المخاطب الذى نسعى للحوار معه، ثم علينا أن نعرف لهذا الحوار فلسفته وطبيعته وبواعثه ودواعيه ومقاصده وأهدافه، ونعرف قبل هذا كله ما نريده نحن من هذا الحوار: هل نريد الحوار من أجل الحوار؟ أم نريد حوارًا من أجل مصالحنا ومنافعنا؟ ومن سيتحاور مع من؟ هل تتحاور الحكومات والمؤسسات الرسمية فيما بينها؟ أم تتحاور الهيئات الأهلية والمنظمات الشعبية ومؤسسات المجتمع؟ أم تتحاور الصفوة

من العلماء والمفكرين والأكاديميين من أبناء الوطن العربى مع من يمثلونهم فى الغرب؟ والواقع أن الحوار الهادف النافع المجدى هو الذى يستهدف هذه الغايات جميعًا، وينطلق من هذه الأسس كلها. إن الحوار فى حد ذاته مطلب حيوى، والحوار لا يكون إلا مع الأنداد، ومع الأطراف التى تجمعها الرغبة المشتركة فى إجراء حوار، تهدف من ورائه إلى تحقيق أهداف معلومة متفق عليها، ولا يكون الحوار حوارًا إذا هو افتقر إلى هذه الشروط، وإلا أصبح إملاءً للرأى وفرضًا له من طرف على طرف آخر، إن لم تتوافر له هذه العناصر، وفى هذه الحالة يكون الحوار مزيفًا فاقدًا للشرعية مفرغًا من أى مضمون اللهم إلا الهيمنة والغطرسة وفرض الأمر الواقع.

وحوار المسلمين مع الغرب ينبغى أن ينطلق من هذه الأسس القوية، ويكتسب هذه المعانى الواضحة، ويتجه نحو هذه الغايات المرسومة. وفى هذا السياق فإن الغرب الذى نتحاور معه هو تلك المنظومة المتكاملة من القيم والمبادئ التى تشكل الفلسفة العميقة لمجموعة من الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تحكم دول الغرب بالمفهوم السياسى العام. ونحن حين نتعامل مع الغرب لا نملك أنفسنا من استحضار مشاهد سلبية مؤثرة فى أعماق نفوسنا ونبذل الجهد للتغلب عليها وتجاوزها وإبطال مفعولها فى التأثير على الإرادة القوية التى تحدونا إلى إعادة بناء علاقات ثقة جديدة مع الغرب، مؤكدين العزم على الدخول فى مرحلة جديدة من التفاهم والتعايش والتعاون. إن ما يؤكد انتصارنا على مخلفات الماضى إقبالنا على الحوار مع الغرب، وحرصنا على دعم هذا الحوار وتعزيز دوره فى إثراء العلاقات الدولية وانعكاس الاتصال بين الشعوب. ولكن هل تخلص الغرب من أفكاره ونظرياته عن المسلمين التى سبق أن تكونت عنده من ممارسات فى بعض الدول الإسلامية؟

إن هذه الروح العربية من الصفاء والسماحة والسلم تؤكد على أن الحوار مع الغرب ضرورة، غير أن لهذا الحوار حدودًا يتعين رسمها والاتفاق عليها وهى:

- أن يكون الحوار متكافئًا تتوافر له شروط المساواة والإرادة المشتركة، وأن تتعدد مستوياته بحيث يكون حوارًا شاملاً يدور مع مختلف الفئات على المستوى الحكومى والمؤسسات الأهلية.
- أن يتناول الحوار مختلف القضايا التى تهم الوطن، بحيث يتسع مجال الحوار ويتعمق مجراه ليشمل كل موضوع له صلة بالحياة الثقافية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية.
- أن يهدف إلى تحقيق مصالح مشتركة، وأن يؤدى إلى تأمين المصالح والتى لها صلة بالتقدم فى مجالات الحياة، بحيث يكون للحوار تأثير على مجمل العلاقات بين المسلمين والغرب ويعود بالمنفعة على الجميع.
- أن يكون متحضرًا ومترفعًا عن موضوعات هى مثار اختلاف دائم لا سبيل إلى إزالتها إلا بتنازل طرف من طرفى الحوار عن أحد ثوابته العقدية، وهو أمر بعيد المنال.
- أن يسير الحوار فى خطوط متوازية، ووفق برامج معدة مسبقًا فلا يتوقف الحوار حول موضوع معين، وإنما تترابط حلقات الحوار وتتداخل الاتجاهات فيما بينها وصولاً إلى التكامل بين الأهداف المستهدفة.

إن التخطيط للحوار هو أول شروط النجاح فى تحقيق أهدافه، ولذلك يتوجب تدخل الهيئات والمنظمات المسئولة التى تنهض بمهام العمل الثقافى والفكرى الإسلامى فى قنواته الرسمية، حتى نستطيع التحكم فى الاتجاهات العامة للحوار وتحويلها إلى المسارات التى تفضى إلى بلوغ الأهداف. ويقتضى هذا التخطيط تنسيقًا فى جهود العاملين فى هذا المجال وتحديد الجهات الغربية التى تقبل الدخول فى حوار معها. إن الحوار مع الجهات الأكاديمية والثقافية حول القضايا ذات الثقل المعرفى سيبقى دائمًا هو المدخل الرئيسى إلى الحوار العام حول الموضوعات ذات

الطبيعة الشمولية، وليس بالضرورة أن تنصرف الجهود إلى الحوار ذى الطبيعة الدينية، وإن كان الحوار الدينى أساسًا من أسس التعايش والتفاهم وهو ما يمهد للتعاون فى شتى مجالات الحياة.

ثانيًا: ما يبقى حوارات الشعوب:

إن علاقة الإسلام بالغرب ترجع إلى وقت ظهور الإسلام، فقد أبدى المسلمون فى ذلك الوقت المبكر تعاطفهم مع الروم المسيحيين الذين انهزموا فى حروبهم مع الفرس الوثنيين فى ذلك الزمان. وقد تأرجحت هذه العلاقة منذ ذلك الوقت صعودًا وهبوطًا حتى يومنا هذا، ما بين حروب دموية وتفاعل حضارى وتواصل ثقافى. ويمكن القول إن علاقة العالم الإسلامى بالغرب فى العصر الحاضر تمر بأزمة ثقة بالغة التعقيد.

إن مقالاتنا محاولة جادة تتسم بالصراحة والمكاشفة بعيدًا عن أسلوب التهويل أو التهوين من شأن العقبات التى تعترض طريق العلاقات بين العالم الإسلامى والغرب، كما تؤمن بأن الحوار على المستويين الدينى والحضارى طريق للخروج من المأزق الذى وصلت إليه العلاقات بين الجانبين، وضرورة محاولة بناء جسور الثقة والتعاون بينهما من أجل خيرهما معًا، ومن أجل خير هذا العالم الذى نعيش فيه، والذى هو عالمنا جميعًا.

إن وضوح الفكر لدى بعض المفكرين من الغرب جعلتهم يذكرون بأن جذور الثقافة الأوروبية ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب، بل هى إسلامية أيضًا. فالفن الإسلامى والعلوم والفلسفة الإسلامية قد ساعدت على تشكيل تطور أوروبا وعلى تكييف نموهم كأفراد. وتداخلت فى كيفية التفكير وطرائق العيش، فالأرقام الإسلامية لا تزال معهم وهى التى علمتهم طريقة العد الصحيحة. إن ثقافة الغرب مدينة للإسلام بدين يجدر بالغرب ألا ينساه. فقد سمحنا للأيام أن

تبعدنا عن بعض، وسمحنا لسوء الفهم والتفاهم وعدم الثقة أن تنمو وتكبر وتفرق بين الغرب والإسلام.

يجب ألا ندع سوء التفاهم بيننا يستمر ويتواصل، ذلك لأنه من الخطأ أن تصدر ثقافتان عظيمتان حكمًا جائرًا بعضهما على بعض بهذه الصورة المؤسفة. ثم إنه فى عالم اليوم ليس لدينا أى خيار أو مفر من العيش معًا والعمل متآزرين بسلام ووئام. إن التحديات التى نواجهها تحديات عالمية، فارتفاع درجة الحرارة العالمية من شأنه أن يؤثر فى الشرق الأوسط بالقدر الذى يؤثر به فى أوروبا أيضًا. والشباب فى طهران أو القاهرة هم ضحايا تجارة المخدرات مثل ما هو الحال فى لندن أو باريس، وعدم الاستقرار فى الشرق الأوسط يقلق أوروبا بصفتها أقرب جار للمنطقة مثلما يتعلق المجتمع الإسلامى. فالخيار هنا هو إما أن نعمل معًا متضافرين وننتصر معًا، وإما أن نترك عدم الثقة والتوجس والخيفة فيما بيننا باقية على ما هى عليه، وتكون النتيجة من ذلك كله أن نخسر جميعًا. والبعض يقول إن الغرب بحاجة إلى عدو، وبما أن الحرب الباردة قد ولت إلى غير رجعة فإن الإسلام سيأخذ مكان الاتحاد السوفيتى القديم كهذا العدو. ويقولون إن صراع الحضارات قادم وأنه لا مفر منه، والحقيقة أنهم مخطئون، فالغرب ليس بحاجة إلى الإسلام كعدو، بل فى حاجة إلى الإسلام كصديق. فقد تكون الحضارات التى لدينا مختلفة، وقد تكون الديانات أيضًا مختلفة، ولكن هذا لا يعنى أننا لا نستطيع أن نتعايش معًا، وأن ننسجم معًا وأن يود أحدنا الآخر. وهكذا علينا أن نتعاون معًا لإفشال هذه النبوءة، فالقرآن الكريم فى سورة الحجرات الآية (13) يحث على ذلك فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ وهذا معناه أن علينا أن نعمل معًا لتحسين التفاهم بيننا، وتفكيك تلك الصورة الخاطئة والمشوهة لبعضنا البعض، والتخلص تمامًا من مشاعر عدم الثقة التى تضر بالجميع.

إن كلاً منا يرى الآخر على صورة بدائية مشوهة ومبسطة، فالمسلمون يرون الغرب على أنه مادى يفتقد الروحانية، وعلى أنه عدو للإسلام وعاقد العزم على استعمال قيم الغرب المتحررة لتقويض المجتمعات الإسلامية. والغرب من ناحيته يساوى الإسلام بالأعمال المتطرفة التى يقوم بها البعض، فعدد كبير من وسائل الإعلام يرى الإسلام ليس على أنه ثقافة غنية جليلة مزدهرة متنوعة تدعمها ديانة من أعظم الديانات فى العالم، بل يرونه على أنه الأعمال الإرهابية التى ترتكبها القلة باسم الإسلام. إن كلتا النظرتين فى غير محلهما، والقائل إن ثقافة الغرب غير متجانسة هو مخطئ فإن هناك قدرًا كبيرًا من المعارف يمكننا أن نتعلمه من بعضنا البعض. إن الغرب مدين للإسلام بالشيء الكثير، فالإسلام وضع الأسس الفكرية لمجالات كثيرة مهمة وكبيرة فى الحضارة الغربية، فمن الأرقام العربية التى تستخدم فى الغرب إلى فهم النجوم، فإن الشيء الكثير من أسس حضارة الغرب يعود الفضل فيه إلى العالم الإسلامى. ومن أكبر الأخطاء التى يمكن للغرب أن يرتكبها هو الظن بأن الثقافة الإسلامية شيء غريب عنه، فهى ليست كذلك البتة. فإن ثقافة الغرب والإسلام قد تشابكتا مع بعضهما البعض عبر التاريخ والأجيال، وهما تتشابكان أيضًا فى وقتنا الحاضر، ويجب أن تستمرا فى التشابك كلما أصبح مستقبل كل منا مرتبطًا بالآخر. إن من أهم التحديات الجوهرية التى نواجهها فى هذه الأيام هى كيفية تشكيل علاقة إيجابية بين الغرب والعالم الإسلامى. نحن نسير على الدرب الصحيح لحل المشكلات المعلقة بيننا، وهكذا فقد آن الأوان للبدء ببناء جسور التفاهم والثقة التى نحن فى أمس الحاجة إليها، وعلينا أن نبدأ حوارًا جديدًا بين أوروبا والعالم الإسلامى، حان الوقت كى يجلسا مع بعضهما البعض على أعلى مستوى ممكن، ويتجاور أعضاؤهما حول القضايا الكثيرة التى تهم الجانبين. دعونا نتكلم عن عملية السلام فى الشرق الأوسط وعن العراق وأفغانستان وعن الإرهاب وحقوق الإنسان ومعاملة الأقليات، لأنه بالحوار البناء فقط يمكننا أن

نتعلم كيف يفهم أحدنا الآخر ويثق به. ولكن هذا الحوار يجب ألا يقتصر على الدبلوماسيين بل يمتد ليكون بين شعوبنا جميعًا، يجب على المعلمين من المعسكرين أن يتكلموا معًا، وكذلك يجب أن يتكلم الفنانون والمثقفون والإعلاميون بعضهم مع البعض وعلى جناح السرعة، لأن هناك الشيء الكثير الذى يمكننا أن نكسبه من قيامنا بذلك، والشيء الكثير الذى يمكننا أن نخسره لو أننا لم نقم بذلك. إننا لن نحرر التقدم الذى نحن بحاجة إليه حتى يبدأ المؤثرون فى الرأى العام من الجانبين، فى وسائل الإعلام والتعليم ومؤسسات المجتمع المدنى والأحزاب السياسية، بتعظيم تلك الصور المبسطة والمشوهة، والقضاء على الانطباعات المضللة التى تقع فى صميم النزاع بين مجتمعينا وتسبب التنافر بين ثقافتينا.

إن هناك بدايات مبشرة فى هذا المجال منها محاولات دورية مع قادة الجاليات والأقليات فى دول الغرب لتبادل وجهات النظر، وهناك وزارات الخارجية التى ترعى تبادل الزيارات بين الطلبة والندوات العلمية والمؤتمرات المعدة لإزالة الحواجز والعوائق بين الثقافات. إن على وزارات الخارجية أن تحدث أنظمتها وأجهزتها ومؤسساتها حتى تصبح فعالة حقًا فى هذا المجال، عليها أن تكون ممثلة أكثر من السابق لكل ما يمكن أن تقدمه من تراث فكرى وتنوع عرقى، عليها أن تشجع أقليات المسلمين والمسيحيين فى مجالات الحياة العامة كافة أن يأخذوا بعين الاعتبار السلك الدبلوماسى ويلتحقوا به كمهنة، فهم سيلاقون ترحيبًا من الجانب الأوروبى والإسلامى، لأنه بإسهام المسلمين البريطانيين مثلاً إسهامًا فعالاً يمكننا أن نقول إن بريطانيا قد وسعت البعد الإسلامى فى سياستها الخارجية.

إن أوروبا فى أغلب دولها لها ميزتان فى علاقتها مع العالم الإسلامى، فهناك ومنذ ألف عام من التاريخ المشترك مع أنه لم يكن كله تاريخًا سهلاً أو يسيرًا، وفى أوروبا مجتمعات مسلمة مزدهرة، فيها مساجد ومدارس إسلامية وآثار إسلامية، وكلها يتلقى دعمًا ماليًا من أوروبا، وكل هؤلاء المسلمين يساهمون بفاعلية فى المجتمعات

الأوروبية وفى الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية، وكلها أدوار آخذة فى الازدياد المطرد، ناهيك عن ما يقدمه هؤلاء لدفع الاقتصاد فى أوروبا وتقويته، وشغفهم بالعلم ومشاركتهم فى مؤسسات علمية كبرى. ودول أوروبا مجتمع متعدد الثقافات ومتعدد الأعراق.

إن الجاليات الإسلامية فى الغرب تشكل جسرًا فريدًا من نوعه بين الغرب والإسلام، فهى منتشرة فى أنحاء أوروبا، وهى تتمسك بقيمها الإسلامية السامية وتقاليدها العريقة المنفتحة وأهمها الاتحاد والاعتماد على النفس وتقديم الخدمات فى المناسبات، وهم جزء لا يتجزأ من البناء القومى الأوروبى الذى يقيمون فيه وهم يزيدون من ثرائه الثقافى والفكرى دونما تخفيف أو تقليل أو إجحاف للهوية الإسلامية. وتلك لبنة تشير إلى قدرة الغرب والإسلام على التعايش معًا فى وئام وسلام، ومن فهم الواحد منهما للآخر فهمًا سليمًا، ومن تبادل الخبرات وتعلم بعضنا من البعض وبناء الثقة بين مجتمعاتنا وزيادة ثراء بعضنا للبعض فكريًا وإنسانيًا ومجتمعيًا دون أن يفقد أى منا هويته المستقلة.

إن الحوار أداة لبناء الثقة، ولإقامة أسس التعايش والتساكن والتفاهم ولصناعة المستقبل من الآن معًا. إن التعايش الثقافى والتساكن الحضارى هما اللذان يمهدان للحوار الذى هو ضرورة من ضرورات العيش معًا، فالحوار بين الثقافات والحضارات، وبين الأفراد والجماعات، وبين الشعوب والحكومات، وبين المؤسسات والمنظمات هو الآلية المثلى لتحقيق التوازن فى الحياة الإنسانية.

إن العالم فى هذه الآونة وفى مقتبل الأزمنة محتاج إلى الحوار الحضارى منهجًا ووسيلةً، وأداةً لتفادى التصادم ومنع نشوب الحروب بين الدول واستتباب الأمن والسلم فى العالم. إن البناء الحضارى يتقوى وتعلو مناراته بقدر ما تتضح الثقافة وتزدهر، ويبدع الفكر ويثمر، وينتج العلم ويبتكر، وكلما تجانست الثقافة مع محيطها وتفاعل الفكر فى عصره عظمت حظوظ التقدم فى المجتمع. والفكر قوته فى مدى

استيعابه لمضامين ما يسود محيطه من إبداعات، وأما قوة الثقافة ففى قدرتها على التفاعل مع ما يعاصرها من ثقافات. ومن هذا الاستيعاب وذلك التفاعل تنمو القدرات الذاتية للأمة، فلن تنهض أمة ثقافتها جامدة لا تتجدد وفكرها لا يساير الزمن، وقدرتها العلمية محدودة، وملكات أبنائها قاصرة عن الفهم والتفاهم، فهم الذات والواقع المحيط ومطلوبات رسالة الأمة فى الحياة، والتفاهم مع الشعوب والأمم لمعرفة ما يجرى ولحماية الذات ولتحقيق المنافع.

إن الحضارة فى عمقها وجوهرها هى القدرة العالية على المشاركة فى صنع الحاضر وصناعة المستقبل. والفعل الحضارى هو الجهد البشرى الذى يبذله الأفراد والجماعات، ولا تكتمل لهذه المشاركة شروطها إلا بالتعايش الثقافى الحضارى بين الشعوب والأمم الذى يقوم على قاعدة التعاون الإنسانى الرحب والذى تحكمه القيم الإنسانية، وتضبطه إرادة المجتمع الدولى، ففى ظل هذا التعايش تتفتح الثقافات وتزدهر الحضارات وتتوطد العلاقات ويسود الأمن والأمان والسلام بين شعوب العالم.

إن الإسلام بين الشعوب لن يتحقق إلا إذا تحقق السلام بين الأديان وبين الحضارات وبين الثقافات، ولن يتحقق ذلك كله إلا بالحوار الهادئ الهادف الذى يبرز القيم المشتركة ويسعى إلى نشر التسامح والإخاء بين الشعوب والأمم، لا على أساس العرقية والاستعلاء على الآخر. إن الحوار الهادئ الهادف هو الذى تغلب عليه روح المودة والألفة، وهدفه الإثراء لا الغلبة، والبحث عن أسلوب للحياة يحقق للجميع التعايش السلمى، ويسمح للتقاليد المختلفة أن تتعايش معًا فى داخله وخارجه، إذ من الواجب أن يكون الناس قادرين على اتباع تقاليدهم دون أن يحارب بعضهم البعض الآخر، وأن تحترم كل أمة ثقافة الآخرين وتقاليدهم.

إن التوتر والصراع والحروب يرجع إلى أسباب عديدة فى مقدمتها وأهمها غيبة الحوار الهادئ الهادف بين الأطراف. إن الاختلاف بين الثقافات تتطلب التعقل

والتسامح وإقامة حوار حضارى يسوده الاحترام المتبادل. إن تزايد الحضور الإسلامى فى أوروبا وأمريكا بات حقيقة، ويستوجب التفاعل معه فى إطار أننا جميعًا أبناء إبراهيم عليه السلام، ذلك أن أتباع الديانات السماوية والشعوب والأمم يحتاجون إلى تعارف وتعاون ليتعايشوا فيما بينهم بسلام وأمان.

إن الحوار بين الأديان لا يعنى التوفيق بين الأديان أو توحيدها، ومن ثم فإن علينا أن نرحب بالحوار مع الأديان الأخرى، وأن نؤمن بضرورة هذا الحوار بمقتضى الشرع. فدين الإسلام هو دين الحوار والجدل بالحسنى، والرسول الكريم أمّن أهل الكتاب على دينهم، وقرر حقوقهم فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، وحث أصحابه على الهجرة إلى الحبشة والاحتماء بملكها النجاشى. إن مجال الحوار قد امتد ليتجاوز أتباع الديانات إلى كل البشر. وجاءت الدعوة قوية إلى حوار الحضارات وأمست شعارًا دوليًا متداولاً. إن الحضارات مهما اختلفت وتنوعت لابد أن تتعايش، الأمر الذى يفرض على المفكرين والقادة السياسيين معًا ضرورة البحث عن الوسائل النظرية والعملية لتحقيق التعايش فى إطار الاختلاف ولن يكون ذلك إلا إذا كان الفهم الصحيح سبيلاً إلى التفاهم والتوفيق. إن من حق كل إنسان أن تكون له رؤيته وتوجهاته دونما فرض من أحد أو احتكار للحكمة ومعرفة الصواب منه.

إن الاجتهاد والاختلاف نقطة بدء أساسية لا مجال لتجاوزها، وبقاء النوع الإنسانى يتطلب لذلك تأكيد العناصر المشتركة بين الذات والآخر وتعميقها، وحصر عناصر الاختلاف وتحجيم آثارها، وفى هذا الإطار تأتى المبادئ الملهمة للوجود الإنسانى ولبناء الحضارة الإنسانية. إن الحرية الفكرية، والأخوة الإنسانية، والمساواة الطبيعية والعدالة المطلقة هى القيم القادرة على أن تقود حركة الحوار المثمر بين الدول والشعوب، وهى الأسس والغايات فى وقت واحد لتلاقى الحضارات وتلاقحها من أجل ميلاد عالم جديد يخلو من الهيمنة والعنف والتهديد

وتوحد العولمة. إن الفهم الصحيح للإسلام الحنيف يؤكد تلك القيم ويؤكد دورها الفاعل فى بناء الحضارة والنموذج الإسلامى، الذى يرفدها بالموروثات الحضارية الإنسانية، ويفيد من جديدها ومتجددها فى آن واحد. إن الفهم العميق لدور مصر الحضارى عبر التاريخ يقدم نموذجًا شديد التألق للتواصل الحضارى الذى تتحاور فيه الحضارات وتتلاقى الثقافات. فالحضارة المسيحية لم تقض بصورة مطلقة على الحضارة المصرية القديمة بل أخذت منها ما منحها طابعها المميز لها، وأكدت به هويتها، والحضارة الإسلامية بدورها لم ترفض بشكل كامل مقومات الحضارات السابقة عليها، بل استخلصت منها ما اشتد به عودها وتعاظمت بفضله قوتها. والحضارة الحديثة أفادت من هذا كله وأضافت إليه. وهكذا أصبحت هذه الحضارات بفضل التفاعل الخلاق حلقات فى سلسلة متسقة تنمو ولا تتوقف وتقدم ثمراتها تعاونًا وتسامحًا وعطاءً وسلامًا، إنها آلية لارتياد الطريق نحو آفاق جديدة فى التعامل بين البشر بعيدًا عن الهوية والديانة والجنسية يحل فيها الفهم محل الصراع، والتعايش محل الحروب والوعى بأن التواصل الإنسانى برغم الاختلاف يجب أن يكون الحقيقة الحاكمة للعلاقات الفردية والاجتماعية والدولية على السواء.

إن الحوار هدفه الأسمى التعايش مع الآخر بعقل مفتوح وقلب مفتوح، وينهض على احترام الذات والآخر، ويعتمد على تأكيد القيم المشتركة، ويعمل على ازدهار العلاقات الإنسانية والاجتماعية مهما اختلفت مقوماتها وتنوعت تقاليدها. إن تعايش الحضارات الإنسانية ولَّد إنجازات إنسانية. وحوار الحضارات أصبح مطروحًا على الساحة الدولية أكثر من أى وقت مضى، لأن عالم اليوم تقاربت فيه الحضارات، وتفاعلت فيه الثقافات وتشابكت فيه المصالح. إننا نعيش فى قرية صغيرة كونية مسامية الجدران فيها ثورة المعلومات والاتصالات وثورة التقنيات ولم يعد بإمكان شعب من الشعوب أن يعزل نفسه، ومن هنا فلا مفر من التحاور والتعايش السلمى بين الأمم والشعوب، من أجل الاستقرار والخير والأمن والسلام.

والحوار قبل ذلك كله ليس من هدفه أن يترك الآخر دينه أن يتشكك فى عقيدته وهويته وثقافته، بل إنه يهدف إلى عدم البقاء على مواقف ثابتة وجامدة فى توجهات كل منا، ويهدف أيضًا إلى التعاون من أجل اكتشاف السبل التى تمكننا من تجاوز أنفسنا، لكى نصبح أصلح من ذى قبل فى علاقاتنا المتبادلة مع الآخر من أجل توسيع مدى الخير فى العالم أجمع. إن الحوار يتطلب الحضور الكامل مع الناس، ويتطلب قبل كل شىء إرادة العيش مع الآخر، وأن نشعر نفسيًا بأننا سن عالمهم مع بقاء الإنسان مخلصًا لنفسه ولإيمانه وعقيدته على أن يحقق كل منا حسب قدرته وأهليته هذا النوع من الاندماج فى العالم الآخر، كمعرفة لغتهم وتفهم ثقافتهم ماضيهم وحاضرهم والشروط الحالية لحياتهم وآمال الجميع فى مستقبل أفضل. إن نظرتنا للآخر يجب أن تكون نظرة من نتقاسم معه من خلال أخوة ومساواة أحسن ما فى وجودنا المشترك، بل يجب أن نتجاوز الماضى بما يثيره من آلام وذكريات، والمهم هو التركيز على المستقبل للحصول على عدالة أكثر ومحبة أكثر، وود وتقارب وانفتاح من أجل تطوير الإنسان وإقامة مجتمع أكثر أخوة، تحقيقًا لسعادة الإنسان وكرامته وسموه الروحى والأخلاقى.

إنه ليس ثمة قانون يلزم المجتمعات أو الثقافات بأن تقيم بينها علاقات إيجابية دائمة. والاحتكاك بينها يقتصر فى أغلب الأحيان على تفاعل عدوانى يتصل بالأرض أو مصادر الثروة أو الشئون الإستراتيجية، وهذا الاحتكاك يكون احتكاكًا إيجابيًا نافعًا عندما تقوم بين المجتمعات والثقافات عمليات تبادل تجارى. وعدا ذلك فلن يكن ثمة فى الأصل عناية بالآخر المختلف. إن القسمة الثنائية (هم / نحن) تضمنت على الداوم تراتبًا وتصنيفًا خاصة مع بدايات الديانات السماوية للوجود، ذلك أن الوحى السماوى يحمل معه اليقين بأننا فزنا بالحقيقة، ومن شأن ذلك الفوز أن يجعل التلفت إلى ثقافات أخرى طلبًا لمعلومة أو معرفة مما لا نفع فيه أصلاً إن لم يكن خطيرًا، بحكم ما يمكن أن يتهددنا من فقدان للحقيقة المقدسة التى فزنا بها.

عاشت المجتمعات على هذا الضرب من العلاقات مع غيرها المختلف، وذهب كل طرف إلى الاعتقاد أنه امتلك الحقيقة الأساسية، وأن الآخر تبعًا لذلك على ضلال، وليس ثمة ما هو جدير بأن يعرف ما عنده. ولنا أن نتبادل التجارة معه مع إبداء ضرب من التسامح حياله، أما الحقيقة المقدسة فليست تقبل التبادل.

إنه قلما توجد ثقافتان كانت الاتصالات بينهما على درجة عالية من الكثافة والاستمرار مثلما جرى بين الثقافة المسيحية الأوروبية والثقافة الإسلامية العربية. ففى ما وراء المتوسط كان الاتصال بينهما فى أغلب الأحيان عدوانيًا ووديًا أحيانًا، ولكنه لم يكن البتة يدفع إلى اللامبالاة. فالإدراك للآخر لا يكون إلا فى إطار ما للملاحظ حظ من رؤى للعالم. فالمسلم عند المسيحى صاحب بدعة عنيد، والمسيحى عند المسلم يرفض وفى غير حكمة وبعناد الوحى الختامى المتاح له. ومع ذلك فقد كان ثمة أيضًا إحساس حتى فى الاتهام بالرفض أو بالبدعة، بأن الجميع يتصور على نحو واحد الإله الواحد الحاكم فى الكون. وقد كان حتى هذا التماثل فى تصور الإله يشكل ضربًا من الخطر، لذلك ظل الآخر يمثل تحديًا دائمًا، غير أن البشر بصرف النظر عن اختلاف الأديان إنما هم شركاء متساوون توحد بينهم قوانين الطبيعة، كما أن جميع أشكال الإيمان يمكن لها أن تنفع الإنسانية. إن ما يستحق ويتوجب أن يلتفت إليه ها هنا إنما هو بالأحرى الموقف الجديد المتحرر من الخوف من الآخر باعتباره خطرًا عسكريًا، والمحرر من الرؤية الروحية الصماء، وهو موقف جديد أمكن بفضله أن يعتبر الآخر بمثابة الشريك وبمثابة الند.

إن هذه الآفاق الجديدة التى فتحها عصر التنوير ظلت آفاقها محدودة وبقيت الرؤية التى جعلها ممكنة رؤية ضبابية، ثم إن هجوم الثورة الفرنسية وهجوم الثورة الصناعية أنشأ مجتمعات جديدة تمامًا فى أوربا، سرعان ما بدأ إنتاجها الاقتصادى وتنظيمها الاجتماعى وتأثيرها العسكرى فى السيطرة على بقية العالم إمبرياليًا. هذه السيطرة الجديدة غلقت الأبواب التى فتحها عصر التنوير وتنكرت لرؤية الآخر

باعتباره شريكًا وندًا. فلم ينتقل الآخر من وضع العدو صاحب البدع الذى يشكل خطرًا عسكريًا وروحيًا، إلى وضع الشريك المحتمل إلا ليتحول مستقبلاً إلى شىء يمكن أن يحكم ويستغل اقتصاديًا وتقع السيطرة عليه سياسيًا. فقط أصبح الآخر فى أحسن الحالات مجرد عبء على الإنسان الأبيض، وأنه بفضل تربية ملائمة يمكن أن يبلغ الإنسان الأبيض قمم الحضارة الكونية. ولتبرير مقولة إن الآخر عبء على الإنسان الأبيض كان البُعد العنصرى الذى أضفى للهيمنة الأوروبية صفة الهيمنة الباقية التى لا مناص منها. فقد كانت التربية نظريًا على الأقل تربط الثقافة بالإمبريالية، وتم إدراك عمق هذا النمط من التفكير الذى حددته الإمبريالية عند المستعمِر والمستعمَر معًا، فهو ببساطة أسلوب فكرى لم يدع مكانًا لأخذ الآخر مأخذ الشريك الند فى تاريخ العالم. وبالنظر إلى هذه الحصيلة غير المشجعة لحوار أوروبا والعالم العربى عبر التاريخ، يطرح سؤال اليوم لمعرفة ما إذا كان بوسعنا أن نجرى الحوار بين شركاء أنداد باستطاعتهم أيضًا أن يسلموا بما بينهم من فوارق.

إن هناك من التطورات الإيجابية تحملنا على أن نجيب عن السؤال بالإيجاب، وإن لم يخل ذلك من تردد. ذلك أنه قد تراكمت بأوروبا منذ القرن التاسع عشر معارف علمية متسقة تخص العالم العربى الإسلامى حيث ساهمت العلوم السياسية والعلوم الأنثروبولوجية مساهمة لا يستهان بها فى معرفة العالم العربى. كما أنه ظهر الاهتمام بالعالم العربى حيث بدأت دراسة الإنجيل دراسة علمية نسقية، وهو ما أفضى إلى دراسة اللغات السامية والدراسات الدينية المقارنة لمختلف أشكال الديانات التوحيدية، ودواعى هذا البحث كانت دواعى خصوصية تعكس حاجات مختلف المجتمعات الأوروبية واهتماماتها. ومع ذلك فقد تراكمت كتل هائلة من الأعمال الأكاديمية والترجمات والمنشورات، فلم تصبح المعرفة أكثر عمقًا ومنهجية فحسب، بل إن البحث نفسه أصبح أكثر علمية وتحررًا من الأحكام المسبقة. ولعل خير ما يشهد لذلك من الأمثلة الأسلوب الذى انتهجه الأدب الأوروبى فى معالجة (حياة

محمد) عبر القرون، فقد انتقل من وضع المسيح الدجّال حتى فى نظر غير المؤمنين إلى وضع الشخص الداعى إلى الاحترام ووضع المصلح المؤسس لدين كونى جديد. كذلك تحررت خلال الربع الأخير من القرن العشرين الدراسات العربية والإسلامية إلى حد بعيد من نموذج الاستشراق، أى من وضع العلم القائم بذاته الذى يعنى بالغريب الأجنبى. ففى ألمانيا مثلاً سعت جامعات مختلفة إلى إدراج دراسة المجتمعات العربية والإسلامية فى صلب مختلف المواد مثل الجغرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع، انطلاقًا من الفرضية القائلة بأنه إذا كانت المناهج والنظريات العلمية الخاصة بكل مادة ذات قيمة ما وجب فيها أن تنطبق على جميع المجتمعات بشكل واحد.

إن هذا السياق يشير عرضًا إلى وجود ضرب من الخلل لابد من معالجته، فالمتعلمون العرب أحسن اطلاعًا عادة على أوروبا وخبرتهم بها تفوق بكثير خبرة المتعلمين الأوروبيين بالعالم العربى. ومع ذلك فليس ثمة فى بلدان المشرق مؤسسات جامعية تعنى بدراسة أوروبا. ولئن كانت دراسة اللغات الأوروبية واسعة الانتشار، فإن المؤسسات الجامعية لا تبادر إطلاقًا بدراسة نسقية مستقلة تتصل بتاريخ دساتير مختلف البلدان الأوروبية أو الأدب الإيطالى، أو دراسة ألمانيا أنثروبولوجيًا أو إنجلترا اجتماعيًا، أو دراسة العلاقات الدبلوماسية بين بلدان أوروبا أو غير هذه وتلك من دراسات.

وفى شىء من الوضوح فى القول: لِمَ لا تدرس المسيحية دراسة نقية علمية لا من حيث هى دين حق أو غير ذلك، ولكن من حيث هى عامل أساس من عوامل تاريخ أوروبا الثقافى والفكرى، وهو عامل تقهقر خلال القرنين الأخيرين أمام مسيرة علمنة المجتمعات الأوروبية. صحيح أنه ثمة جمع لا بأس به من العلماء الجيد اطلاعهم على هذا الموضوع، ولكن لا وجود أصلاً لبرامج علمية، ولا لبحث

مؤسسى حول أوروبا فى العلوم الإنسانية والاجتماعية. فبعد أن حطمت حربان عالميتان اندلعتا فى أوروبا — القوى الإمبريالية القديمة، وبعد أن فقدت القبضة الحديدية للحرب الباردة سيطرتها علينا جميعًا، فإن أوروبا والعالم العربى بلغا وضعًا جديدًا من توازن القوى، وتلك معادلة أسقطت منها بداهة الولايات المتحدة. وقد يكون من الصواب أن نتحدث بالأحرى عن توازن انعدام القوى، وهو ما يعنى على أية حال التحرر من الخوف من الآخر. وينبغى أن نعى أن ثمة حدودًا لهذا الحوار واضحة المعالم، فهو بادئ الأمر حوار بين أناس متعلمين، فلا أعتقد أن السائح الألمانى المتوسط يمكن له وهو يتجول فى مصر أن يدرك أكثر من صيغ مبتذلة نمطية تتصل بالثقافة والمجتمع الذى يعيشه المصريون، وكذلك شأن المهاجرين أصيلى الشرق الأوسط فى ألمانيا، فمستواهم فى اللغة الألمانية ليس مستوى راقيًا وهم لا يهتمون إلا قليلاً جدًا بمعرفة المجتمع الذى احتضنهم. ولكن حتى ضمن المجموعة الأكثر معرفة من الجانبين لا يوجد إلا جزء منها يريد المشاركة فى الحوار. فلنا جميعًا أصوليونا الذين لا يشعرون البتة بالحاجة إلى الحوار وفهم الآخر، فثمة من جهة المجموعات الأصولية الإسلامية بمختلف نحلها التى يعتقد كل منها أنه فاز بالحقيقة وفهم الوحى الفهم الصحيح، وليس للآخر إلا أن يسلم بتلك الحقيقة أو من يرفضها فيتحول بذلك إلى عدو. أما فى الغرب، وليس فى الولايات المتحدة وحدها، فقد أعيد صهر أحكام مسبقة بالية وضروب من الخوف متقادمة تراكمت منذ العصر قبل الحديث للمسيحية والعصر الإمبريالى، وأعيدت صياغتها صياغة ما هوية لا تاريخية فى شكل صراع بين الحضارات يلعب فيه الإسلام أكثر فأكثر دور الطرف الشرير. وعلى هذا يقتضى الواجب تجنيد أفضل ما فى فكر عصر التنوير وكل عمل الجامعيين وعلمهم لتحويل هذا الحوار إلى قوة إيجابية حيوية، ويستدعى ذلك أيضًا مناخًا سياسيًا لا يكون فيه أى من الطرفين فى وضع يخول له أن يسيطر على الطرف الآخر.

ثالثًا: مستقبل الحوار مرهون بمستقبلنا:

إن الرؤى الواقعية إلى الحوار مع الغرب تجعلنا لا نتطلع إلى تطابق تام فى وجهات نظرنا تجاه القضايا التى يتناولها الحوار، حيث إنه لا سبيل إليه فى القضايا الثقافية والفكرية والمعرفية. وهو أمر طبيعى لأن لكل طرف عقيدته وفلسفته ورؤيته، ولكننا نأمل فى أن يتطور الحوار مع الغرب أسلوبًا ومنهاجًا وفلسفة، لا لينسجم مع ما نريده نحن، وإنما لينسجم بالدرجة الأولى مع الروح الجديدة التى تسود العالم اليوم، ومع مبادئ الشرعية الدولية القائمة على قرارات الأمم المتحدة، وحتى يكون هذا الحوار وسيلة فعالة من وسائل بناء الأسس الجديدة للعلاقات الدولية.

الحوار مع الغرب لم يحقق حتى الآن الأهداف التى حددت له، فهل معنى ذلك أن فكرة الحوار غير مجدية؟ أم أن الفكرة فى حد ذاتها فى حاجة إلى تطوير لتساير روح العصر؟ أم أن السبب وراء هذا الضعف وقلة الجدوى يعود إلى انعدام شرط من الشروط الرئيسة للحوار وهو التكافؤ بين طرفى الحوار؟ إنه مهما يكن من أمر فإن حوارنا مع الغرب سواء كان على مستوى الحوار الدينى أو على مستوى الحوار السياسى والاقتصادى فى حاجة إلى مراجعة نقدية على الأسس والمبادئ والأهداف والوسائل والسبل فى آن واحد. إنه لابد أن يتم تقييم دقيق وشامل للنتائج والمعطيات وتصحيح ما يتوجب تصحيحه.

إن من أسباب توقف الحوار مع الغرب ضعفنا نحن العرب أو المسلمين وتشتت جهودنا، وقلة التنسيق فيما نقوم به من عمل فى هذا الاتجاه، إضافة إلى الوضع العام الذى وصل إليه العالم الإسلامى من جراء التطاحن والتصارع فى ظل تراجع التضامن وقصوره عن الوصول إلى غايته التى تجمع بين أطراف الأمة الإسلامية الواحدة، وتقوى ذاتيتها وإثبات الحضور على الساحة الدولية. إنه بقدر ما نقوى

البناء الداخلى للعالم الإسلامى بأكمله وتبادل المنافع والمصالح فيما بيننا، تتوافر لنا الأسباب الموجبة لإثبات الذات لا لفرص الذات، ولإقناع جميع الأطراف بأننا أمة متحضرة تعرف مسارها وتتحكم فى مصيرها وتتخذ الوسائل الكفيلة لبلوغ أهدافها. هنا يتبدل الموقف الذى يتخذه الغرب من حوارنا معه، وتتغير رؤيته لنا ويقدر مكاننا قبل الدخول فى حوار. إن الغرب على تعدد مشاربه وتنوع منازعه ينظر إلينا من زاوية واحدة هى وضعنا الراهن، وتنعكس تلك الرؤية على أسلوب تعامله معنا على كل المستويات. وإن كنا نتطلع ونسعى من أجل أن نكتسب هذه المكانة وليس فى هذا ما ينقص من الجهود الطيبة والإرادات الصالحة التى تعمل من أجل تقدم العالم الإسلامى وازدهاره فى شتى المجالات.

وعليه فإن تحفيز العوامل الذاتية وتنشيطها أمر حيوى للدفع بإرادة العمل نحو غايات مرسومة. ومن هنا فإن حوارنا لابد وأن تتوافر له العوامل النابعة من الذات والحوافز الصادرة من البيئة والمحيط والمجتمع. وعلى هذا الأساس فإن مستقبل حوارنا مع الغرب مرهون بما سنصل إليه من تطور حقيقى فى ميادين القوة السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية، وبما سنحققه فى المدى القريب من تقدم يرتقى بنا إلى المستوى الذى نطمح إلى بلوغه. وعليه أيضًا فإن حوارنا مع الغرب سيظل دائمًا مرتبطًا بأحوالنا الداخلية وبأوضاعنا السياسية والاقتصادية، وبما نملكه من أسباب القوة المادية ذات التأثير المباشر، وهذا لا يعنى التوقف عن المساعى التى نبذلها من أجل مدّ جسور التواصل مع الغرب، إلى أن تبلغ المستويات الراقية من التقدم التى تؤهلنا لاكتساب شرط التكافؤ مع الغرب، ولكن المعنى الذى نقصده هو أن تتكامل جهودنا، وتترابط مساعينا وتنسق مواقفنا، بحيث نسير فى خطوط متوازية نحو الاتجاهات التى نرسمها لأنفسنا، وهذا يقتضى أن نعمل دائمًا على إقناع الغرب بأننا جديرون بالحوار معه على كافة المستويات، وبأننا أمة قابلة للتعايش والتعاون مع كل الأمم والشعوب، وأن التعايش والتعاون والتسامح هى قيم

راسخة فينا وثابتة فى حضارتنا. إن العمل بهذا المنهج ذى الأفق الواسع من شأنه أن يؤدى بنا إلى تطوير الحوار مع الغرب، وإلى إثراء هذا الحوار ودعمه وإلى الوصول به عند المستويات التى تحقق لنا مصالحنا وتحفظ سيادتنا وذاتيتنا الحضارية واستقلالنا الفكرى غير القابل للذوبان فى الثقافات التى لا تنسجم مع ثقافتنا وحضارتنا وهويتنا دون أن يكون ذلك ضربًا من الانعزال والانكفاء على الذات، ولكنه الانفتاح المحسوب والتعامل مع الغير على أسس قوية ووفق مبادئ ثابتة. إن الحوار مع الغرب لا ينبغى أن يكون محصورًا فى هذه الدائرة لا يتعداها إلى دوائر أوسع. نحن فى حاجة إلى أن ننتقل بالحوار إلى مؤسسات الإعلام والجامعات ومراكز البحوث، وننشئ أقسامًا علمية للدراسات العربية الإسلامية فى الجامعات الغربية، ونقيم جسورًا من التواصل والتعاون بين مؤسساتنا الإعلامية والتعليمية والغرب، ونتبادل التجارب والخبرات ونتائج البحوث والدراسات فى شتى فروع العلم والمعرفة، ونضع الأسس القوية لهذا التعاون، فهذا نوع من الحوار مع الغرب علينا أن نحسن استثماره إلى جانب دخول مؤسساتنا الإعلامية فى التعاون مع المؤسسات الإعلامية الغربية وفق القواعد المهنية، وأن يتجه رجال المال والأعمال فى عالمنا العربى إلى الاستثمار فى ميادين الإعلام الغربى، وأن نتوسع فى إنشاء المراكز الثقافية فى الغرب لتكون مواقع لنا لتبادل الحوار منها مع الأطراف التى نريد. إنها وسائل ذات فعالية وتأثير فى حوارنا مع الغرب، على أن يتواكب هذا الجهد مع الجهود الأخرى فى الميادين السياسية والاقتصادية حتى تتكامل الجهود ويكون لحوارنا مع الغرب فائدة وجدوى.

إن المصالح المشتركة للشعوب والحكومات لن تتحقق فى إطار النظام العالمى بتجاوز هويات الأمم والشعوب، أو بمحو خصوصياتها الثقافية والحضارية حتى ولو كان وراء ذلك كله قوة واحدة ذات إرادة قاهرة. وأيًا كانت الأسباب وراء طبيعة العلاقات بين الدول، فإن هناك اتفاقًا على أن هذه العلاقات تنطوى على

صراع لا ينتهى على القوة ومن أجل المصالح. ومن هنا فإن السعى وراء القوة هو الهدف الحقيقى للدول، ولكن على أساس ما يعرف فى العلوم السياسية وفى الفلسفة الاجتماعية السياسية تحديدًا بنموذج الاعتماد المتبادل الذى يؤكد على الأبعاد التعاونية فى الطبيعة الإنسانية وفى العلاقات بين الدول. وهذا النموذج يستند إلى قوى التعليم والتفاعلات الثقافية والتنمية الاقتصادية والتجارة الدولية والتقدم التكنولوجى لكى يعزز إمكانات السلام الدولى والكرامة والحريات الإنسانية. وهذا النموذج يرى العالم على أنه يمثل مجتمعًا من الدول التى تتفاعل فيما بينها على مستوى عالٍ له ديناميكيته الذاتية فى مجالات التبادل الدبلوماسى والاقتصادى والاجتماعى.

إننا فى حواراتنا مع الغرب يجب أن ندرك أن العولمة لا يمكن أن تكون نقيضًا للهوية، ولن تكون بديلاً عنها. إن العولمة بهذا المفهوم وفى هذه الحدود، وفى إطار التنوع الثقافى وازدهار هويات الشعوب، وفى ظلال الحوار الراقى الهادف بين الأديان والحضارات هى الخيار الإنسانى المتاح والمفتوح أمام مستقبل البشرية، وهو الأمر الذى يؤدى بالتتابع وبتراكم التجربة إلى تعميق الاحترام المتبادل بين الجميع. إن التسامح أمر لا غنى عنه فى الحوار وفى العلاقات السليمة فى أى مجتمع، وعندما يتحول التسامح إلى احترام متبادل، وهى صفة أكثر إيجابية، فإن نوعية العلاقات ترتقى بشكل واضح. ومن ثم فإن الاحترام المتبادل يشكل أساسًا لإقامة مجتمع إنسانى تعددى، وهو نوع المجتمعات الذى يمثله الجوار العالمى ذاته، لا يتميز بالاستقرار فحسب، بل باحترام تنوعه الذى يغنيه. إن النظام القانونى الدولى لا يكون فى خدمة الإنسانية إلا إذا قام على قواعد القانون الدولى واستمد من روح الإنسانية وقيمها مبررات وجوده وعناصر بقائه واستمراره. أى أن العولمة ذات النفع العام لابد وأن تكون محكومة بقوة القانون الدولى، الذى يكفل للدول سيادتها كاملة غير منقوصة، وللإنسان حقوقه موفورة غير مهضومة.

إن المادة الثالثة عشرة من ميثاق الأمم المتحدة تنص على إنماء التعاون الدولى فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية، والعاملة على تحقيق حقوق الإنسان والحريات الإنسانية للناس كافة، كما أن المادة الثالثة والسبعين تؤكد على كفالة تقدم شعوب العالم فى شئون السياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم ومعاملتها بإنصاف، وحمايتها من ضروب الإساءة كل ذلك مع مراعاة الاحترام الواجب لثقافة هذه الشعوب. إن حماية حق التنوع الثقافى تقتضى تنمية التعاون الدولى فى ميادين التربية والعلوم والثقافة فى إطار العهود والمواثيق والاتفاقيات القائمة التى تحكم عمل المؤسسات الدولية. إن ممارسة حق التنوع الثقافى على مستوى العالم لن تتم إلا إذا انتعش الحوار بين الأديان والثقافات والحضارات ونما وتطور، وأدى هذا الحوار إلى ترسيخ قيم التوافق والتعاون والتعايش بين أتباع الحضارات، وإلى تدعيم التعاون الدولى فى إطار المنظمات الدولية التى تشكل المنظومة العالمية التى تتجمع حولها الشعوب والأمم التى يتوافق عليها أتباع الأديان والثقافات والحضارات.

إن الحوار والتفاعل بين الثقافات والحضارات لكى يكون حوارًا هادفًا مؤثرًا ومتفاعلاً تفاعلاً فاعلاً وبانيًا يجب أن يقوم على قاعدة الاحترام المتبادل بالمعنى الأخلاقى الرفيع، وبالمدلول الحضارى السلمى. كما يجب أن يقوم الحوار والتفاعل بين الثقافات والحضارات على قواعد اجتمع البشر على صحتها وسلامتها، باعتبارها القانون الذى يحكم المجتمع الدولى حتى يكون الحوار والتفاعل الحضارى فى هذا الإطار، وهكذا يصير الحوار المفضى إلى التفاعل الحضارى فعلاً إنسانيًا مؤثرًا فى حركة التاريخ، وعنصرًا مساعدًا على استتباب الأمن والسلام على الأرض، وقوة دفع لاستقرار الحياة الإنسانية ولازدهارها ورقيها.

إننا لا نريد حوارًا وتفاعلاً بين الثقافات والحضارات مجرد ترف فكرى، ولا نريد حوارًا وتفاعلاً لا تكون لهما انعكاسات على الواقع المعاصر ولا تصل آثارهما إلى

دوائر صنع القرار، ولا نريد حوارًا وتفاعلاً ينطلقان من الإحساس بالتفوق العنصرى وبالاستعلاء الحضارى ويصدر عن روح الهيمنة الثقافية. إن هدفنا الرئيسى من إقامة الحوار الذى ينتج عنه التفاعل الحضارى بين أهل الثقافات والحضارات، ومن هنا يتوجب إشاعة قيم التسامح كما يفهمه المؤمنون بوحدة المصير الإنسانى وإلى ترسيخ الهوية الثقافية والحضارية.

إن فرض نظام القيم على عالم الواقع، والاستعاضة عن القانون بالعنف، واختراع صورة العدو هو ذنب من الإنسان على الإنسان.. هو ما يبدد المنطقة الأبدية المظلمة فى نفوسنا وفى طبيعتنا. ذلك إن الإنسان هو كائن عامل. إن الأمر متعلق بكرامته التى أضحت اليوم على ما يبدو تركة لا وريث لها، شاهد على ذلك ما يطالعنا من كل حدب وصوب من انعدام التسامح، وانفصال أواصر التضامن البشرى، وتنامى الظلامية الأصولية حتى غدا من باب معاندة البديهيات القول إن ما يشن اليوم من حروب هو لغرض السلام، وأن الحق فى الاختلاف هو ضد الاستقرار وعصيان أولى الأمر. إن الفقر وانعدام الثقافة هما آليتان لانتشار ثقافة الحقد، مما يدفع بلا عقل وبمنطق الإقصاء إلى حدودهما القصوى، ويجعل من تلك الفروق هوة سحيقة من المحال تخطيها. وبحكم هذا الفساد الذى لحق بالعلاقات الإنسانية يجعل ما يقبع قبالتى إنما هو الآخر الغريب الذى يمكن اختزاله فى هندامه وتقاليده، وعليه فإن العالم يطرح وهو متوتر الأعصاب سؤالاً عن الحوار بحدة لا مزيد عليها، وحوار الثقافات أو الأديان أو الحضارات ليس فى ذلك كله أكثر من صورة بلاغية يراد بها الإنسان فى كونية مفهومه وصيرورته التاريخية، وبالتالى من جهة ما هو قيمة وواقع فى آنٍ واحد.

إن واجبًا علينا جميعًا أن ندرك انتماءنا المشترك إلى أصل واحد، وإليه مآبنا جميعًا حتى الآخر الخصم والعدو والغريب، وهو ما يعنى مبدئيًا أننا أخلاقيًا متساوون ومتماثلون، وذلك هو الشرط الأول لكل حوار ممكن.

والحق أنه ليس فى هذا الأمر ما قد يثقل على النفس، بل فيه راحة للضمير. غير أن النظر إلى الفكر العربى المعاصر بما يميزه فى شكله الغالب اجتماعيًا وإعلاميًا وأكاديميًا بعامة من ميل إلى القول بخصوصية هى أقرب ما تكون إلى اللاعقلانية. إن التواصل بجميع أشكاله حوارًا وجدلاً وتبليغًا وخصامًا إنما هو من شروط استقامة التفكير، كما أن الاجتماع البشرى بدءًا بالأنا والأنت، حتى القرية الكونية، هو الموضع الطبيعى لكل تواصل ممكن، وهو شرط إمكانه والداعى له فى آن واحد. ولما كان الاجتماع البشرى فى جميع مراتبه إنما هو ما يسمى المدينة أو المدنية، باعتبار مقولة إن الإنسان مدنى بالطبع، فإن تدبرنا ذلك يدور على معنى العمران، أو الحضارة بما توجبه من تدبير ينظم شأنها نسميه اصطلاحًا سياسة. وعلى هذا النحو يكون الحوار فعلاً مدنيًا أو حضاريًا، إذ يتقوم بالتعايش والتواجد وتبادل المنافع، وتشكل الأوطان الاشتراك فى الأحاسيس والرؤى والحياة الروحية والفكرية والوجدانية عامة. وبالتالى كان الفرق بين الثقافة والحضارة فى الدرجة لا فى الطبيعة وربما تماهيًا، إلا من إلحاح هنا أو هناك على الترف أو لكافة العيش أو الكماليات الزائدة عن الحاجة قد نلعنها ولكن لا نستغنى عنها، ليس بحكم ولع الإنسان بالنعيم ولو أدى إلى اهتزاز سلطانه فحسب، وإنما أيضًا لأن الترف من ضرورات ترقى الحضارة ذاتها. وإذا كان الأمر كذلك لزم عنه أن الحوار بما هو تبادل وتجاوب ومجادلة وتواصل يحقق التعايش الإنسانى والاجتماع البشرى، وهو بالتالى واقع فى صميم الثقافة ببعديها المادى والمعنوى، وفى عمق الحضارة فى شمول معناها وتداعى مكوناتها.

إن الحوار من حيث هو تبادل وتواصل واقعة تاريخية، لم تنعدم قط لازمن الحرب ولازمن السلم، فالمسلم الفاتح كان يقايض أسراه مقابل أن يتعلم منهم شيئًا ما، أو يتنازلون له عن كتاب أو أثر فنى ما، والمسيحى الصليبى كان يأخذ عن المسلمين وهو يحاربهم. إنها أجيال تتعاقب وتتحاور فى أثناء أزيز المدافع ودوى الرصاص منذ استشراء المدّ الاستعمارى فضلاً عن الاتجار أو التبشير، فكلها من آليات الحوار

الحضارى، وكلها واقع تاريخى فى مسيرة الاجتماع البشرى وتاريخ الحضارات بما لها وما عليها، وبانتصاراتها وهزائمها، وبأريحيتها الإنسانية وغبائها الذى لا يطاق. وهذه الديناميكية التاريخية لم تستثن أحدًا، بل إنها شملت الإنسانية كلها، ومكونات الحضارة جميعًا أدوات تقنية ومفاهيم نظرية وقيمًا أخلاقية ودينية وجمالية، بحيث يكون من الوضوح القول بتزامن البنى الاجتماعية وصيرورة الثقافات حتى تلك التى تبدو لبطء ما يلحقها من التغيير خارج التاريخ. وليس ما يحتاج إلى بيان أن ذلك التغيير يلحق فى العمق المقدس والدنيوى والمادى واللامادى من أبعاد الثقافة، وبتفاوت الزمن يتراوح أهمية تبعًا لخطورة تلك الأبعاد فى الوجود البشرى، عملاً ونظرًا ووجدانًا. إننا فى أغلب الأحيان ننتهى فيها يشبه التوبة العقلية إلى الإعراض عن الخطأ والإقبال على الحقيقة. أما التغيير القيمى فهو أشد عسرًا بحكم اتصاله بالإيمان والعقيدة وحقيقة الخير والشر والقبح والجمال، وبها ألفنا حتى غدا قطعة من وجودنا وعمدة المعنى فيه، فإذا التخلى عنه علامة من علامات اهتزاز الوجود ودمار الكون، فهى المقاومة على أشدها وبكل ما أوتينا من آلة بها فى ذلك العنف والإرهاب دفاعًا عن إيلافنا. والحق أن الآثم العربى لا يقل ها هنا عن الآثم الغربى، فالعربى تواصل مع ثقافة الغرب الحديث من خلال إنتاجاته دون مسار الإنتاج ذاته بشروطه النظرية والقيمية، طلبًا لسير الحياة العملية. وهكذا ردّ العربى الغرب فى هذا الأفق النفعى إلى تكنولوجيات وآلات، تغنى متعتها وجدواها المباشرة عن فهم العقلانية التى صدرت عنها والقيم التى التصقت بها سواء تعلق الأمر بالمغامرة المعرفية ذاتها، أو بمنزلة الإنسان فى الوجود وعلاقته بالآخر والمطلق فى سياق التجربة الإنسانية عبر التاريخ. ولم يكن الغربى أرحم بالعربى من العربى ذاته، فهو عنده بقعة نفطية كبرى وسوق لمنتجات جاهزة، له أن ينتفع بها وليس له أن يفهمها، وهو ما تقوم عليه شاهدًا برامج نقل التكنولوجيا، فتكدست المصانع على المصانع وتكسرت الآلات على الآلات دون أن ينشأ فكر صناعى عربى، فضلاً عن إسهامٍ عربى فى الإبداع العلمى والإنشاء التكنولوجى.

إن هذه الانتهازية المتبادلة نشأت عنها كارثة عامة يعانى ويلاتها اليوم الجميع، ذلك أن التبادل لم يجر على أصوله، بل على قسمة ضيزى أردناها لأنفسنا انتهازًا ومتعة، ولم يتردد الغرب الرأسمالى فى تلقفها فرصة زادت ثراءه وعمقت بؤس سواه. وهكذا كان الحوار والحال لم ينقطع قط بيننا، منها أنه دار على سوء تفاهم تاريخى، فالعربى أراد من الغرب تقنياته وأسباب ترفه دون العقلانية التى أنتجتها والقيم التى لزمت عنها، والغربى أراد من العربى ذراعه فثروته الطبيعية فاستهلاكه. ونسى هذا وذاك أن البضاعة ليست صماء ولا محايدة، بل هى تحققًا ذاتية متموضعة وأفكار متجسمة وإرادة بشرية بسطت سلطانها على ملكوت المادة العاطلة، فإذا البضاعة عامة نمط حياة لا يكاد يخفى أثره فى الذهن والضمير والوجدان وإن تأخذ الوعى به إلى حين. وليس يمكن أن نستهلك غربًا ونفكر شرقًا إلا إلى حين قريب.

إن تكاثر الدعوات إلى حوار لم ينقطع إنما هو اعتراف صريح بفشل أشكال التبادل القائم بين العرب والغرب عامة وأوروبا خاصة، عرت عن بؤسه وسوء مآله هذه العولمة الزاحفة وهذا الاستقطاب الأحادى العالمى، وقيام قانون المنافسة يلغى ما تبقى من حدود وسياسات حمائية ونظم امتيازيه فى عالم ينخره الفقر والجهل والمرض، ويتنامى فيه الإحساس بالحرمان ويتزايد الوعى بالظلم وفق القوة الطائشة، مما يغذى اليأس ويدفع إلى الإرهاب والتطرف بجميع أشكاله. والأمل معقود على أن يكون ذلك الاعتراف بداية التوبة الشاملة، وإلا فهى حرب الجميع على الجميع لا يأمن فيها الضعيف بطش القوى ولا القوى صلة الضعيف، وليس أشد مضاضةً على النفس من وقع الاحتقار واللامبالاة على نحو ما دلت عليه أحداث واشنطن الأليمة. إن أولى تباشير التوبة المعرفة، إذ ليس ثمة إلزام لثقافة الحقد من الجهل فماذا يعرف العربى عن الفكر الغربى؟ وكيف نفسر تجاهلنا آثار عظماء أوروبا وفلاسفة وأدباء وفنانين صنعوا هذه الحداثة التى نستهلك منتجاتها دون أن نعرفها؟ وهل

قدرنا ما بذل المستشرقون لخدمة ثقافتنا؟ ومتى نفهم أن اجتهاداتهم فى ثقافتنا عرضة للخطأ بحيث لا يدعو الأمر إلى اتهامهم وسوء الإضمار؟ ومتى ندرك أن الغرب ليس مجرد المادة والعرى والبغى، بل هو صانع الحداثة العلمية والفلسفية؟ ومن زاوية أخرى: متى يفهم الغرب أن العربى راسخ فى التاريخ عميق الجذور فى الحضارة، علّم الإنسانية ما لم تعلم، وأغدق عليها فى غير مَنّ. فالعرب شعب ثلثاه دون الثلاثين قدرة على التعلم وطاقة إبداعية لا تقدر، ومتى يدرك الغرب أن الاستغلال لا يمكن أن يمتد إلى ما لا نهاية له؟

إن التوجه المنهجى الذى يمكن أن نصوغه على نحو بسيط، وإن يكن سلبيًا، هو أنه ليس ثمة من مجال إنسانى أو طبيعى لا يكون مفتوحًا للجميع يجتهدون فيه فيصيبون ويخطئون، ولكنهم يعمقون المعرفة باستمرار ويتقدمون بالعلم على الدوام. فالعلم جماهيرى مبدءًا وموضوعًا وإن تفاضل الناس فى اكتسابه بحسب الجهد والاستعداد، وعليه فإن الحوار معرفة وأخلاق ومشاركة خيره من أجل الجميع.

إن التعليم الجامعى والعالى يعيش أزمة ممتدة تتمثل فى عدم القدرة على مواكبة التحولات الواسعة المتسارعة، أو التلاؤم معها فى عالم أصبح يتسم باشتداد نسق التغير، وترجع هذه الأزمة إلى عدد من الأسباب فى مقدمتها الأعداد الغفيرة التى تقاطرت على مؤسسات التعليم، والتى أصبحت من الكثير إلى الحد الذى جعلها شبه عاجزة عن استيعابها، وترجع هذه الأزمة أيضًا إلى ما انتهت إليه الجامعات التى اكتسبت هويتها وأنظمتها من عصر المجتمعات الصناعية من فشل، ذلك أن الارتباط الشديد بين التعليم العالى وتلبية طلبات العمل يشير إلى عجز سوق العمل عن استيعاب الخريجين من أصحاب الشهادات الجامعية، الأمر الذى يدعو إلى التساؤل عن جدوى التعليم الجامعى والعالى، كما يدعو إلى التساؤل أيضًا عن جدوى التكوين والإعداد الذى يقدمه هذا التعليم العالى والجامعى للطلاب، بل والنظر إليه بكثير من الشك. يضاف إلى ذلك أن الديمقراطية التى أقبل عليها التعليم العالى أصبحت تدفع إلى الجامعات

سنوياً بأعداد من أبناء الطبقات الاجتماعية غير الميسورة، والتى يهمها من التعليم الحصول على عمل يجوزه حصولهم على رخص جامعية أو شهادات مهنية.

وانعكست هذه الأسباب على التعليم الجامعى والعالى نفسه من حيث برامجه ومحتواه وطرائقه وأنشطته وأساليب تقويمه، مما أدى إلى تدنى مستواه ومستوى المنتج التعليمى الجامعى والعالى، بل إن حظه من الثقافة العامة تقلص إلى حدّ الانعدام التام، حيث اختص بإنتاج مهنيين متخصصين وأدى إلى تسربات متعاظمة من التعليم، وانسداد شرايين وآفاق العمل. إن التعليم العالى والجامعى أصبح مشغولاً بذاته، وبالتماس المخارج المتنوعة من الأزمة المتعاظمة التى تردى فيها، التعليم الجامعى والعالى خطاب يكرر نفسه مختنقاً فى الانغلاق، ولا علاقة له متينة بالثقافة من حيث هى إبداع وتجديد، ثم إنه تعليم يزاول بمعزل عن المجتمع، وقد أصبحت هذه الظاهرة لافتة للانتباه عندما أسست الجامعات وسيطرت عليها ثقافة الزحمة فى جامعات حكومية وخاصة على حدٍّ سواء، بعيدة فى أنشطتها ومهارات خريجها عن الحياة الاجتماعية، ناهيك عن أن الجامعات والتعليم العالى شأنه شأن المجتمعات العربية مازالت حائرة بين التبعية للماضى والتبعية للآخر، مغتربة فى الحالتين عن حاضرها، فاقدة أى مشروع قومى مستقبلى يضعها فى إطار المنافسة العالمية.

هل يمكن أن نتحدث عن حوار بين الثقافات فى مثل هذا الفضاء المتأزم؟ إن انشغال التعليم الجامعى والعالى بنفسه قد صرفه عن الثقافة، ثم إن تهافت المستوى نتيجة جمهرة هذا التعليم وارتباطه بسوق العمل وانسداد الآفاق أمام حملة الشهادات، ووفرة التسربات، والتعلق بأهداب الاختصاصات الدقيقة، والإقبال على التكوين قصير المدى قد أدى جميعه إلى إهمال الثقافة فى التعليم الجامعى والعالى. إن القول بأن التعليم الجامعى والعالى عارياً عن تشكيل منتج ثقافى يظل فى تقديرنا مستفزاً، وإذا كان طلاب جامعات العالم الثالث لا يعرفون عن ثقافتهم أكثر مما يعرفه عنها طلاب العالم المتقدم فهذا معناه أن من يجهل ثقافته فهو بثقافة غيره أجهل.

غير أن التعليم الجامعى والعالى الأجنبى أو قل التعليم الخاص لأن قادته مواطنون مشدود إلى أوروبا يعرف عنها أحياناً أكثر مما يعرفه عن الثقافة العربية الإسلامية، بل هو مسحور إلى الحدّ الذى يجعله يعرف عنها أحياناً أكثر مما يعرفه الأوروبيون أنفسهم، إلا أن هذه المعرفة كانت مشغولة بالأوضاع الداخلية العربية تبحث عن الحلول الناجعة لها، ذلك أن الجامعات العربية وفيها تتجلى الصراعات الفكرية التى تهزّ المجتمع قد عرفت الفكر الاشتراكى والليبرالى وعرفت الحداثة وما بعد الحداثة، والكثير من الأساتذة ومن الطلاب المشتغلون بالسياسة والفكر ينتقلون من هذا التيار الفكرى إلى ذاك ومن هذا المذهب إلى ذاك، ويوغلون أحياناً فى اللهاث وراء أى جديد غربى حاملاً لبصيص أمل ويرتدون أحياناً إلى إسلام يفهمونه فهمًا خاصاً، وهم فى ذلك يغفلون أن الغرب يرفع عالياً شعارات العدل والمساواة والإنسانية والإخاء وحقوق الإنسان والسلام ويكيل بمكيالين، ويمعن فى حرمان الشعوب الأخرى مما ينعم به هو من رفاهية، ويتعالى ممتهنًا الآخرين بما فى ذلك جموع المهاجرين الأقليات الذين يعيشون تحت سمائه، ولم يكن التيار الإسلامى منتشرًا بين طلاب الجامعات ولكنه كان منتشراً وشديد الانتشار فى الجامعات الدينية والجامعات العلمية والحوار عندهم أحادى الجانب داخل الفكر الواحد والثقافة الواحدة. إن الجامعات والتعليم العالى قد أصبح مشغولاً بأزمته الدائمة التى تتمثل فى عجزه عن مواكبة التحولات المذهلة، وعن انكماشه رغم الأعداد المهولة التى تدفقت عليه فى فضاءات ظل فيها منعزلاً عن الحياة وعن اشتغاله بالثقافة والحوار مع الآخر.

إننا نعيش فى عصر أصبح عجيب الكلام يطابق فيه عجيب الوقائع، حتى إنه يمكن القول إن هذا العصر قد حوّل كوكبنا من عالم متناهٍ من الحقائق اليقينية إلى عالم لا مُتناهٍ من الشكوك. ومن سمات عصرنا أن الأفكار والنظم صارت تتهاوى فيه على مرأى من بدايتها، وتتقادم فيه الأشياء وهى فى أوج جدتها، بل إن القلق والخوف والتوجس قد بلغ ببعضهم إلى الحدّ الذى صار يحمل على الخوف والتوجس من النجاح والارتياح

للفشل. إن عالمنا أصبح مسرحاً للمتناقضات، فبينما تتحد دول كبرى، كانت بينها صراعات دامية طويلة، تتفتت دول صغرى لم يكن بين سكانها عظيم المواجهات، وبينما تتيح أعتى وأقوى الدول بما تحققه يومياً من معجزات ترتعد أمام جماعات أضعف منها وأفقر، وبينما يعتبر التدمير والتقتيل إرهاباً متى صدر من قوم يعتبر دفاعاً شرعياً عن النفس باعتداء على الآمنين فى دولهم متى صدر من قوم نصبوا أنفسهم شرطى العالم. ومما طلع به علينا عصرنا هذا تكنولوجيا المعلومات تياراً جارفاً مكتسحاً كل شىء وأصبحت تكنولوجيا المعلومات محوراً للتنمية العلمية، وبات مؤكداً أنها تفتح عهداً جديداً يختلف جذرياً عما عرفت البشرية من عهود، حتى إن بعضهم صار يقسم التاريخ إلى عصور ثلاثة هى: عصر الزراعة وعصر الصناعة وعصر المعلومات.

إن تكنولوجيا المعلومات باتت تغزو التعليم العالى والجامعى، وبسطت عليه جانباً من سلطانها، فتأسست الجامعات الافتراضية وانتشرت فى دول كثيرة، والدراسات المستقبلية راجت سوقها لأن التحولات السريعة التى أخذ بها الواقع لم تعد تمنح البحث العلمى ما يلزم من وقت لإنجاز الدراسات واستخلاص النتائج، وأصبحت تتفنن فى تسطير الاحتمالات المتفائلة والمتشائمة التى قد يكون عليها الغد فى القريب والبعيد، والذى أصبح واقعاً حاصلاً هو التحول العميق الذى دخل على التعليم بجناحيه العام والعالى. غير أن التعليم الجامعى الافتراضى جاء بمعطيات جديدة، فالجامعة لم تعد بنايةً موجودةً بالفعل يتردد عليها الطلاب والأساتذة، بل أصبحت موقعاً رقمياً يزار، والطلاب والأساتذة لم يعد يعرف بعضهم بعضاً عندما تجمعهم قاعة أو مدرج أو ساحة، ولم يعد يعرف ما يطرحه البعض من أسئلة وآراء وأفكار إذ بإمكان الطالب أن يدرس المواد التى يشاء وقتما يشاء وبالنسق الذى يشاء وحيثما يشاء. والمواد الدراسية أصبحت محكومة بالطلب والعرض. وهذا يعنى أن التحول الذى حدث يتحدد فى أن الانسجام والتكامل الذى قام عليه التعليم الجامعى والعالى حلّ محله شتيت مجزأ من التخصصات والمعارف والثقافة حظها ضئيل

وبرامجها معدومة، لأن الصبغة الفنية العملية تأتى فى صدارة التعليم العالى الافتراضى وفقاً للعرض والطلب والكلفة والربح. والتعليم العالى وهو ذو طابع فنى تكوينى يبدو متجهًا إلى كيف تعرف أكثر من اتجاهه إلى ماذا تعرف، والكيفية هنا تقنية فنية قبل كل شىء. إن مواقع البث على الانترنت تشير إلى أنه ليس ثمة حوار بل مواجهة إيديولوجية، ذلك أن النبرة عميقة حادة تقوم على الازدراء بالآخر وتنكئ الجراح القديمة وهى ليست حوارًا بل هى مخاطبة المرء نفسه، فالذى يتكلم فى تلك المواقع يتكلم محاصراً بمشاعر العزلة والوحدة.

إن رسالة الجامعات هى تنمية قدرات النقد والتمحيص، وهنا نميز بين الجدل والنقد، فالجدل خطة للهيمنة والظفر بالخصم ومحاولة إقحامه وإسكاته بإبطال المستندات التى يقدمها، أما النقد فهو خطة للبحث عن الحقيقة توضح الفروق وتتفادى التشهير والإزدراء. وإذا كان التعليم الجامعى هو الفضاء الذى يعلم النقد وكيف تكون الحقيقة. حقيقةً كان التعليم الجامعى هو الفضاء الأمثل للحوار بين الثقافات دون جعله يتفتت فى شتات من المواقع الافتراضية تبعاً لمسارات يتوجه إليها التعليم الجامعى والعالى.

حوار الحضارات، أو حوار الشمال والجنوب، أو الحوار العربى الأوربى، أو الحوار الإسلامى المسيحى، أو حوار الشرق والغرب كلها عناوين تدور حول مفهوم واحد هو الحوار بين حضارات تعتمد على ثقافات مختلفة فى نظرتها إلى الكون والإنسان، وهو مفهوم جدير بالدراسة والاهتمام على المستويات التعليمية والإعلامية المختلفة، ولا بد أن ينتقل الأمر فيه من الفهم إلى الإقناع والاقتناع، ثم إلى مرحلة التعاون والعمل المشترك بين جميع المؤسسات التعليمية والإعلامية بهدف اقتلاع جذور الأحقاد والصراع بين الأمم والشعوب، وبهدف رسم مستقبل أفضل لشعوب العالم على أساس مساحة عريضة من الفهم والتفاهم المشترك، والتخلى عن الخصوصية والإقليمية المنعزلة والثقافة المعيارية مع احترام وتقدير هويات الشعوب.

إن الشعوب والأمم تتبادل المعارف والخبرات وأنماط الحياة من قيم وتقاليد وسلوك، عن طريق التفاعل الطبيعى فى إطار نسيج إنسانى متواصل فى الحضارات على مدى تعاقب الأزمان وتبادل وتباعد المكان، وهو المفهوم المشار إليه فى الثقافة الإسلامية وفى القرآن الكريم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ الحجرات (13) فقد خلق الله الناس متفاوتين مختلفين وليظلوا كذلك للتعارف والتبادل والحوار بين بنى البشر، وحيث قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ هود (118-119) وهكذا استمرت الحياة واستمرت العلاقات بين الأمم والشعوب فى المعمورة مستقرة حيناً ومتقلبة حيناً، حتى تقوم على أساس التفاهم والاحترام والتبادل من أجل تحقيق أرضية مشتركة للتعاون والحوار بين الحضارات والثقافات والأديان، باعتبار أن ذلك يمثل أرقى صيغ الحوار مع الآخر الذى يقوم على الاعتدال والتسامح ويقوم على الكلمة الراقية والمنهج العقلانى والانفتاح على الآخر، والدخول معه فى حوارات جادة وهادفة على مستويات متنوعة ثقافية وفكرية وسياسية، من أجل الأهلية للمساهمة فى صياغة حضارة إنسانية تسود فيها قيم الخير والحق والفضيلة، وتهدف إلى الانتفاع بالمعارف والاكتشافات والتقنيات، وتمكن كل إنسان من التقدم العلمى وخدمة الإنسانية، وحتى يفتح الحوار مجالاً واسعاً أمام تفاهم الشعوب والأمم وتقارب الثقافات وتلاقح الأفكار والتفاعل الحضارى الذى يدعم التعاون بين الشعوب والأمم، ويساعد فى مواجهة تحديات العصر ورؤى المستقبل. إن التفاعل الحضارى بين الأمم هو نتيجة حتمية لتراكم معرفى وعلمى واجتماعى متواصل. والحضارة الإسلامية قامت على أساس التفاعل الحضارى، واقتبست من ثقافات أمم وشعوب، وصهرت جميع ذلك فكانت حضارة الإسلام حضارة إنسانية لها أثر

كبير فى نقل روح المدنية إلى جميع الشعوب التى تفاعلت معها، واحتفظت بمركز الصدارة منذ أوائل العصور الوسطى، ليس فى بلاد الشرق فحسب بل فى بلاد الغرب أيضاً، إذ نمت حضارة الغرب فى ظل حضارة الإسلام التى كانت أكثر منها رقياً.

إن قاعدة التسامح التى يقوم عليها الإسلام جسرت الفجوة والاحتكاك مع شعوب الأرض، والتسامح هو آلية التفاعل الحضارى، وهو ما يوضحه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ فصلت 34. إن التفاعل الحضارى والتواصل الثقافى يوصل إلى الحوار العلمى الهادئ، وهو لا ينطلق من الإحساس بالتفوق العنصرى أو الاستعلاء الحضارى أو روح الهيمنة الثقافية، لأن كل ذلك يقطع التواصل وإذكاء روح التعارف الثقافى والعلمى.

إن التفاعل الحضارى لا يتحقق إلا إذ كانت لكل أمة هويتها وخصائصها الذاتية وتصوراتها الفكرية، وبذا يتحقق التفاعل الإيجابى الناجح بعيداً عن التبعية الثقافية والفكرية والتلقى لفكر والمستورد لتصور من أمم أخرى، بل إن الهوية الوطنية ضرورة حيوية لمدّ جسور التلاقى والتعاون والتفاعل مع ثقافات وحضارات وديانات أخرى، وحتى يحتفظ التفاعل الحضارى بالعطاء المتوازن والمنفعة المتبادلة. إن الحوار مع الآخر فرض كفاية، وهو حوار له أسسه وضوابطه التى من أهمها:

- أن يكون الحوار متكافئاً، تتوافر فيه شروط المساواة والإرادة المشتركة، وأن تتعدد مستوياته ليكون حواراً شاملاً يدور فى مختلف الفئات على المستوى الحكومى ومؤسسات المجتمع المدنى.
- أن يهدف الحوار إلى تحقيق المصالح المشتركة للطرفين والتى لها علاقة بالسعى نحو التقدم فى مجالات الحياة المتنوعة.

- أن يبتعد الحوار وأن يتجاوز الموضوعات التى تتعلق بالخصوصية الخلقية والعقائدية للشعوب.
- أن يتم الحوار وفق برنامج مسبق تم الاتفاق عليه، هدفه التواصل والتفاهم لتحقيق التفاعل الحضارى آلياته المؤتمرات والندوات والحلقات العلمية التنافسية.

إن أمم العالم وشعوبه يعيشون فوق أرض واحدة، ولا بد أن يتفاهموا فيما بينهم توطئةً للتعاون الدائم لخير الجميع، والاختلاف بينهم مسألة طبيعية غايتها التثاقف الحضارى بين الشعوب والأمم، لأن اللغات تلاقحت والمجتمعات تعاونت، والحضارات عبرت من مكان إلى آخر وكل ذلك يقوم على الجدل الحسن دونما إكراه ودونما رسم طريق واحد أو وجهة واحدة. بل بالاعتراف بواقع متنوع وفى إطار يحفظ للشعوب هويتها.

إن المسلمين على مر العصور تعاملوا مع شعوب مختلفة وأجناس متعددة على أساس الاحترام والتفاهم والتواصل، ولم يحاولوا استلاب ثقافة الآخر أو إملاء ثقافتهم عليه بالقوة، وهو ما يعنى أن العلاقة بين حضارة الإسلام والحضارات الأخرى علاقة حوار وتفاهم وتواصل لا علاقة صراع وتصادم وتنافر، كما هو حادث فى صورة العربى المسلم فى وسائل الإعلام فى الغرب وأمريكا، حيث يظهر فى صورة كاريكاتورية مشوهة غالباً ما تكون صورة الإرهابى التى تظهر العنف جزءاً لا يتجزأ من الدين الإسلامى، أو تظهر صورة المسلم وثقافة الإسلام بأنها مصدر خطر وعامل تهديد لثقافة الغرب وحضارته، بل هو العدو الذى يجب محاربته والقضاء عليه. أى إن العلاقة بين حضارة الغرب وحضارة الإسلام هى علاقة صراع الحضارات لا حوار الحضارات، وأصبحت تلك العلاقة هى الخطة الإستراتيجية لأمريكا والغرب فى مواجهة تحديات المستقبل، غير أن هناك من يدعو إلى أن تكون العلاقة قائمة على التفاهم والتعاون والحوار والتواصل، وعليه لا بد من بناء علاقات ثقافية بين الحضارات المتعددة تقوم على معرفة قيم الإسلام ومثله،

والتخلص من مشاعر التحيز ضد الإسلام والمسلمين والتحلى عند فهم الإسلام بروح العدل والأنصاف والموضوعية. إن سوء الفهم بين الإسلام والغرب لا يزال مستمراً بل ربما يزداد، وإن الصراع يندلع نتيجة عدم القدرة على فهم الآخر والخوف وعدم الثقة، وإن التطرف ليس حكراً على الإسلام بل ينسحب على ديانات أخرى. إن المسلمين لهم مخاوفهم التى يتوقعونها من الغرب، والتى يرون أن آثار بعضها لا يزال ماثلاً أمام أعينهم: ومن مظاهر الخوف وعدم الثقة ما خلفته الحروب الصليبية من آثار، وكذلك الاستعمار الأوربى، والطمع فى ثروات الأمة، وللغرب مخاوفه من الأصولية الإسلامية وما خلفته من تدمير.

إننا فى حاجة إلى الحوار وهو يتحقق إذا كان بين الطرفين مصالح متبادلة ترمى إلى تحقيق التوازن بين طرفى معادلة الحوار، ولا بد لهذا التوازن من وجود قوة تقف وراءه، تلك هى التعاون الثقافى بين الشرق والغرب أو الشمال والجنوب دونما تمييز بين ثقافة وأخرى، فالثقافات نتاج مسيرة التاريخ وهى من صنع البشر. إن الحوار ضرورة حياة وضرورة تقدم ينبع من طبيعة هذا العصر الذى تزايدت فيه عوامل الاتصال بين الشعوب بفعل معطيات الثورة المعلوماتية وثورة التقنيات المتقدمة. وإن من مطلوبات الحوار فى عصر ثورة الاتصالات والمعلومات تعظيم القيم الإنسانية التى تحث على التسامح والتراحم والتواد والتعاطف، وتدعو إلى الإيثار والحب لمدّ جسور التفاهم بين الشعوب والدول وتقوية أسباب السلم فى مدلوله العام، وتدعيم دواعى الأمن فى مفهومه الحضارى الشامل، مع الإيمان قولاً وفعلاً بقيم العدل والحق والمساواة بين بنى البشر، وتلك أصول الإسلام التى هى الآن أصول القانون الدولى، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ** ﴾ الحديد (25). إن الحوار البناء يقوم على هذه المفاهيم دونما تجاوز أو هيمنة أو تعظيم القيم الربحية، مع إقرار حق التعدد والاختلاف والتعايش الحضارى والثقافى بين بنى البشر.

إن الدعوة إلى إشاعة ثقافة الحوار بين أبناء العالم العربى الكبير فرض واجب، وإشاعة ثقافة الحوار بين العالم العربى والآخر فرض واجب أيضاً، أى الحوار مع الذات توطئةً للحوار مع الآخر، ولا بد أن يمتد الحوار ويشمل فعاليات الحياة بجميع فئاتها ومستوياتها ويتنوع متجاوزاً العقيدة والتاريخ والثقافة مصوباً آلياته وعملياته وأخلاقياته، ذلك أن الحوار وحده هو سفينة النجاة للإنسانية حيث يقوم على انفتاح العقل العربى على آفاق المستقبل للمشاركة فى صناعة التقدم الإنسانى الذى يقوم على التعاون والتسامح، مدركين أن وحدة الحقيقة لا تنفى تعدد الرؤى والزوايا وتنوعها، وأن الاختلاف فى الرأى لا يفسد العلاقات السوية بين الأمم والشعوب، ذلك أننا فى عالمنا العربى فى حاجة ملحة أساسية وضرورية لحل مشكلاتنا وصولاً إلى بدائل وخيارات ونتائج وأهداف وغايات، فلنبدأ معاً حواراً مع الذات، فمن لا يستطيع محاورة نفسه لا يحاور الآخرين، ولتكن قاعدة الحوار قائمة على أن: مذهبنا راجح يحتمل الخطأ ومذهب غيرنا مرجوح يحتمل الصواب.

رابعاً: إنه حوار مع الأخ وليس الآخر:

إن فتح ملف الحوار الثقافى العربى الأوروبى على أسس مستحدثة تراعى مطالب الحاضر ورؤى الغد، وبأساليب غير مطروقة تتجاوز المواقف البروتوكولية، لتنفذ إلى المصاعب الحقيقية وتقتحم الآفاق الممكنة، هو التعبير الحقيقى عن إرادة عربية تمدّ اليوم أكثر من أى وقت مضى يدها إلى أوروبا بصدر رحب تدعوها إلى كلمة سواء تخدم السلم وتقوى أواصر التعاون على ما فيه خير الجميع، وهى فى ذات الوقت إرادة مشتركة بين العربى وأخيه الأوروبى أى بين العربى والأخ لا بين العربى والآخر، فكلنا أصحاب حضارة قديمة كانت أم حديثة، وكلنا بحاجة ماسة إلى ثقافة السلام، ومكافحة العنصرية، والدعوة إلى التسامح والحوار بين الأديان والتعاون مع المنظمات الدولية والإقليمية.

وهذا هو عالمنا العربى يقع عند ملتقى قارات ثلاث هى أفريقيا وآسيا وأوروبا، وبالتالى يشكل حلقة وصل واتصال مستمر منذ أقدم العصور، ومن هذا الموقع الجغرافى المتميز انبثقت الرسالات السماوية والحضارات الإنسانية. إن هذه المرحلة تتطلب المساهمة فى خلق جو ودى للحوار بين الثقافة العربية الإسلامية والعالم الأوروبى، وفتح آفاق جديدة من التفاهم والتعاون بين العالم العربى وأوروبا. إن الحضارات والثقافات لا تتصارع بل تتعاون وتقتبس من بعضها البعض، وهذا واضح عبر التاريخ الإنسانى الطويل حتى أثناء حالات التصادم بين الدول. نحن جميعاً فى حاجة إلى جو ودى وفتح آفاق جديدة، حتى يتفهم كل جانب ثقافة أخيه الآخر، وحتى يتحقق التعاون بين الشعوب، واحترام ثقافتها وخصوصياتها وتراثها مما يعزز ثقافة السلام بين الجميع، ويضع حداً لبذور العنف ودواعى الإرهاب.

إن الإسلام دين السلام والمحبة والتسامح، وتلك مفاهيم تضمنتها سور القرآن وآياته، ففى سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ وقوله فى سورة البقرة: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ وقوله: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ وتلك المفاهيم الحضارية تفتح الطريق للتسامح وتعزز روح الإخاء والتفاهم والتعاون التى سادت بين المسلمين وغيرهم عبر الزمن، والتى تساعد على خلق جو روحى يسوده الود والتفاهم بين الأديان والناس. إن نظام الحكم فى الإسلام يقوم أساساً على مبادئ أربعة هي: الحرية الدينية والسياسية، والعدالة، والمساواة، والشورى. والحضارة العربية الإسلامية انطلقت بأقصى سرعة بسبب جو التسامح والتعايش بين مختلف الديانات والثقافات، وشارك فى نموها علماء ومفكرون من ديانات وثقافات عدة. إن ما يعتريها من مظاهر للضعف سببه اختلال التوازن بين هذه المبادئ الأربعة.

إن عالم اليوم فى حاجة ماسة حقاً إلى ثقافة السلام، ولعل نداء السلام الذى رفعته الأمم المتحدة وشاركت فيه اليونسكو مع المنظمات الحكومية وغير الحكومية هى خطوة مهمة لإيجاد التفاهم بين الشعوب والثقافات ونبذ سياسة العدوان والعنف، وارتفعت أصوات كثيرة تدافع عن فكرة أن السلم والتقدم رهينتان أكثر من أى وقت مضى فى عالمنا المفتوح للحوار والتبادل فى إطار الاحترام المشترك والمساواة والندية، ومنذ ذلك الحين توجهت جهود دولية وقومية ووطنية إلى إنشاء المعارض والمنشورات ومختلف النشاطات الثقافية، وكلها ييسر الحوار ومضاعفة اللقاءات وتعميق معرفة الأخ والآخر.

إن الاختلاف مصدر إثراء متبادل، ولذلك عملت الهيئات المنظمة للمؤتمرات الدولية للحوار بين الثقافات لتحقيق ثلاث مناح. أولها حسن اختيار موضوع الحوار الثقافى حيث إنه استقرّ بقوة فى العلاقات الدولية المعاصرة، وفى العلاقات عبر الوطنية وكذلك فى السياسات الداخلية، واحتل هذه العنصر المكانة التى كان يحتلها عنصر العقائد الكبرى فى القرن العشرين، وثانيها اختيار كوكبة من الشخصيات التى تغنى بفكرها وتجاربها أعمال المؤتمرات والمنتديات، وثالثها رموز الأماكن التى تستضيف تلك المؤتمرات باعتبارها مراكز إشعاع للتعريف بكافة أوجه الثقافة العربية فى أوروبا.

إن أحداث الحادى عشر من سبتمبر التى أدنّاها كما ندين كل عمل إرهابى أمريكى أو أوروبى — سمحت للبعض باستغلال المناخ الحاصل بعد هذه الأحداث من أجل شن حملة لأهداف ثقافية وسياسية ضد العرب والإسلام والمسلمين. وقد حاول هذا البعض استدعاء نظرية صراع الحضارات لإسقاطها على علاقات الغرب مع العرب والمسلمين، تارة من خلال الحديث عن التفوق الحضارى وترتيب الحضارات، وطوراً من خلال كتابات وسياسات تقوم على الخلط والتعميمات والاختزال والصور النمطية: هجوم يقيم جدرانًا ثقافياً بين الغرب

والآخر العربى والمسلم بشكل خاص بعد أن سقط جدار برلين، ويهدف إلى تشويه قضايا تحرير وطنيه لها دينامياتها وخصوصيتها، مثل قضية الشعب الفلسطينى من خلال التعامل معها عبر منظور مكافحة الإرهاب، على حين أن المقاومة الوطنية ضد الاحتلال حق واجب مشروع ومطلق.

إن نظرية صراع الحضارات التى جيء بها من طى النسيان بعد الحادى عشر من سبتمبر لا تستند إلى قاعدة علمية أو موضوعية وتعانى من قصور مفاهيمى، ذلك أن الحضارات والثقافات ليست أطرافاً فاعلة فى النظام العالمى، بل الدول والمنظمات والأفراد هم الأطراف الفاعلة وهم الذين حسب منظومة القيم التى يعتنقونها، يتصارعون أو يتعايشون مع الآخر، لكن بعض الأطراف التى تريد أن تصادر حق التحدث باسم فضاءات ثقافية معينة، وهى أطراف غير محصورة فى فضاء ثقافى واحد أو محدد، تدعو للاصطدام مع الآخر من خلال سياسة الإقصاء والتهميش، وعدم احترام ذلك الآخر فتؤدى إلى ما يسمى صدام الجهالات أو حوار نفى وإقصاء الآخر.

إن إنجاح أى حوار ثقافى يستدعى: أولاً أهمية القبول بشرعية الاختلاف مع الآخر، فالاختلاف ليس حكماً مصدر نزاع وتوتر، بل إذا ما أحسنت إداراته قد يكون مصدر إثراء متبادل، والاختلاف الثقافى لا يعنى بالضرورة الخلاف السياسى. وثانياً إن الاهتمام بتغيير الآخر والتأثير فيه من خلال الحوار يفترض أيضاً القبول بالتأثر بالآخر، وبالتالى بحصول تغيير ذاتى فى كثير من المفاهيم والقيم المترسخة. وثالثاً المطلوب هو التنبه لعدم الوقوع فى فخ الثقافوية، ذلك أن الحوار الثقافى ليس حواراً حول الثقافة فحسب، بل يجب أن يشمل القضايا الأخرى مصدر التوتر فى العلاقات بين أطراف فى فضاءات الثقافات المختلفة من قضايا اقتصادية واجتماعية وسياسية وغيرها قد يعبر عنها فى أوقات أو فى حالات معينة بأشكال ثقافية. رابعاً إن المطلوب هو دمقرطة الحوار الثقافى، أى إشراك أوسع

القطاعات فى المجتمع المدنى فى هذا الحوار حتى لا يبقى على المستوى الرسمى أو النخبوى، وذلك لإعطائه شرعية مجتمعية ضرورية لترسيخه.

إن الزمكانية التاريخية والجغرافية طبعا العلاقات العربية الأوروبية بخصوصيات عديدة، فهناك إرث غنى شكَّل ذاكرة جماعية فيها السلبى وفيها الإيجابى عند كل من الطرفين، وإذا أردنا أن نعزز العلاقات ونرسيها فى قواعد ثابتة ومستقرة وجب علينا أن نكون صريحين مع الذات ومع الأخ الآخر، ووجب علينا كذلك أن نستفيد من دروس الماضى البعيد والقريب لنتعاطى بعقلية انفتاح وروح تعاون ومنطق الشراكة مع قضايا الحاضر والمستقبل من هواجس وتحديات وهموم واهتمامات تحمل عناوين عديدة جديدة ومتجددة، ولكنها مترابطة ومتداخلة بين ضفتى البحر المتوسط. فبقدر ما يكون الحوار الذى نرجو أن يتحول إلى تقليد دورى عبر تأسيس منتدى عربى أوروبى للحوار، متعدداً فى أطرافه متنوعاً فى مواضيعه، متميزاً فى أفكاره، غنياً فى أجندته، وشاملاً فى مقترحاته، فإننا ننجح فى ما نصبو إليه جميعاً وهو ترسيخ وتدعيم علاقات التفاهم والتعاون العربى الأوروبى لما فيه مصلحة الشعوب والدول.

إن علينا أن نؤمن ومنذ البداية وقبل الدخول فى حوار ما أن المشكلات الثقافية من جهة والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من جهة أخرى إن هى فى الحقيقة إلا مشاكل شديدة الارتباط بعضها ببعض متنامية التلاحم، وإغفال ذلك يفضى إلى انعدام الجدوى فى تناولها، ومن هنا نتفق على أن أوروبا والعالم العربى معنيان على السواء بالعولمة، وهى تدفعهما بقوة باعتبار أن المسار الحالى يضع أيضاً قيم كل منهما ومشاريعه التطويرية موضوع إيمان وتسليم بأن الحوار بينهما هو حوار حتمى ومصيرى بين الأمة العربية والأخ الأوروبى على خلفية أن الاختلاف هو مصدر إثراء متبادل للجميع.

إن وسائل الإعلام والثقافة تؤدى الدور الأهم فى تشكيل وعى المتلقى، وتكوين الرأى العام، وقد فاق دورها فى هذا المجال دور الأحزاب السياسية والجمعيات ومؤسسات المجتمع المدنى، والمؤسسات غير الحكومية على اختلاف أنواعها وتشكيلاتها. ودخلت هذه الوسائل الإعلامية والثقافية وسيلة فعالة ومؤثرة فى تحقيق التنمية الشاملة، والتطور الاقتصادى والاجتماعى، وحاضنًا لحرية التعبير والحوار، وعاملاً فاعلاً فى تعزيز التعددية الثقافية والسياسية، والتأثير فى سُلم القيم الفكرية والاجتماعية والأخلاقية، والأقدر على المساعدة على التعاون وتحقيق السلام، وتفهم كل شعب الشعوب الأخرى والاعتراف بها وبثقافتها ومصالحها. وقد تجاوزت أدوار وسائل الإعلام والثقافة وتأثيرها كل تصور، مما أدى إلى أن أطلق عليها بعضهم تعبير ثورة الاتصالات. غير أن هذا الدور المتنامى لوسائل الاتصال الذى اكتسبته بسبب التطور التكنولوجى لا يجعل منها حقلاً مستقلاً عن الوضع السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى الشامل لأى مجتمع، فهى لا تقرّ السياسات ولا تتخذ القرارات بل تنفيها، وفى أفضل الحالات تساعد فى صنعها من خلال العلاقة الجدلية القائمة بينها وبين مجتمعها ومساهمتها فى تشكيل الرأى العام، ولذلك ينبغى وضع المنظومة الاتصالية بكاملها فى سياقها السياسى الاجتماعى الاقتصادى الثقافى، مع الأخذ فى الاعتبار أنه بقدر ما تعكس هذه الوسائل رأى المجتمع فإنها تؤثر فى قراراته تأثيراً جدياً وفاعلاً وإيجابياً.

إن دور وسائل الإعلام والثقافة مهم فى تنشيط الحوار مع الآخر، وتسهيل الفهم المتبادل والتفاهم والاحترام بين الدول والشعوب، وتغيير الصورة النمطية المسبقة التى تكونت فى عمق ثقافة هذه الشعوب بعضها تجاه البعض الآخر عبر التاريخ، وإزالة الحذر المتبادل الذى تكرّس حتى وصل أحياناً إلى عداء متبادل موروث من العصور وتراكم الأحداث وتوالى الصراعات، وعلى صفحاته كانت تقلق هذه العلاقة وتبقيها فى إطار العلاقات السلبية، وفتح آفاقًا للحوار والسلام والتعاون

بينها. إن تحقيق المشاركة بين الشعوب العربية وغير العربية هى أقل صعوبة فى المجالات الاقتصادية والسياسية وحتى العسكرية، لكنها الأصعب فى المجالات الإنسانية التى لا تخضع لقرارات إدارية أو حكومية، بل تحتاج لتشكيل فهم جديد ووعى جديد، وقبول إنسانى متبادل يحتاج لجهود حثيثة ونوايا صادقة ورغبة وإرادة ووقت يتاح معه تغيير المفاهيم البديلة، ونزع العداء المتبادل، وترسيخ التفهم والتفاهم والاحترام، والإيمان بأهمية التعاون والمصالح المشتركة، وصولاً إلى الاقتناع بضرورة إقامة المشاركة الفعلية التى ترى جميع الشعوب مصلحتها فيها، فتعمل لإنجاحها وديمومتها وتتمسك بها كعامل إيجابى يؤثر فى التطور ورفع مستوى العيش، وتحقيق الأمن والسلم، ليس فى المنطقة العربية والأوروبية وحدها، بل يسهم فى تحقيق السلم العالمى.

إن حاجة الشعوب العربية والشعوب الأوروبية إلى التعاون وتنشيط الحوار ودعم السلام هى حاجة ملحة، وإن مجمل التطورات العاصفة التى توجهها الإنسانية جعلت التعاون الإقليمى عنصراً مهمًا لا غنى عنه تستطيع من خلاله الشعوب رفع مستوى حياتها وتحقيق التنمية الشاملة، والمساهمة فى بناء السلم الإقليمى والتعايش الدولى، وأصبح من الصعب على أية أمة أن تتجاهل ضرورة انتسابها لمحيطها وتعاونها معه.

إن الشعوب العربية والأوروبية لا تخرج عن هذه الحاجة التى يعززها الموقع الجغرافى والعلاقات التاريخية والاقتصادية والثقافية والإنسانية بينها بكل ما حملت تاريخياً من تعاون وتناقض، من سلم وحرب، من تفاهم وعداء، وتؤكد هذه الحاجة الظروف القائمة فى عالم اليوم بما فيها من صراعات حول مفاهيم العولمة وتطبيقها والمشاركة والتعاون، وحول تحديد إطار النظام العالمى الجديد وأسسه. ولا يغيب فى هذا المجال عن الذهن أهمية الموقع الجغرافى الذى لا يستطيع أحد تغييره وعلاقات الجوار الإلزامية التى لا تخضع للخيار، وتجبر الجميع على ضرورة إيجاد صيغة

للتعاون والتضامن والصداقة بين الشعوب عربية وأوروبية، فضلاً عن المصالح الكبيرة لجميع الأطراف التى تحققها العلاقات الاقتصادية والتجارية الواسعة.

إن الحوار العربى الأوروبى يواجه صعوبات عديدة بعضها تشكَّل تاريخياً، والبعض الآخر نتج عن طبيعة ظروف التطور العالمى الراهن، وتقتضى الرغبة الصادقة فى إنجاح هذا الحوار، والمواقف المسئولة تجاه هذه المهمة الكبرى الإشارة إلى هذه الصعوبات وتشخيصها بغية مواجهتها والتغلب عليها، وتهيئة المناخ المناسب لحوار فاعل يحقق آمالاً ونتائج مرجوة، لا بهدف تحديد المسئوليات أو إدانة هذا أو ذاك، ولكى لا نقع جميعاً فى خطأ البناء على أساس هش ونحن نبنى بناءً مهمًا وضرورياً وضخماً ومفيداً لنا جميعاً. إنه كلما أشرنا إلى الصعوبات وحددناها اقتربنا أكثر من إنجاح الحوار، وتحقيق التفاهم، وبناء علاقات متينة وثابتة ودائمة. ولعل من هذه الصعوبات.:

- تأثرت ثقافة الشعوب العربية والأوروبية خلال التاريخ بعضها بالبعض الآخر فى مختلف المجالات سلماً وحرباً سلباً وإيجاباً وقبولاً ورفضاً، لذلك ففى كل ثقافة شىء من الثقافة الأخرى، وهذا يؤكد إمكانية وضرورة عقد حوار واسع بين هذه الثقافات من شأنه إزالة المواقف السلبية المتراكمة، ودفع الثقافات نحو التفاعل والتعاون، ولا شك أن الحوار الجاد والموضوعى والمسئول كفيل بإزالة الحذر والمواقف السلبية المسبقة وفتح آفاق التعاون والتفاهم.
- تشكلت صورة نمطية لدى الشعوب العربية والأوروبية بعضها تجاه البعض الآخر، وترسخت هذه الصورة النمطية عبر عملية تراكمية معقدة، بدأت فى مراحل مبكرة من التاريخ واستمرت حتى الآن. ونتجت هذه الصورة النمطية عن عوامل متعددة معقدة ومتناقضة واقعية أحياناً وغير واقعية أحياناً أخرى، عقلانية وغير عقلانية، مشخصة مرة ومجردة مرات، ذات وقائع حسنة النية أو سيئتها، وهى تميل غالباً للتجريد والتعميم والتبسيط والمبالغة، ولم تكن بالإجمال

متوازنة لدى الشعوب العربية ولا لدى الشعوب الأوروبية. وتقف الآن كواحدة من العقبات الرئيسة أمام التعاون والتعايش، وتقع على وسائل الإعلام والثقافة بذلك جهود مضنية لتغييرها بما يخدم التعاون والمشاركة. إنه من جانب الشعوب الأوروبية كادت صورة العرب والمسلمين أن تصبح لدى الكتلة الكبرى من الرأى العام صورة ثابتة غير قابلة للتطور، فحواها الإيمان بالتفوق الأوروبى لأن العرب متخلفون وكسالى ومتعصبون ومهووسون جنسياً، وأن الدين الإسلامى دين يعوق الإبداع ويكرس الجمود والكسل، واستبدادى غير قابل للتعايش مع الآخرين، وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر أضيفت صفة الإرهاب وألصقت بالعرب والمسلمين مما رسخ هذه الصورة الذهنية الخطأ والظالمة. ومن طرف آخر تكرست صورة نمطية أخرى لدى العرب عن الشعوب الأوروبية بدرجات متفاوتة حسب نوع الاستعمار ومدته وتعامله مع كل بلد عربى خلاصتها أن الشعوب الأوروبية هى شعوب استعمارية معادية لاستقلال العرب وتحررهم، وأن أوروبا هى سبيل التخلف والمصائب لأن الأوروبيين هم الذين زرعوا إسرائيل على الأرض العربية بخطة استعمارية وسلحوها ومازالوا يدعمونها، وأن الأوروبيين أعداء تاريخيون للعرب والمسلمين يستحيل أن يتخلوا عن عدائهم، ومن هنا ساد جانب من الثقافة المغلوطة لم يتم تناولها بعقلانية أو فى إطارها التاريخى وشروطها الموضوعية حتى الآن بجدية، مما أدى إلى تكريس حذر الشعوب الأوروبية من العرب وإغلاق الأبواب أمام احتمالات تفهم ثقافاتهم وتقاليدهم وقيمهم.

إن افتراضات الشعوب العربية أدت إلى القول بأن الاستعمار الأوروبى ممثل حقيقى للشعوب الأوروبية بمجملها وليس لفئة استعمارية منها أو شريحة من شرائحها، وبالتالى ألقيت الأعباء على الشعوب ذاتها، ولم تفلح أطروحات النهضويين والعقلانيين العرب فى إقناعهم بالتفرقة بين أوروبا الاستعمارية وبين قيم شعوب أوروبا خاصة فى مجال العلم والحضارة والثقافة والحرية والعدالة والمساواة،

ومن هنا انتفت فى أعماق ثقافة الشعوب العربية إمكانية وجدية وشفافية وصدق إقامة حوار أو تعاون فى سبيل انفتاح جدى يتجاوز الحذر والخوف المتراكم.

إن علينا أن نبذل جهوداً كبيرة وشعوراً عالياً بالمسئولية تجاه أمتنا وأنفسنا ومستقبل أبنائنا، للسعى نحو صناعة السلام علينا أن نؤمن بأن الحوار ليس ضرورياً فقط بل ومن الممكن تحقيقه، وأن الشعوب عربية وأوروبية فى حاجة إلى سلام وفى حاجة إلى بعضهم البعض الآخر لأن مصالح الجميع تقتضى التعاون، كما أن احترام ثقافات الشعوب عربية وأوروبية وأديانها شرط أساسى لتقارب الشعوب. إن وسائل الإعلام والثقافة عربية وأوروبية عليها مواجهة وتحسين الصورة النمطية التى تشكلت عبر التاريخ وإيجاد أرض مشتركة وآليات تفاهم ومناخ أكثر عقلانية وانفتاحاً مما هو عليه الآن، ويتوجب رفض مفهوم عدم التكافؤ بين الطرفين والتبعية والهيمنة، والاقتناع بالمساواة واحترام الآخر وقبول ثقافته، ونزع الصورة النمطية من المناهج الدراسية لدى كل منهما وفى الفن والأدب والثقافة، ثم السعى نحو تشجيع التبادل الثقافى والإعلامى بين الشعوب العربية والأوروبية، وتسهيل عقد لقاءات إنسانية، وتحقيق التفاعل بين وسائل الإعلام والثقافة هنا وهناك.

الثقافة مظهر للعلم والتطور والتقدم الذى يصل إليه المجتمع، إنها تشير إلى التباين الكلى للفعل الإنسانى ونتائجه، وتتمثل فى أنماط واضحة وضعية من السلوك يحصل عليها الإنسان وينقل إليها عن طريق رموز تتكون من الإنجازات المميزة للجماعات الإنسانية من بينها إنجازات فى الفنون والصناعات، كما أن لبّ الثقافة يتكون من التقاليد والمثل والقيم، إن الثقافة تشكل الإطار العام للمبادئ القيمية عند أفراد المجتمع وتتمثل فى صفتها الأنثربولوجية على منظومة العقائد والمعايير والقيم والتصورات المشتركة والعادات والأخلاق، فهى كلّ مكتسب من المبادئ الثقافية.. عقائد ومعايير وقيم. والثقافة فوق ذلك وسيلة العيش التى يتخذها المجتمع، وهى الطرق التى يوجدها المجتمع لسد حاجاته الأساسية، وهى

من صنع الإنسان والنماذج المختلفة التى يصب فيها الأفراد سلوكهم وتصرفاتهم، وتتمثل فى مجموعة المعارف والعلوم التى يدركها ويكتسبها الناس وتميز مجتمعاتهم عن البعض، كما تعنى مجمل الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد الناتجة عن دور الحياة اليومية للمجتمع، أى أنها نتاج تفاعل يومى ومستمر بين الناس بعضهم مع البعض مع التأثر بالبيئة المحيطة والتفاعل معها، وهى كل القيم المادية والروحية ووسائل استخدامها ونقلها التى توجد داخل المجتمع والتى تنشأ فيها، ومن خلال سير التاريخ، أى أنها ظاهرة تاريخية تؤثر فى السياسة والاقتصاد والاجتماع، فهى المخطط الأساسى الذى يضعه المجتمع للسلوك الإنسانى موضحاً ما يجب عمله وما يحسن عمله وما يجب ألا يعمل. والثقافة تساعد فى تنمية القدرات العقلية أو تسوية بعض الوظائف البدنية ومنها تثقيف العقل والبدن، إنها تطلق على كل ما هو متعلم من ذوق وحكم صحيح وحسّ نقدى وذوق فى التعامل والسلوك، وعليه فليس كل متعلم مثقف ولكن قد يكون المثقف متعلماً ذلك أن العلم شرط ضرورى فى الثقافة ولكنه ليس شرطاً كافياً، وإنما يطلق لفظ الثقافة على المزايا العقلية التى أكسبنا إياها العلم حتى جعل أحكامنا صادقة وعواطفنا مهذبة. ومعنى ذلك أن الثقافة هى درجة التقدم التى بلغها الفرد والمجتمع من المعارف وأنماط السلوك الاجتماعى، التى تؤدى إلى التقدم المستمر فى التنظيم الاجتماعى، وهو ما يدل عليه نمو المعارف والتطور فى الأعراف والتقاليد إلى الأحسن وترك العادات والتقاليد السلبية والخطأ من حياة المجتمع وتنظيماته السياسية والاقتصادية، فهى ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات التى يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً فى المجتمع، أى أن الثقافة شىء مجرد وغامض ولكنه واقعى، إنها ما اكتسبه الإنسان نتيجة التعلم بمساعدة الظروف المحيطة والقدرات العقلية للفرد والتربية فى حال استغلال الفرد ليكون على درجة عالية من الثقافة ويمتلك أسلوب حياة فى مجتمعه يتناقله أفراد المجتمع جيلاً بعد جيل، أى أن الثقافة هى إدارة الحياة ودفع المجتمع إلى القوة والمنفعة وتحسين أوضاع الناس،

فدور المثقف هو دور المصلح، والمثقف يكون قادراً على التحليل والتفسير لكل ما يقرأ أو يشاهد، ومن ثم يستطيع أن يستنتج استنتاجاً صحيحاً مما يشاهده ويكون موضوعياً فى الوقت ذاته. أى إن علاقة المثقف بالثقافة علاقة تهذيب النفس وجعلها خالية من السلبيات والعقد والنقص والشوائب.

إن امتلاك العلم والتعلم والقراءة والدراسة المستمرة تجعل من الفرد مثقفاً وإنساناً يعتقد فى نفسه أنه يفهم ويستوعب كل ما يدور حوله، والخصوصية الثقافية هى عناصر ثقافية يشترك فيها بعض أفراد المجتمع دون غيرهم من المجتمعات الأخرى، فهو يترجم المعرفة إلى سلوك يمكن أن يستفاد منه، وهو يحمل قيم المجتمع ومن خلالها نستطيع أن نحدد هويته. فالعربى المنغلق هو المتقوقع على الموروث، ورفض هويته الثقافية لكل جديد يأتى من الآخر. وما يرفضه قد يكون نافعاً ورفضه يؤدى إلى التخلف، وعندما تكون الهوية فى حالة تخلف لا تشدّ المنتمين إليها ولا تحفزهم على التطلع إلى الأفضل والأجود، لذلك فإن هذا التخلف يجعل أبناء المجتمع ذوى الأصل والانتماء فى حالة نفور من هويتهم، لأن هذا الرفض للجديد يكون أحياناً عائقاً أمام حركة التغير الاجتماعى إلى الأفضل ويجعل الهوية منغلقة، وهو ما لا يجعل الاختلاف معياراً بين الأجيال، وعليه يصبح الوضع الاجتماعى والثقافى فى حالة ركود وثبات مما يطمس الهوية.

إن الانغلاق على الماضى هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه، وليس له من دواء سوى أن نربى أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ويبقوا على أصولها وفروعها وآثارها وإذا عرفنا قيمة التمدن الغربى وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما فى أحوالنا إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية، وأن أحوال الإنسان مهما اختلفت لا بد أن تكون خاضعة لسلطة العلم. لهذا فإن الأمم المتمدينة على اختلافها فى الجنس واللغة والوطن والدين تتشابه فى شكل إدارتها ونظمها وطرائق التربية فيها، بل فى كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والمأكل

وأساليب الحياة. وبالقدر ذاته فإن الانفتاح بلا حدود على كل ما يأتى به الغرب من الناحية الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية، يشكل خطراً على القيم الاجتماعية للأمة العربية على المستوى الفردى والاجتماعى.

هذا الانفتاح على الآخر قد يكون على حساب الخصائص والصفات المتعلقة بشخصية الفرد والتى تتحدد من خلالها هويته وقيمة المتمثلة فى دينه وأعرافه وتقاليده، وهذا الانفتاح بلا حدود قد يكون من أسباب طمس الهوية، وتبدو الهوية وكأنها بدون رصيد ثقافى وقيمى. وعليه فإن أخذ الثقافة بمعنى المعارف والعادات والتقاليد والقيم قد يؤدى إلى ظهور أنماط من المثقفين إما أن يكون مثقفاً تابعاً لنمط حضارى آخر يخرب مجتمعه من أجل تطبيق ما يؤمن به ويعتقد أنه الحقيقة المطلقة دون فهم لظروف مجتمعه وما يصلحه، أو يكون مثقفاً يمتلك الأكداس من المعارف والمعلومات المتضاربة وبالتالى تندمج الهوية الثقافية فى الآخر وتأخذ صفاته وخصائصه وهو ما يعنى نهاية هويته الثقافية المستقلة، وبالتالى فهو مثقف تابع للآخر بل مندمج فيه، لأن التابع يحتفظ بجزء من الخصوصية، وبالتالى لا يكون هناك مرجعية للهوية الثقافية المندمجة إذا ما تشكل خطر على الثقافة الوطنية، فالاندماج هو الاندماج فى الآخر كما هو لا كما يجب أن يكون عليه.

إن ثقافة الهوية العربية عندما تندمج فى الغرب تصبح مجتمعاتها أفراداً وجماعات بلا هوية، مما يجعلهم يقلدون النمط الحضارى الغربى بكل ما فيه من إيجابيات وسلبيات. وهذا الأمر يؤدى إلى بروز أزمة الهوية، وبسببها تضعف الهوية العربية الإسلامية وتبتعد عن تعزيز وتأكيد الهوية القومية المستقلة، وهذا ما يجعل البعض ينسلخ عن قيم الأمة العربية الإسلامية بسهولة بسبب الانبهار والتقدم العلمى والتقنى المذهل، وبسبب الرخاء المادى للآخر ما يجعلها تشعر بالتبعية لثقافة الآخر وتشعر بالدونية فتكون فى حال ضياع وتشتت بدلاً من أن تكون متمسكة بذاتها، ومحافظة عليها. إنه بدون هوية ممثلة بمفهوماتها يكون الانفتاح على الثقافات الأخرى خاصة المهيمنة منها مدعاة للانزلاق

نحو الوقوع فريسة للاستلاب والاختراق، لأن الهوية المندمجة هى التى تنتهى فى ثقافة وحضارة الهوية المندمج فيها.

وهذا هو ما يدعو إلى اليقظة والانتباه فى التعامل مع الهوية العربية الإسلامية، فلا يصح الانغلاق على قيمنا وتقاليدنا وخصوصيتنا وماضينا وإرثنا الحضارى ورفض كل ما هو جديد، بل لابد من أن تكون هويتنا متطلعة أى قادرة على استيعاب الآخر فى ثقافته وحضارته، وما يأتى به من جديد فى المجال العلمى والتكنولوجى. والتطلع يعنى الإيجابية لا السلبية فى استيعاب الآخر مع الحفاظ على الخصوصية والعادات والتقاليد والقيم التى تشكل الهوية وتميز مجتمع عن آخر، وهو تطلع حذر لا يعنى الانفتاح على الآخر بلا حدود مما ينهى بدوره الخصوصية، بل المقصود احترام خصوصية الآخر وثقافته، والهوية المتطلعة ثقافياً لا ترفض الجديد ولا ترفض ثقافة العولمة إذا كانت تمدنا بالجديد الموجب الذى يهدف إلى ارتفاع مستويات الإنسان العربى. إن الهوية العربية الإسلامية المتطلعة ثقافياً هى العامل الأساسى الذى يشكله تقارب بين الدول بعضها والبعض الآخر إنها مستوعبة لثقافات وحضارات وقيم الهويات الأخرى، وهى متفهمة أن للآخر خصوصية مثل أن لها خصوصية، إنها تتطلع إلى ما هو أفضل مع المحافظة على أن تكون للدول العربية هويتها وخصوصيتها الواحدة من حيث العقيدة والإيمان والنسب والدين والقيم والانتماء والعلم والتقنية، وما يناسبنا من مفاهيم ورؤى العولمة حتى نجعل كل ما هو عالمى لخدمة كل ما هو عربى إسلامى.

الفصل السادس

التربية المدنية مطلب حضارى

أولاً: التربية المدنية هى الحل.

ثانيًا: المدرسة وثقافة حقوق الإنسان.

ثالثًا: مسئوليتنا حضارية لبناء عالم جديد.

التربية المدنية مطلب حضارى

أولاً: التربية المدنية هى الحل:

نحن نعيش مناخاً دولياً جديداً تتحدد فيه هوية الوطن بنوعية الإنسان الذى تشكله المؤسسات التعليمية. ومدارس وجامعات اليوم عليها أن تتخذ فى تكوين الشباب نهجاً ديمقراطياً يعتمد على أساليب المشاركة، وينمى المناقشات المفتوحة داخل قاعات الدرس، ويشجع طلابنا على الاضطلاع بالأعمال التى تضمن فعاليات الحياة التعليمية. إن كل هذه الأمور تدعم اكتساب الطلاب للمعرفة بالحياة المدنية، وتنمى الشعور بالالتزام نحو هذه الحياة.

إن إدراك الطلاب لوجودهم داخل مناخ منفتح فى مؤسساتهم التعليمية يعطى مؤشراً إيجابياً على اكتساب المعرفة المدنية، واحتمالاً قوياً لمشاركة هؤلاء الشباب فى الانتخابات مستقبلاً، والمشاركة النشطة فى أنشطة المجتمع، وتنمية أفكارهم وإبداعاتهم والتعبير عن آرائهم، والإيمان بالآراء المتباينة فى أية قضية مثارة. وهذه التربية المدنية للطلاب تدعو المعلمين إلى مناقشة القضايا التى تختلف حولها الآراء، وهو ما يشير إلى أنه فى الواقع العملى تتقبل المؤسسات التعليمية دورها كمزارع للفكر والسلوك الديمقراطى . وأنها تحول مادة التربية المدينة إلى سلوك ومعايشة من خلال دروس تطبيقية عملية تتم فى بيئات طبيعية حية.

والمعلمون هنا مطالبون بتنشيط التفكير النقدى وتكوين القيم، والكتب المدرسية هنا أحد مصادر المعرفة، لا كل مصادر المعرفة، ولابد فى هذا الإطار أن تتحول القناعات العقلية إلى مواقف حية للممارسات الفعلية.

إن المؤسسات التعليمية وحدها لا تتحمل مسئولية تفعيل التربية المدنية والقيام بدورها فى تشكيل المجتمعات الديمقراطية المتماسكة، فقد كشفت الدراسات التى تناولت عوامل نجاح التربية المدنية عن نتيجة مؤداها أن الطلاب القادمين من أسر ذات مستويات تعليمية عالية تتمتع بمصادر معرفية متعددة، يكتسب أبناؤها معرفة أفضل فى الشئون المدنية وفى ممارساتها كذلك عمليًا فى المواقف والمناسبات الاجتماعية، الأمر الذى ينمى لديهم اتجاهات إيجابية نحو المشاركة. وهذه النتائج البحثية تؤكد أهمية الصلة بين البيت والمدرسة والمجتمع المحلى. إن الكثير من الشباب يكتسبون المعرفة بالحياة المدنية من خلال وسائل الاتصال وبصفة خاصة التلفاز مقارنة بما ينشر فى الصحف والمجلات، وهو أمر يلفت الأنظار بشدة نحو توعية من يملكون قوة التأثير فى توجيه الرأى من خلال الإذاعة المرئية وضرورة تدريبهم على مهام التربية المدنية.

إن تكوين مواطنين يملكون الوعى والفاعلية من خلال برامج التربية المدنية يدعونا إلى عدم الاعتقاد بأن أثرها لا يستمر ثابتاً ومستديماً فى نفوس هؤلاء المواطنين، فقد يرتد ويتضاءل هذا التأثير. إن تقديم برنامج فعال فى التربية لا يزال قضية مطروحة للنقاش، سواء فى الدول التى أصبحت حديثاً ديمقراطية أو فى الدول التى تتمتع بنظام ديمقراطى راسخ منذ أمد بعيد، وذلك من حيث المعرفة المدنية، والاتجاهات نحو المشاركة الاجتماعية والسياسية. كما أن تنمية التربية المدنية لدى الطلاب تقتضى توافر عنصرين لا يمكن تجاهلهما وهما: وجود إرادة سياسة، وتوفير قدر من الحراك الاجتماعى.

إن إدخال التربية المدنية فى مؤسساتنا التعليمية يتطلب أن نستخدم فى تقديمها مداخل متعددة للحصول على المعرفة، وأسلوب المشاركة والتفاعل، والاتصال بالحياة الواقعية فى سياق غير تسلطى، وبناء جسور من التعاون بين البيت والمدرسة والمجتمع المحلى، وتوفير رصيد كبير من النشاط السياسى لدى الطلاب، والسعى نحو الارتقاء بمستوى رغباتهم ودوافعهم فى المشاركة، وتضمين هذه التربية فى سلوكهم اليومى مع الحفز والتشجيع فى المدارس لتنمية سلوك الالتزام نحو الحياة المدنية، ومحاولة التخفيف بين الازدواجية والتناقص بين القيم السائدة فى المجتمع وبين تلك التى تعلى المدرسة من شأنها. إننا يجب أن نسأل أنفسنا: هل نحن نطور تعليمنا حتى يسهم فى التعايش المشترك، ويسمح بالتفاعل النشط والمشاركة الإيجابية، والتكامل الاجتماعى؟

التربية المدنية هى الآلية التى تحقق مقولة: أن تريد وأن تعرف كيف نتعايش معاً، فهذا يقتضى معرفة. ذلك أن التربية المدنية هى المجال الأكثر تأثيراً. إن تحدى العولمة يفرض علينا احتياجات تربوية عديدة منها اكتساب مهارات لغوية، ومعرفة علمية، وتمكن فى مجال المعلومات والاتصالات التكنولوجية، وأن نعرف كيف وأين تصبح قادراً وراغباً فى المشاركة، متقناً للغات الأجنبية، ملمّا بالثقافات العلمية والتكنولوجية وهى بلا شك محكات التربية الجيدة للجميع كى يتعايشوا معاً بنجاح. إن مجتمعاتنا لا تستطيع أن تتحمل ضياع ما يملكه مواطنوها من ثروات عقلية وإبداعية، وهى لو فعلت ذلك تكون قد أهدرت قدرتها على التنمية والتقدم لدخول مجتمع المعرفة الحقيقية وهو الذى سيتيح لهذه المجتمعات الانتفاع بهذه الثروات. ومن ناحية أخرى فإن مجتمعاتنا لا تستطيع أن تعرض تماسكها الاجتماعى للخطر دون أن تخاطر بمستقبلها السياسى والاجتماعى، والنظم التربوية لها دورها المهم فى إنجاز المهام التى تحقق ذلك.

إن تعليم الشباب هو مهمة جماعية تضطلع فيها المدرسة والمعلم بالدور

الأساسى بجانب المؤسسات المجتمعية الأخرى. أهمية التعاون والتبادل الدوليين كوسائل للتعليم ولتحسين النظم التعليمية يرجع مردوده التربوى على الشباب وتحقيق مبدأ العمل معاً. إننا كتربويين يجب أن ننظر إلى العالم باعتباره معملاً تربوياً، والفكرة الأساسية فى هذا المنظور الجديد أن نقارن أداء مختلف النظم التعليمية. وهذا التوجه المقارن فى العمليات التعليمية التعلمية سيجعل من الممكن تحليل وتقويم تأثير العوامل المختلفة باستخدام هذا المنحى العبر دولى وهو يتعدى تعليم التربية المدنية إلى تحديث المؤسسات التعليمية، وتكوين وتدريب المعلمين والمناهج المقتبسة والمفروضة مما يمكن معه معرفة تأثيرات كل ذلك على الأداء التعليمى وتحسين الواقع التعليمى. إن تزايد الجهود الدولية فى اتجاه المنحى المقارن فى التعليم تضطلع به منظمات عديدة حكومية وغير حكومية، مثل دراسات تقويم الأداء التعليمى، وبناء المحكات والمعايير الدولية وتطوير المؤشرات التربوية، غير أن التعليم للتعايش معاً يتم بشكل فردى مستقل على مستوى الدول، ولكنه سوف يزداد ثراءً إذا أشركنا فيه الآخرين. ويتم ذلك فى إطار من التعاون والتبادل فى عصر العولمة.

لقد أصبح تطوير التعليم والمناهج الدراسية يمثل العلاج الشامل لمواجهة الأمراض الاجتماعية. والتوجه الآن هو تدريس الرياضيات والعلوم وتبسيط الحاسب الآلى لصالح النمو الاقتصادى والمنافسة التكنولوجية، كما أن هناك تركيزاً كبيراً على التدريب الوظيفى والمهارات المهنية كى تحدّ من البطالة، وتقوم الدول النامية فى سعيها نحو خفض المعدل العالى للمواليد بتقديم المزيد من فرص التعليم للبنات ووضع مناهج تنظيم الأسرة، وتؤكد الدول على أهمية اللغات القومية والتاريخ والجغرافيا من أجل تقوية الوحدة الوطنية، وهى من ناحية أخرى تنشئ فصولاً دراسية لعلوم البيئة لتقليل التدهور البيئى. وتشجع الدول نحو الالتزام الأخلاقى والتوجه الجمالى لمواطنيها، بتدعيم التعليم الدينى والأخلاقى والدراسات

الاجتماعية، وحتى تحقق الوعى بأهمية المبادئ الديمقراطية وترفع نسبة المشاركة السياسية تقوم الدول بالتوسع فى التعليم المدنى، وتلجأ فى سعيها للتعامل مع آثار العولمة من حيث تحولات مكان العمل والتكنولوجيا المتقدمة وانفجار المعرفة بتنوع مصادرها إلى تشجيع المجالات متعددة التخصصات وغرس الكفاءات والمهارات الحديثة، إلى معالجة قضايا التنوع الثقافى والحث على التعليم المستمر مدى الحياة. إن التعليم قد أصبح علاجًا شاملاً أو الإكسير الذى يؤدى تناوله فى جرعات مقننة إلى الشفاء من المتاعب الوطنية والتحديات الاجتماعية.

ترسخت لدينا قناعة بأنه من المفيد للجميع أن نتنافس عبر ذلك الإحساس العميق بالقيم والأخلاقيات التى تحملها حضارات متباينة، بغية أن نوفق فى تشييد صرح مشترك نرى أن البشرية فى حاجة إليه. إنه بإمكاننا أن نشيد عملاً رائعاً، وأن نكشف عن أسرار عميقة، قامت الشعوب والحقب بإخفائها عن بعضها البعض، وكان أن سبب ذلك تشرذمًا، وإذكاء روح العداوة المتأصلة بين الشعوب فى المحصلة. إننا نحتاج إلى محاولات جريئة لإعادة تركيب الإنسانية. علينا أن نقدم سوياً بعض الرؤى الإيجابية من أجل أن نعيد التفكير فى بعض القناعات المسبقة، ونبنى بذلك مناخاً من الثقة نراه ضرورياً لنتمكن من بناء صلة وثيقة مع الآخر. إن العولمة التى نحياها تحاول أن تسيّر الثقافات ونظم العيش فى اتجاه التنميط، وهو ما خلف ردود فعل رافضة، ومن هنا كان البحث عن توثيق العرى التى تشد كلاً منا إلى هويته الثقافية، وأن يجد كل منا مبتغاه فى فكرة أمة واحدة، أو عقيدة جامعة، وهو أمر مفيد يبرز بوضوح عندما تنقلب روح الانتماء إلى مرجعية مقدسة تحاول أن تسلطها على الجميع، إننا نسطر بذلك حدوداً بينة تبنى على أساسها مفاهيم مغلوطة عن أبلسة الآخر المسيء والآخر العدو. إن الخطر الذى يهدد أى مجتمع بشرى يكمن فى أن الرغبة فى التطور أو إحداث تغيير جذرى فى حال التحلل الشديد تولد الادعاء بتأسيس نظرية صلبة معدة سلفاً، تملك قدرة الارتقاء بالجميع إلى المجتمع

الفاضل. إن التبشير بالجنة على وجه الأرض يقلب الواقع إلى محتشدات للتصفية ومقابر جماعية، مثال ذلك أحداث 11سبتمبر الذى هو ثمرة ادعاء تجسيد حلم عالم مثالى خلّف رعباً شاملاً من الآخر العدو الإرهاب، وتحت هذا الشعار اتحدت قوى من أجل تحقيق غايات متعددة، خلفت ضحايا أبرياء على جبهات جديدة. إن الخوف ولّد كرها وأدى الخوف تلك القدرة على الاعتراف بإنسانية الآخر. إن الإشكال الحقيقى يكمن فى محاولة البعض تجريد البعض الآخر من إنسانيته، ومحاولة البحث عن مخرج من هذا الوضع تكمن فى ضرورة دعم المؤسسات التى تضمن إمكانات الحوار، والبحث عن معاضدة دور المؤسسات الدولية يكون عبر معاضدة الجهود المبذولة فى مجال التعليم، من أجل احترام القيم والأخلاقيات المشتركة.

إن المدرسة بمعية وسائل الإعلام والمجتمع المدنى تستطيع المساهمة فى جعل الإنسان يرتقى إلى مقام الوعى، وبأن القدرة الكامنة فى قرار كل منا هى من المقدرة على بناء واحة سلام. يجب أن تصير القيم المشتركة عنصراً مؤسساً للخطاب الذى تحمله المناهج الدراسية ووسائل الإعلام، كى ينمو كل إنسان ويترعرع ضمن هذه الرؤى. ونحن نقف أمام ضرورة الدفاع عن القيم الإنسانية الأشد نبلاً، ولذلك وجب أن نرسخ حواراً عميقاً بيننا، ينطلق من فرضية مؤداها أن نتشارك جميعًا فى تواضع جمّ عبر التنازل عن أن رؤانا للعالم، وطرائق تأويلنا للحقيقة، هى الأفضل نستثنى بها مثيلاتها وننسخها. ذلك أن العالم يتشكل من ظواهر غريبة محافظاً عبرها على توازنه بفضل كمّ هائل من الروابط التى تشده إلى بعضه البعض، نشكل نحن البشر بعضها، ولا يمكننا الادعاء بقدرتنا على معرفة كل هذه الروابط أو السيطرة عليها. وانتشرت بيننا القدرة على الادعاء بتمييز الطيب من الشرير والصديق من العدو، وخاصة فى وسائل الإعلام وكلها يقوم بتحليل يتسم بالسطحية وعدم التعمق فى موضوعات على جانب كبير من الخطر والأهمية، وهو مناخ يتشبعه

الطفل منذ نعومة أظفاره، وهو يعدل المرجعية التى يستند إليها الناضج عند إبداء الرأى كذلك، وهنا تصبح هذه الأفكار السطحية النمطية بمثابة الحقائق الساطعة والثوابت لدى الجميع.

نحن نعيش وضعاً لا نملك معه الإفلات من تلك الرؤى المعدة سلفاً حول أعمال توصف بأنها إرهابية، ولا نملك النظرة الشاملة القادرة على وضع الأمور فى حجمها الطبيعى والمعادلة فى نسقها مع ما يلزم من ثوابت وما هو ضرورى من المتغيرات، حتى قيل إن الغرب يطالب العرب بتطبيق مبادئ لا يحترمها هو ذاته.

إن الخطاب الذى تعتمده وسائل الإعلام يلعب دوراً على جانب كبير من الحساسية فى الحفاظ على التوازن الهش القائم بين الحضارات. إن الاستعمال الدءوب لمفردات غير مواتية لسياق الأحداث خلف موجة من العنصرية تجاه الإسلام قابلتها مواقف تنديد من جهات أخرى، وتم الرد على هذه الأخطاء بتصريحات للمسئولين، وتنادت أصوات عاقلة بضرورة إعادة النظر فى لزومية إذكاء الحوار بين الحضارات المتجذرة على قيم مشتركة. إنه يجب على الجميع إعادة التفكير فى قناعاتنا وتطوير ردود ومواقف تقتنع بأن معارفنا محدودة، وأن وراءها تقف شبكة ضخمة من العلاقات المتداخلة.

إن من البيّن والجلى أن هناك محاولات متعددة لتمرير خطاب يقدم العالم العربى الإسلامى فى صورة نمطية سيئة، ولا يتم الأخذ بمواقف المثقفين الذين يملكون كماً معرفيا وحسًّا ثقافياً وتجربة واسعة وموضوعية جادة تجعلهم يقدمون مداخلات تمتاز بالموضوعية والجدية، كما أن الأصوات الجادة فى الغرب لا تجد لها موطأ قدم بين الأبواق الصارخة.

إن المثقفين العرب والمسلمين يحاولون دومًا عبر اللقاءات الدولية المطالبة فى إلحاح بأن يتم اعتماد لغة أكثر توازناً من قِبل الجهات التى تملك سيطرة جلية على

وسائل الإعلام مذكرين دوماً كذلك بأن التفاهم المتبادل هو فى مصلحة الجميع. إن الخبر النمطى المتحامل المغلوط يستطيع فى فترة زمنية قصيرة أن يحدث ردود فعل غير قابلة للضبط، ويرسخ شعوراً بعدم الأمان، ويُجذّر مناخـاً من انعدام الثقة. إن الحوار ممكن إذا أردنا أن نجد سبيلاً بديلاً للوضع الدولى القائم، والمجتمع المدنى مطالب باتخاذ مبادرات فى هذا الشأن مثل تطوير نظام تعليمى مغاير، والمبادرة بمحاولة التخلص من ذلك الرأى المسبق الذى نحمله عن الآخر. إن الذين يرون فى أن امتلاكهم الأدوات السيطرة والتدخل فى شئون الغير يخطئون حين يعتبرون أن هذه الأدوات تشكل مفاتيح لقراءة تفتح لهم أبواب حضارة الغد. إن التحرك صوب إعداد مرجعية أخلاقية جامعة يجب أن يأخذ بعين الاعتبار قيم الغرب ومثيلاتها فى الشرق، وأيضاً أن يعتبر من الأحداث والأزمات التى تجد فى عالمنا.

إن المدرسة بإمكانها عبر مناهجنا وأنشطتها ومعلميها وضمن وعى بأهمية التبادل والقراءات النقدية، وكذلك الإعلام عبر نظرة أكثر توازنًا، أن يسهم الجميع بقسط وافر فى ترسيخ مناخ من الانفتاح المبنى على الاعتزاز بثقافة الذات والاحترام الجاد للآخر وما يحمل من قناعات وما يقدم من آراء. هذا الاعتزاز وهذا الاحترام الجاد ينبنى على معرفة عميقة بثقافة الذات ودراية واسعة بما يملك الآخر من ثروات أصبحت بحكم عمقها وثرائها تراثًا إنسانيًا جامعًا لكل البشر، مهما اختلفت دياناتهم ومهما تباينت لغاتهم، ومهما تباعدت أوطانهم. إن هذا التلاقى ضمن الاختلاف يكون خير إرث نتركه للأجيال القادمة، وما نحمله من مسئوليات يجعلنا ننطلق دون إبطاء ودون توانٍ فى التفعيل والتسريع والاستمرار فى هذا الحوار الإيجابى.

إنه يجب أن نلتفت بقوة إلى أن طبيعة الإبداع ترتكز على فكرة الاختلاف لكسر الأنساق القائمة وابتكار أنساق متوافقة جديدة، بحيث لا تكتفى أشكال النمو والتطور بتعزيز مسيرتها عبر عمليات الحوار المتثقف بل تفتقر إلى أن يتخلق الناشئ

منها فى رحم الناضج الولود. وهو ما يشير إلى أن الإبداع الإنسانى شاهد على أن العزلة تخنقه ولا تخلقه. فالإبداع هو البوابة الكبرى للشراكة الحضارية. إن الثقافة التى تنجح فى إبداع نماذج جديدة هى التى تسمح للمبدع بالدخول المنتصر إلى ساحة الشراكة الحضارية الإنسانية خاصة فى عصر ثورة المعلومات التى انكسرت فيه قوانين احتكار العلوم والطاقات الإبداعية الخلاقة. إن الشراكة تشير إلى حقيقة التفاعل الإيجابى بين الثقافات المعاصرة، والحضارات الكبرى لا تموت فى مكان حتى تبعث بشكل مغاير فى مكان آخر وزمان آخر. إن حضارات العالم هى التى تشكل وجه الحضارة الكونية المعاصرة، وربما كانت عمليات التوالد والتمثيل الحيوى أوضح صورة للشراكة، فليست القضية قضية حوار فحسب بين أطراف متباعدة، بقدر ما هى تواصل عميق بعبقرية الإنسان فى تعمير الكون وإسعاد البشر. ولأن الثقافة وعاء الهوية فإن التحولات التى تعتريها تحكمها استراتيجيات الإبداع. فنواة الشخصية الوطنية والقومية الصلبة ليست هى تلك الثوابت التى تستعصى على الزمن، بل هى مدى المرونة فى الخواص بحيث تستجيب أو ترفض عوامل التغير. إن الحضارة الغربية اليوم تسهم فيها عشرات الثقافات الكبرى فى العالم، بل إن الثقافة العلمية إنسانية بلا منازع، فمكتشفات الكون وقوانين العلم ومنتجات التكنولوجيا لا تعرف الحدود الإقليمية ولا الفواصل العرقية واللغوية. إن الإبداع الأدبى والعلمى يلعب دورًا نشطًا فى الحراك الحضارى الإنسانى والتواصل الثقافى الحميم فى قرية كونية صغيرة مسامية الجدران.

إن إقحام المعتقدات والمقدسات فى مقام الحوار مع الآخر المختلف فى الفكر والعقيدة أمر ليس له ما يبرره، ذلك أن دائرة المعتقد والمقدس مغلقة، والتعامل معها يجعل النقاش والجدال غير ممكن، كما أنه لا يتيح إعمال العقل فى التساؤل عن منطقيتها من خارج حدودها، وكما أن الآخر المختلف هو الخصم كما فى النصوص التراثية العربية من الإنتاج الفكرى العربى الإسلامى قديمه وحديثه فى المجالات الأدبية والفلسفية والتاريخية.

إن المقام الذى تتواجد فيه نخبة عالمة لا يستوجب الخوض فى تمرين مفاهيمى لتحديد المقصود من الحوار. وباقتضاب فإن العلاقات الحوارية تكمن فى مظاهر التأزم التى تطبع فترات التفاعل السلبى للأحداث واشتعال الفتن والمواجهات بين الأديان أو الثقافات أو الأيديولوجيات أو المصالح السياسية والاقتصادية. ولتخفيف حدّة هذا التأزم يكون الحوار ضروريًا بين أشخاص معينين هم نتاج سياقات فكرية واجتماعية، وعليه فإن القول بحوار حضارات أو حوار ثقافات محض هو من قبيل الوهم، إذ لا يصح أن يكون هناك حوار بين مجردات، إن الحوار يكون حضاريًا بتأسيس على قيم أخلاقية هى التى تجعل أفق الإنسان مستقلاً عمن دونه من خلائق، ومن ثمّ فإن الحوار إنسانى والصراع حيوانى. الحوار يمكن أيضًا بين مثقفين وعلماء وفئات مجتمعية تتهيأ للتفاهم انطلاقًا من أوليات ومسلمات، وبصدد قضايا محددة، وباعتماد ما هو مشترك للوصول إلى توافق منتج تتمخض عنه فى نهاية المطاف أشكال من التعايش أو التعاون أو التعاضد، وعليه فإن الأصل فى الحوار هو اختلاف أو تعدد الرؤى، وفى قبول هذا الاختلاف يتجلى التفاهم الذى يمليه احترام الآخر المختلف واستقلاليته، عملاً بحرية الفكر كمعطى وجودى أخلاقى ضمن ما يميز التحضير والتمدن، على عكس التعصب والتعنيف الوحشى الهمجى الذى يتسم به سلوك عالم الحيوان. إن الحوار المتحضر بين أعيان تسبح فى سياقات تاريخية واجتماعية يتأسس بأصول، وتؤطره قواعد وتقاليد وتحكمه أخلاقيات إذ لم تؤخذ جميعها بعين الاعتبار بفقد الحوار حقيقته، ويصبح الأمر متعلقًا بأمور مختلفة أخرى قد تكون التحامل أو التهافت أو التشنيع أو الهيمنة ومعجم هذه الأمور غنى بمثل هذه الممارسات السلبية.

إن معظم ما يجرى على الألسنة اليوم من وجود حوار بين أديان أو حضارات أو ثقافات، ووجود حوار بين مناطق جغرافية من قبيل الحوار العربى الأوروبى، أو الأسيوى الأفريقى أو ما شابه ذلك هو صنيع من المماحكات أو المزايدات لا تمت

بصلة إلى المفهوم الحقيقى للحوار، وفى الغالب والأعم تكون تلك المماحكات والمزايدات دواعى ظرفية أو مصلحية مباشرة، بل إنه يمكن تجاوز ذلك كله إلى القول إن أطراف الحوار عربًا أو غيرهم ليسوا جاهزين لحوار حضارى حقيقى ومتكافئ بين أعيان تلتزم بالقيم الأخلاقية والفكرية. ذلك أن أثقال الماضى وتراكماته السلبية لا تزال تشكل شعورنا الجمعى، ولما نستطع أن نتحرر منها لنستثمر ما هو مشترك فى ثقافاتنا، ونهمش ما يغرق بيننا بغية تشييد أرضية صلبة متينة لمواجهة ما يعرفه العالم المعاصر من مشاكل وقضايا فى حاجة ماسة إلى تعاون أوثق، ونضال مستميت لمواجهة نظام دولى لم يعترف بالفاصل والحدود، تسوده هيمنة المنطق الاقتصادى والتجارى وتعززه تكنولوجيات المعلومات والاتصال الشارطة للإنسان تشريطًا لا إنسانيًا.

إن ما نعايشه تحت مسمى الحوارات هى أشباه حوارات يحاول البعض الإيهام بأنها قيد الإنجاز لإبراز افتقادها للمقومات الأخلاقية. إن المساهمة الحقيقية هى فى استقراء هذه المقومات من الموروث الفكرى العربى الإسلامى حالة تاريخية دالة توضح أمرين: من ناحية أن هذا الفكر يحترم الأخلاقيات وحرية الرأى، ومن ناحية ثانية أن المقومات التى اشترطها للحوار لا تزال صالحة لليوم كأسلوب فى التعامل بين الأفراد والجماعات والدول وبما يتمثلونه من معتقدات وثقافات وأيديولوجيات. لقد مُثل أمام الفكر العربى الإسلامى منذ القرن الأول الهجرى مفهوم الآخر المختلف حقيقة واقعة، والإقرار به أمر لازم، ويمكن أن تستخرج صورة هذا الآخر من كتب الأقدمين ومن المقالات، ومن الرسائل الفلسفية، ومن روايات الرحالة، وكذلك مشاهداتهم، ومن كتب الجغرافيين والمؤرخين، فقد وضع المفكرون العرب والمسلمون منهج المناظرة وهو المقابل العربى القديم لمفهوم الحوار المعاصر شروطًا وقوانين تنافس فى استيفائها وضبطها وصرامتها وترتيبها ضوابط المنطق وأحكامه، وقد استفادوا فى ذلك من تراث ورثوه وأضافوا إليه، خاصةً تراث الإغريق وحكماء الإغريق.

إن الفكر العربى الإسلامى هو أبعد ما يكون عن التطرف أو التحيز أو التعصب، بل إن هذا الفكر يستنكر هذه السلوكيات، إنه يستنكر العصبية التى هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التى لا تبقى دينًا إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها. هذا هو الحوار الحضارى المتخلق يقف فى وجه كل تعصب، ويمنع بروز أى تطرف. فإذا أردنا حوارًا بناءً منتجًا ومنصفًا لابد من الإصغاء الذكى لمثل هذا الفكر لدينا ولدى الآخر المختلف أيضًا. إن الفكر الإسلامى والمسيحى واليهودى الحق فيه اشتراكات واحتياطات يؤطر الحوار تأطيرًا أخلاقيًا للخروج من السياجات الدجماطيقية المغلقة، والانفلات منها إلى روح التفتح على الآخر واحترامه، والتعاون معه من أجل بناء عالم أفضل يليق بالإنسان المكرم بالعقل. وهذه فى الحقيقة قناعة مشتركة لتجاوز أحقاد الماضى وتراكماته وسلبياته.

إنه فى اليوم العالمى من أجل السلام فى 1967 كانت الكلمة المعبرة هى: إن العلاقات بين الأديان تبدو الآن كطريق لا محيد عنه كى لا تتكرر العديد من التمزقات المؤلمة التى عرفتها القرون الماضية. ولكى تلتئم الجراح التى ما زالت قائمة. إن السلام ليس أمنية لكنه ثقافة وأخلاق، والتشبع بها والتزامها ينتقل بالسلام من مجرد أمنية إلى حقيقة واقعة. إن كل ثقافة تمتلك قيمًا يجب الاعتراف بها وتقديرها ضمن هذا التنوع، ولكن ضمن هذا التفرد الذى يميز كل كائن بشرى من أجل فهم الآخر واحترامه وحبه. إن التنوع الثقافى يشكل غنى الإنسانية، والتعدد الدينى والثقافى هما عماد السلام الدائم، كلنا مختلفون ولكننا متحدون من أجل إعادة اكتشاف الرسالة العميقة للسلام والتأكيد عليها.

الحوار الحضارى المتخلق بين المثقفين ليس من الأمور الهينة، بل إنه عملية معقدة وضرورية للتخلص من منطق الصدام والحروب ووصولاً إلى مجالات التفاعل والتعايش والتسامح والتضامن. وما أحرانا اليوم كأطراف متحاورة أن نستوحى من التراث الفكرى المشترك ماضيًا وحاضرًا نسقًا قيميًا كونيًا يؤطر التعامل بين

المثقفين نحن أحوج ما نكون إليه. إن عناصر هذا النسق ستعزز الكثير من أطروحات الذين يرون أن الحوار الحضارى المتخلق بين المثقفين العرب والأوروبيين لم يبدأ، لأن معوقات هذا الحوار ما زالت قائمة على رأسها عدم تبين الأهداف البعيدة، وغياب المنهجية الصارمة، وضعف ملامح التصورات المشتركة كما ينبغى أن يكون عليه الحوار.

إن النصوص والمقولات التراثية عبر الديانات والثقافات تؤشر لمجموعة من السلوكيات والمواقف التى تناولها الخطاب العربى الإسلامى كإطار أخلاقى للحوار الحضارى المتخلق، لعل من أهمها وأبرزها:

- المعرفة المعمقة والصحية بالآخر المختلف فكرًا وعقيدة وأنماطًا اجتماعية ومذاهب سياسية.
- الالتزام بتمثل الآخر وتفهمه بدل إصدار أحكام عليه تكون فى الغالب أحكامًا مسبقة ومغلوطة.
- تجاوز الظرفيات والتفكير فيما يمكن أن يكون دائمًا ومستمرًا وعميقًا فى علاقات التفاهم والتعاون والتضامن.
- التشبث بمفاهيم نسبية الحقائق المؤسسة لمفاهيم التعددية والتكامل.
- ضرورة تعلم الإنصات والاستماع كما يتعلم حسن الكلام بلغة نقية ولغة هادفة.
- توظيف ما هو مشترك دون المساس بما هو مختلف فيه، أى التركيز على مساحات التلاقى والاتفاق.
- تجنب المفاخرات وإقصاء فكرة الحضارة المثالية والديانة النموذجية وفكرة التراتيبية الحضارية والثقافية.
- تحييد النزاعات التى لا ترى أية مصلحة فى التفاهم بين الثقافات لإدامة أجواء التوتر فى ربوع العالم.

• التعاطف التاريخى وعقلنة التاريخ معًا لتناسى الذكريات والأحداث المؤلمة الماضوية.

إن هذا الطرح لعقلنة السلام ليس ضربًا من خيال، بل هو طرح يندرج فى ثقافة وأخلاق مقصيتين أو متناسيتين من قبل النظام العالمى المتوحش اقتصادى النزعة الغارق فى المادية الانتفاعية. إن المثقفين العرب والأوروبيين بفضل التفاعلات التاريخية، الإيجابى منها على الخصوص، يتقاسمون المواقف الداعية إلى قيم التعايش والتسامح والتعاون، ويؤمنون أن المستقبل الذى نبنى أسسه اليوم للحوار الحضارى الإنسانى لا للصراع غير الآدمى. إن العربى المسلم غير مضاد فى جوهره للحداثة، وأن الأوروبى لا يضمر فى قرارة نفسه عداءً للآخر المختلف. إننا مسكونون بالغرب والغرب مسكون بنا، ومن المستحيل وجوديًا أن ينفصل الأنا عن الآخر المختلف، بل كل منهما ضرورى للآخر ليتألق التميز ويغتنى التشابه.

ثانيًا: المدرسة وثقافة حقوق الإنسان:

إن عام 2001م هو بداية العقد الدولى لثقافة السلام واللاعنف لأطفال العالم. وإن المثل الأعلى التربوى لعصرٍ ما هو ما يعبر عن حالة المجتمع وما يتطلبه هذا العصر من نمط للتربية. وبناء على ذلك يصبح من المشروع أن نتساءل عما يستشعره عصرنا بقوة من ضرورة وضع (العيش معًا) فى أولوياتنا التربوية. إنه ليست هناك ضرورة للتنشئة الاجتماعية للأطفال فى المدارس مثلما هى عليه الآن. إن التنشئة الاجتماعية المطلوبة هى جعل الأطفال فى مدارسنا على وعى بتحديات ومهارات الحياة وقواعدها فى المجتمع. إننا فى سياق يتسم بتحديد واضح ودقيق للأدوار، فبعد أن تقوم الأسرة بالتنشئة الاجتماعية الأولية تقوم المدرسة بعدها بعملية التنشئة الاجتماعية الثانوية، ثم يصبح على كافة مؤسسات المجتمع فيما بعد مواصلة هذه المهمة حتى يتكيف الأطفال بسوية مع الحياة، ولجعلهم مواطنين فاعلين

ومشاركين ومنتجين فى المجتمع. غير أن التغيرات العميقة التى أثرت فى كل من مفهوم التنشئة الاجتماعية ومستوياتها المختلفة زادت من تعقد دور التنشئة الاجتماعية الجديد للمدرسة.

إن ما شغل المدرسة مؤخرًا، ودعاها إلى التفكير من جديد فى تعليم العيش معًا والتربية للمواطنة، هو نتاج عدد من المتغيرات العميقة التى من أقواها التراجع المتزايد الذى لا يمكن إنكاره لدور الأسرة فى تنشئتها الاجتماعية للأطفال، والذى يرجع إلى انحسار نماذج الدور التقليدى ونسق القيم الحاكمة للعلاقات الاجتماعية التى ظهرت بمثابة التمزقات فى النسيج الاجتماعى، ثم إن هناك تأثيرًا للعولمة التى لا تحتاج سوى القليل من التجانس والتوازن، والتى أثارت قضية مفهوم الدولة والقومية لتضع بدلاً منه مفهوم الوطن.

إن هذا الواقع الجديد هو مصدر التوتر والصراع الذى علينا أن نتعلم التعامل معه بشكل ملائم حتى نتغلب عليه بفاعلية، فكيف لا يمكننا الاهتمام بالخطر الواقعى الذى يتعرض له التماسك الاجتماعى الواقع تحت تأثير الاستبعاد والتهميش، والذى يزيد منه الفشل فى قيام المدرسة بواجبها التربوى قبل التعليمى وهشاشة المؤهلات الاجتماعية والمهنية، وتخريج أنصاف متعلمين ناهيك عما يمكن أن تجلبه الجوانب السلبية من العولمة الاقتصادية وتوسيعها للهوة بين الشمال والجنوب. إن شعوبًا كثيرة غير مزودة بما يكفى للبقاء أو بما يمكنها من المشاركة الفاعلة فى مستقبل الإنسانية، ولأن المدرسة تمثل الأمل، ولأن التربية التى تقدمها بمثابة فرصة لجعل العالم أفضل، شعر المجتمع بأهمية المدرسة ومسئولياتها تجاه المثل العليا المتمثلة فى التسامح والتماسك، وبأهمية المدرسة ومسئولياتها لتطوير ثقافة العيش معًا. إن السؤال هو: كيف يمكن إعداد المدرسة لهذه الأدوار الجديدة، ولتتحول إلى أماكن أساسية لممارسة التعليم والعيش معًا؟ وكيف يمكن أن ننشئ شبابنا المرتبط برباط قوى بميراثه العربى الإسلامى للانفتاح على الحداثة والتسامح

والحوار، وليصبح قادرًا على العيش معًا ومع الآخرين فى عالم يزداد فيه الاعتماد المتبادل.

إنه من الضرورى الزعم بأن مهمة المدرسة إنتاج مواطنين فاعلين وتعلم قيم حقوق الإنسان، وهو ما يتطلب فى المدرسة شروطًا معينة يتم الوفاء بها، الأمر الذى يزيد من تعقد مهمة المدرسة وتحميلها عبء تشكيل مجتمع من الرجال والنساء متساوين فى الحقوق والواجبات قادرين عقليًا ونفسيًا على ممارسة حقوقهم الإنسانية بعد التخلص من قيود العادات والتقاليد والموروثات الثقافية، ونشر التعليم والثقافة وضمان مستوى ملائم من الصحة والسكن والعمل.

إننا فى حاجة إلى خطة تربوية صالحة للتطبيق تقوم على اكتساب المتعلمين القيم الأخلاقية ومهارات الحياة والسلوك الإيجابى وامتلاك الثقافة الكمبيوترية. وعليه يتم بناء المناهج الدراسية مضافًا إلى ما سبق مبادئ مرشدة أساسية تتخلل كافة التخصصات المعرفية الحديثة والأنشطة التربوية لضمان إسهامها بشكل ضمنى أو صريح فى تطوير الاتجاهات والسلوك المطلوب للمواطن فى عالم اليوم ورؤى الغد ليصبح مشاركًا فاعلاً ومنتجًا مبدعًا قادرًا على العيش معًا ومع الغير، ممتلكًا قيم المواطنة من تسامح وعقل منفتح.

إن التربية الوطنية وتدريسها يجعلها تقوم بدور محورى لإكساب المواطنين القيم والسلوك الملائم للمواطنة والعيش معًا، كما أن دراسة التاريخ تجيب عن مقولة (قل لى أى نوع من التاريخ تقوم بتدريسه أقل لك أى نوع من الأشخاص تقدم للمجتمع). إن هذه الدراسة التاريخية تحقق قواعد المواطنة التى تساعد على تفهم واحترام الآخرين، وتزيد من إسهام الشعوب المختلفة فى الإرث المشترك للإنسانية. إنه إذا كانت أية ثقافة من الممكن أن تكون كل الثقافات فإن الفروق الثقافية تفقد معناها وتصبح مظهرًا للطبيعة البشرية المشتركة القابلة للتغيير. أفليس تدريس التاريخ هو أفضل وسيلة لتعريف الشباب كيفية فهم الآخرين، ويضع أسس الحوار

بين الحضارات؟ وينطبق هذا أيضًا على التربية الدينية فهى توضح سبل محافظة المجتمع على الروابط الاجتماعية أى سبل العيش معًا وأخلاق التسامح. كما أن تعلم اللغات الأجنبية يعتبر وسيلة تؤدى إلى احترام الآخرين ومعرفتهم من خلال التعرف على ثقافاتهم ولغاتهم، فهو من أكثر الوسائل فاعلية فى مقاومة الظلم وسوء الفهم أى مقاومة مصادر العنف والكراهية واستبعاد الآخر. وهذا يعنى أن مهارات الحياة فى التربية الوطنية مهارات تتخلل كافة التخصصات المعرفية والمجالات التربوية التى تقوم بدور فعال فى اكتسابها. ولكن لأن تعليم القيم وتعليم المواطنة ليس من الأمور المعرفية المجردة، فعلى الممارسات التربوية نفسها أن تعبر عن هذه القيم وتعمل على تنميتها. ولتحقيق ذلك يجب أن يقدم للمعلم ممارسات تربوية جديدة تهدف إلى جعل الفصل الدراسى مكانًا للتنشئة الاجتماعية، ومركزًا للتغيير والتفاعل والعمل الجماعى لإثراء الذات عن طريق الآخر. وفضلاً عن ذلك فإنه مطلوب من المدرسة أيضًا من خلال تنظيماتها وأنماط التفاعل الاجتماعى فيها كمكان لتعلم العيش معًا أن تظهر احترامها للآخرين، وأن تحل المشكلات والصراعات دون عنف. إنها ملامح رئيسة لنظام تربوى يجب أن نسعى لإقامته لخدمة التربية الإنسانية التى تعدنا للعيش معًا بطريقة أكثر إشباعًا.

إن الجهد المبذول لتوفير الظروف المهنية للعيش معًا قد يصبح مجهودًا بلا طائل إذا لم تدعمه إرادة قومية وتخطيط علمى لإضافة وجه إنسانى للعولمة. إن الرغبة فى العيش معًا ومعرفة كيفية ذلك تتضمن القدرة على العمل معًا، وتنفيذ مشروعات مشتركة لتحسين خبرة الحياة اليومية وبناء مستقبل أفضل معًا.

إن العيش معًا ومع الغير يتطلب الكشف عن الأسباب الأساسية للعنف والصراع، كما أنه يجب مواجهة تحديات حل الصراعات وبناء السلام من خلال إطار شامل للتعليم من أجل السلام، ومن خلال ما يمكن أن يقوم به المجتمع المدنى مثل المنظمات غير الحكومية وحركات الشعوب فى جميع أنحاء العالم، بل من

خلال الإنصات لصوت القطاعات والجماعات المهمشة والتى تشكل حافزًا قويًا فى مجال بناء السلام والتعليم من أجل السلام خاصة إذا ما أخذت فى الاعتبار التعددية الثقافية التى تتيح التنوع والإثراء فى المجتمع والعالم ككل. ومن الواضح أن للصراعات روابط خارجية وروابط داخلية بحاجة إلى النظر إليها نظرة نقدية. إن القوى الخارجية تكون من القوة والنفوذ بمكان بحيث إن تجاهلها يقلل بشكل خطير من إمكانية حل الصراع وبناء السلام، وهذا من انعكاسات مناخ العولمة والمناخ الدولى الذى تعيش فيه الدول القومية.

إن هناك أربعة مبادئ أساسية لتدعيم أساس التعليم من أجل ثقافة السلام وهي: الكلية، وتشكيل القيم، والحوار، والتمكن الناقد. إن السلام واللاسلام أمر متعدد الأبعاد، ومن ثم يتطلب مدخلاً كليًا مركبًا لحل الصراعات وجعل التعليم من أجل السلام. إن المستقبل الإيجابى الجديد يجب أن يقوم على أساس احترام الآخرين والتعاطف والاعتراف بأنه فى إمكان الأفراد والجماعات إحداث تغييرات إيجابية، واحترام التنوع والالتزام بالعدالة والمساواة وعدم العنف. بالإضافة إلى هذه القيم هناك قيم المصالحة والاحترام والتفاهم الثقافى الدينى، ويمكن أن نضيف إلى تلك القيم قيم التراحم والغفران والاعتماد المتبادل وقول الحق والوقوف بجوار الشعوب المهمشة. إنه من الممكن أن نصل إلى الحل الحقيقى للمشكلات الإنسانية عن طريق الحكمة والعقول العامرة بالحب والصداقة والتعاطف مع كل الكائنات بلا حدود أو قيود وبدون تفرقة أو تمييز من أى نوع.

إن الأطفال والشباب وكذلك الكبار قادرون على الحوار البناء مع بعضهم البعض فى مناخ من الثقة. إنه يتطلب عزل الطبقات الأيديولوجية والانفتاح على بعضهم البعض باعتبارهم كائنات بشرية. إن فكرة مدنية العلاقات والتى تساعد على توليد علاقات تعاون إيجابية بين الناس هى مؤشر آخر على أهمية الحوار كآلية لتحقيق السلام. إن مبدأ التمكين الناقد أو إرضاء الضمير، وإحداث توازن فى

علاقات القوى بين الشعوب. كما أن المعرفة والفهم نتاج عمليات ومفاوضات اجتماعية تتطلب تعاون ناقد لبناء السلام وحل المشكلات، كما أن المشاركة فى الأفكار والدروس المستفادة من بناء السلام، والتعليم من أجل ثقافة السلام تعدّ خبرات مثمرة، ومن المأمول فيه مع استمرار الحوار بأشكال متعددة من التواصل يتحسن المشروع الشامل من أجل السلام ويؤدى إلى تلاحم أقوى فى نسيج ثقافة السلام واللاعنف لكل شعوب العالم.

إن تعليم المواطنة يجب أن يركز على تدريس المعرفة، والمهارات اللازمة لقيام حياة تعتمد على التسامح، وقبول الحقوق المتساوية للجميع، وإن الحوار حول موضوع ومفهوم التسامح يظل فى الغالب نظريًا مع ارتباط محدود بالعمل الفعلى للمربين حتى يتحول إلى ممارسة وخبرة تعليمية يومية، وهذا ما يمكن أن تفعله المدرسة، خاصة وأن العالم الذى نعيش فيه عالم متباين ومتنوع، ويمثل هذا التباين والتعايش مع هذه الخلافات تحدٍ يومى، وهويتنا تواجه هذا التحدى، وعليه فإن المربين بل والمدرسة تواجه مهمة صعبة لخلق مفاهيم وبيئات معرفية تدعم المهارات والقدرات التى لا يمكن الاستغناء عنها لتوفير حياة آمنة فى عالم متباين، وتلك هى مهمة ودور جديد للمدرسة الحديثة.

إن تقصى العوامل البنيوية التى تسهم فى بلورة المناهج الدراسية، والبحث فى كيفية تشكلها، وانعكاس ذلك على صياغة الآخر وتصوره، تأتى ضمن أطر معرفية محددة سلفًا، يطلق عليها علم الاجتماع مصطلح النموذج السلبى. وهذا النموذج يؤكد وجود خصائص جوهرانية وطبائع ثابتة للآخر، وهو ما يؤدى إلى تعزيز التصورات المسبقة عنه بحيث يمكن الحط من شأنه عن طريق ما يدعى الأبلسة أى تحويل صورة للآخر إلى رمز للشر المطلق، وغالبًا ما تكون الأحكام الثقافية الحضارية التى يسفر عنها هذا التقويم للآخر سلبية إلى درجة الحط من شأن الثقافات المغايرة. واعتبار ثقافتها فى الوقت ذاته مركزًا للعالم ومتفوقة على الآخرين.

ولعل من أمثلة تطبيق فكر النموذج السلبى قول البعض إن أفريقيا لا تشكل جزءًا من تاريخ العالم، أو أن الهند ليس لها تاريخ. وبهذا الإلغاء الذى يبدأ بحق القوة ليتحول إلى قوة الحق يضفى المشروعية على تصوره له، ويظهر هذا التصور باعتباره حقيقة كونية لا يرقى إليها الشك، أهم معالمها أنه هو مركز ومصدر المعنى الحضارى الثقافى فضلاً عن المعنى المكانى للعالم بأسره.

إن هذه المصطلحات لا تصمد أمام أية مراجعة مدققة، بيد أن المناهج الدراسية لا تزال تتداولها بقوة الاستمرار ودونما تمحيص أو إعادة نظر. إن حوار الحضارات لا يمكن أن يصبح مجديًا ما لم يعد النظر مجددًا فى صورة العرب والمسلمين فى المناهج الدراسية الغربية عمومًا ذلك لأن هذه الصورة السلبية المنمذجة هى إحدى مصادر الوعى الأوروبى الأمريكى وأدواته اللغوية بامتداداتها الفكرية والثقافية.

إن المناهج الدراسية فى حاجة إلى تناول صورة الآخر فى شيء من الحيادية وإذا كان واضعو المناهج يتصفون بالمهنية ولكن تنقصهم مراجعات دينية وثقافية حتى يبتعدوا عن الخلط فى بعض المفاهيم، كما أن التأثر بالجو الثقافى العام قد يملى على بعض واضعى المناهج أو المعلمين تفسيرات وتأويلات بعيدة عن الحقيقة فى أية ثقافة من الثقافات. إن على وزارات التعليم والثقافة والإعلام تعديل كل ما من شأنه الإساءة إلى ثقافة الآخر وديانات الآخر إن كان افتراء أو سوء فهم ولذلك فإن المؤسسات الدولية المعنية بالتعليم أو الثقافة أو تنشئة الأطفال مدعوة لوضع مناهج جديدة تلقى قبولاً من الثقافات والدول وبحيث تراعى فى مناهجها التعددية الثقافية وحق الاختلاف وصيغ الشخصية فى ثقافة الآخر، ذلك أن المدرسة هى المسؤولة عن تكوين الطلاب لأفكارهم حول صورة الآخر فى الثقافات والديانات والدول، والانطباع العام حيال كل ذلك. إن الطلاب يصدقون المعلومات والمفاهيم التى تقدم إليهم من خلال الكتب المدرسية وبالتالى تتشكل معارفهم واتجاهاتهم وسلوكهم بصورة مغلوطة أحيانًا نحو الآخر.

إن العولمة تفرض رؤى تغيب عنها خصوصية الثقافات المحلية وتضعها فى موضع متدنٍ إن لم يكن منحطا بالنسبة لما يمكن أن نسميه الثقافة العالمية، ولذلك يتوجب على المناهج أن تشجع الحوار والأحكام الموضوعية، والحدّ من تأثيرات الرؤى الشخصية، وتنمية العقلية الناقدة والنقد الذاتى، وتحديث وتعميق المواد التعليمية. إنه يجب أن نلتفت بشدة فى إعداد المناهج الدراسية إلى إنشاء رفوف المكتبات المدرسية والتبادل الثقافى، وذلك للإجابة عن الأسئلة التالية التى تدور حول القراءة والتربية الثقافية التبادلية:

- ما أهمية إنشاء رفوف تهتم بالتبادل الثقافى فى المكتبات المدرسية؟
- ما الكتب والموضوعات التى ينبغى أن تكون حاضرة فوق هذه الرفوف؟ وما مكونات دليل المعلم فى ذلك ؟
- كيف يمكن المساهمة فى تنمية وعى طلابى متعدد الثقافات من خلال القراءة ؟

إنه يجب التخلى عن الثقافة الأحادية بتخصيص قناة متلفزة مدرسية أو موقع على الشبكة العنكبوتية يبث برامج ونشرات إخبارية بلغات متعددة، من أجل نشر مفهوم التعدد الثقافى، والخروج من أسر الثقافة الأحادية خاصة وأن دولاً كثيرة أصبحت دولاً مستقبلة للهجرة بعد أن ظلت لفترات طوال مصدرًا للهجرة، وأن طلابًا من عرقيات مختلفة يدرسون خارج حدود بلادهم، وهو ما يفرض تغييرًا فى المناهج لصالح التعدد الثقافى، وهو ما يؤثر بالإيجاب على وضع صورة الآخر أمام الطلاب. إنه يتوجب أن تطبع المناهج الدراسية من خلال مفهوم التعدد الثقافى من أجل الحفاظ على التميز الثقافى والحضارى والفكرى، والفائدة التى تجنى من خلال هذا المدخل هى تلاقح الثقافات بما يدفع بالحيوية إلى شرايين الحضارات الأخرى.

إن المناهج الدراسية عليها الأخذ بمشروع عن التربية على اختلاف وتعدد الثقافات يشارك فيه المعلمون من حيث تطبيق هذا المفهوم من خلال العمل

الجماعى للطلاب داخل الفصل والتكليفات والقيام بمهام جمع المعلومات من المكتبات والإنترنت وهو ما يعنى مشاركة الطلاب وكذلك مشاركة الآباء فى حصاد العمل الذى تقوم به مجموعات الفصول ونقل النقاط الأكثر أهمية فيه إلى المناهج.

إن هذه المناهج القائمة على التربية الثقافية التبادلية المغايرة من شأنها أيضًا التشجيع على ثقافة التعايش وثقافة السلام خاصة إذا روعى الأخذ بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان، والمعاهدات الدولية لحقوق الطفل، والقواعد التى أقرها الاتحاد الأوروبى من خلال البرلمان الأوروبى. إن التربية المعتمدة على التبادل الثقافى هى ضد العنصرية وكراهية الآخر، وإزالة جميع أشكال التمييز بين الثقافات، وعليه فإنه ينبغى إنشاء المجلس القومى للتعليم حول التربية الثقافية التبادلية. إن هذه المناهج الجديدة تطبق على تلاميذ المدارس الابتدائية والإعدادية ثم الثانوية، وتتضمن موضوعات مثل: المعالجة الإخبارية للأحداث التى تتميز بالعنصرية، والتمييز الموجه للأقليات داخل الدول، وتأمل أشكال التشدد المدنى والعنصرية والتعرف على الهوية الثقافية للآخرين، كما يتضمن الموضوعات أيضًا المقارنة بين النماذج التاريخية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية داخل الدولة وخارجها والتعرف على مظاهر الاختلاف وقبولها ودعمها كعنصر مؤثر للثقافة الخاصة وتعديل المواقف للتفاعل مع المجتمع. وكما هو واضح فإن هذه المناهج القائمة على التربية الثقافية التبادلية يمكن أن يكون لها أثر إيجابى فعال فى تغيير الصور النمطية المغلوطة والمختزنة فى ذهن وذاكرة الطلاب حول صورة الآخر. غير أنه ينبغى التنبيه أيضًا على أن مثل هذه المناهج يمكن أن تستغلها بعض الثقافات أو الديانات ويوجهونها إلى غاية مختلفة لترويج مفاهيم وأفكار سياسية واستغلالها لإحداث المزيد من التدمير لصورة الآخر فى أذهان الطلاب.

إن هذه المناهج الدراسية يمكن أن توظف الوسائط المتعددة للتبادل الثقافى تحت عنوان (لنتواصل مع الآخرين) حيث يضع المعلم أمام تلاميذه أسطوانات مدمجة

تتضمن مفردات تنتمى إلى ثقافات متعددة، ويتضمن البرنامج أنشطة فى الرسم والكتابة ومجلات حائط باللغات المختلفة، وكذلك أنشطة الكمبيوتر فى الحصص الدراسية، واستخدام معاجم لغوية مختلفة. إن تغيير صورة الآخر النمطية فى أذهان التلاميذ يتطلب أن نكون واقعيين فى المعالجة بمعنى أن نبحث عن مصادر تكوين صورة الآخر المغلوطة والتى تتمثل فى معتقدات مؤلفى الكتب المدرسية، ومن يزودون المكتبات بالمطبوعات، والمعلمين الذين يشكلون وعى وضمير الطلاب وهو ما يتطلب عقد ورش وندوات ولقاءات تناقشية وتقديم المفاهيم الصحيحة واستخدام الأفلام والرحلات والزيارات والتعرف عن كثب على التقدم الحضارى والثقافى للآخر، وذلك لمحو الأفكار المسبقة.

إنه لابد من تغيير أهداف المناهج الدراسية وخاصة دروس الأدب حيث تتوجه إلى تشكيل وتجسيد صورة الآخر بعيدًا عن النمطية المشوهة من حيث: الهوية، والصفات العامة والخاصة، والآخر المختلف فى الدين أو الفكر أو الجنس. إن الإنتاج الأدبى يمثل بصورة أو بأخرى انعكاسًا للشخصية الجماعية التى أنتجته، وممثلاً لبنيتها الفكرية، ومن خلال رصد وتحليل ما يقدم للطلاب من أعمال أدبية يمكن استشراف الفكر والسلوك المستقبلى لهذه الشخصية الجماعية.

المناهج الدراسية أدوات فعالة يستخدمها كل مجتمع إنسانى ليروج لقيمه وأفكاره، وهى تقوم على انتقاء معلومات وقيم واتجاهات ثم دمجها سويًا من خلال حوار معيارى يتعلم الطلاب من خلاله كيف يميزون المبادئ التى ارتضاها المجتمع الذى يعيشون فيه ويتشربونها. إن المؤلف الذى يشارك فى إعداد محتويات المناهج الدراسية يرجع إلى معارف عامة مشتركة تعود إلى العصور الماضية ويعيد صياغتها لتتواءم مع الحاضر من خلال مراجعات مستمرة.

إن لكل حقبة من حقب التاريخ ماضيها القريب مما يجبر واضعى الكتب المدرسية على أن يضيفوا المزيد من الأحداث الجديدة. وكما هو الحال فى الدول

المختلفة فإن الهوية لا توجد إلا فى ظل الغيرية أى مقارنة النفس مع الغير. والكتب المدرسية الأوروبية تتناول المسلمين والمجتمعات الإسلامية فى إطار تصور أن الهوية الوطنية الأوروبية شيء مختلف، بل ومتميز عن العالم الإسلامى. ونظرًا للإطار التنظيمى الذى يرتبط له هؤلاء المؤلفون فإنهم ليس بإمكانهم إلا أن يوجدوا صورة للآخر المسلم تبرز فيها ملامح الذات الأوروبية أمة ودولاً ومواطنين وقيما اجتماعية راسخة، أى أن أى تصور للآخر المسلم لابد وأن يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتصورات الأوروبيين لأنفسهم. وإضافة إلى ذلك فإن سياق التعليم الوطنى قد صبغ ذلك الارتباط بالصبغة التاريخية. إن الكتابات التاريخية تصف الآخر، وهى فى ذات الوقت تمنحه صفات وخصائص نابعة من تصور المجتمع الذى كتبت فيه عن هذا الآخر. إن القضايا التاريخية ليست مجرد تعميمات، إذ إنها تشكل منظومات ووصفات لما يراه المجتمع من المقدسات، وبالتالى يصنف على أنه (ليس نحن).

إن الصدام مع الإسلام يحتل مكانة خاصة فى أوروبا، ففى أثناء القرن التاسع عشر حين أثبت التاريخ تفرد الأمة الأوروبية عادت إلى الأذهان صراعات عسكرية قديمة بين النصارى اللاتينيين أو البيزنطيين من جانب والعرب والأتراك والتتار والمغول من جانب آخر، ليس على أنها صدامات عسكرية وحروب على الحدود ولكن على أساس كونها صراعات من أجل البقاء، صراعات ضد قوى الشر والظلام، وفى هذه المنظومة من الخيال التاريخى تم تصوير هؤلاء الذين جسدوا الإسلام ومثلوه على أنهم أعداء لأوروبا، وعلى أن الصراع معهم أمر لا غنى عنه لميلاد أوروبا من حيث البعد الملحمى، والتى كانت تحتاج إلى أن يجمعها إطار واحد يؤكد تفردها كدولة أوروبية متحضرة عاقلة ومثقفة وقبل ذلك كله نصرانية، مما جعل هؤلاء الأوروبيين يتخيلون الإسلام عدوًا يلصقون به كل شيء لا ينتمى إليهم، وتشكل مجابهته شحذًا لهويتهم الأوروبية. وأخيرًا فإن القرن التاسع عشر كان أيضًا عهد التعليم الجماهيرى وصارت تصورات الأوروبيين عن الآخر المسلم

جزءًا من النظام التعليمى فقد ساعدت فى تحريك الجماهير تجاه فكرة الأمة الأوروبية، كذلك فتن المثقفون والدارسون والباحثون بفكرة الهوية الجماعية وسرعان ما قاموا بتضخيم القصص التاريخى الذى أودعوه الكتب المدرسية الأوروبية.

وقبل نهاية القرن العشرين انتقلت الكتب المدرسية الأوروبية لتركز على حديث لا دينى، أى علمانى عن الحكام والإمبراطوريات التى يتزعمونها. وقام المؤلفون بكتابة مناهج التاريخ بحيث تبدأ من العصر الكلاسيكى دون الإثارة إلى عقيدة الخلاص التى تقوم عليها النصرانية، وعلى الرغم من ذلك فإن علمنة مناهج التاريخ المدرسية جعل المناهج الدراسية تأخذ الطابع اللادينى، وعليه فهى لم تمس الإسلام من حيث بناؤه ورسالته، وبحلول القرن العشرين زاد الدور الذى تؤديه فى إيجاد هوية وطنية وأوروبية، وظهرت كتب وسلاسل تركز على: المسلمين بيننا، ولابد أن يتعرف كل منا على الآخر، وزيارة أحد المساجد، ولم جئتم إلينا؟، وغريب فى ألمانيا، والبحث عن المسلمين فى ألمانيا. ساعد على ذلك انتشار ثلاثة ملايين ونصف المليون تركى مسلم فى ألمانيا والتحاق أبنائهم بالمدارس حتى صار الفصل الدراسى رحلة استكشافية عرقية جغرافية بدأت تؤتى ثمارها المعرفية، وبذلك فتحت نافذة تطل منها أوروبا على حقيقة الآخر دونما مزايدات، ظهر منها الواقع الحقيقى للأمور، وصار المسلمون فى ألمانيا مادة تعليمية فى حدّ ذاتها أدت إلى تقوية إدراك الألمان لفكرة (نحن وهم) مما يمثل تحطيمًا للمنهج المتحجر القديم وبزوغًا لشمس معرفة جديدة فى آفاق التعليم الألمانى. وأصبحت كلمة الإسلام تمثل أمرًا مهمًا وأساسيًا، وامتلأت الكتب المدرسية برسوم توضيحية للمساجد ومناسك الحج وللمسلمين وهم يؤدون صلاتهم ولنساء محجبات. وبصفة عامة، فهى تبرز وتقدر الروح الدينى لدى الشرق المسلم، وعليه ظهرت عناوين: الإسلام يصبح دينًا عالميًا، واليهود والنصارى والإسلام.

إن هذا التغيير فى الذهنية الأوروبية تترجمه عبارة: ليس جانبنا الأوروبى هو كل شىء، بل إن هناك آخرين لهم آراؤهم ونظرتهم التى يجب أن نفسح لها المجال وأن تتسع لها صدورنا. إنها كتابات ومؤلفات تحمل فى طياتها نظرة مختلفة لأفكار قديمة امتدت واتسعت لتشمل تفسير بعض آيات القرآن، وتناولاً لأركان الإسلام الخمسة، ومقتضيات ذلك على مسيرة الحياة اليومية للمسلمين، إلى جانب سيرة النبى محمد عليه السلام. كما أن التوسع الإسلامى وامتداد تياره نحو شواطئ أوروبا قد شفع بالحديث عن الثقافة الإسلامية. إن هذا التغير فى التعامل مع الآخر المسلم سمح للمؤلفين والباحثين بتحليل الواقع المعاصر مركزين على الإسلام ووجوده الواضح فى أوروبا، ومركزين على الاختلافات التى تمثل قضايا النوع ودور الأسرة فى إطار النقاش. بل إن المناهج الدراسية الألمانية وضعت للطلاب الألمان أسئلة تنويرية فيها دعوة لمعرفة الآخر التركى المسلم منها: اسأل زملاءك من المسلمين كيف يؤدون صلاتهم، وهل ذهبت أسرتهم لأداء فريضة الحج أم لا؟ وتلك الأسئلة والحوارات تتم فى جو (الأخ وليس الآخر) ولا تسبب حرجًا للطلاب المسلمين. كذلك اتسعت المناهج الإسلامية والأزمات العالمية التى للإسلام نصيب منها امتدت لتشمل: الثورة الإيرانية التى تزعمها الخمينى، والصراع الفلسطينى الإسرائيلى، وظهرت قضايا: الجدال حول الحجاب، والاحتفالات الإسلامية، وهل لنا أن نمنح تركيا عضوية الاتحاد الأوروبى؟ وهنا يقوم الطلاب الألمان والأتراك معًا بأدوار مؤيدة ومعارضة للدفاع عن مواقف مختلفة، كما تظهر صور أسامة بن لادن وبرجى مبنى التجارة العالمى الأمريكى الذين دمرا فى أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام 2001م، وقد دخلت تلك القضايا والأحداث إلى المناهج الدراسية الألمانية المقررة، وصور هذه الأحداث المؤلمة والتى دعمت الفكرة القديمة أن المسلمين معتدون إلا أن مداها العالمى يتحدى الإطار القديم للأمة والدولة. وهكذا تجلت المناهج الدراسية فى أوروبا عن

مفاهيم قديمة مغلوطة وقيم أحادية مرفوضة من أجل إنسان عالمى جديد لمجتمع عالمى جديد.

ثالثًا: مسئوليتنا حضارية لبناء عالم جديد:

التفاؤل هو المفتاح الحضارى لصناعة المستقبل، ذلك هو الدرس الأول فى فلسفة التاريخ، لقد قامت الحضارات العظمى دائمًا بالانفتاح المتفائل على الطبيعة وحرية الإنسان، والسعى المستمر لانتصار الحياة على قوى الظلام. وحركة التاريخ صارت سعيًا مفتوحًا على نحو واسع من التأويل، وبالإمكانات تتزايد مع تزايد حرية الإرادة، وعندما يحقق المجتمع وعيًا نقديًا أفضل بالنفس والعصر فسوف يبدو أن حركة التاريخ تتفتح على حلم الدخول فى المستقبل الحافل بما لانهاية له من فرص التقدم إذا أحسنا الفهم والفعل والوعى، والتفكير الشبكى عند التخطيط لمواجهة تحديات المستقبل، وتعرف آفاقه الواسعة بالفهم والدرس والتحصيل والتأمل. إن تفاؤل الإنسان نهض به إلى رؤى أخلاقية رفيعة، ذلك أن جهودًا إنسانية كبيرة عبر التاريخ قد أوجدت الحياة على الأرض وأعانتها على أن تستمر فى رقيها، فالإنسان هو كائن مريد للخير أما الشر فى حياته فهو سقوط عارض، والإنسان هو كائن أخلاقى بالدرجة الأولى يفتح بذلك أبوابًا من الأمل لسعادة البشرية، والرحلة الإنسانية فى أجيالها القادمة سوف تواصل هذا المسعى الأخلاقى فى تأكيد معنى الضمير الإنسانى وقيم الجمال صعودًا إلى عالم أفضل، وتلك هى مسئوليتنا الحضارية للمشاركة فى بناء عالم جديد.

إن النظام الكونى يرتكز على نظام التعددية القائم على التعادلية ذلك أنه لا قيمة للواحد الصحيح دون إضافته إلى عدد آخر ليصبحا اثنين، كذلك لا وجود للأبيض دون الأسود، ولا للنور دون الظلام، وهكذا تقوم الحياة على الجمع بين النقائض والتنسيق وتحقيق الانسجام بينهما ولا يتحقق ذلك إلا بالجدل والحوار بين الذات

والآخر. من هنا تأتى أهمية البحث عن آليات الحوار بين المجتمعات البشرية وبين الحضارات المختلفة، ولا سيما فى المرحلة الراهنة التى تنتصر فيها عوامل الحرب على دوافع السلام، وتبرز فيها دواعى الصراع على بواعث الحوار الأمر الذى يدعو إلى جدلية الذات والآخر فى الحوار.

نحن نعيش أيامًا مصيرية تحاول فيها بعض القوى نفى الآخر من خلال نشر النظام الأحادى، وفرض توحش العولمة وسحق الآخر من خلال ما يسمى الحرب ضد الإرهاب، تلك الحرب التى تغلف بأوهام الحفاظ على الحضارة الإنسانية بالرغم من انقطاع الصلة بينها وبين ما هو حضارى شكلاً ومضمونًا.

إننا لابد من أن نؤكد على معانى ودلالات لبناء عالم جديد يقوم على جدلية الذات والآخر. إن الآخر هو شرط لوجود الذات على مستوى الفرد والجماعة وإن نفى الآخر هو نفى للذات. لقد آن الأوان للعلم أن يقول كلمته فى مسألة الذات والآخر، وأن يوجه حركتنا من أجل تجاوز وضعية التخلف. إن التحضر والتقدم يجعلنا أقدر على تحمل أعباء علاقة الذات بالآخر بشكل يحقق النماء والازدهار للجميع. إن تمسكنا بالحوار الحضارى وتكامل الحضارات يتأسس على أننا أصحاب حضارة نحترم الآخر ونجد فيه شرطًا أساسيًا للبقاء والتقدم، وإن الصراع يوجد كمرحلة من مراحل الحوار لا كطبيعة وحيدة للعلاقة بين الذات والآخر، ومن حقنا تحديد مستوى هذا الحوار دون أن نمنع حق الآخر، حيث يتاح للجميع حرية التعبير بشكل متحضر عن الذات دون نفى الآخر، وحيث يتاح التواصل بين ثقافتنا والثقافات الأخرى على المستويات العربية والإسلامية والعالمية.

إنه لابد من تأكيد العلاقة الوجودية بين الذات والآخر فيما يتعلق بالهوية فى الثقافة العربية. إن حقيقة الذات لا توجد وجودًا فعليًا إلا فى التاريخ وفى المجتمع أى فى حال وجود الآخر دائمًا وهذا يعنى حتمًا الإقرار بمبدأ الكثرة والتنوع والتعددية، فلا معنى للهوية بمعزل عن العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر. إنه ليس لدولة من الدول

مهما بلغت قوتها أن تنفصل عن الآخر وتتطلع إلى السيطرة باسم القوة الواحدة المطلقة، ذلك أن الحضارة تواصل: أخذ وعطاء فى حركة دائبة للإنسان، ويقتضى ذلك بإمكان التعدد حيث إن لكل حضارة خصوصية وحيث إن وجود الآخر شرط للوعى بالذات. وبمقدار ما تنفتح علاقة الذات بالآخر يتحقق التفاعل بين الثقافات، والحضارات الإنسانية تتحرك بقوة المستقبل ورصيد الماضى وإمكانات الذات، والهوية القومية هى التى تعرف كيف توفق بين تاريخها وإمكاناتها ومستقبلها بين ما كان وما هو كائن وما ينبغى أن يكون، وبذلك نكون أمام ذات حضارية قابلة للتفتح والعطاء جيلا بعد جيل، وبذلك أيضًا لا تتعين الهوية بما كان أو هو كائن فحسب، وإنما تتعين الهوية بما تصبو إليه عندما تتحرك إلى المستقبل.

إنه لابد من السعى نحو ضرورة العمل بمبادئ التعارف والتعايش السلمى بين الشعوب، واحترام خصوصية الثقافات وحمايتها من توحش العولمة التى تهدد الذاتية القومية. إن الاهتمام بالانفتاح على ثقافات العالم ضرورة للإفادة من كل جديد، وهو أمر لا يهدد الذاتية القومية للشعوب، وعليه فلابد من مقاومة فكرة التمييز بين الشعوب والأنانية الثقافية والانعزال والاعتراف بالتنوع والتعدد.

إن الوعى بحركة التاريخ تشير إلى أن العرب مؤهلون لاستعادة ماضيهم المجيد حيث إن فى الوحدة العربية قوة لهم جميعًا، وعليه فإنه ينبغى أن يبنى العرب بأنفسهم نظامًا جديدًا لمستقبل عربى جديد. إن الوضع الحالى للشعوب العربية بما يتضمن من انخفاض فى حجم الناتج المحلى، وارتفاع فى معدلات الأمية، وتدهور الأداء فى التعليم والعلوم قد لا يدفع بطموحات الشعوب العربية من النواحى السياسية والتعليمية والاقتصادية. وإنه بالرغم من ذلك فإن هذا الشعب هو الذى قدم حضارات بارزة وجامعات عربية على مستوى عالمى، وقدم علماء ومفكرين وباحثين وفنانين بارزين. إن دروس التاريخ تؤكد أن العرب لا يزالون مؤهلين لاستعادة الماضى المجيد فى ضوء ما يمتلكون من إمكانات بشرية ومادية.

إن هناك أربع دعائم للتغيير يمكن أن تعزز وجود النهضة التاريخية للتحول من الوضع القائم إلى المستقبل القادم. الدعامة الأولى هى النظام السياسى الذى يجب أن يتم بناؤه على أساس وجود دستور يحدد المبادئ الديمقراطية لحقوق الإنسان، وحرية التعبير والحكم من خلال انتخابات تنافسية، وتشكيل مجلس من المفكرين البارزين والشخصيات السياسية وعلماء الدين المستنيرين لمناقشة وضع دستور جديد يطرح للاستفتاء الشعبى العام ليؤكد بوضوح أهمية التعايش بين القيم الدينية فى حياة الأفراد والقواعد المدنية فى حكم الدولة. والدعامة الثانية هو أن يكون حكم القانون مطبقًا على جميع الأفراد بصرف النظر عن الطبقات الاجتماعية والمعتقدات الدينية والخلفيات الثقافية لا تطبق القواعد القانونية بصورة انتقائية بما يؤدى إلى ممارسة غير أخلاقية. والدعامة الثالثة من أجل التغيير هى ضرورة إعادة النظر فى المناهج التعليمية والممارسات الثقافية والبحوث العلمية. أما الدعامة الرابعة للتغيير فى المنطقة العربية فهى ضرورة إعادة النظر فى وسائل الإعلام العربية من خلال فتح قنوات فضائية عديدة. وإنشاء مدن إعلامية تتجه بوضوح إلى مخاطبة العقل العربى دونما دعائية وبأساليب علمية نقدية.

إن عجلة التغيير قد دارت، لنعيش مناخا أكثر انفتاحًا وتسامحًا وتعقلاً يسهم بحق فى صناعة مستقبل أفضل وآمن معًا. واليوم قد تغيرت الظروف ورفعت المحاذير وسقط الكثير مما كانت تسمى بالخطوط الحمراء، ولم تعد هناك حاجة إلى الإسقاطات ولا إلى اللغة الرمزية، ذلك أننا نتمتع الآن بحرية غير مسبوقة فى التفكير والتعبير معًا.

إن تاريخ الشخصية المصرية قد أكسبها المزيج الفريد من الثبات والاستمرارية والتزاوج والتنوع فى ذات الوقت وذلك ما أعطى الخصوصية للشخصية الوطنية المصرية، والتى قامت على عمق البعد الدينى ومحوريته واتخاذه طابعًا فرديًا وعمليًا بعيدًا عن العنف والتعصب والانغلاق.

إن سمات الشخصية المصرية تتغير وفقًا للظروف التى تطرأ على تركيب المجتمع وتكوينه الاجتماعى، وتتميز بالثقافة الليبرالية – العلمانية التى تقوم على الانتصار للفرد القوى اقتصاديًا صاحب المصلحة فى الحكم والتحرر من كثير من الطقوس والمسلمات، والثقافة الاشتراكية – العلمانية أيضًا التى تقوم على الانتصار للجماعة ضد الفرد الرأسمالى. إن أبعاد الشخصية المصرية تتحدد فى المصرية وطنًا، والعروبة رباطة قومية، والإسلام وشيجة أخلاقية.

إن مناهج التعليم يتوجب عليها أن نؤكد تلك المفاهيم، وأن تربط أهدافها بالمخرجات المجتمعية المرغوبة والمتجددة أبدا، وباعتبار أن ذلك ملمحًا من الملامح الشائعة على خريطة التعليم العالمية. إن التعلم للعيش معًا هو الحل المفضل لمجموعة من المشكلات الاجتماعية، وهو الآلية لتحقيق الأهداف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية معًا، وعليه يتعين تبنى المشروعات التعليمية المبتكرة والإصلاحات التعليمية، ثم محاولة وضع التساؤلات التالية فى معرض النقاش: هل يتوقع تصميم المناهج الدراسية وتنفيذها فى الواقع العملى كاستجابات فعالة لتحديات العصر ورؤى المستقبل؟ وهل هذه المناهج تولد وتدعم لدى الشباب مواقف التعاطف والتسامح والاحترام تجاه الآخر؟ وهل بإمكاننا توقع أن تؤدى المناهج إلى تشجيع التفاهم المتبادل والتعايش داخل الوطن وخارجه مع الآخر ومع الأمم والحضارات المختلفة ثقافيًا ودينياً؟ وكيف يمكن تقيم آثار المناهج الدراسية على الشباب سواء كان ذلك على المدى القصير أو المتوسط أو البعيد؟

إن على المدارس أن تمنح الطلاب معرفة ذات قيمة وظيفية ثقافية، كما أنها تعلمهم المبادئ الإدراكية واللغوية، وتزرع فيهم قيمًا ومواقف أخلاقية وأنماطًا للسلوك، وتساعدهم على تكوين اتجاهات مهنية صالحة لتخطيط حياتهم. إن التغيرات الحادثة للطلاب من جراء هذه العمليات التعليمية المتعمدة هى من النوع الدائم المتجدد، كما أنه نتيجة لهذا التحسن فى أدائهم الحياتى كشباب فى مختلف

مجالات المجتمع من حيث سوق العمل، والنظام السياسى، والأسرة والتفاعل المؤسسى فإن الشباب يضيفون بذلك قيما اجتماعية واقتصادية للمجتمع.

إنه كلما زادت نسبة الشباب الملتحقين بالتعليم الدارسين لمناهج ذات قيمة حياتية زاد تأثيرهم فى التوصل إلى حلول صالحة لمواجهة تحديات المجتمع ومشكلاته ورؤى المستقبل ومتطلباته، وعليه فلابد من وجود روابط سببية بين التعليم والتغيير الاجتماعى. إنه يمكننا أن نلمح اتجاهين من خلال الحوارات التى تربط بين العملية التعليمية والمخرجات المجتمعية. يركز الاتجاه الأول على التوسع الكمى فى التعليم وعلى الأخص تعليم الأعداد الكبيرة والتوسيع فى التعليم عبر كل الفئات العمرية بدءًا من التعليم قبل المدرسى وحتى التعليم المستمر مدى الحياة، وكذلك منح الفرص المتساوية للتعليم أمام الأطفال فى مختلف طوائف المجتمع. إن التوسع فى التعليم الرسمى الإجبارى وزيادة ساعات التدريس وارتفاع معدل الملتحقين بالمدارس سوف يجلب معه مخرجات تعليمية اجتماعية. أما الاتجاه الآخر فإنه يؤكد على محتوى التعليم، ويناقش مجموعات المعرفة الثقافية ذات القيمة والتى يجب اختيارها وتنظيمها بشكل تصنيفى فى المناهج المدرسية. إن الموضوعات المدرسية المختارة والمواد التعليمية المنتقاة يمكنها أن تساهم بدرجة كبيرة فى خلق مجتمع أكثر تطورًا، وقدرة تنافسية، وديمقراطية.

إن ثقافة المجتمع حيال التعليم يجب أن تتغير. فبدلاً من الإيمان بأن التعليم للامتحانات وليس للحياة، والتركيز على ما يحصله الطلاب من درجات وعلامات فإن المطلوب هو أن تدور المعارك التعليمية حول محتوى المناهج الدراسية أى موضوعات الدراسة ومصادر التعلم والمواد التعليمية وكيف تقدم للمتعلمين، ونوعية الأنشطة المدرسية، واستخدام وتوظيف التقنيات الحديثة فى العملية التعليمية، ونوعية التقويم الشامل والتراكمى والحقيقى لقدرات المتعلمين، ومواصفات المنتج التعليمى الذى يتخرج فى المدارس والجامعات ومدى امتلاكه

لمهارات وقدرات وقيم واتجاهات وعادات تساعده على الانخراط فى سوق العمل المتغيرة أبدًا.

إن ما يتوجب الحوار حوله هو قضية المناهج الدراسية أهدافها ومحتواها وأنشطتها التدريسية التعليمية التعلمية وتكنولوجيا التعليم وأساليب التقويم، كذلك البحث فى معتقدات المعلمين حول التدريس، والمناهج الضمنية المستترة ومغزى الرسائل السلوكية المتبادلة بين الطلاب نتيجة لطبيعة الدراسة والحياة المدرسية، ومدى إسهام المدرسة والحياة المدرسية فى تعميق القيم المعيارية والمهمة لتكيف المتعلم وتصرفاته، كذلك الاهتمام بقضية التمييز فى المناهج الدراسية طالما تقوم المدارس بتصنيف وفرز الطلاب إلى مجموعات حسب قدراتهم وميولهم ومهاراتهم وبالتالى إلى مسارات تعليمية متنوعة.

إن المناهج الدراسية تعكس أساسًا الأولويات الوطنية، ووجهات نظر ثقافية متميزة. وتقع معظم المعرفة العلمية بالنسبة للتعليم الابتدائى فى ستة موضوعات رئيسة والتى يجرى تدريسها فى دول العالم وهي: اللغات، والرياضيات، والعلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية، والتربية الفنية، والتربية البدنية وتستغرق ما يوازى 80٪ من الوقت خلال الأعوام الستة الأولى من التعليم الإجبارى، كما يتم تدريس الدين والأخلاق والصحة والمهارات العملية والأنشطة فى وقت يستغرق 20٪ من الوقت المخصص للدراسة، والجدير بالذكر أن المحتوى الخاص بالمواد الدراسية قد ركز على تشجيع التعلم الذات، والخصوصية القومية، وحماية البيئة الطبيعية، والمواطنة.

إنه يبرز حاليًا على المستوى العالمى نموذجان عامان لتنظيم التعليم الثانوى الأكاديمى، يتعلق الأول ببرنامج مدرسى شامل يتضمن اختيار الطلاب للمقررات التى يفضلونها، بينما يتم توجيه الطلاب فى النموذج الثانى نحو برامج دراسية متخصصة مثل الرياضيات والعلوم والإنسانيات والقانون مع تأكيد واضح على

محتوى متميز من المواد المقررة. ومما يستحق الملاحظة أن المناهج التعليمية يميل تنظيمها إلى مسايرة البرامج الثانوية الأكاديمية بالأنظمة الدراسية الجامعية، كما تنامت برامج الرياضيات والعلوم من حيث مضامينها التعليمية الحديثة والوقت المخصص لدراستها وهو ما يوازى ضعف المواد الدراسية الأخرى.

إن المناهج الدراسية تعنى بتأسيس مغزى التعليم للعيش معًا، وتلك وظيفة حديثة وأحد أهداف سياسة منظمات التعلم الدولية. وقد طرحت فى هذا المجال أفكار عديدة من أهمها: القدرة على التكيف مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكذلك التكنولوجية والميل الطبيعى لتقدير وفهم واحترام التنوع الثقافى والتباين المجتمعى، والرغبة فى المشاركة النشطة فى الحياة العامة، وتقدير واستيعاب القيم المتعلقة بالحياة الاجتماعية والتماسك الاجتماعى والتعايش السلمى، بالإضافة إلى القدرة على تشجيع حقوق الإنسان والحريات الأساسية والدفاع عنها وعلى الأخص فى مواجهة الحرب والعنف والصراعات السياسية والمظالم الاجتماعية. وتشير هذه المفاهيم فى أغلب الأحوال إلى التغيرات الفردية المفترض نشوءها وتبلورها خلال الطفولة والبلوغ ثم تقويتها خلال مراحل الحياة التالية وكلها يوضح ويؤكد مفاهيم الذاتية والشخصية والمواطنة فى عالم يتسم بالمزيد من التنوع والاعتماد المتبادل، كما أنها لبنات أساسية للديمقراطية الحية والالتزام المدنى الواسع. والمناهج الدراسية بعد ذلك كله عليها أن تؤكد التعليم المدنى، وتجعل الشباب أكثر تسامحًا ومدنية وممارسة للديمقراطية وللحقوق الإنسانية، وذا مستويات منخفضة من العنف السياسى والدينى فى عالمنا العربى الكبير.

قائمة المراجع

أولاً- المراجع العربية:

1- إبراهيم بن مبارك الجوير، **الشباب وقضاياه المعاصرة**، الرياض، مكتبة العبيكان 1994.

2- إبراهيم بن ناصر الناصر: الأطروحات الغربية فى توصيف علاقة الغرب بالإسلام "عرض ونقد" مستقبل العالم الإسلامى تحديات فى عالم متغير "تقرير استراتيجي"، **مجلة البيان**، المنتدى الإسلامى 2003.

3- إبراهيم زيد الكيلانى وآخرون: **دراسات فى الفكر العربى الإسلامى**، دار الفكر للطباعة والنشر 1995.

4- إبراهيم عيد: **الهوية والقلق والإبداع**، دار القاهرة، القاهرة، 2002.

5- إبراهيم عيد: رؤية فى الإبداع، التوجهات المعاصرة فى تنمية الابتكار، القاهرة، دار المنار، 2006.

6- إبراهيم نافع: **انفجار سبتمبر بين العولمة والأمركة**، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، مكتبة الأسرة، 2002.

7- أبو بكر جابر الجزائري: **عقيدة المؤمن**، القاهرة، دار السلام، 2002.

8- أحمد إسماعيل حجى: **إعداد المعلم العصرى، الواقع والطموح دراسة مقارنة**، مقدمة لمؤتمر تطوير إعداد المعلم وتدريبه، المركز القومى للبحوث التربوية، القاهرة، 1995.

9- أحمد الجهينى، ومحمد مصطفى: **الإسلام والآخر**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2005.

10- أحمد الشاعر بأسردة: الإرهاب والعولمة مواجهة الإعلام العربى للإرهاب فى عصر العولمة، **الإرهاب والعولمة**، الرياض، مركز الدراسات والبحوث، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، 2002.

11- أحمد الشرقاوى، إبراهيم السيد: **مدخل إلى الثقافة الإسلامية**، الرياض، مكتبة الرشد، 2004.

12- أحمد زايد: **سيكولوجية العلاقات بين الجماعات قضايا فى الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات**، عالم المعرفة، العدد 326، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006.

13- أحمد زويل: **رحلة عبر الزمن الطريق إلى جائزة نوبل**، ترجمة مصطفى محمود سليمان، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 2003 .

14- أحمد زويل: **عصر العلم**، دار الشروق، القاهرة، 2004.

15- أحمد طه خلف الله: **الحوار بين الحضارات بين الواقع والمأمول**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2002.

16- أحمد عامر: مقومات النظام السياسى الإسلامى وصياغة علاقته مع الآخر، **سلسلة فكر المواجهة، الإسلام .. وحوار الحضارات**ن رابطة الجامعات الإسلامية، العدد (2)، ط1، 2002.

17- أحمد عبد الرحيم السايح: **أضواء حول الثقافة الإسلامية**، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1993.

18- أحمد مجدى حجازي: العولمة وتهميش الثقافة الوطنية، رؤية نقدية فى العالم الثالث: دراسة منشورة، **الثقافة العربية فى زمن العولمة**، القاهرة، دار قباء، 2003.

19- أحمد محمود كريمة: **معالم الشريعة الإسلامية**، القاهرة، مطبعة العمرانية للأوفست 2004.

20- أحمد يوسف القرعي: **العولمة وصدام الحضارات، قراء فى فكر محاضير محمد**، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية 2005م.

21- ألن جلاتهورن: **قيادة المنهج** (ترجمة سلام سيد أحمد وآخرين) الرياض، جامعة الملك سعود، 1992م.

22- أم سلمى محمد صالح: الإسلام والعلمانية، **قضايا إسلامية معاصرة**، مركز الدراسات الآسيوية، جامعة القاهرة، ط2، 1997.

23- آمنة محمد نصير: حوار الحضارات من أجل الإنسان تواصل لا صدام، **سلسلة قضايا إسلامية**، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف، العدد (119)، 2005.

24- آمنة محمد نصير: **لقاء الحضارات، صور حضارية من عطاء الإسلام**، القاهرة، العدد (97)، 2003.

25- أمير عبد العزيز: **افتراءات على الإسلام والمسلمين**، القاهرة، دار السلام، ط1، 2002.

26- أميرة صابر: العولمة والإنترنت، **أعمال المؤتمر الدولى الأول للحضارات المعاصرة، العولمة والحوار الحضارات، صياغة عالم جديد**، القاهرة، كلية الآداب جامعة عين شمس، فى الفترة من 13-16 إبريل 2003.

27- أندرياس شليشر وآخرون: **معلمو الغد، تقرير معلمون لمدارس المستقبل تحليل المؤشرات العالمية للتعليم**، ترجمة، بهاء شاهين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، 2005.

28- أنور الجندي: **من التبعية إلى الأصالة فى الفكر الإسلامى المعاصر**، دار الهداية، ط1، 1998.

29- أنور عبد الملك: **من أجل استراتيجية حضارية**، دار الشروق، القاهرة، 2005.

30- أنور محمد الشرقاوي: **علم النفس المعرفى المعاصر**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 2003م.

31- إيمان عبد المؤمن سعد الدين: **الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة**، الرياض، مكتبة الرشد، ط1، 2003.

32- إيناس حسن على: **الفعل التعليمى بالجامعة فى إطار منظومة التطوير المستحدثة**، مؤتمر تطوير أداء الجامعات العربية فى ضوء معايير الجودة الشاملة ونظم الاعتماد، المؤتمر القومى السنوى الثانى عشر، الجزء الثانى، مركز تطوير التعليم الجامعى 18: 19 ديسمبر 2005.

33- برهان غليون: **مجتمع النخبة**، بيروت، معهد الإنماء العربى، 1986.

34- بيان الإسماعيلية فى مواجهة الحملة العالمية على الأمة الإسلامية، **الإسلام .. وتطوير الخطاب الدينى، سلسلة فكر المواجهة**، رابطة الجامعات الإسلامية، العدد (3)، ط1، 2002.

35- تغريد عمران: **نحو آفاق جديدة للتدريس**، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، 2004.

36- توفيق أحمد مرعى، محمد محمود الحيلة: **تفريد التعليم**، الأردن، دار الفكر، 1998.

37- توفيق الطويل: **الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1977.

38- جابر عبد الحميد جابر: **مدرس القرن الحادى والعشرين الفعال، المهارات والتنمية المهنية**، القاهرة، دار الفكر العربى، 2000.

39- جابر على خطاب: **أزمة الإنسان العربى المعاصر فى ضوء إشكاليات الانفتاح والعولمة**، القاهرة، 2001.

40- جعفر عبد السلام: **"الإسلام والعولمة"**، القاهرة، دار الشروق، 2004.

41- جعفر عبد السلام: الإرهاب بين الإسلام والقانون الدولى "نماذج من الواقع"، **الإسلام فى مواجهة الإرهاب**، سلسلة فكر المواجهة، رقم (8) رابطة الجامعات الإسلامية، ط1، 2003.

42- جعفر عبد السلام: رؤية رابطة الجامعات الإسلامية للعولمة، ضمن **"الإسلام والعولمة"** سلسلة فكر المواجهة، رقم (10) رابطة الجامعات الإسلامية، 2004.

43- جعفر عبد السلام: **نحو بلورة معاصرة للعلاقة بين الإسلام والآخر**، 2004.

44- جمال البنا: **الإسلام كما تقدمه دعوة الإحياء الإسلامى**، القاهرة، دار الفكر الإسلامى، 2004.

45- جمال عبد الناصر: **الميثاق الوطنى**، القاهرة، الهيئة العامة للاستعلامات، 1962.

46- جهاد عودة: **الإصلاحيون الجدد، تطوير نظام مبارك السياسى**، دار الحرية 2007.

47- جهينة ديب: رياضة الفكر، **مجلة تربويات**، العدد الثانى، وزارة التعليم العالى، المديرية العامة لكليات التربية، كلية التربية بصور، 2001.

48- جوديث ميلر: **الإسلام والغرب آفاق الصدام**، ترجمة مجدى شرشر، القاهرة، مكتبة مدبولى، ط1، 1995.

49- جون ديوى: **المبادئ الأخلاقية فى التربية**، ترجمة عبد الفتاح السيد هلال، الدار المصرية، القاهرة، د.ت .

50- جون رادفورد، كيجل راهايم: **الكم والجودة فى التعليم العالى**، ترجمة سعيد محمود مرسى، سعيد طه محمود، القاهرة، د. ن، 1999.

51- جون ميللر: **الطيف التربوى (توجهات المنهج)**، الرياض، 1995.

52- جين سميث: **فن اتخاذ القرارات الصائبة**، ترجمة مركز التعريب والترجمة، بيروت، الدار العربية للعلوم، 1999.

53- حامد عمار: **ثقافة الحرية والديمقراطية بين آمال الخطاب وآلام الواقع**، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب 2007.

54- حامد عمار: **مشكلات العملية التعليمية، دراسات فى التربية والثقافة**، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1996.

55- حامد عمار: **مواجهة العولمة فى التعليم والثقافة**، سلسلة الفكر 2006م.

56- حسان عبد الله حسان، تقديم: محمد عمارة: **الفكر الإسلامى والنظام العالمى الجديد**، القاهرة، دار الوفاء، 2002.

57- حسن حمدان العلكيم: حقوق الإنسان السياسية فى الإسلام، **قضايا إسلامية معاصرة**، مركز الدراسات الآسيوية، جامعة القاهرة، 1997.

58- حسن شحاتة: **التربية الإسلامية، أسسها ومناهجها فى الوطن العربى**، القاهرة، مركز الكتاب للنشر، 1991.

59- حسن شحاتة: **التعليم دعوة إلى حوار فى الوطن العربى**، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 2006.

60- حسن شحاتة: **تعليم الدين الإسلامى بين النظرية التطبيق**، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، 1996.

61- حسن شحاتة: **مداخل إلى تعليم المستقبل فى الوطن العربى**، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية 2004.

62- حسن شحاتة: نحو تطوير التعليم فى الوطن العربى وبين الواقع المستقبل، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية 2003.

63- حسين كامل بهاء الدين: الوطنية فى عالم بلا هوية تحديات العولمة، القاهرة، دار المعارف، 2000.

64- حسين كامل بهاء الدين: مفترق الطرق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2003.

65- خالد أبو الفضل وآخرون: مكانة التسامح فى الإسلام، القاهرة، مكتبة مدبولى 2006.

66- الدمرداش سرحان، ومنير كامل: المناهج، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1972م.

67- ديفيد رزنيك: أخلاقيات العلم (مدخل)، ترجمة عبد النور عبد المنعم، العدد 316، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطن للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2005 .

68- زكريا إبراهيم: كانط أو الفلسفة النقدية، مكتبة مصر القاهرة، د.ت.

69- سالم البهنساوي: المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، المنصورة، دار الوفاء، ط1، 2002.

70- سامى خشبة: حوار الثقافات، القاهرة، مكتبة الأسرة 2002.

71- ستانيلاف جروف، وهال زينا بينيت: العقل المحيط (ترجمة ثائر ديب) القاهرة، دار العين للنشر، 2005م.

72- سعد الدين السيد صالح: القروض والمنح الأجنبية "المشكلة – والحل الإسلامي"، ندوة التحديات التى تواجه الأمة الإسلامية فى القرن المقبل، العين، جامعة الإمارات، بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية، من 20– 22 ديسمبر 1997، الجزء الثانى.

73- سعيد إسماعيل على: **الأصول الإسلامية للتربية**، القاهرة، دار الفكر العربى، 1992.

74- سعيد إسماعيل على: **التعليم على أبواب القرن الحادى والعشرين**، القاهرة، عالم الكتب، 1998.

75- سعيد إسماعيل على: **التعليم والتنشئة السياسية**، القاهرة، عالم الكتب، 2003.

76- سعيد إسماعيل على: **بحوث فى التربية الإسلامية**، القاهرة، مركز التنمية البشرية والمعلومات، 1987 .

77- سعيد إسماعيل على: **ثقافة البعد الواحد**، عالم الكتب، القاهرة، 2003.

78- سعيد إسماعيل على: **رؤية سياسية للتعليم**، القاهرة، عالم الكتب، 1999.

79- سعيد إسماعيل على: **فقه التربية**، دار الفكر العربى، القاهرة، 2001.

80- سعيد إسماعيل على: **مستقبل التعليم ما قبل الجامعى فى مصر**، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، الأهرام، 1999.

81- سعيد إسماعيل على: **نحو نظام جديد لصناعة الإنسان العربى**، **دراسات تربوية**، المجلد السابع، الجزء 39، رابطة التربية الحديثة، القاهرة، 1992.

82- سعيد محمود عطية: مناخ الإبداع فى كليات التربية، دراسة ميدانية، **مجلة التربية والتنمية**، العدد (14)، السنة الخامسة، سبتمبر 1998، المكتب الاستشارى للخدمات التربوية، القاهرة، 1998 .

83- سعيد محمود مرسى: الإبداع وشروطه ومكوناته، **مجلة تربويات**، العدد الأول، وزارة التعليم العالى، كلية التربية بصور، 2001.

84- سميح عاطف الزين: **لمن الحكم لله أم للإنسان للشرع أم للعقل**، بيروت، دار الكتاب اللبنانى، 1984.

85- سمير مرقص: **الآخر .. الحوار .. المواطنة**، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية 2005.

86- سيد أحمد عثمان: **التحليل الأخلاقى للمسئولية الاجتماعية**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1996.

87- السيد عبد العزيز البهواش: **دور التربية الإسلامية فى تنمية الشخصية القومية المصرية المواجهة مخاطر النظام العالمى الجديد، مؤتمر التربية الدينية وبناء الإنسان المصرى**، كلية التربية، جامعة المنصورة، 21 – 22، ديسمبر 1993.

88- سيد قطب: **خصائص التصور الإسلامى ومقوماته**، القاهرة، دار الشروق، 2002.

89- السيد محمد دعدور: **المنهج الدراسى وبناء الإنسان العربى**، المنصورة، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع 2002م.

90- السيد يسين: **الشخصية العربية بين مفهوم الذات وصورة الآخر**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2005.

91- سيف بن ناصر بن على المعمري: **تربية المواطنة**، سلطنة عمان، مكتبة الجيل الواعد 2006.

92- شبل بدران، حسن البيلاوى، كمال نجيب: **التنمية الثقافية والتنوير**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2006.

93- شوكت محمد عليان: **الثقافة الإسلامية وتحديات العصر**، دار الشواف، ط2، 1996.

94- صالح ذياب هندي: **دراسات فى الثقافة الإسلامية**، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، 1984.

95- صلاح الدين حافظ: **تزييف الوعى أسلحة التضليل الشامل**، القاهرة، دار سطور، 2004.

96- صمويل هتنجتون: **صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمى**، ترجمة طلعت الشايب، القاهرة، سطور، 1998.

97- ضياء الدين زاهر: **كليات التربية والإبداع مجلة دراسات تربوية**، رابطة التربية الحديثة، الجزء (70) المجلد العاشر، 1994.

98- طارق البشرى: **فى المواطنة والانتماء والدولة، منهج النظر فى تشكيل الجماعة السياسية**، الكتب وجهات نظر، العدد 70، السنة السادسة، القاهرة، الشركة المصرية للنشر، نوفمبر 2004.

99- طلعت عبد الحميد: **التنمية الذهنية لمعلم المعلم وإشكاليات ما بعد الحداثة، مؤتمر كليات التربية الحادث والمستقبل**، المؤتمر الخامس عشر، رابطة التربية الحديثة، 17، 18 يوليو، القاهرة، 2000 .

100- طلعت عبد الحميد: **العولمة ومستقبل تعليم الكبار فى الوطن العربى**، القاهرة، دار فرحة للنشر والتوزيع 2004.

101- عادل العوا: العمدة فى فلسفة القيم، دمشق، دار طلاس، 1986.

102- عادل ريان: **اتخاذ القرارات وحل المشكلات، مشروع تنمية أعضاء هيئة التدريس والقيادات FLDP** ، القاهرة، وزارة التعليم العالى، 2006.

103- عاطف العراقي: **الفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل**، رؤية نقدية عقلية، دار الرشاد، القاهرة، 1998.

104- عبد الباسط عبد المعطى: **التعليم وتزييف الوعى الاجتماعى دراسة فى استطلاع مضمون بعض المقررات الدراسية مجلة العلوم الاجتماعية**، العدد 4، المجلد 12، الكويت، جامعة الكويت، 1984.

105- عبد التواب مصطفى: **العلاقات الدولية والسياسية الخارجية فى الإسلام**، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية 1999م.

106- عبد الحكيم بدران: **فلسفة المقاومة، التربية والمقاومة، مركز الحضارة العربية،** القاهرة، 2005.

107- عبد الرحمن الإبراهيم، طاهر عبد الرازق: **تصميم المناهج وتطويرها،** القاهرة، دار النهضة العربية، 1996م.

108- عبد الستار إبراهيم: **الإبداع قضاياه وتطبيقاته،** كتاب التأصيل، القاهرة، جماعة التأصيل الأدبى والفكرى، 1999.

109- عبد الستار الهيتي: **الحوار: الذات والآخر،** قطر، كتاب الأمة، 1425هـ.

110- عبد العزيز الخياط: الإسلام دين السلام "مفهوم السلام والحرب فى الإسلام"، **المؤتمر العام العاشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية "الإسلام والقرن الحادى والعشرون"**، المنعقد القاهرة، وزارة الأوقاف، من 2-5 يوليه 1998.

111- عبد العزيز بن عثمان التويجري: **الحوار من أجل التعايش،** القاهرة، دار الشروق 1968.

112- عبد الغنى باره: **إشكالية تأصيل الحداثة،** القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2005.

113- عبد القادر حسن خليفة: **مستقبل التعليم العربى فى عصر العولمة،** فلسفات غائبة وتحديات غالبة، دراسة نقدية، مكتب التربية العربى لدول الخليج، الرياض، 2005.

114- عبد القادر حسن خليفة، رقية محمد عبد الله: دور التعليم فى تغييب الوعى السياسى دراسة حالة، **مجلة مستقبل التربية العربية،** العدد 26، المجلد الثامن، القاهرة، المكتب الجامعى الحديث، يوليو 2002.

115- عبد الكريم بكار: **العولمة طبيعتها – وسائلها، تحدياتها، التعامل معها**، عمان، دار الإعلام للنشر والتوزيع، 2001.

116- عبد الكريم حسن بلال: **أخلاقنا الإسلامية**، القاهرة، كلية الدعوة الإسلامية، جامعة الأزهر، ط1، 2005.

117- عبد الكريم عثمان: **معالم الثقافة الإسلامية**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط18، 1996.

118- عبد الله شلبي: **الأصوليات الدينية جدلية التنوع والصراع والوحدة**، القاهرة، مركز المحروسة للنشر 2005.

119- عبد الله عبد الدائم: **عطاء المثقف العربى وضغوط المجتمع**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995.

120- عبد الله مبروك النجار: **الانتماء فى ظل التشريع الإسلامى**، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، 1988.

121- عبد الله هدية: الإعلام وخطاب إسلامى معاصر، **الإسلام .. وتطوير الخطاب الدينى، سلسلة فكر المواجهة** (3)، رابطة الجامعات الإسلامية، ط1، 2002.

122- عبد المالك التميمى: بعض إشكاليات الثقافة والنخبة المثقفة فى مجتمع الخليج العربى المعاصر، **مجلة المستقبل العربى**، العدد 134، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990.

123- عبد الواحد وافي: **حقوق الإنسان فى الإسلام**، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط5، 1979.

124- عدنان الأمين: **سوسيولوجيا الفرص الدراسية فى العالم العربى**، شركة المطبوعات، بيروت، 1993.

125- عزمى طه السيد وآخرون: **الثقافة الإسلامية "مفهومها – مصادرها – خصائصها مجالاتها"**، عمان الأردن، دار المناهج للنشر، ط5، 2003.

126- عزيز حنا داود: **التربية النضالية ضرورة للشعب العربى**، فى مجلة التربية المعاصرة، العدد العاشر،مركز التنمية البشرية والمعلومات، الجيزة، 1988.

127- عصام الدين هلال، محمد المنوفي: **التنشئة السياسية للطفل المصرى**، الدولة والمواطن، سلسلة الدراسات التربوية، دار فرحة، القاهرة، 2003.

128- عصام عبد الله: **التسامح**، القاهرة، مكتبة الأسرة 2006.

129- على أحمد مدكور: **منهج التربية فى التصور الإسلامى**، القاهرة، دار الفكر العربى، ط1، 2002.

130- على أسعد وطفة، **بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوى فى الوطن العربى**، ط 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000.

131- على جمعة: الحدود فى الإسلام، **"حقائق الإسلام فى مواجهة شبهات المشككين"** المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 2002.

132- على سيد الصاوى (مترجم) نظرية الثقافة، **عالم المعرفة**، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والأدب ، الكويت، 2002.

133- على عبد الرحمن باعلوي: **الثقافة الإسلامية**، تعز، (الجمهورية اليمنية) الجزيرة للطباعة والنشر، 2003.

134- على فايز الجحني: الحماية الأمنية لحقوق الإنسان **"حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي"**، مركز الدراسات والبحوث الأكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية، 2001، الجزء الثانى.

135- على ليلة: **الطفل والمجتمع، التنشئة الاجتماعية وأبعاد الانتماء الاجتماعى**، الإسكندرية، المكتبة المصرية، 2006.

136- عمر عبد الواحد: **التاريخ المؤول وجدل الأنا والآخر فى القصيدة العربية**، الدار المصرية اللبنانية 2003.

137- فاخر عاقل: **الإبداع وتربيته**، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

138- فاروق حيدر: **الثقافة الإسلامية**، صنعاء، مركز عيادى للطباعة والنشر، 2003.

139- فاطمة الزهراء سالم محمود: **مفهوم الهوية الثقافية وتداعياته فى الفكر التربوى المصرى المعاصر**، دراسة نقدية، رسالة دكتوراه الفلسفة فى التربية (غير منشورة) كلية التربية جامعة عين شمس، 2007م.

140- فايز مراد مينا: **التعليم فى مصر، الواقع والمستقبل**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 2001م.

141- فتحى عبد الفتاح: **الثقافة والعولمة**، ثقافة المقاومة، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2003.

142- فريد زكريا: **مستقبل الحرية، الديمقراطية غير الليبرالية فى الوطن والخارج**، القاهرة، الأهرام للترجمة والنشر 2006.

143- كايد قرعوش وآخرون: **الثقافة الإسلامية: مفهومها – مصادرها – خصائصها ومجالاتها**، عمان الأردن، دار المناهج للنشر، ط5، 2003.

144- كتب فيكتوريا دانيلز: **مدركات النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى**، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة 2001.

145- كلية الآداب: **الآخر فى الفكر اليهودى**، جامعة عين شمس 2005.

146- كلية الآداب: **جدلية الذات والآخر فى الثقافة العربية**، القاهرة، مركز الدراسات الإنسانية والمستقبليات 2002.

147- كلية دار العلوم: **الإسلام وحوار الحضارات**، القاهرة، قسم الفلسفة الإسلامية 2000.

148- كمال نجيب: الفكر السياسى والتربوى للمعلم المصرى، التربية والسياسة، **مجلة التربية المعاصرة**، العدد العاشر، مركز التنمية البشرية والمعلومات، القاهرة، 1988.

149- كمال نجيب: دور المدرسة فى تشكيل الوعى السياسى للطلاب، **مجلة التربية المعاصرة**، العدد 16، السنة السابقة، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 1990.

150- مؤتمر الدوحة: **الحوار الإسلامى المسيحى**، القاهرة، دار المستقبل العربى 2004م.

151- المؤتمر العربى الأوروبى للحوار بين الثقافات: **الحوار الثقافى العربى الأوروبى، متطلباته وآفاقه**، باريس يوليو 2002.

152- مأمون صالح الساكت وعطا الله خضر أبو كف: **الثقافة الإسلامية "الإسلام وقضايا العصر"**، عمان، الأردن، مكتبة المجتمع العربى للنشر، ط2، 2004.

153- ماجد عرسان الكيلانى: **اتجاهات معاصرة فى التربية الأخلاقية**، عمان، دار البشير، 1991.

154- ماجد مصطفى: **فصول ومقالات فى جدلية الذات والآخر**، القاهرة، دار الكرز 2005م.

155- مايكل كاريذرس: **لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟** الكويت، عالم المعرفة 1998.

156- مجدى عبد الكريم حبيب: **دراسات فى أساليب التفكير**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1995.

157- محسن الخضيري: **تنمية المهارات التفاوضية**، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية 1993.

158- محسن خضر: استجابة التربية العربية لتحولات الهوية الثقافية تحت ضغوط

العولمة، **مجلة التربية وعلم النفس**، العدد 30، الجزء الأول، القاهرة، كلية التربية، جامعة عين شمس، 2006.

159- محمد إبراهيم المنوفى، ياسر مصطفى الجندي: **التربية وتنمية الهوية الثقافية فى ضوء العولمة**، المؤتمر العلمى السنوى بكلية التربية بدمياط بعنوان التعليم والمجتمع من الفترة من 25 – 26يونيو 2003.

160- محمد إبراهيم مبروك: **الإسلام والعولمة**، القاهرة، الدار القومية العربية، ط2، 1999.

161- محمد أبو يحى وآخرون، **الثقافة الإسلامية "ثقافة المسلم وتحديات العصر"**، عمان الأردن، دار المناهج، ط3، 2002.

162- محمد أحمد العجاتى: **أزمة الهوية فى الفكر السياسى العربى**، رسالة ماجستير، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 2001 .

163- محمد أحمد حسين: **نموذج مقترح لإعداد معلم المدرسة الثانوية**، المؤتمر القومى لتطوير إعداد المعلم وتدريبه ورعايته، المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية، القاهرة، 14 – 24 أكتوبر، 1996.

164- محمد الأنصاري: عرض كتاب مدارس تعليم التفكير، **مجلة مستقبل التربية العربية**، العددان 18: 19، المجلد الخامس، مركز ابن خلدون للدراسات الانتمائية، 1999.

165- محمد الجوهرى حمد الجوهرى **العولمة والثقافة الإسلامية**، القاهرة، دار الأمين، 2002.

166- محمد الجوهرى حمد الجوهري: **الثقافة العربية والحضارة الإسلامية**، القاهرة، دار الأمين، 1998.

167- محمد السعيد الأودن: **الإسلام وحقوق الإنسان**، دراسات إسلامية للقضايا المعاصرة، 2004.

168- محمد الغزالي: **حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة**، دار الدعوة، ط5، 2002.

169- محمد الهادى عفيفى: **فى أصول التربية**، القاهرة، الأنجلو المصرية، 1974.

170- محمد عابد الجابري: **فى نقد الحاجة إلى الإصلاح**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005.

171- محمد على التسخيرى، الأحداث الإرهابية تداعياتها والموقف الإنسانى المطلوب، **الإسلام فى مواجهة الإرهاب، سلسلة فكر المواجهة**، رابطة الجامعات الإسلامية، العدد (8)، ط1، 2003.

172- محمد عمارة: **الإسلام وضرورة التغيير**، القاهرة، دار المعارف سلسلة اقرأ 2001م.

173- محمد عمارة: **مخاطر العولمة على الهوية الثقافية**، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، 1999.

174- محمد عمر الحاجي: **العولمة أم عالمية الشريعة؟**، دمشق، دار المكتبى، 1999.

175- محمد عمر الحاجي: **عولمة الإعلام والثقافة**، سوريا – دمشق، دار الكتبى، ط1، 2002.

176- محمد قطب: **مناهج التربية الإسلامية**، القاهرة، دار الشروق، 2004.

177- محمد محمد سكران: **العولمة والهوية الثقافية، العولمة والثقافة العربية** "رؤية نقدية"، القاهرة، دار قباء، 2003.

178- محمد منير مرسى: **الإصلاح والتجديد التربوى فى العصر الحديث**، عالم الكتب، القاهرة، 1992.

179- محمود أحمد السيد: **فى قضايا التربية المعاصرة**، دمشق، دار الندوة للدراسات والنشر، 1992.

180- محمود حمدى زقزوق: **إعادة بناء الثقة بين العالم الإسلامى والغرب**، القاهرة، المجلى الأعلى للثقافة 2005.

181- محمود حمدى زقزوق: **الإسلام والغرب**، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية 2005.

182- محمود حمدى زقزوق: **الإسلام والمسيحية، إمكانات التفاهم والتعاون بين الجانبين**، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة 2005.

183- محمود حمدى زقزوق: **الإسلام وقضايا الحوار**، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية 2004.

184- محمود حمدى زقزوق: **الحوار الإسلامى المسيحى**، القاهرة، المجلى الأعلى للثقافة 2005.

185- محمود خليل أبودف: **مقدمة فى التربية الإسلامية**، غزة الجامعة الإسلامية 2004.

186- محمود شلتوت: **الإسلام عقيدة وشريعة**، القاهرة، دار الشروق، 2001.

187- محمود شمال حسن: **الخطاب العربى وإشكالية تشكيل السلوك، وظائف التربية**، شؤون عربية، العدد 115،، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القاهرة، 2003.

188- المركز العام للدراسات والبحوث والإصدار: **الأصوليات الدينية وحوار الحضارات**، صنعاء يونيو 2002.

189- مصرى عبد الحميد حنورة: **الإبداع وتنميته من منظور تكاملى**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 2003م.

190- مصطفى إسماعيل بغدادي: **حقوق المرأة المسلمة فى المجتمع الإسلامى**، الرباط، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1991.

191- مصطفى سويف: **الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة**، القاهرة، دار المعارف، 1959.

192- مقداد يالجن: **التربية الأخلاقية الإسلامية**، الرياض، عالم الكتب، ط 1996، 2.

193- مكتب التربية العربى لدول الخليج: **تعليم المواطن الأمريكى**، الرياض، قسم التربية 1995.

194- ممدوح سالم: **الديمقراطية الطريق للتنمية والاستقرار**، قطر، دار المستقبل العربى 2003.

195- ميشيل توماسيللو: **الثقافة والمعرفة البشرية**، عالم المعرفة، العدد 328، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006.

196- نادية شريف العمري: **أضواء على الثقافة الإسلامية**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط9، 1998.

197- نبيل عبد الفتاح وآخرون: **المنظمات الأهلية العربية والحكومية قضايا وإشكاليات وحالات**، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة، 2004.

198- نبيل علي: **الثقافة العربية وعصر المعلومات**، الكويت، عالم الكتب، 2001.

199- نجيب بلدي: **مراحل الفكر الأخلاقى**، دار المعارف، القاهرة، 1962.

200- نخلة وهبة: **رعب السؤال وأزمة الفكر التربوى**، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2001 .

201- نخلة وهبة: **كى لا يتحول البحث التربوى إلى مهزلة**، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، 1998.

202- نخلة وهبة: **مسألة النوعية فى التربية**، نوفل للتوزيع والنشر، بيروت، 2003.

203- نل نودينجز: **تعليم بلا دموع، السعادة والتربية**، ترجمة فاطمة نصر، القاهرة، دار سطور، 2007.

204- هناء عودة خضري: **إطار فكرى تربوى مقترح للتعليم الإلكترونى**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، قسم أصول التربية، جامعة عين شمس، 2007 .

205- وحيد عبد المجيد: **ثقافة العنف فى العالم العربى**، القاهرة، مكتبة الأسرة 2006.

206- وزارة التربية والتعليم: **المعايير القومية للتعليم فى مصر**، القاهرة، مطابع الأهرام التجارية، المجلد الأول، 2003م.

207- وزارة المعارف: **صورة العرب فى مناهجهم الدراسية من يغيرها: نحن أم هم**، مجلة المعرفة، المملكة العربية السعودية، يناير 2003.

208- وليد كساب: بين الإرهاب والمقاومة المشروعة، **الإسلام فى مواجهة الإرهاب، سلسلة فكر المواجهة (8)**، رابطة الجامعات الإسلامية، ط1، 2003.

209- ياسر مصطفى الجندي: رؤية طلاب كلية التربية لفلسفة تكوين المعلم فى ضوء تحديات القرن الحادى والعشرين (دراسة إثنوجرافية)، **مجلة كلية التربية**، ببنها، عدد إبريل 1999.

210- ياسر مصطفى على الجندى، السيد محمد عبد الله خلف: **مؤتمر فلسفة تكوين معلم المبدعين فى ضوء تغيرات العصر، رؤية مستقبلية**، المنعقد فى الفترة من 25 – 26 يونيو، 2003، بكلية التربية، جامعة المنصورة.

211- يوسف القرضاوي: **الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001.

212- يوسف القرضاوي: **المسلمون والعولمة**، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، 2000.

213- يوسف القرضاوي: **ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق**، القاهرة، دار الشروق، ط 1، 2000.

214- يوسف القرضاوي: **خطابنا الإسلامى فى عصر العولمة**، القاهرة، دار الشروق، ط1، 2004.

ثانيًا- المراجع الأجنبية:

215- Adriana Araujo De Souza Esilva, " **From Multiuser Environments As (Virtual) Spaces To (Hybird) Spaces As Multiuser Environments"** Ph.D. Dissertation ,Rio de Janeiro, Federal University of Rio de Janeiro, School of Communications ,2004.

216- Andrew Ravenscroft, "Designing E-Learning Interactions in the 21St Century: Revisiting and Rethinking the Role of Theory", **"European Journal of Education"**, Vol. (36), Issue (2), 2001.

217- Barbara J. Klopfenstein, **"Empowering Learners: Strategies for Fostering Self-Directed Learning"**, M.A. Thesis، Alberta, University of Alberta , Department of Elementary Education, 2003.

218- Barney Dalgarno , "Constructivist Computer Assisted Learning: Theory and Techniques", a paper presented at **"The (ASCILITE) Conference"**, Adelaide, (Australia), University of South Australia, Dec. 2-4, 1996.

219- Barry Wellman and Milena Gulia, "Net Surfers Don't Ride Alone: Virtual Communities as Communities", in Peter Kollok and Mark Smith (Eds.): **"Communities and Cyberspace"**, New York, Routledge, 1999.

220- Berman Sheldon: The Development of Social Responsibility, Ph.d, Harvard University, U. S. A. 1993.

221- Bignell, J, an introduction to television sudies, London: Rutledge, 104, 2004.

222- Biswanath Dutta, "Semantec Web Based E- Learning", a paper presented at the proceedings of **"The DRTC Conference on ICT for Digital Learning Environment"**, Bangalore, Jan., 2006.

223- C. Candace Chou,"Model of Learner- Centered Computer-Mediated Interaction for Collaborative Distance Education" in Simonson, Michael; Crawford, Margaret and Lamboy, Carmen (Eds.). **"Annual Proceedings of the National Convention of the Association for Educational Communications and Technology"**, Georgia، Association for Educational Communications and Technology, May 8-10, 2001.

224- Carolyn Nobes" , **Shifting to The Third Generation: Open and Distance Education at a Mixed Mode Institution",** M. A. Thesis, Canada, Mount Saint Vincent University, Department of Education, 1997.

225- Chang S . Nam, **"A Theory – Based Integrated Design Process for Development and Evaluation of Web – Based Supplemented Learning Environment",** Ph.D. Dissertation, Virginia, Faculty of the Virginia Polytechnic Institute and State University, Industrail and Systems Engineering Department , 2003.

226- Chih – Hsung Tu, " The Impacts of Text – Based CMC Online Social Presence", **The Journal of Interactive Online Learning",** Virtual Center for Online Learning Research ,Vol . (1) , No . (2) , fall 2002.

227- Christine Mulhollen, **"The Relationship between Multiple Intelligences and Attitude Toward Independent learning in a High Transactional distance Environment",** Ph.D. Dissertation, Pennsylvania, Pennsylvania State University, 2006.

228- D. Bell, **"An Introduction to Cybercultures"**, London and New York, Routledge, 2001.

229- Darrell L. Cain, **The Explained Effects of Computer Mediated Conferencing on Student Learning Outcomes and Engagement"**, Ph. D. Dissertation, Virginia, Faculty of Virginia Polytechnic Institute and State University, 2005.

230- David Carr: **Contemporay Problems of Moral Education**, Routledge, LOndon, 1999.

231- Demetna L. Ennis-Cde, Emerging Theories of Learning and Preservice Teachers, in Leslie Moller, Greg Jones and Kaye Shelton (Eds.). **"Proceedings of the Association for Educational Communication and Technology Conference on Emerging Technologies and Theories for Teaching and Learning"**, Denton (Texas), University of North Texas, 2004.

232- Erikson, E.H, Identity, Youth, and Crisis, Norton, New Yourk, 1968.

233- Eun Sook Kwon, **"A new Constructivist Learning Theory for Web – Based Design Learning with its Implementation and Interpretation for Design Education"**, Ph. D. Dissertation , Ohio, Ohio State University ,Department of Art Education, June, 2004.

234- Forrest E. McFeeters, **"The Effects of Individualism VS. Collectivism on Learner`s Recall, Transfer and Attitudes Toward Collaboration and Individualized Learning"** Ph.D. Dissertation, Virginia, Faculty of the Virginia Pollytechnic Institute and State University, Curriculum and Instruction Department, 2005.

235- Francis Fukuyama, **The West Has Won: Radical Islam Cant beat democracy and capitalism**. We re still at the end of history, The Guardian, issue: 11/10/2002.

236- Glonzer, Perry: The Teaching of ethics in Higher Education, An Examination of General Education Requirements, **Journal of General Education**, Vol. (53). No. (3), Pen state University Press, U. S. A, 2004.

237- Helena Felicity Paulo," **Information Overload in Computer-Mediated Communication and Education: Is There Really Too Much Information? Implications for distance education"**, M.A.thesis, Toronto, University of Toronto, Ontario Institute for Studies in Education, 1999.

238- Hill Adam. L, Ethics Education: **Recommendations For an Evolving Discipline**, Incounselling and Values Journal. Vol. 48, No. 3, Apr 2004, American Counseling Association, U.S.A., 2004.

239- Hopkins, D. and et, Al., **Improving The Quality Of Education For all**, London Davie Falton Publishers, 1996.

240- Hornby, A. S. **"Oxford students Dictionary of Current English"** London, Oxford University press, 1978.

241- J . Michael Bolcher & Gary Tuchher, "Using Constructionist Principals in Designing and Integrating Online Collaborative Interactions , in Frank Fuller & Ron Mcbride (Eds.): **"Proceedings of Society for Information Technology & Teacher Education International Conference"**, Orlando , (Florida) , March 5 – 10, 2001.

242- J. Diana Muir, "Adapting Online Education to Different Learning Styles, A paper presented at **"The 22 nd National Educational Computing Conference Proceedings," Building on the Future"**, Chicago , June 25 ,2001.

243- James S. Dwight,"**Hyperpedagogy: Intersections Among Poststructuralist, Hypertext Theory،Critical Inquiry and Social Justice Pedagogies"**, Ph.D. Dissertation, Virginia, Faculty of the Virginia Pollytechnic Institue and State University, 2004.

244- Jiyeon Lee and Chere C. Gibson, "Developing Self-Direction in an Online Course Through Computer-Mediated Interaction, **"The American Journal of Distance Education"**, Vol.(13), No.(3), 2003.

245- Joseph P. Blath: **Politics and Family Lawyer, In Family Law Sections Magazine** Vol. 14, No.1, Feb 2005, Vicechaing and News Letters Editor, U.S A, 2005.

246- Karen Lazenby, "Technology and Educational Innovation:" **A Case Study Of the Virtual Campus of the University of Pretoria",** Ph.D . Dissertation, South Africa University of Pretoria, Faculty of Education, Department of Teaching and Training Studies, 2002.

247- Keng – Soon Soo; Curt J. Bonk , Interaction: What Does It Mean in Online Distance Education?", a paper presented at **"The World Conference on Educational Multimedia Hypermdia and Telecommunications",** Freiburg ,(Germany), June 20, 1998.

248- Kiess, H., **"Statistical Compacte for the Behavioral Science"** London Syndey Toronto, Aallyn AND Bacom, 1989.

249- Marios Miltiadou and S.Maria McIsaac,"Problems and Practical Solution of web- Based Courses :Lessons Learned from Three Educational Institutions, a paper presented at **"The 11th International Conference of Society for Information Technology & Teacher Education",** San Diego, 2001.

250- Mark Halstead And Terence; **Education in Morality**, Routledge, U. S. A, 1999.

251- Mary Thrope, "Rethinking Learner Support: the Challenge of Collaborative Online Learning", a paper presented at **(SCROOL); A Networked Learning Symposium،** Galasgow, University of Galasgow,
Jan 11 – 14, 2001.

252- Michael Moore," Three Types of Interaction", (Editorial), **"The American Journal of Distance Education",** Vol. (3), No. (2), 1999.

253- Mike featherstone, Scott Lash and Ronald Robertson, Global Modernities, London. Sage, 1995.

254- Miyoung Lee, " An Instructional Desgin Theory for Interaction in Web – Based Learning Environment ", in Michael Simonson , Marqaret Crawford and Carmen Lamboy (Eds). " **Annual Proceedings of the National Convention of the Association for Educational Communications and Technology",** Georgia, Association for Educational Communications and Technology , 2001.

255- Mohamed Ally, " Foundations of Educational Theory for Online Learning" in Terry Anderson, and Fathi Elloumi (Eds.). " **Theory and Practice of Online Learning",** Alberta, Athabasca University Press, 2004.

256- Mohamed Ally," Using Learning Theories to Desgin Instruction for Mobile Learning Devices", in Jill Attewell and Carol Savill – Smith (Eds.). **"Mobile Learning Anytime Everywhere",** London, Learning and Skills Development Agency, 2005.

257- Morten Flate Pualsen, " The Hexagon of Cooperative Freedom: A Distance Education Theory Attuned to Computer Conferencing" **The American Journal of Distance Education**", Vol. (3) , No. (2), 1993.

258- Odding, G, The future of satellit communications (west view press-san Francisco & Oxford), 1990.

259- Perkins, D,: Smart School, From Training To Education mind, the Free Press New Yourk, 1992.

260- R. Reiser, " What Field Did You Say You Were in? Defining and Naming Our Field, in R. Reiser and J. Dempsey (Eds.). " **Trends and Issues in Instructional Design and Technology",** (New Jersey, Prentice Hall, 2002).

261- Roland Robertson: **Global Culture, California, Newbary park,** Globalization: Social Theory and, 1992.

262- Ronnie. Z. I. **"human needs assessment instrument-Maslow's sastem of needs as construct for counseling colleges students"**, Dissertation abstracts International, Vol: 42, N, 9, (3876 - A), 1981.

263- Samuel P Huntington, **The Clash of Civilizations And the remaking of world order,** New York: Simon & Schuster. 1996.

264- Samuel P. Huntintion: **The clash of civilizations and the remaking of world,** simon & Schuster 1230 Avenue of the Americas, New York 1996.

265- Soonkyoung Youn, **"Situated Learning in Cyberspace: A study of an American Online School",**_Ph.D. Dissertation, Ohio, Ohio State University, Graduate school, 2005.

266- Steve M. Jenkins Et al.," Matching Distance Education with Cognitive Styles in Various Levels of Higher Education in Frank Fuller & Ron McBride (Eds.): **"Proceedings of Society for Information Technology & Teacher Education International Conference",** Orlando (Florida), 2001.

267- Steve Wheeler," Creating Social Presence in Digital Learning Environments: A Presence of Mind , A featured paper presenteel at **"The (TAFE) Conference",** Queensland, Moolodaba Campus, Nov . 10 – 11, 2005.

268- Susan Johnson: Attachment Process In Couple and Family Therapy, Macmillain Press, New York, 2003.

269- Terry Anderson, "Toward a Theory of online learning", in TerryAnderson , and Fathi Elloumi (Eds.). **"Theory and practice of online Learning",** Alberta, Athabasca University Press, 2004.

270- Terry Evans and Daryl Nation, Globalization and the Reinvention of Distance Education", in Michael Grahame Moore and William G. Anderson (Eds .): **" Handbook of Distance Education "** , New Jersey , Lawrence Erlbaum Associates Publishers , 2003.

271- Walter C . Buboltz Jr . et al., " Learner Styles and Potential Relations to Distance Education in , Frank Fuller & Ron McBride (Eds.) ." **Proceedings of Society for Information Technology & Teacher Education International Conference",** Orlando (Florida), 2001.

272- Wardeker. Willem: **Moral Education and the Construction of Meaning, Educational** Review, Vol (56), No (2), Francis Group Journals, 2004., U. S. A.

273- Wells, A. " **Picture- Tube Imperialism: the Impact of us Television on Latin America** " (Marry Knall – New York), 1972.

274- Wilky Mlickra: **Education For Citizenship, Moralphilosophy in Education**, Conference 22-26 Augest, UNESCO. 1999.

275- Wilson, John: **Practical Methods of Moral Education**, London, Macmillan Press, 1972.

Wolfgang H. Reinicke, **Global public policy**, Washington D. C, Brooking Institute press, 1998.